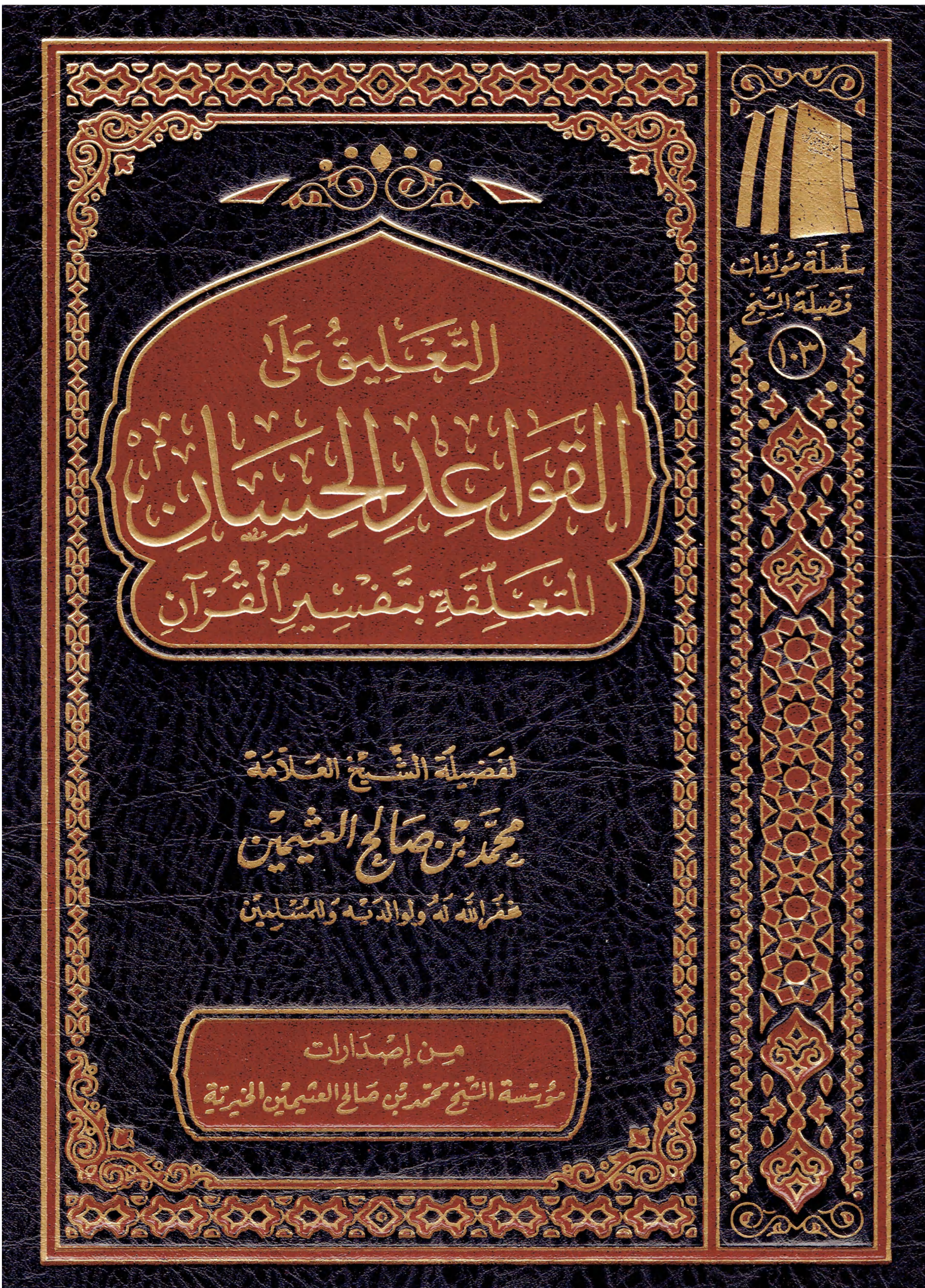
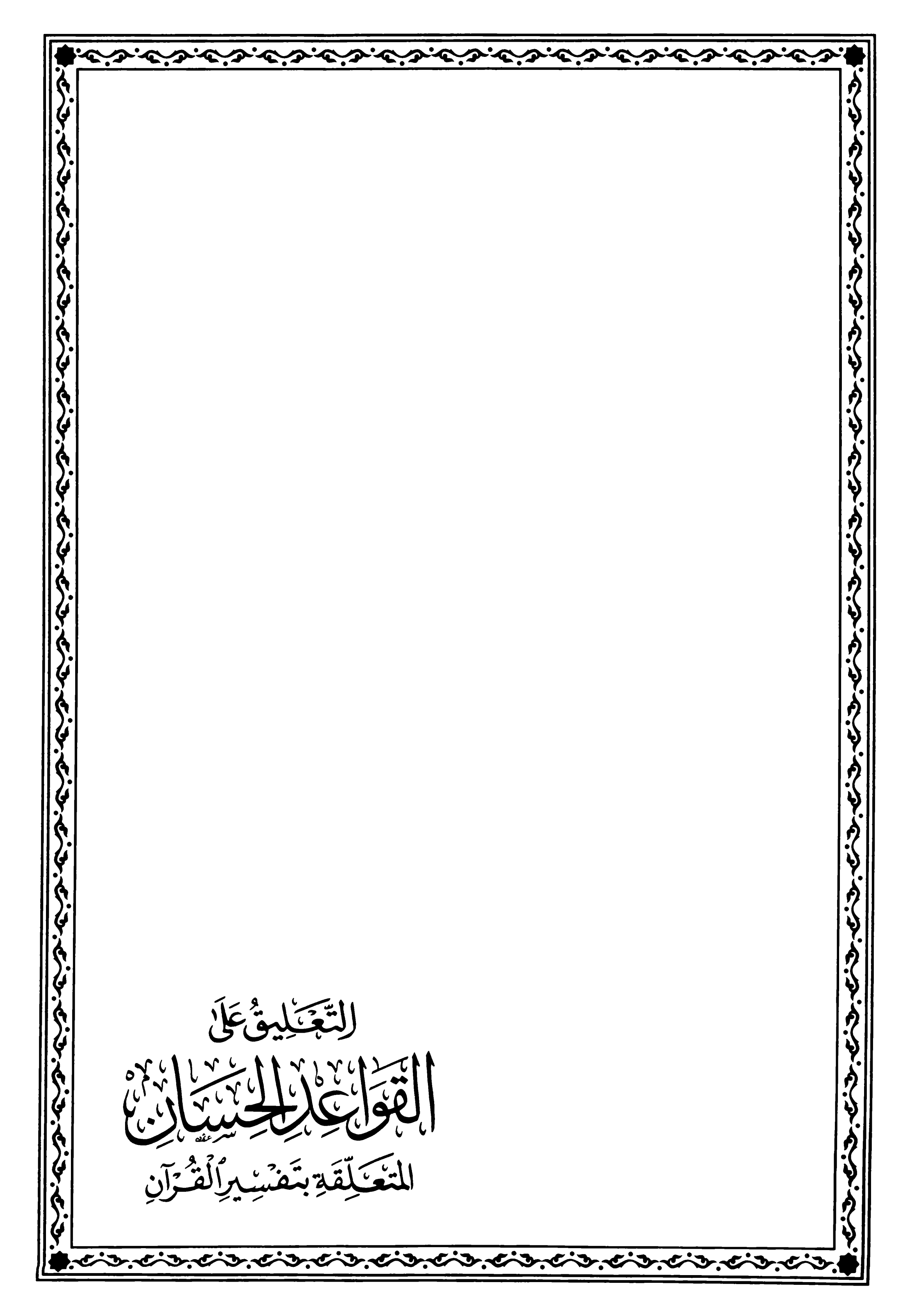

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ
١٠٣
التعليق على
القواعد الحسان
المتعلقة بتفسير القرآن
لفضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين
من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية



التعليق على
القواعد الحسان
المتعلقة بتفسير القرآن

ح مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، ١٤٤٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العثيمين، محمد بن صالح

التعليق على القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن./ محمد بن صالح العثيمين

- ط ٥ - عنيزة، ١٤٤٢هـ

٣٢٧ ص ؛ ١٧×٢٤ سم (سلسلة مؤلفات الشيخ ابن عثيمين؛ ١٠٣)

ردمك: ١-٢٣-٨٣٠٢-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن- مناهج التفسير أ- العنوان

ديوي ٢٢٧.١ ١٤٤٢/٧٩٦٥

رقم الإيداع: ١٤٤٢/٧٩٦٥

ردمك: ١-٢٣-٨٣٠٢-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الخامسة

١٤٤٢هـ

يُطلب الكتاب من:

مُؤَسَّسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحٍ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ



المملكة العربية السعودية

القصيم - عنيزة - ٥١٩١١ ص . ب : ١٩٢٩

هاتف : ٠١٦/٣٦٤٢١٠٧ - ناسوخ : ٠١٦/٣٦٤٢٠٠٩

جوّال : ٠٥٥٣٦٤٢١٠٧ - جوّال المبيعات : ٠٥٠٠٧٣٣٧٦٦

www.binothaimeen.net

info@binothaimeen.com

الموزع المعتمد و الحصري في جمهورية مصر العربية

دار الدُّرَّة الدولية للطباعة و التوزيع

١٣٥ شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - الحي الثامن - بجوار مدارس المنهل الخاصة .

هاتف و فاكس : ٢٢٧٢٠٥٥٢ - محمول : ٠١٠١٠٥٥٧٠٤٤

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٠٣)

التعليق على القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن

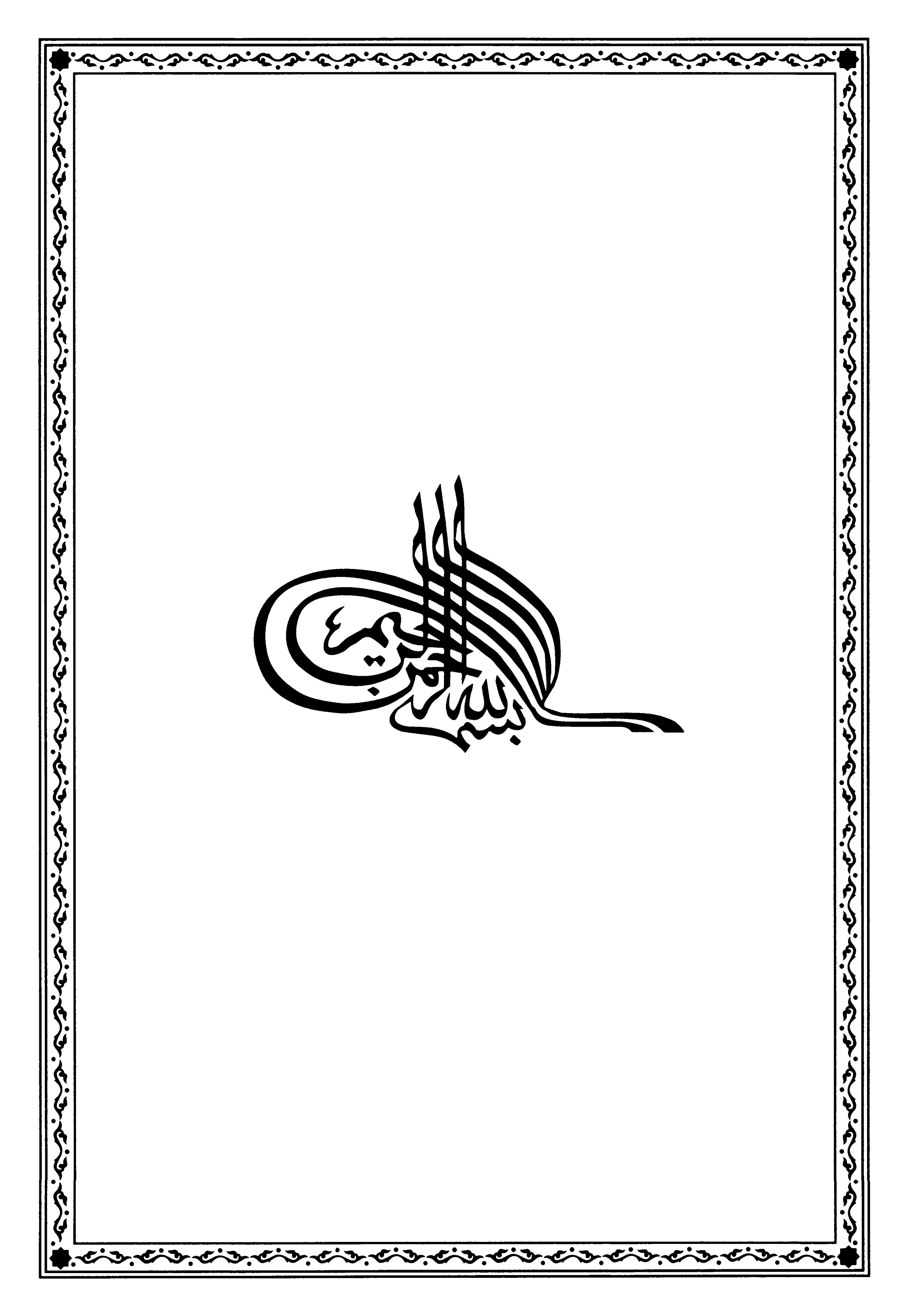
لفضيلة الشيخ العلامة

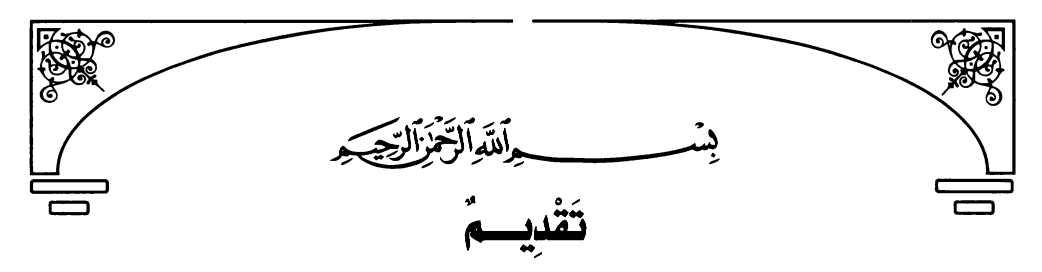
محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات

مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية


بسم الله الرحمن الرحيم



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَقْدِيمٌ

إنَّ الحَمْدَ للهِ، نَحْمَدُهُ ونَسْتَعِينُهُ ونَسْتَغْفِرُهُ، ونَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وسَيِّئَاتِ أعْمالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلا مُضِلَّ لهُ، ومَنْ يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ لهُ، وأشْهَدُ أنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وحْدَهُ لَا شَرِيكَ لهُ، وأشْهَدُ أنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ ورَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ، وعَلَى آلِهِ وأصْحابِهِ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحْسانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وسَلَّمَ تَسْلِيمًا كثيرًا.

أَمَّا بَعْدُ: فلَقَدْ كَانَ مِنْ تَوْجِيهاتِ صاحِبِ الفَضِيلَةِ العلَّامَةِ شَيْخِنَا مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحٍ العُثَيْمِينِ رَحِمَهُ اللَّهُ لطُلَّابِ العِلْمِ، أنْ يُبادِرُوا بالعِنايَةِ والاهْتِمامِ، والسَّعْيِ الحَثِيثِ لإدْرَاكِ حَصِيلَةٍ وافِرَةٍ مِنَ القَوَاعِدِ الكُلِّيَّةِ للعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ، وأصُولِهَا الجامِعَةِ، وضَوَابِطِهَا العامَّةِ الَّتِي قرَّرَهَا أهْلُ العِلْمِ؛ لِتَجْمَعَ الشَّوَارِدَ، وتُبْنَى عَلَيْهَا المسائِلُ، وتُعِينَ عَلَى فَهْمِ كلامِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وكَلامِ رَسُولِهِ ﷺ.

ومِنْ أجْلِ هَـذِهِ الغايَـةِ، قـرَّرَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي حَلْقَتِـهِ العِلْمِيَّةِ تَدْرِيسَ العَدِيدَ مِنْ مُؤَلَّفاتِ الأُصُولِ والقَوَاعِدِ، وقَدْ كَانَ مِنْهَا هَذَا الكِتابُ (**القَوَاعِدُ الحِسَانُ المُتعَلِّقَةُ بتَفْسِيرِ القُرْآنِ**) الَّذِي أَلَّفَهُ عامَ ١٣٦٥هـ شَيْخُهُ الأوَّلُ صاحِبُ الفَضِيلَةِ الشَّيْخُ العلَّامَةُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ نَاصِرٍ السَّعْدِيُّ، تَغَمَّدَهُ اللهُ بواسِعِ رَحْمَتِهِ ورِضْوَانِهِ، وأسْكَنَهُ فَسِيحَ جَنَّاتِهِ، وجَزَاهُ عَنِ الإسْلَامِ والمُسْلِمِينَ خَيْرًا.

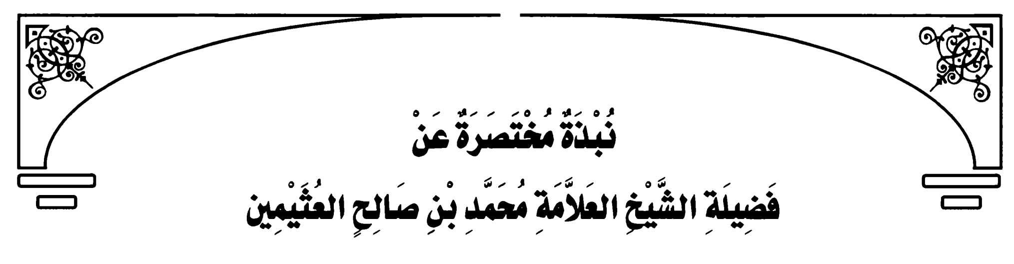
وقَدْ جاءَ هَذَا التَّعْلِيقُ عَلَى الكِتابِ عامَ ١٤٠٧هـ، ضِمْنَ الدُّرُوسِ العِلْمِيَّةِ الَّتِي سُجِّلَتْ صَوْتِيًا، وكانَ يَعْقِدُهَا رَحِمَهُ اللَّهُ فِي جامِعِهِ بعُنَيْزَةَ.

وسَعْيًا لِتعمِيمِ النَّفْعِ بهَذَا التَّعلِيقِ، وإنْفاذًا للقَواعِدِ والتَّوْجِيهَاتِ الَّتِي قرَّرَهَا فَضِيلَتُهُ لإخْراجِ تُراثِهِ العِلْمِيِّ، صَدرَتِ الطَّبعةُ الأُولى عامَ ١٤٣١هـ، وتَتوالَى طَبعاتُه بمَشِيئةِ الله تَعالَى.

نَسْأَلُ اللهَ تَعالَى أنْ يَجْعَلَ هَذَا العَمَلَ خالِصًا لوَجْهِهِ الكَرِيمِ، وأنْ يَجْزِيَ فَضِيلَةَ شَيْخِنَا خَيْرَ الجَزَاءِ، ويُضاعِفَ لَهُ المَثُوبَةَ والأجْرَ، ويُعْلِيَ دَرَجَتَهُ فِي المَهْدِيِّينَ؛ إنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ وبَارَكَ عَلَى عَبْدِهِ ورَسُولِهِ، خاتَمِ النَّبِيِّينَ، وإمامِ المُتَّقِينَ، وسَيِّدِ الأَوَّلِينَ والآخِرِينَ، نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وعَلَى آلِهِ وأصْحابِهِ أجْمَعِينَ، والتَّابِعِينَ لَهُمْ بإحْسَانٍ إلَى يَوْمِ الدِّينِ.

القِسْمُ العِلْمِيُّ فِي
مُؤَسَّسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحٍ العُثَيْمِينِ الخَيْرِيَّةِ
٢٢ شَعْبان ١٤٤٢هـ





نُبْذَةٌ مُخْتَصَرَةٌ عَنْ
فَضِيلَةِ الشَّيْخِ العَلاَّمَةِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحٍ العُثَيْمِين

١٣٤٧ - ١٤٢١ هـ



نَسَبُهُ وَمَوْلِدُهُ:

هُو صاحِبُ الفضِيلةِ الشَّيخُ العالِمُ المحقِّق، الفَقِيه المفسِّر، الوَرِع الزَّاهد، مُحَمَّدُ بْنُ صَالِحِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ آل عُثَيْمِين مِنَ الوهبَةِ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ.

وُلِد فِي ليلةِ السَّابعِ والعِشرينَ مِن شَهرِ رمَضانَ المبارَك، عامَ (١٣٤٧هـ) فِي عُنَيْزَةَ -إِحدَى مُحافَظات القَصِيم- فِي المملَكةِ العَربيَّةِ السُّعُوديَّةِ.

نَشْأَتُه العِلْمِيةِ:

أَلحقَهُ والدُه -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- لِيتعلَّمَ القُرآنَ الكَريمَ عندَ جَدِّه مِن جِهةِ أُمِّه معلِّم القُرآنِ الشَّيْخ عَبْد الرَّحمن بن سُلَيْمان الدَّامِغ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-، ثمَّ تعلَّم الكِتابةَ، وشيئًا مِن الحِسابِ، والنُّصُوص الأَدبيَّة؛ فِي مدرسةِ الأُستاذ عَبْدالعزيزِ بن صالِحٍ الدَّامِغ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-، وذلكَ قبلَ أنْ يَلْتَحِقَ بمَدْرسة معلِّم القُرآنِ الشَّيْخ عليِّ بنِ عَبْدالله الشّحيتان -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- حيثُ حَفِظَ القُرآنَ الكَريمَ عندَه عن ظَهْرِ قَلْبٍ ولَـمَّا يتجاوز الرَّابعةَ عَشْرَةَ مِن عُمُرِه بَعْدُ.

وبتَوْجيهٍ مِن والدِهِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- أَقْبَلَ علَى طلَب العِلم الشَّرعيِّ، وكانَ

فضيلةُ الشَّيْخِ العلَّامةُ عَبْدُ الرَّحمن بنُ ناصرٍ السّعْديُّ[١] -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- يُدرِّس العُلوم الشَّرعيَّة والعَربيَّة فِي الجامِع الكَبِير بعُنَيْزَة، وقَد رَتَّب اثنَيْنِ مِن طَلَبته الكِبار[٢] لِتَدريسِ المُبتدِئينَ مِنَ الطَّلَبة، فانضَمَّ الشَّيْخُ إِلَى حَلقةِ الشَّيْخ محمَّدِ بنِ عَبْد العزيزِ المطوّع -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- حتَّى أَدْرَكَ مِنَ العِلم -فِي التَّوْحِيد، والفِقه، والنَّحو- ما أَدْرَكَ.

ثُمَّ جَلَس فِي حَلقة شَيْخِه العلَّامَة عَبْد الرَّحمن بنِ ناصرٍ السّعْديِّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-، فدرَس عليه فِي التَّفسِير، والحَديث، والسِّيرة النَّبويَّة، والتَّوحِيد، والفِقه، والأُصول، والفَرائِضِ، والنَّحْو، وحَفِظَ مُخْتَصراتِ المُتُونِ فِي هذِهِ العُلُوم.

ويُعَدُّ فضيلةُ الشَّيْخ العلَّامَة عَبْدُ الرحمن بنُ ناصرٍ السّعْديُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-

---

(١) ترجم له الكثيرون، وقد كان على جانب كبير من العلم الغزير والأخلاق الفاضلة وسعة الأفق والعناية البالغة بالتدريس والتأليف، فألّف في التوحيد، والتفسير، والفقه، والحديث، والأصول، والآداب، وغيرها، توفي -رحمه الله تعالى- عام (١٣٧٦هـ).
انظر ترجمته في: علماء نجد خلال ثمانية قرون للبسّام (٣/ ٢١٨-٢٧٣)، روضة الناظرين للقاضي (١/ ٢١٩).

(٢) هما الشَّيْخان:
١- الشَّيخ محمد بن عَبْد العزيز المطوَّع.
لازم شيخه عبد الرحمن السعدي ملازمةً طويلةً، حتى صار أكبر تلامذته، وتولى القضاء بعنيزة، توفي -رحمه الله تعالى- عام (١٣٨٧هـ).
انظر ترجمته في: علماء نجد خلال ثمانية قرون للبسّام (٦/ ٧٨)، روضة الناظرين للقاضي (٢/ ٢٩١).
٢- الشَّيخ علي بن حَمَد الصالحي.
لما رأى شيخه عبد الرحمن السعدي منه المثابرة في التحصيل، أمره أن يجلس لتدريس الصغار من الطلبة، توفي -رحمه الله تعالى- عام (١٤١٥هـ).
انظر ترجمته في: علماء نجد خلال ثمانية قرون للبسّام (٥/ ١٨٠).

هُو شيخَه الأوَّلَ؛ إِذْ أخذ عَنْهُ العِلْمَ -مَعْرفةً وطَرِيقةً- أَكْثَرَ ممَّا أخذ عَنْ غَيرِه، وتَأَثَّر بِمَنْهجِه وتَأصِيلِه، وطَرِيقةِ تَدْرِيسِه، واتِّباعِه لِلدَّلِيل.

وعِندَما كانَ الشَّيْخُ عَبْدُ الرحمن بنُ عليٍّ بن عودانَ[1] -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- قاضيًا فِي عُنَيْزَةَ قرأ عليه فِي عِلم الفَرائضِ، كما قَرأ علَى الشَّيْخ عَبْدِ الرَّزَّاقِ عَفِيفِي[2] -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- فِي النَّحو والبَلاغَة أثناءَ وُجودِه مُدَرِّسًا فِي تِلكَ المَدِينة.

ولَمَّا فُتِحَ المَعْهَدُ العِلْمِيُّ فِي الرِّياضِ أَشارَ عليه بعضُ إِخْوانِه[3] أنْ يَلْتَحِقَ بِهِ، فاستَأْذَنَ شيخَه العلَّامةَ عَبْدَ الرَّحمنِ بنَ ناصرٍ السّعْدِيَّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-، والتَحق بالمَعْهَدِ عامَيْ (١٣٧٢-١٣٧٣هـ).

ولَقَدِ انتفعَ -خلالَ السَّنتَيْن اللَّتَيْن انتظَم فِيهما فِي مَعهدِ الرِّياضِ العِلْمِيِّ- بالعُلماءِ الَّذِين كانوا يُدرِّسونَ فِيه حِينذَاكَ، ومِنْهُمُ: العلَّامَةُ المُفسِّرُ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ الأَمِين الشّنْقِيطِيُّ[4]، والشَّيْخُ الفَقِيه عَبْدُ العزيزِ بنُ ناصرِ بنِ رشيدٍ[5]، والشَّيْخُ

(١) توفي -رحمه الله تعالى- عام (١٣٧٤هـ).
انظر ترجمته في: علماء نجد خلال ثمانية قرون للبسَّام (٣/ ١٣٠)، روضة الناظرين للقاضي (١/ ٢١٥).

(٢) ولد في مصر، وتلقى تعليمه في الجامع الأزهر، وقدم إلى المملكة عام (١٣٦٨هـ)، ودرَّس في مناطق شتَّى من المملكة، ثم اختير عضوًا بهيئة كبار العلماء، توفي -رحمه الله تعالى- عام (١٤١٥هـ).
انظر ترجمته في: علماء نجد خلال ثمانية قرون للبسَّام (٣/ ٢٧٥).

(٣) هو الشَّيْخ علي بن حمد الصَّالحي -رحمه الله تعالى-.

(٤) نشأ وتعلَّم في شنقيط من بلاد موريتانيا، ثم قدم إلى المملكة للحج عام (١٣٦٧هـ)، وتولى التدريس في المعهد العلمي بالرياض، ثم بالمسجد النبوي والجامعة الإسلامية، واختير عضوًا بهيئة كبار العلماء، توفي -رحمه الله تعالى- عام (١٣٩٣هـ).
انظر ترجمته في: علماء نجد خلال ثمانية قرون للبسَّام (٦/ ٣٧١).

(٥) نشأ في الرَّسِّ إحدى محافظات القصيم، ثم انتقل إلى الرياض، ودرَّس بالمعهد العلمي، وتوجه

المُحدِّثُ عَبْدُ الرحمنِ الإفْرِيقِيُّ[(١)] -رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَى-.

وفِي أَثناءِ ذَلكَ اتَّصلَ بسَماحةِ الشَّيْخِ العلَّامةِ عَبْدِ العزيزِ بن عَبْدِ الله بنِ بَازٍ[(٢)] -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-، فقرَأ عليه فِي المسجِد: مِن صَحِيح البُخارِيِّ، ومِن رَسائِل شَيخِ الإسلامِ ابنِ تَيْمِيَّةَ؛ وانتفَع به فِي عِلم الحَدِيث، والنَّظرِ فِي آراءِ فُقهاءِ المَذَاهِب والمُقارَنةِ بينَها، ويُعدُّ سماحةُ الشَّيْخِ عَبْدُ العزيزِ بنُ بازٍ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- هو شَيْخَهُ الثَّانِي فِي التَّحْصِيلِ والتَّأَثُّرِ بِهِ.

ثُمَّ عَادَ إِلَى عُنَيْزَةَ عامَ (١٣٧٤هـ)، وصارَ يَدْرُسُ علَى شَيْخِهِ العلَّامةِ عَبْدِ الرَّحمنِ بنِ ناصرٍ السّعْدِيِّ، ويُتابعُ دِراسَتَهُ انتِسَابًا فِي كُلِّيَّةِ الشَّرِيعَةِ بالرِّياض، الَّتِي أَصْبَحَتْ جُزْءًا مِنْ جامِعَةِ الإمامِ مُحَمَّدِ بنِ سُعُودٍ الإِسْلامِيَّةِ، حتَّى نالَ الشَّهادَةَ العالِيَةَ.

= للوعظ والإرشاد والتدريس بالمسجد الحرام والمعهد العلمي بمكَّة المكرمة، توفي -رحمه الله تعالى- عام (١٤٠٨هـ).
انظر ترجمته في: علماء نجد خلال ثمانية قرون للبسَّام (٣/ ٥٣١).

(١) نشأ في بلاد مالي بأفريقيا، ثم قدم للحج، وجاور بمكة والمدينة، وطلب العلم على علماء المسجد النبوي، ودرَس بدار الحديث بالمدينة النبوية، وعُين مُدرِّسًا بها، توفي -رحمه الله تعالى- عام (١٣٧٧هـ).

(٢) ترجم له الكثيرون، وأفردوا ترجمته في مؤلفات عديدة، تولى قضاء الخَرْج، ثم انتقل إلى الرياض للتدريس في المعهد العلمي ثم كلية الشريعة، إلى أن عُين نائبًا لرئيس الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، ثم رئيسًا لها، ثم مفتيًا عامًّا للمملكة العربية السعودية، ورئيسًا لهيئة كبار العلماء، توفي -رحمه الله تعالى- عام (١٤٢٠هـ).
انظر ترجمته في: روضة الناظرين للقاضي (٣/ ١٤٤).

تَدْرِيسُهُ:

تَوَسَّمَ فِيهِ شَيْخُهُ عَبْدُ الرَّحمنِ بنُ ناصرٍ السّعْدِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- النَّجابَةَ وسُرْعَةَ التَّحْصِيلِ العِلْمِيِّ فشَجَّعَهُ على التَّدرِيسِ وهُوَ ما زالَ طَالِبًا فِي حَلقتِه، فبَدَأَ التَّدرِيسَ عامَ (١٣٧٠هـ) فِي الجامِع الكَبيرِ بعُنَيْزَةَ.

ولَمَّا تخرَّجَ فِي المَعْهَدِ العِلْمِيِّ فِي الرِّياضِ عُيِّنَ مُدَرِّسًا فِي المَعْهَدِ العِلْمِيِّ بعُنَيْزَةَ عامَ (١٣٧٤هـ).

وفِي سَنَةِ (١٣٧٦هـ) تُوُفِّيَ شَيْخُهُ العلَّامةُ عَبْدُ الرَّحمنِ بنُ ناصرٍ السّعْدِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- فتولّى بعدَه إمامَةَ الجامِعِ الكَبيرِ فِي عُنَيْزَةَ، وإمامَةَ العِيدَيْنِ فِيها، والتَّدْرِيسَ فِي مكتبةِ عُنَيْزَةَ الوَطَنِيَّةِ التَّابعةِ لِلجامِعِ؛ وهِي التِي أَسَّسَها شيخُه -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- عامَ (١٣٥٩هـ).

وَلَمَّا كَثُرَ الطَّلَبةُ، وصارَتِ المكتبةُ لا تَكْفِيهِم؛ بدَأ فَضيلتُه -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- يُدرِّسُ فِي المسجِدِ الجامِعِ نَفْسِهِ، واجتمَعَ إِلَيْهِ الطُّلَّابُ وتَوافَدُوا مِنَ المملكَةِ وغيرِها؛ حتَّى كانُوا يَبْلُغونَ المِئاتِ فِي بعضِ الدُّرُوسِ، وهؤلاءِ يَدْرُسُونَ دِراسَةً جادَّةً بهَدَفِ التَّحصيلِ العِلمِيِّ، ولَيسَ لِمُجرَّدِ الاستِماعِ. وبَقِيَ علَى ذَلكَ -إمامًا وخَطيبًا ومُدرِّسًا- حتَّى وفاتِه -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-.

بَقِيَ الشَّيْخُ مُدرِّسًا فِي المَعْهَدِ العِلْمِيِّ مِن عامِ (١٣٧٤هـ) إِلَى عامِ (١٣٩٨هـ) عندَما انتقَلَ إِلَى التَّدرِيسِ فِي كُلِّيَّةِ الشَّرِيعَةِ وأُصُولِ الدِّينِ بِالقَصِيمِ، التَّابِعَةِ لجامِعةِ الإمامِ مُحَمَّدِ بنِ سُعُودٍ الإِسلامِيَّةِ، وظَلَّ أُستاذًا فِيها حتَّى وفاتِه -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-.

وكانَ يُدرِّسُ فِي المسجِد الحَرامِ والمسجِد النَّبويِّ، فِي مَواسِم الحَجِّ ورمَضانَ والإجازاتِ الصَّيْفِيَّة، مُنذُ عامِ (١٤٠٢هـ) حتَّى وفاتِهِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى-.

وَللشَّيْخِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى- أُسلوبٌ تَعْليمِيٌّ فريدٌ فِي جَودتِهِ ونَجاحِهِ، فهُو يُناقِشُ طُلَّابَهُ ويَتقبَّلُ أسئِلتَهُم، ويُلقِي الدُّرُوسَ والمُحاضَراتِ بهِمَّةٍ عالِيَةٍ ونَفسٍ مُطْمَئنَّةٍ واثِقَةٍ، مُبْتَهِجًا بنَشْرِهِ لِلعِلْمِ وتَقْرِيبِهِ إلَى النَّاسِ.

آثارُه العِلْمِيَّةُ:

ظَهَرَتْ جُهُودُهُ العَظِيمةُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى- خِلالَ أَكْثرَ مِن خَمسِينَ عامًا مِنَ العَطاءِ والبَذْلِ فِي نَشْرِ العِلْمِ والتَّدْرِيسِ والوَعْظِ والإِرْشادِ والتَّوْجِيهِ وإِلْقاءِ المُحاضَراتِ والدَّعْوةِ إلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ولقَدِ اهتمَّ بالتَّأْلِيفِ، وتَحريرِ الفَتاوَى والأَجْوبة، التِي تَمَيَّزَتْ بالتَّأصِيلِ العِلْمِيِّ الرَّصِينِ، وصدَرتْ لَهُ العَشَراتُ مِنَ الكُتُبِ والرَّسائِلِ والمُحاضَراتِ والفَتاوَى والخُطَبِ واللِّقاءاتِ والمَقالاتِ، كَما صدَرَ لَهُ آلافُ السَّاعاتِ الصَّوْتيَّةِ التِي سَجَّلَتْ مُحاضَراتِه وخُطَبَهُ ولِقاءاتِهِ وبرامِجَهُ الإذاعِيَّةَ ودُرُوسَهُ العِلْميَّةَ؛ فِي تَفْسِيرِ القُرْآنِ الكَرِيمِ، والشُّرُوحاتِ المُتميِّزَةِ لِلحَدِيثِ الشَّرِيفِ والسِّيرَةِ النَّبويَّةِ، والمُتُونِ والمَنْظُوماتِ فِي العُلُومِ الشَّرْعيَّةِ والنَّحْويَّةِ.

وَإِنفاذًا لِلقَواعِدِ والضَّوابِطِ والتَّوْجِيهاتِ التِي قَرَّرها فَضيلتُهُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى- لِنَشْرِ مُؤلَّفاتِه، ورَسائِلِه، ودُرُوسِه، ومُحاضراتِه، وخُطبِه، وفَتاواهُ، ولقاءاتِه؛ تَقُوم مُؤسَّسةُ الشَّيْخ مُحَمَّدِ بنِ صالِحِ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةُ -بعَوْنِ اللهِ تعالى وتَوْفِيقِه- بواجِبِ وشَرَفِ المَسْؤُوليَّةِ لإِخْراجِ كافَّةِ آثارِهِ العِلْمِيَّةِ والعِنايَةِ بِهَا.

وبِناءً علَى تَوْجِيهاتِه -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى- أُنْشِئَ لَهُ مَوقِعٌ خاصٌّ على شَبَكةِ المَعْلُوماتِ الدَّوْلِيَّةِ[1]، مِن أَجْلِ تَعْمِيمِ الفائِدَةِ المَرجُوَّةِ -بعَوْنِ اللهِ تَعالَى-، وتَقدِيمِ جَمِيعِ آثارِهِ العِلْمِيَّةِ مِنَ المُؤلَّفاتِ والتَّسْجِيلاتِ الصَّوْتِيَّةِ.

أعْمالُهُ وجُهُودُهُ الأُخْرَى:

إلَى جانِبِ تِلكَ الجُهُودِ المُثْمِرَةِ فِي مَجالاتِ التَّدْرِيسِ والتَّأْلِيفِ والإِمامَةِ والخَطابَةِ والإِفْتاءِ والدَّعْوةِ إلَى الله -سُبحَانهُ وتَعَالَى- كانَ لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ أَعمالٌ كَثيرةٌ مُوَفَّقَةٌ مِنْهَا:

- عُضوًا فِي هَيْئة كِبارِ العُلماءِ فِي المَمْلكةِ العربيَّةِ السُّعوديَّة، مِن عام (١٤٠٧هـ) حتَّى وفاته.
- عضوًا فِي المَجْلِس العِلمِيِّ بجامِعةِ الإمامِ مُحَمَّدِ بنِ سُعُودٍ الإسلاميَّةِ، فِي العامَيْنِ الدِّرَاسِيَّيْنِ (١٣٩٨-١٤٠٠هـ).
- عضوًا فِي مَجْلِسِ كُلِّيَّةِ الشَّرِيعةِ وأُصُولِ الدِّينِ، بفَرْعِ جامِعةِ الإمامِ مُحَمَّدِ بنِ سُعُودٍ الإسلاميَّةِ فِي القَصِيمِ، ورَئِيسًا لِقِسْمِ العَقِيدةِ فِيها.
- وفِي آخِرِ فَترةِ تَدريسِهِ بالمَعْهَدِ العِلْمِيِّ شارَكَ فِي عُضويَّةِ لَجْنَةِ الخِطَطِ والمَناهِجِ لِلمَعاهِدِ العِلْمِيَّةِ، وأَلَّفَ عَدَدًا مِنَ الكُتُبِ المُقَرَّرَةِ فِيهَا.
- عُضوًا فِي لَجْنَةِ التَّوْعِيَةِ فِي مَوْسِمِ الحَجِّ، مِن عام (١٣٩٢هـ) حتَّى وفاته -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-، حيثُ كانَ يُلقِي دُرُوسًا ومُحاضراتٍ فِي مكَّة والمَشاعِر، ويُفْتِي فِي المَسائِلِ والأَحكامِ الشَّرعيَّة.

---

(١) www.binothaimeen.net

- تَرأَّسَ جَمعيَّةَ تَحفيظِ القُرْآنِ الكَريمِ الخَيريَّةَ فِي عُنَيْزَةَ مُنْذُ تَأْسِيسِها عامَ (١٤٠٥هـ) حتَّى وفاتِه.
- أَلقَى مُحاضراتٍ عَديدةً داخِلَ المملكةِ العربيَّةِ السُّعوديَّةِ علَى فِئاتٍ مُتنوِّعةٍ مِنَ النَّاسِ، كَمَا أَلقَى مُحاضراتٍ عَبْرَ الهاتِفِ علَى تَجمُّعاتٍ ومَراكِزَ إسلاميَّة فِي جِهاتٍ مُختلفةٍ مِنَ العالَمِ.
- مِن عُلماءِ المملكةِ الكِبارِ الذِين يُجيبُونَ علَى أَسئلةِ المُسْتفسِرِينَ عن الأَحكامِ والمسائِلِ؛ عَقِيدةً وشَريعةً وسُلوكًا، وذَلِكَ عَبْرَ البَرَامِجِ الإِذاعيَّةِ فِي المملكةِ العَربيَّةِ السُّعُوديَّةِ، وأَشهرُها بَرْنامَجُ (**نُورٌ عَلَى الدَّرْبِ**) مِن إذاعةِ القرآنِ الكريمِ في المَمْلَكةِ العَربيَّةِ السُّعُوديَّةِ.
- نَذَرَ نَفْسَهُ لِلإجابَةِ علَى أَسئلةِ السَّائِلِينَ؛ مُهاتَفةً ومُكاتَبةً ومُشافَهةً.
- رَتَّبَ لِقاءاتٍ عِلميَّةً مُجَدْوَلَةً، أُسْبُوعيَّةً وشَهْريَّةً وسَنَويَّةً.
- شارَكَ فِي العَدِيد مِنَ المُؤتَمَراتِ التِي عُقِدَت فِي المملكةِ العربيَّةِ السُّعُوديَّةِ.
- ولأنَّه يَهتمُّ بالسُّلُوكِ التَّربويِّ والجانِبِ الوَعْظِيِّ اعتنَى بتَوْجِيهِ الطُّلَّابِ وإرشادِهِم إلَى سُلُوكِ المَنْهَجِ الجادِّ فِي طَلَبِ العِلْمِ وتَحْصيلِه، وعَمِلَ علَى استِقْطابِهِمْ والصَّبْرِ علَى تَعْلِيمِهِمْ وتَحمُّلِ أَسئلتِهِمُ الكثيرةِ المتنوِّعةِ، والاهتمامِ بأُمُورِهِمْ.
- ولِلشَّيخِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى- أَعمالٌ عَديدةٌ فِي مَيادِينِ الخَيرِ وأَبوابِ البِرِّ ومَجالاتِ الإِحْسانِ إلَى النَّاسِ، والسَّعْيِ فِي حَوائِجِهِمْ وكِتابَةِ الوَثائِق والعُقُودِ بَيْنَهُمْ، وإِسداءِ النَّصِيحَةِ لهُمْ بِصِدْقٍ وإِخلاصٍ.

مَكَانَتُه العِلْمِيَّةُ:

يُعَدُّ فَضيلةُ الشَّيْخِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- مِنَ الرَّاسِخِينَ فِي العِلْمِ الذِينَ وَهَبَهُمُ اللهُ -بِمَنِّهِ وكَرَمِهِ- تَأْصِيلًا وَمَلَكةً عَظِيمةً فِي مَعرِفَةِ الدَّلِيلِ واتِّبَاعِهِ واستِنْبَاطِ الأَحْكامِ والفَوائِدِ مِنَ الكِتابِ والسُّنَّةِ، وسَبْرِ أَغْوارِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ مَعَانِيَ وإِعْرابًا وبَلاغَةً.

وَلِمَا تَحَلَّى بِه مِن صِفاتِ العُلَماءِ الجَليلةِ، وأَخلاقِهِمُ الحَميدَةِ، والجَمْعِ بَيْنَ العِلْمِ والعَمَلِ؛ أَحَبَّهُ النَّاسُ مَحبَّةً عَظِيمَةً، وقَدَّرَهُ الجَميعُ كُلَّ التَّقديرِ، ورَزَقَهُ اللهُ القَبُولَ لَدَيْهِمْ، واطْمَأَنُّوا لِاخْتِيارَاتِهِ الفِقْهِيَّةِ، وأَقْبَلُوا عَلَى دُرُوسِهِ وفَتاواهُ وآثارِهِ العِلْمِيَّةِ، يَنْهَلُونَ مِنْ مَعِينِ عِلْمِهِ، ويَسْتَفِيدُونَ مِنْ نُصْحِهِ ومَواعِظِهِ.

وقَدْ مُنِحَ جائِزَةَ المَلِك فَيْصَل -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- العَالَمِيَّةَ لِخِدْمَةِ الإِسلامِ عامَ (١٤١٤هـ)، وجاءَ فِي الحَيْثِيَّاتِ التِي أَبْدَتْها لَجْنَةُ الاخْتِيارِ لِمَنْحِهِ الجائِزَةَ ما يَأْتِي:

- أَوَّلًا: تَحَلِّيهِ بِأَخْلاقِ العُلَماءِ الفاضِلَةِ التِي مِنْ أَبْرزِها: الوَرَعُ، ورَحابَةُ الصَّدْرِ، وقَوْلُ الحَقِّ، والعَمَلُ لِمَصْلحةِ المُسلمِينَ، والنُّصحُ لِخَاصَّتِهِم وعامَّتِهِم.
- ثانِيًا: انتِفاعُ الكَثيرِينَ بعِلْمِهِ؛ تَدْرِيسًا وإِفتاءً وتَأْلِيفًا.
- ثالِثًا: إِلقاؤُهُ المُحاضَراتِ العامَّةَ النَّافِعةَ فِي مُختلَفِ مَناطِقِ المملكةِ.
- رابِعًا: مُشاركتُه المُفيدةُ فِي مُؤتَمَراتٍ إسلاميَّةٍ كَثيرةٍ.
- خامِسًا: اتِّباعُه أُسلوبًا مُتميِّزًا فِي الدَّعْوةِ إِلَى اللهِ بالحِكْمَةِ والمَوْعِظةِ الحَسَنةِ، وتَقْدِيمُهُ مَثَلًا حَيًّا لِمَنْهَجِ السَّلَفِ الصَّالِحِ؛ فِكْرًا وسُلُوكًا.

عَقِبُهُ:

لَهُ خَمْسَةٌ مِنَ البَنِينَ، وثَلاثٌ مِنَ البَنَاتِ، وبَنُوهُ هُمْ: عَبْدُ الله، وعَبْدُ الرَّحْمَن، وإِبْرَاهِيمُ، وعَبْدُ العَزِيزِ، وعَبْدُ الرَّحِيم.

وَفَاتُهُ:

تُوُفِّيَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- فِي مَدِينَةِ جدَّةَ، قبيلَ مغربِ يومِ الأَرْبِعاءِ، الخامِسَ عشَرَ مِنْ شَهْرِ شَوَّال، عامَ (١٤٢١هـ)، وَصُلِّيَ عَلَيه مِنَ الغَدِ فِي المسجِدِ الحَرَام بَعْدَ صَلاةِ العَصْرِ، ثُمَّ شَيَّعَتْهُ تِلكَ الآلافُ مِنَ المُصَلِّينَ والحُشُودِ العَظِيمَةِ فِي مَشاهِدَ مُؤَثِّرَةٍ، ودُفِنَ فِي مَقبرةِ العَدْلِ بمَكَّةَ المُكَرَّمَةِ.

وبَعْدَ صَلاةِ الجُمُعةِ مِنَ اليَوْمِ التَّالي صُلِّيَ عَلَيه صَلاةَ الغائِبِ فِي جَمِيعِ مُدُنِ المملكةِ العربيَّةِ السُّعُوديَّةِ.

رَحِمَ اللهُ شَيْخَنَا رَحْمَةَ الأَبْرارِ، وأَسْكَنَهُ فَسِيحَ جَنَّاتِهِ، ومَنَّ عَلَيهِ بمِغْفِرَتِهِ ورِضْوَانِهِ، وجَزَاهُ عمَّا قَدَّم لِلإِسْلامِ والمُسلِمِينَ خَيْرَ الجَزَاءِ.

القِسْمُ العِلْمِيُّ
فِي مُؤَسَّسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحٍ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الحمد في الآخرة والأولى وأشهد أن محمداً عبده ورسوله المصطفى وخليله المجتبى صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن بهداهم اهتدى وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد : فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم وشر الأمور محدثاتها . وحيث كان خير الحديث كتاب الله فإن فهمه وتدبره والعمل به تصديقاً للأخبار وعملاً بالأحكام أنفس ما بذل المرء فيه أنفاسه وأنفع ما أمضى فيه أوقاته ولهذا كان علم تفسير كلام الله تعالى أهم العلوم وأفضلها وكان الصحابة رضي الله عنهم لا يتجاوزون عشر آيات من القرآن حتى يتعلموها وما فيها من العلم والعمل فتعلموا بذلك القرآن والعلم والعمل جميعاً .

ولما كان الرجوع إلى أصول العلم وقواعده ييسر لطالب العلم الوصول إلى فروعه وجزئياته ويفتح له آفاقاً واسعة في التطبيق والتخريج وأدرك ذلك شيخنا عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي رحمه الله كتب ما تيسر من قواعد التفسير ما بلغ إحدى وسبعين قاعدة اشتملت على قواعد مهمة وفوائد جمة يظهر ذلك لمن قرأها بتدبر وتمهل . والله أسأل أن ينفع بها مؤلفها وقارئها ومن أعان على نشرها إنه جواد كريم .

كتبه : محمد الصالح العثيمين

محمد العثيمين

نص محرر عن الكتاب بقلم الشارح فضيلة الشيخ العلامة محمد بن صالح العثيمين رحمه الله تعالى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

أما بعد فهذه أصول وقواعد في تفسير القرآن الكريم جليلة المقدار عظيمة النفع تعين قارئها ومتأملها على فهم كلام الله والاهتداء به ومخبرها أجل من وصفها فإنها تفتح للعبد من طرق التفسير ومناهج الفهم عن الله ما يغني عن كثير من التفاسير الخالية من هذه البحوث النافعة وأرجو من الله أن يتم ما قصدته وأردته وينفع بها ما ظهر منها [غير مقروء] ما يكون سبيلا للوصول إلى العلم النافع والهدى الكامل واعلم أن علم التفسير أجل العلوم على الإطلاق وأفضلها وأوجبها وأحبها إلى الله لأن الله أمر بتدبر كتابه والتفكر في معانيه والاهتداء بآياته وأثنى على القائمين بذلك وجعلهم في أعلى المراتب ووعدهم أسنى المواهب فلو أنفق العبد جميع عمره في هذا الفن لم يكن ذلك كثيرا في جنب ما هو أفضل المطالب وأعظم المقاصد وأصل الأصول كلها وقاعدة أساسات الدين وصلاح أمور الدارين الدنيا والآخرة وكانت حياة العبد زاهرة بالهدى والخير والرحمة وطيب الحياة والباقيات الصالحات فلنشرع الآن بذكر القواعد والضوابط على وجه الإيجاز الذي يحصل به المقصود لأن ذا يفتح للعبد الباب ويمهد له الطريقة القاصدة ويدرب عليها بعدة أمثلة توضحها وتبين طريقها ومنهجها لم يحتج إلى زيادة البسط وكثرة التفاصيل ونسأل الله أن يمن علينا بالعون واللطف وتوفيقه وأن يجعلنا هادين مهتدين آمين

القاعدة الأولى في كيفية تلقي التفسير

كل من سلك طريقا وعمل عملا وأتاه من أبوابه وطرقه الموصلة إليه فلا بد أن يفلح وينجح كما قال تعالى وأتوا البيوت من أبوابها وكلما عظم المطلوب تأكد هذا الأمر وتعين البحث التام عن أمثل وأحسن الطرق الموصلة إليه ولا ريب أن ما نحن فيه هو أهم الأمور وأجلها وأصلها فاعلم أن هذا القرآن العظيم أنزله الله لهداية الخلق وإرشادهم وأنه في كل وقت وزمان يرشد إلى أقوم الأمور إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم فعلى الناس أن يتلقوا معنى كلام الله كما تلقاه الصحابة رضي الله عنهم إذا قرأوا عشر آيات أو أقل أو أكثر لم يتجاوزوها حتى يعرفوا ما دلت عليه من الإيمان والعلم والعمل فينزلونها على الأحوال الواقعة فيعتقدون ما تضمنت عليه من الأخبار وينقادون لأوامرها ونواهيها ويدخلون فيها جميع ما يشاهدون من الحوادث والوقائع الموجودة بهم وبغيرهم ويحاسبون أنفسهم هل هم قائمون بها أو مخلون بها [غير مقروء] عن الأمور النافعة وإيجادها وما نقص منها وكيف التخلص من الأمور الضارة [غير مقروء] ويعلمون أنه خطاب من عالم الغيب والشهادة موجه إليهم ومطالبون بمعرفة معانيه والعمل بما يقتضيه فمن سلك هذا الطريق الذي سلكوه وجد واجتهد في تدبر كلام الله انفتح له الباب الأعظم في علم التفسير وقويت

مقدمة الكتاب محررة بقلم المؤلف (فضيلة الشيخ العلامة عبدالرحمن بن ناصر السعدي) رحمه الله تعالى

إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب. يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا. وأمرهم شورى بينهم
وشاورهم في الأمر. إن الله لا يظلم الناس شيئا. يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها
والصلح خير. فأصلحوا بينهما بالقسط. والله لا يحب الفساد. يوم لا تملك نفس لنفس شيئا. [illegible]
فلا تجعلوا لله أندادا. ألا لله الدين الخالص. فاتقوا الله ما استطعتم. إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت
ولا تنسوا الفضل بينكم. ويؤت كل ذي فضل فضله. ولا تبخسوا الناس أشياءهم. فاستقم كما أمرت
واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين. إن الحسنات يذهبن السيئات. كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء
إنه من عبادنا المخلصين. إنا كذلك نجزي المحسنين. والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل. الآيات. وجزاء سيئة
سيئة مثلها. وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به. فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم.
إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم. وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا. ما على المحسنين من سبيل.
فمن عفا وأصلح فأجره على الله. والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا وخير مردا. يريد الله بكم
اليسر ولا يريد بكم العسر. ما جعل عليكم في الدين من حرج. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.
ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا. لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة. وما آتاكم
الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا. وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله. والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات
بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا. وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة. فهذه الآيات الكريمة
وما أشبهها كل كلمة منها قاعدة وأصل كبير تحتوي على معان كثيرة. وقد تقدم في أثناء القواعد منها
شيء كثير وهي متيسرة على حافظ القرآن المعتني بمعرفة معانيه ولله الحمد. والحمد لله الذي بنعمته
تتم الصالحات. وقد يسر الله تعالى ومنّ علينا بجمع هذا، ومن الحكمة على اختصاره ووجازته ووضوحه
كونها تيسر الناظرين وتعين على فهم كلام رب العالمين، وتبصر أهل العلم [illegible] ما أخذه
والسالكين الطرق والأصول النافعة ما لا يستفيده مجموعا في محل واحد. ومخبر الكتاب يغني
عن وصفه. وأسأل الله تعالى أن يجعله خالصا لوجهه الكريم مقربا لديه في جنات النعيم وأن ينفع به
مؤلفه وكاتبه والناظر فيه وجميع المسلمين بمنه وكرمه وجوده وإحسانه وهو خير الراحمين.
وصلى الله على محمد وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.
قال ذلك وكتبه جامعه العبد الفقير إلى الله في كل أحواله عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي
وقد تم ذلك في ٦ شوال سنة ١٣٦٥ والحمد لله أولا وآخرا وظاهرا وباطنا

خاتمة الكتاب محررة بقلم المؤلف (فضيلة الشيخ العلامة عبدالرحمن بن ناصر السعدي) رحمه الله تعالى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبارَكًا فِيهِ كَما يُحِبُّ رَبُّنَا ويَرْضَى، وأشْهَدُ أنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وحْدَهُ لَا شَرِيكَ لهُ، لَهُ الحَمْدُ فِي الآخِرَةِ والأُولَى، وأشْهَدُ أنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ ورَسُولُهُ المُصْطَفَى، وخَلِيلُهُ المُجْتبَى، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وأصْحابِهِ ومَنْ بِهُدَاهُمْ اهْتَدَى، وسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

أمَّا بَعْدُ: فإنَّ خَيْرَ الحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وخَيْرَ الهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا. وحَيْثُ كَانَ خَيْرُ الحَدِيثِ كِتَابَ اللهِ فإنَّ فَهْمَهُ وتَدَبُّرَهُ والعَمَلَ بِهِ تَصْدِيقًا للأخْبارِ وعَمَلًا بالأحْكامِ أنْفَسُ مَا بَذَلَ المَرْءُ فِيهِ أنْفاسَهُ، وأنْفَعُ مَا أَمْضَى فِيهِ أوْقاتَهُ؛ ولهَذَا كَانَ عِلْمُ تَفْسِيرِ كَلامِ اللهِ تَعَالَى أهَمَّ العُلُوم وأفْضَلَهَا، وكانَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لَا يَتَجَاوَزُونَ عَشْرَ آياتٍ مِنَ القُرْآنِ حَتَّى يَتَعَلَّمُوهَا ومَا فِيهَا مِنَ العِلْمِ والعَمَلِ، فتَعَلَّمُوا بِذَلِكَ القُرْآنَ والعِلْمَ والعَمَلَ جَمِيعًا.

ولَمَّا كَانَ الرُّجُوعُ إِلَى أُصُولِ العِلْمِ وقَواعِدِهِ يُيَسِّرُ لطالِبِ العِلْمِ الوُصُولَ إِلَى فُرُوعِهِ وجُزْئِيَّاتِهِ، ويَفْتَحُ لَهُ آفَاقًا واسِعَةً فِي التَّطْبِيقِ والتَّخْرِيجِ، وأدْرَكَ ذَلِكَ شَيْخُنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ نَاصِرِ بْنِ سَعْدِيٍّ رَحِمَهُ اللَّهُ كَتَبَ مَا تَيَسَّرَ مِنَ قَوَاعِدِ التَفْسِيرِ مَا بَلَغَ إِحْدَى وسَبْعِينَ قَاعِدَةً، اشْتَمَلَتْ عَلَى قَواعِدَ مُهِمَّةٍ، وفَوَائِدَ جَمَّةٍ، يَظْهَرُ ذَلِكَ لِمَنْ قَرَأَهَا بتَدَبُّرٍ وتَمَهُّلٍ. واللهَ أَسْأَلُ أنْ يَنْفَعَ بِهَا مُؤَلِّفَهَا وقَارِئَهَا ومَنْ أَعَانَ عَلَى نَشْرِهَا؛ إِنَّهُ جَوادٌ كَرِيمٌ.

كَتَبَهُ مُحَمَّدٌ الصَّالِحُ العُثَيْمِينُ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قَالَ المُؤَلِّفُ فَضِيلَةُ الشَّيْخِ العلَّامَةِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ نَاصِرٍ السَّعْدِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- فِي مُقَدِّمَةِ كِتابِهِ: (القَوَاعِدِ الحِسَانِ المُتَعَلِّقَةِ بتَفْسِيرِ القُرْآنِ)[١].

الحَمْدُ للهِ، نَحْمَدُهُ ونَسْتَعِينُهُ ونَسْتَغْفِرُهُ، ونَتُوبُ إليْهِ، ونَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وسَيِّئَاتِ أعْمالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لهُ، ومَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لهُ، وأشْهَدُ أنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وحْدَهُ لَا شَرِيكَ لهُ، وأشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ ورَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا.

أَمَّا بَعْدُ؛ فهذِهِ أُصُولٌ وقَوَاعِدُ فِي تَفْسِيرِ القُرْآنِ الكَرِيمِ، جَلِيلَةُ المِقْدَارِ، عَظِيمَةُ النَّفْعِ، تُعِينُ قَارِئَهَا ومُتَأَمِّلَهَا عَلَى فَهْمِ كَلامِ اللهِ، والاهْتِدَاءِ بِهِ، ومَخْبَرُهَا أَجَلُّ مِنْ وصْفِهَا؛ فإنَّهَا تَفْتَحُ للعَبْدِ مِنْ طُرُقِ التَفْسِيرِ ومِنْهَاجِ الفَهْمِ عَنِ اللهِ مَا يُعِينُ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ التَّفاسيرِ الحالِيَّةِ فِي هَذِهِ البُحُوثِ النَّافِعَةِ.

أَرْجُو اللهَ وأَسْأَلُهُ أَنْ يُتِمَّ مَا قَصَدْنَا إِيرَادَهُ، ويَفْتَحَ لَنَا مِنْ خَزَائِنِ جُودِهِ وكَرَمِهِ مَا يَكُونُ سَبَبًا للوُصُولِ إِلَى العِلْمِ النَّافِعِ، والهُدَى الكامِلِ.

واعْلَمْ أَنَّ عِلْمَ التَفْسِيرِ أَجَلُّ العُلُومِ عَلَى الإطْلَاقِ، وأَفْضَلُهَا، وأَوْجَبُهَا، وأَحَبُّهَا إِلَى اللهِ؛ لِأَنَّ اللهَ أَمَرَ بتَدَبُّرِ كِتابِهِ، والتَّفَكُّرِ فِي مَعَانِيهِ، والاهْتِدَاءِ بآياتِهِ، وأَثْنَى عَلَى القَائِمِينَ بذلكَ، وجَعَلَهُمْ فِي أعْلَى المَرَاتِبِ، ووَعَدَهُمْ أَسْنَى المَوَاهِبِ، فَلَوْ أَنْفَقَ العَبْدُ

(١) طبقًا للطبعة المعتمدة من أبناء المؤلف الصادرة بعناية الشيخ خالد بن عثمان السبت، دار ابن الجوزي ١٤٢١هـ.

جَواهِرَ عُمُرِهِ فِي هَذَا الفَنِّ لَمْ يَكُـنْ ذَلِكَ كثيرًا فِي جَنْبِ مَا هُوَ أَفْضَـلُ المَطالِبِ، وأَعْظَمُ المَقاصِدِ، وأَصْـلُ الأُصُولِ كُلِّهَا، وقاعِدَةُ أَساساتِ الدِّينِ، وصَلاحُ أُمُورِ الدِّينِ والدُّنْيَا والآخِرَةِ، وكَانَتْ حَياةُ العَبْدِ زَاهِرَةً بالهُدَى والخَيْرِ والرَّحْمَةِ، وطِيبِ الحَياةِ، والباقِيَاتِ الصَّالحاتِ.

فَلْنَشْرَعِ الآنَ بذِكْـرِ القَـوَاعِدِ والضَّوَابِطِ عَلَى وجْهِ الإيجازِ الَّذِي يَحْصُلُ بِهِ المَقْصُودُ؛ لِأَنَّهُ إِذَا انْفَتَحَ للعَبْدِ البابُ، وتَمَهَّدَتْ عِنْدَهُ القاعِدَةُ، وتَدَرَّبَ مِنْهَا بِعِدَّةِ أَمْثِلَـةٍ تُوَضِّحُـهَا، وتُبَيِّنُ طَرِيقَـهَا ومَنْهَجَـهَا -لَمْ يَحْتَجْ إِلَى زِيادَةِ البَسْـطِ، وكَثْرَةِ التَّفاصِيلِ.

ونَسْأَلُهُ أَنْ يُمِدَّنَا بعَـوْنِهِ ولُطْفِـهِ وتَوْفِيقِـهِ، وأَنْ يَجْعَلَنَا هَادِينَ مُهْتَدِينَ بمَنِّهِ وكَرَمِهِ.

التعليق

قَالَ فَضِيلَةُ الشَّيْخِ العَلَّامَةِ مُحَمَّدُ بْنُ صَالِحٍ العُثَيْمِينُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-:

الحَمْدُ للهِ ربِّ العَالَمِينَ والصَّلاةُ والسَّلامُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ والمُرْسَلِينَ، نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وعَلَى آلِهِ وأَصْحابِهِ أَجْمَعِينَ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَخَذَ المُؤَلِّفُ شَيْخُنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ نَاصِرٍ السَّعْدِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى رَحْمَةً وَاسِعَةً وأَسْكَنَهُ فَسِيحَ جَنَّاتِهِ- هَذِهِ القَوَاعِدَ فِي رَمَضَانَ، وهُوَ يَقْرَأُ القُرْآنَ -كَمَا يَظْهَرُ- ابْتِدَاءً مِنْ أَوَّلِ رَمَضَانَ إِلَى سادِسِ شَوَّالٍ، فِي أَيَّامِ قِرَاءَةِ القُرْآنِ وأَيَّامِ الصَّوْمِ. ثُمَّ إِنَّ ثَنَاءَهُ عَلَيْهَا لَيْسَ بغَرِيبٍ؛ لِأَنَّ ثَنَاءَ أَهْلِ العِلْمِ عَلَى مُؤَلَّفَاتِهِمْ لَا يَقْصِدُونَ بِهِ الفَخْرَ أَوِ التَّفَاخُرَ عَلَى الخَلْقِ، وإِنَّمَا يَقْصِدُونَ شَدَّ النَّاسِ إِلَى قِرَاءَتِهَا والالْتِفَافِ حَوْلَهَا.

وكَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: لَوْ أَعْلَمُ أَنَّ أَحَدًا تَنَالُهُ الإِبِلُ أَعْلَمَ بكِتَابِ اللهِ مِنِّي لَرَحَلْتُ إِلَيْهِ[1]. فهُوَ لَمْ يَقْصِدْ مَدْحَ نَفْسِهِ، لكنَّهُ قَصَدَ حثَّ النَّاسِ عَلَى أَخْذِ العِلْمِ مِنْهُ، وعَلَى تَمَسُّكِهِمْ بطَلَبِ العِلْمِ. وابْنُ مالِكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ أثْنَى عَلَى أَلْفِيَّتِهِ، فَقَالَ:

تُقَرِّبُ الأَقْصَى بِلَفْظٍ مُوجَزِ ... وَتَبْسُطُ البَذْلَ بِوَعْدٍ مُنْجِزِ

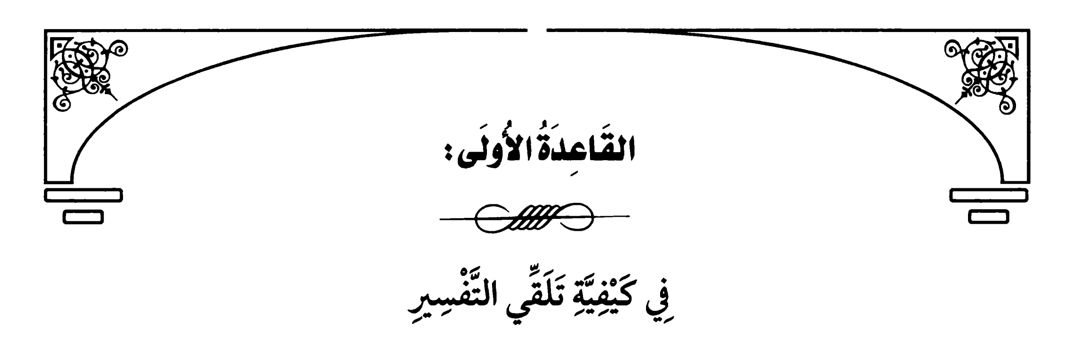
وَتَقْتَضِي رِضًا بِغَيْرِ سُخْطِ ... فَائِقَةً أَلْفِيَّةَ ابْنِ مُعْطِي[2]

المُهِمُّ أنَّ شَيْخَنَا -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- حِينَمَا أَثْنَى عَلَى هَذَا الكِتَابِ لَا يُرِيدُ بِذَلِكَ أنْ يَفْتَخِرَ بِهِ عَلَى النَّاسِ، وأنَا أَعْرِفُهُ تَمَامَ المَعْرِفَةِ، فَهُوَ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ تَوَاضُعًا، ولكنَّهُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- أَرادَ أنْ يَشُدَّ النَّاسَ إِلَى هَذَا الكِتَابِ؛ لِيَنْتَفِعُوا بهِ. وَنَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أنْ يُحَقِّقَ لَهُ مَا يَرْجُوهُ، وأَنْ يُجْزِلَ لَهُ المَثُوبَةَ والأَجْرَ.



(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب القراء من أصحاب النبي ﷺ، رقم (٥٠٠٢)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، رقم (٢٤٦٣)، عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ موقوفا.

(٢) ألفية ابن مالك (ص:٩).



القَاعِدَةُ الأُولَى:

فِي كَيْفِيَّةِ تَلَقِّي التَّفْسِيرِ

كُلُّ مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا، وعَمِلَ عَمَلًا، وأَتَاهُ مِنْ أَبْوَابِهِ وطُرُقِهِ المُوصِلَةِ إِلَيْهِ، فَلَا بُدَّ أَنْ يُفْلِحَ ويُنْجِحَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة:١٨٩].

وكُلَّمَا عَظُمَ المَطْلُوبُ تَأَكَّدَ هَذَا الأَمْرُ، وتَعَيَّنَ البَحْثُ التَّامُّ عَنْ أَمْثَلِ وأَحْسَنِ الطُّرُقِ المُوصِلَةِ إِلَيْهِ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ مَا نَحْنُ فِيهِ هُوَ أَهَمُّ الأُمُورِ وَأَجَلُّهَا وأَصْلُهَا.

فاعْلَمْ أَنَّ هَذَا القُرْآنَ العَظِيمَ أَنْزَلَهُ اللهُ لِهِدَايَةِ الخَلْقِ وإِرْشادِهِمْ، وأَنَّهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ وزَمانٍ يُرْشِدُ إِلَى أَهْدَى الأُمُورِ وأَقْوَمِهَا ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩] فعَلَى النَّاسِ أَنْ يَتَلَقَّوْا مَعْنَى كَلامِ اللهِ كَمَا تَلقَّاهُ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فإِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قَرَأُوا عَشْرَ آياتٍ، أَوْ أَقَلَّ، أَوْ أَكْثَرَ، لَمْ يَتَجَاوَزُوهَا حَتَّى يَعْرِفُوا مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ مِنَ الإِيمانِ والعِلْمِ والعَمَلِ، فيُنْزِلُونَهَا عَلَى الأَحْوَالِ الواقِعَةِ، فيَعْتَقِدُونَ مَا احْتَوَتْ عَلَيْهِ مِنَ الأَخْبارِ، ويَنْقَادُونَ لأوامِرِهَا ونَوَاهِيهَا، ويُدْخِلُونَ فِيهَا جَمِيعَ مَا يَشْهَدُونَ مِنَ الحَوَادِثِ والوَقَائِعِ المَوْجُودَةِ بِهِمْ وبِغَيْرِهِمْ، ويُحَاسِبُونَ أَنْفُسَهُمْ: هَلْ هُمْ قَائِمُونَ بِهَا أَوْ مُخِلُّونَ؟ وكَيْفَ الطَّرِيقُ إِلَى الثَّباتِ عَلَى الأُمُورِ النَّافِعَةِ وإِيجادِ مَا نَقَصَ مِنْهَا؟ وكَيْفَ التَّخَلُّصُ مِنَ الأُمُورِ الضَّارَّةِ؟ فيَهْتَدُونَ بعُلُومِهِ، ويَتَخَلَّقُونَ بأَخْلاقِهِ وآدابِهِ، ويَعْلَمُونَ أَنَّهُ خِطابٌ مِنْ عَالِمِ الغَيْبِ والشَّهادَةِ، مُوجَّهٌ إِلَيْهِمْ، ومُطالَبُونَ بمَعْرِفَةِ مَعانِيهِ، والعَمَلِ بِمَا يَقْتَضِيهِ.

فمَنْ سَلَكَ هَذَا الطَّرِيقَ الَّذِي سَلَكُوهُ، وجَدَّ واجْتَهَدَ فِي تَدَبُّرِ كَلامِ اللهِ، انْفَتَحَ لَهُ البابُ الأعْظَمُ فِي عِلْمِ التَّفْسِيرِ، وقَوِيَتْ مَعْرِفَتُهُ، وازْدادَتْ بَصِيرَتُهُ، واسْتَغْنَى بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ عَنْ كَثْرَةِ التَّكَلُّفاتِ، وعَنِ البُحُوثِ الخارِجِيَّةِ، وخُصُوصًا إِذَا كَانَ قَدْ أَخَذَ مِنْ عُلُومِ العَرَبِيَّةِ جانِبًا قَوِيًّا، وكَانَ لَهُ إِلْمَامٌ واهْتِمَامٌ بِسِيرَةِ النَّبِيِّ ﷺ وأَحْوالِهِ مَعَ أَوْلِيَائِهِ وأَعْدَائِهِ؛ فإِنَّ ذَلِكَ أَكْبَرُ عَوْنٍ عَلَى هَذَا المَطْلَبِ.

ومَتَى عَلِمَ العَبْدُ أَنَّ القُرْآنَ فِيهِ تِبْيانُ كُلِّ شَيْءٍ، وأَنَّهُ كَفِيلٌ بِجَمِيعِ المَصالِحِ، مُبَيِّنٌ لَهَا، حَاثٌّ عَلَيْهَا، زاجِرٌ عَنِ المَضارِّ كُلِّهَا، وجَعَلَ هَذِهِ القَاعِدَةَ نُصْبَ عَيْنَيْهِ، ونَزَّلَهَا عَلَى كُلِّ واقِعٍ وحادِثٍ سابِقٍ أَوْ لاحِقٍ -ظَهَرَ لَهُ عِظَمُ مَوْقِعِهَا، وكَثْرَةُ فَوائِدِهَا وثَمَرَتِهَا.

التعليق

خُلاصَةُ هَذِهِ القَاعِدَةِ: أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ القُرْآنَ هُدًى لِلنَّاسِ وبَيِّنَاتٍ مِنَ الهُدَى والفُرْقَانِ، وأَنَّهُ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ، ومَتَى آمَنَّا بِذَلِكَ فَإِنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَسْلُكَ الطَّرِيقَ الَّتِي تُوصِلُنَا لِمَعْرِفَةِ هَذَا القُرْآنِ، والاهْتِدَاءِ بِهِ. ولْنَعْلَمْ أَنَّنَا إِذَا سَلَكْنَا هَذِهِ الطَّرِيقَ فإِنَّ اللهَ تَعَالَى يُبارِكُ لَنَا فِيمَا قَصَدْنَا، وفِيمَا أَرَدْنَا، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩].

وكُلَّمَا تَدَبَّرَ الإِنْسَانُ هَذَا القُرْآنَ العَظِيمَ، وتَذَكَّرَ بِمَا فِيهِ، فَإِنَّهُ تَحْصُلُ لَهُ بَرَكَتُهُ عَلَيْهِ فِي عُمُرِهِ، وفِي عَمَلِهِ، وفِي يَقِينِهِ، وفِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ. وإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَأْخُذَ شاهِدًا عَلَى هَذَا فانْظُرْ إِلَى أَعْمارِ مَنْ سَبَقَنَا مِنْ سَلَفٍ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ، كَيْفَ يَحْصُلُونَ عَلَى الخَيْرِ الكَثِيرِ العَظِيمِ؟! ونَتَعَجَّبُ كَيْفَ يَكْتُبُونَ هَذَا الشَّيْءَ وكَيْفَ يَعْمَلُونَ هَذَا الشَّيْءَ،

فَضْلًا عَنِ الإعْدادِ لَهُ، ومَا يَسْبِقُهُ مِنْ تَهْيِئَةِ أَبْدَانِهِمْ وقُلُوبِهِمْ وأفْكارِهِمْ، كُلُّ هَذَا ببَرَكَةِ هَذَا القُرْآنِ العَظِيمِ.

فعَلَيْكَ أنْ تَشُدَّ يَدَيْكَ بِهِ، وأنْ تَعَضَّ عَلَيْهِ بالنَّوَاجِذِ، وأنْ تَعْلَمَ أَنَّكَ مَتَى عَمِلْتَ بِهِ فِي مَا وجَّهَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ مِنْ تَدَبُّرِ آياتِهِ وتَذَكُّرِهِ، فإنَّكَ سَتَنَالُ السَّعادَةَ فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ، وهَؤُلاءِ سَلَفُنَا الكِرَامُ رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمُ -الصَّحابَةُ- لَا يَتَجاوَزُونَ عَشْرَ آياتٍ حَتَّى يَتَعَلَّمُوهَا ومَا فِيهَا مِنَ العِلْمِ والعَمَلِ، فتَعَلَّمُوا القُرْآنَ لَفْظًا والعِلْمَ والعَمَلَ جَمِيعًا؛ ولهَذَا كَانَ الواحِدُ مِنْهُمْ إِذَا قَرَأَ البَقَرَةَ وآلَ عِمْرَانَ جَدَّ فِيهِمْ، أيْ: صَارَ عَظِيمًا مُحْتَرَمًا؛ لأَنَّهُمْ لَا يقْرَؤُونَ كَمَا نَقْرَأُ نَحْنُ، مُجَرَّدَ أَلْفاظٍ نُمَرِّرُهَا عَلَى اللِّسَانِ وَلَا تَصِلُ إِلَى القَلْبِ أحْيانًا، ولكنَّهُمْ يَقْرَؤُونَ بتَدَبُّرٍ وتَذَكُّرٍ واتِّعَاظٍ. والَّذِي نَزَعَ البَرَكَةَ مِنْ عِلْمِنَا أَنَّنَا لَا نَعْمَلُ بِهِ ولَا نَتَذَكَّرُ.

فهَذَا هُوَ خُلاصَةُ هَذِهِ القَاعِدَةِ: أنَّ القُرْآنَ يَهْدِي للَّتِي هِيَ أَقْوَمُ، وأَنَّهُ هُدًى للنَّاسِ وبَيِّنَاتٍ مِنَ الهُدَى والفُرْقانِ. وإِذَا كَانَ كذلكَ فعَلَيْنَا أنْ نَصِلَ إِلَى هَذَا الجَوْهَرِ الثَّمِينِ، وهُوَ الهُدَى والبَيَانُ والتَّذَكُّرُ؛ حَتَّى تَحْصُلَ لَنَا البَرَكَةُ فِي أعْمالِنَا وأعْمارِنَا.

ويَلْتَحِقُ بهَذِهِ القَاعِدَةِ:





القَاعِدَةُ الثَّانِيَةُ:

العِبْرَةُ بعُمُومِ الألْفَاظِ لَا بخُصُوصِ الأسْبَابِ

وهذِهِ قـاعِدَةٌ نافِعَـةٌ جِدًّا، بمُراعَاتِهَا يَحْصُلُ للعَبْدِ خيْرٌ كَثِيرٌ، وعِلْمٌ غزيرٌ، وبإِهْمَالِهَا وعَدَمِ مُلاحظَتِهَا يَفُوتُهُ عِلْمٌ كَثِيرٌ، ويَقَعُ الغَلَطُ والارْتِبَاكُ.

وهَذَا الأَصْلُ اتَّفَقَ عَلَيْهِ المُحَقِّقُونَ مِنْ أَهْلِ الأُصُولِ وغَيْرِهِمْ، فمَتَى رَاعَيْتَ القَاعِدَةَ السَّابِقَةَ، وعَرَفْتَ أَنَّ مَا قَالَهُ المُفَسِّرُونَ مِنْ أَسْبابِ النُّزُولِ إنَّما هِيَ أَمْثِلَةٌ تُوَضِّحُ الأَلْفَاظَ، لَيْسَتِ الأَلْفَاظُ مَقْصُورَةً عَلَيْهَا، فقَوْلُهُمْ: «نَزَلَتْ فِي كَذَا، وفِي كَذَا» معْنَاهُ: أَنَّ هَذَا مِمَّا يَدْخُلُ فِيهَا، ومِنْ جُمْلَةِ مَا يُرادُ بِهَا؛ فإِنَّهُ -كَما تَقَدَّمَ- إِنَّما أُنزِلَ القُرْآنُ لهِدَايَةِ أَوَّلِ الأُمَّةِ وآخِرِهَا، واللهُ تَعالَى قَدْ أَمَرَنَا بالتَّفَكُّرِ والتَّدَبُّرِ لكِتَابِهِ، فإذَا تَدَبَّرْنَا الأَلْفَاظَ العامَّةَ، وفَهِمْنَا أَنَّ مَعْنَاهَا يَتَنَاوَلُ أشياءَ كَثِيرَةً -فَلِأَيِّ شَيْءٍ نُخْرِجُ بَعْضَ هَذِهِ المَعَانِي، مَعَ إِدْخَالِنَا مَا هُوَ مِثْلُهَا ونَظِيرُهَا؟!

التعليق

وعَلَى هَذَا: فَإِذَا ادَّعَى شَخْصٌ خُرُوجَ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِ العُمُومِ مِنْ لَفْظِهِ، قُلْنَا لَهُ: أَيْنَ الدَّلِيلُ؟ لِأَنَّ الأَصْلَ: أَنَّ العامَّ شَامِلٌ لجَمِيعِ أَفْرَادِهِ. قَالَ العُلَماءُ: وصُورَةُ السَّبَبِ قَطْعِيَّـةُ الدُّخُولِ ومَا عَدَاهَا فدُخُولُهَا ظَنِّيٌّ، العامُّ يَشْمَـلُ صُورًا مُتَعَدِّدَةً، فمَثَلًا قَضِيَّـةُ المَرْأَةِ[1] الَّتِي اشْتَكَتْ إِلَى الرَّسُولِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَسَلَّم- زَوْجَهَا،

(١) أخرجه ابن ماجه: المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية، رقم (١٨٨)، والنسائي: كتاب الطلاق،

هَذِهِ قَطْعِيَّةُ الدُّخُولِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ [المجادلة:٣] وَظِهَارُ زَيْدٍ وعَمْرٍو بَعْدَ ذَلِكَ ظَنِّيَّةُ الدُّخُولِ؛ لاحْتِمَالِ أَنْ لَا يُرادَ بالعُمُومِ جَمِيعَ أَفْرادِهِ، لكنِ الحُكْمُ يَشْمَلُهَا، إمَّا بالعُمُومِ اللَّفْظِيِّ، وهُوَ الصَّحِيحُ، وإمَّا بالعُمُومِ المَعْنَوِيِّ، وهُوَ القِيَاسُ لعَدَمِ الفارِقِ.

ولهَذَا قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِذَا سَمِعْتَ اللهَ يَقُولُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فَأَرْعِهَا سَمْعَكَ، فَإِنَّهُ إِمَّا خَيْرٌ تُؤْمَرُ بِهِ، وإِمَّا شَرٌّ تُنْهَى عَنْهُ»[1].

فمَتَى مَرَّ بِكَ خَبَرٌ عَنِ اللهِ، وعَمَّا يَسْتَحِقُّهُ مِنَ الكَمالِ، ومَا يَتَنَزَّهُ عنْهُ مِنَ النَّقْصِ، فأَثْبِتْ جَمِيعَ ذَلِكَ المَعْنَى الكامِلِ الَّذِي أَثْبَتَهُ لنَفْسِهِ، ونَزِّهْهُ عَنْ كُلِّ مَا نَزَّهَ نَفْسَهُ عنْهُ.

وكذَلِكَ إِذَا أَخْبَرَ عَنْ رُسُلِهِ، وكُتُبِهِ، واليَوْمِ الآخِرِ، وعَنْ جَمِيعِ الأُمُورِ السَّابِقَةِ واللَّاحِقَةِ، جَزَمْتَ جَزْمًا لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّهُ حَقٌّ عَلَى حَقِيقَتِهِ، بَلْ هُوَ أَعْلَى أَنْواعِ الحَقِّ والصِّدْقِ ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء:١٢٢] و﴿حَدِيثًا﴾ [النساء:٨٧].

وإِذَا أَمَرَ بشَيْءٍ نَظَرْتَ إِلَى مَعْنَاهُ، ومَا يَدْخُلُ فِيهِ ومَا لَا يَدْخُلُ، وأَنَّ ذَلِكَ مُوَجَّهٌ إِلَى جَمِيعِ الأُمَّةِ. وكذلِكَ فِي النَّهْيِ؛ ولهَذَا كانَتْ مَعْرِفَةُ حُدُودِ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ

= باب الظهار، رقم (٣٤٦٠) ورواه البخاري تعليقًا: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء:١٣٤]، قبل حديث رقم (٧٣٨٦)، وأحمد (٦/ ٤٦)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٣٦)، وسعيد بن منصور (٥٠)، وابن أبي حاتم في التفسير (١٠٣٧)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٣٠)، والبيهقي في الشعب (١٨٨٦)، وفي سنده انقطاع.

أَصْلَ الخَيْرِ والفَلاحِ، والجَهْلُ بِذَلِكَ أَصْلَ الشَّرِّ والجَفاءِ، فمُرَاعَاةُ هَذِهِ القَاعِدَةِ أَكْبَرُ عَوْنٍ عَلَى مَعْرِفَةِ حُدُودِ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ، والقُرْآنُ قَدْ جَمَعَ أَجَلَّ المَعَانِي وأَنْفَعَهَا وأَصْدَقَهَا بأَوْضَحِ الأَلْفَاظِ وأَحْسَنِهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان:٣٣] يُوَضِّحُ ذَلِكَ وَيُبَيِّنُهُ وينْهَجُ طَرِيقَهُ:





القَاعِدَةُ الثَّالِثَةُ:

الألِفُ واللَّامُ الدَّاخِلَةُ عَلَى الأوْصَافِ، وأسْماءِ الأجْنَاسِ، تُفِيدُ الاسْتِغْرَاقَ بحَسَبِ مَا دَخَلَتْ عَلَيْهِ

وقَدْ نَصَّ عَلَى ذَلِكَ أَهْلُ الأُصُولِ، وأَهْلُ العَرَبِيَّةِ، واتَّفَقَ عَلَى اعْتِبَارِ ذَلِكَ أَهْلُ العِلْمِ والإيمانِ.

فمَثَلًا: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٣٥] أدْخَلَ فِي هَذِهِ الأوْصَافِ كُلَّ مَا تَناوَلَهُ مِنْ مَعانِي الإسْلَامِ، والإيمانِ، والقُنُوتِ، والصِّدْقِ، إِلَى آخِرِهَا. وأنَّ بكَمالِ هَذِهِ الأوْصَافِ يَكْمُلُ لصَاحِبِهَا مَا رُتِّبَ عَلَيْهَا مِنَ المَغْفِرَةِ والأجْرِ العَظِيمِ، وبنُقْصَانِهَا يَنْقُصُ، وبعَدَمِهَا يُفْقَدُ.

وهكَذَا كُلُّ وصْفٍ رُتِّبَ عَلَيْهِ خَيْرٌ وأجْرٌ وثَوَابٌ، وكذلِكَ مَا يُقابِلُ ذلكَ: كُلُّ وَصْفٍ نَهَى اللهُ عنْهُ، ورَتَّبَ عَلَيْهِ وعَلَى الْمُتَّصِفِ بِهِ عُقُوبَةً، وشَرًّا، ونَقْصًا، يَكُونُ لَهُ مِنْ ذَلِكَ بحَسَبِ مَا قَامَ بِهِ مِنَ الوَصْفِ المَذْكُورِ.

التَّعليق

الحُكْمُ إِذَا عُلِّقَ عَلَى وصْفٍ ازْدَادَ بزِيَادَةِ ذَلِكَ الوَصْفِ ونَقَصَ بنَقْصِهِ؛ لِأَنَّ الحُكْمَ المُعَلَّقَ عَلَى وصْفٍ يَدُلُّ عَلى عِلِّيَّةِ ذَلِكَ الوَصْفِ، والحُكْمُ يَدُورُ مَعَ عِلَّتِهِ وُجُودًا وعَدَمًا، وقُوَّةً وضَعْفًا.

الحُكْمُ إِذَا عُلِّقَ عَلَى وَصْفٍ فَإِنَّهُ يَقْوَى بقُوَّةِ ذَلِكَ الوَصْفِ، ويَضْعُفُ بضَعْفِهِ، فَإِذَا قُلْتَ: إِنَّ المُؤْمِنَ لَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ، فكُلَّمَا قَوِيَ الإيمانُ قَوِيَ الأَجْرُ، وكُلَّمَا ضَعُفَ ضَعُفَ الأَجْرُ.

وكذلكَ مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ عامٌّ بجِنْسِ الإنْسَانِ، فكلُّ إنسانٍ هَذَا وصْفُهُ، إلَّا مَنِ اسْتَثْنَى اللهُ بقَوْلِهِ: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج:١٩-٢٢] إِلَى آخِرِهَا.

كَمَا أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر:١-٢] أَيْ: كُلُّ إِنْسانٍ مُتَّصِفٌ بالخَسارِ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [العصر:٣] وأَمْثَالُ ذَلِكَ كَثِيرٌ.

التعليق

هَذَا الجِنْسُ؛ لِأَنَّ الشَّيْخَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذَكَرَ الوَصْفَ والجِنْسَ، وهَذَا مِثَالُ اسْمِ الجِنْسِ.

وأعْظَمُ مَا تُعْتَبَرُ بِهِ هَذِهِ القَاعِدَةِ: فِي الأَسْمَاءِ الحُسْنَى؛ فإِنَّ فِي القُرْآنِ مِنْهَا شَيْئًا كَثِيرًا، وهِيَ أَجَلُّ عُلُومِ القُرْآنِ، فمَثَلًا يُخْبِرُ اللهُ عَنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ اللهُ، وأَنَّهُ المَلِكُ، والعَلِيمُ، والحَكِيمُ، والعَزِيزُ، والرَّحِيمُ، والقُدُّوسُ السَّلامُ، والحَمِيدُ المَجِيدُ، فـ(اللهُ) هُوَ الَّذِي لَهُ جَمِيعُ مَعانِي الأُلُوهِيَّةِ الَّتِي يَسْتَحِقُّ أَنْ يُؤَلَّهَ لِأَجْلِهَا، وهِيَ صِفاتُ الكَمالِ كُلُّهَا، والمَحامِدُ كُلُّهَا، والفَضْلُ كُلُّهُ، والإِحْسانُ كُلُّهُ، وأَنَّهُ لَا يُشارِكُ اللهَ أَحَدٌ فِي

مَعْنًى مِنْ مَعَانِي الأُلُوهِيَّةِ، لَا بَشَرٌ، ولَا مَلَكٌ، بَلْ هُمْ جَمِيعًا مُتَأَلِّهُون مُتَعَبِّدُونَ لِرَبِّهِمْ، خاضِعُونَ لجَلَالِهِ وعَظَمَتِهِ.

وأَنَّهُ المَلِكُ الَّذِي لَهُ جَمِيعُ معانِي المُلْكِ، وهُوَ المُلْكُ الكامِلُ، والتَّصَرُّفُ النَّافِذُ، وأنَّ الخَلْقَ كُلَّهُمْ مَمالِيكُ للهِ، عَبِيدٌ تَحْتَ أحكامِ مُلْكِهِ القدَرِيَّةِ، والشَّرْعِيَّةِ، والجَزَائِيَّةِ.

وأَنَّهُ العَلِيمُ بكُلِّ شَيْءٍ، الَّذِي لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ ولَا فِي السَّماءِ...

التعليق

قَوْلُ المُؤَلِّفِ رَحِمَهُ اللَّهُ: إنَّ الأَحْكَامَ قَدَرِيَّةٌ وشَرْعِيَّةٌ وجَزَائِيَّةٌ. ونَحْنُ نَقُولُ دائمًا: إنَّ الأَحْكَامَ شَرْعِيَّةٌ وكَوْنِيَّةٌ، أَوْ قَدَرِيَّةٌ؛ لِأَنَّ الجَزَائِيَّةَ داخِلَةٌ فِي القَدَرِيَّةِ؛ لِأَنَّهَا مِمَّا قَدَّرَهُ اللهُ عَلَى هَذَا العَمَلِ، لكنْ هَذَا مِنْ بَابِ البَسْطِ.

...، الَّذِي أَحَاطَ عِلْمُهُ بالبَوَاطِنِ، والظَّوَاهِرِ، والخَفِيَّاتِ، والجلِيَّاتِ، والوَاجِبَاتِ، والمُسْتَحِيلَاتِ، والجائِزَاتِ، والأُمُورِ السَّابِقَةِ، واللَّاحِقَةِ، والعالَمِ العُلْوِيِّ، والسُّفْلِيِّ، والكُلِّيَّاتِ، والجُزْئِيَّاتِ، ومَا يَعْلَمُ الخَلْقُ، ومَا لَا يَعْلَمُونَ.

التعليق

كَيْفَ يَعْلَمُ اللهُ المُسْتَحِيلَاتِ؟ قَالَ تَعَالَى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢] هَذَا تَعْلِيقٌ بشَيْءٍ مُسْتَحِيلٍ، يعْنِي: مُسْتَحِيلٌ أنْ يَكُونَ فِيهَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ. أَخْبَرَ اللهُ أَنَّهُ لَوْ كَانَ فِي هَذَا الكَوْنِ آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا، فأَخْبَرَ عَنْ شَيْءٍ لَا يُمْكِنُ وُجُودُهُ.

... وأَنَّهُ الحَكِيمُ، الَّذِي لَهُ الحِكْمَةُ التَّامَّةُ الشَّامِلَةُ لجَمِيعِ مَا قَضَاهُ، وقَدَّرَهُ، وخَلَقَهُ، وجَمِيعِ مَا شَرَعَهُ، لَا يَخْرُجُ عَنْ حِكْمَتِهِ مَخْلُوقٌ، ولَا مَشْرُوعٌ.

وأَنَّهُ العَزِيزُ، الَّذِي لَهُ جَمِيعُ مَعَانِي العِزَّةِ عَلَى وجْهِ الكَمالِ التَّامِّ مِنْ كُلِّ وجْهٍ: عِزَّةُ القُوَّةِ، وعِزَّةُ الامْتِنَاعِ، وعِزَّةُ القَهْرِ والغَلَبَةِ، وأنَّ جَمِيعَ الخَلْقِ فِي غايَةِ الذُّلِّ، ونِهايَةِ الفَقْرِ، ومُنْتَهى الحاجَةِ والضَّرُورَةِ إِلَى رَبِّهِمْ.

وأَنَّهُ الرَّحِيمُ، الَّذِي لَهُ جَمِيعُ مَعانِي الرَّحْمَةِ، الَّذِي وَسِعَتْ رَحْمَتُهُ كُلَّ شَيْءٍ، ولَمْ يَخْلُ مَخْلُوقٌ مِنْ إحْسانِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، ووَصَلَتْ رَحْمَتُهُ حَيْثُ وَصَلَ عِلْمُهُ ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر:٧].

وأَنَّهُ القُدُّوسُ، السَّلامُ، المُعَظَّمُ، المُنَزَّهُ عَنْ كُلِّ عَيْبٍ وآفَةٍ ونَقْصٍ، وعَنْ مُماثَلَةِ أَحَدٍ، وعَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ نِدٌّ مِنْ خَلْقِهِ.

وهكَذَا بَقِيَّةُ الأَسْماءِ الحُسْنَى اعْتَبِرْهَا بهذِهِ القَاعِدَةِ الجَلِيلَةِ يَنْفَتِحْ لكَ بابٌ عَظِيمٌ مِنْ أَبْوابِ مَعْرِفَةِ اللهِ، بلْ أَصْلُ مَعْرِفَةِ اللهِ تَعَالَى مَعْرِفَةُ مَا تَحْتَوِي عَلَيْهِ أَسْماؤُهُ الحُسْنَى مِنَ المَعانِي العَظِيمةِ، بحَسَبِ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ العَبْدُ، وإِلَّا فَلَا يَبْلُغُ عِلْمُ أَحَدٍ مِنَ الخَلْقِ، ولَا يُحْصِي أَحَدٌ ثَناءً عَلَيْهِ، بَلْ هُوَ كَما أَثْنَى عَلَى نَفْسِهِ، وفَوْقَ مَا يُثْنِي عَلَيْهِ عِبادُهُ.

ومِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة:٢] فالبِرُّ يَشْمَلُ جَمِيعَ أَنْواعِ البِرِّ والخَيْرِ. وتَشْمَلُ التَّقْوَى: جَمِيعَ مَا يَجِبُ اتِّقَاؤُهُ مِنْ أَنْوَاعِ المَعَاصِي والمُحَرَّماتِ.

والإِثْمُ: اسْمٌ جامِعٌ لكُلِّ مَا يُؤْثِمُ ويُوقِعُ فِي المَعْصِيَةِ، كَما أَنَّ العُدْوَانَ اسْمٌ جامِعٌ يَدْخُلُ فِيهِ التَّعَدِّي عَلَى النَّاسِ فِي الدِّمَاءِ، والأَمْوَالِ، والأَعْرَاضِ.

والمَعْرُوفُ فِي القُرْآنِ: اسْمٌ جامِعٌ لكُلِّ مَا عُرِفَ حُسْنُهُ شَرْعًا وعَقْلًا، وعَكْسُهُ المُنْكَرُ.

وقَدْ نَبَّهَ النَّبِيُّ ﷺ أُمَّتَهُ إِلَى هَذِهِ القَاعِدَةِ، وأَرْشَدَهُمْ إِلَى اعْتِبَارِهَا فِي قَوْلِهِ فِي التَّشَهُّدِ فِي الصَّلاةِ فِي قَوْلِ المُصَلِّينَ: «السَّلامُ عَلَيْنَا وعَلَى عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ» فقالَ: «فَإِنَّكُمْ إِذَا قُلْتُمْ ذَلِكَ سَلَّمْتُمْ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ صالِحٍ مِنْ أَهْلِ السَّماءِ والأَرْضِ»[1] وأَمْثِلَتُهَا فِي القُرْآنِ كَثِيرَةٌ جِدًّا.

التعليق

خُلاصَةُ هَذِهِ القَاعِدَةِ: أَنَّ المُفْرَدَ المُحَلَّى بأَلْ يَعُمُّ، سَوَاءٌ دَخَلَ عَلَى وصْفٍ أَوْ دَخَلَ عَلَى اسْمِ جِنْسٍ. ثُمَّ عادَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ واسْتَطْرَدَ فِي أَسْماءِ اللهِ تَعَالَى، وأَنَّ (أَلْ) فِيهَا للاسْتِغْرَاقِ، فمَثَلًا: السَّمِيعُ: لاسْتِغْرَاقِ كُلِّ مَا يُمْكِنُ مِنْ سَمْعٍ؛ ولِهَذَا مَا مِنْ مَسْمُوعٍ إِلَّا ويَسْمَعُهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ. البَصِيرُ: لاسْتِغْرَاقِ كُلِّ مَا يُمْكِنُ مِنْ بَصَرٍ. البِرُّ: لاسْتِغْرَاقِ كُلِّ مَا يُمْكِنُ مِنَ الخَيْرِ والإِحْسانِ، وهَكَذَا.



(١) أخرجه البخاري: أبواب العلم في الصلاة، باب من سمى قوما، أو سلم في الصلاة على غيره مواجهة، وهو لا يعلم، رقم (١٢٠٢)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب التشهد في الصلاة، رقم (٤٠٢)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



القَاعِدَةُ الرَّابِعَةُ:

إذَا وَقَعَتِ النَّكِرَةُ فِي سِيَاقِ النَّفْيِ، أَوِ النَّهْيِ، أَوِ الشَّرْطِ، أَوِ الاسْتِفْهَامِ، دَلَّتْ عَلَى العُمُومِ

كقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء:٣٦].

فَإِنَّهُ نَهَى عَنِ الشِّرْكِ بِهِ فِي النِّيَّاتِ، والأَقْوَالِ، والأَفْعَالِ، وعَنِ الشِّرْكِ الأَكْبَرِ، والأَصْغَرِ، والخَفِيِّ، والجَلِيِّ، فَلَا يَجْعَلُ العَبْدَ للهِ نِدًّا ومُشارِكًا فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ.

ونَظِيرُهَا: ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة:٢٢].

وقَوْلُهُ فِي وصْفِ يَوْمِ القِيَامَةِ: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار:١٩] يَعُمُّ كُلَّ نَفسٍ، وأَنَّهُ لَا تَمْلِكُ شَيْئًا مِنَ الأَشْياءِ، لَا إيصالَ المَنافِعِ، وَلَا دَفْعَ المَضارِّ.

وكقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [يونس:١٠٧] فكُلُّ ضُرٍّ قدَّرَهُ اللهُ عَلَى العَبْدِ لَيْسَ فِي اسْتِطَاعَةِ أحَدٍ مِنَ الخَلْقِ كَشْفُهُ بوَجْهٍ مِنَ الوُجُوهِ، ونِهايَةُ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ المَخْلُوقُ مِنَ الأَسْبَابِ والأَدْوِيَةِ جُزْءٌ مِنْ أَجْزَاءٍ كَثِيرَةٍ داخِلَةٍ فِي قَضاءِ اللهِ وقَدَرِهِ.

وقَوْلُهُ: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [فاطر:٢] ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل:٥٣] يَشْمَلُ كُلَّ خَيْرٍ فِي العَبْدِ

ويُصِيبُ العَبْدَ، وكُلَّ نِعْمَةٍ فِيهَا حُصُولُ مَحْبُوبٍ أَوْ دَفْعُ مَكْرُوهٍ، فإنَّ اللهَ هُوَ المُتَفَرِّدُ بذلكَ.

وقَـوْلُـهُ: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [فاطر:٣].

وإذَا دَخَلَتْ (مِنْ) صارَتْ نَصًّا فِي العُمُومِ، كهَذِهِ الآيَةِ: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة:٤٧] ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف:٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥] وَ [هود:٥٠، ٦١، ٨٤] و [المؤمنون:٢٣، ٣٢] ولهَا أَمْثِلَةٌ كَثِيرَةٌ جِدًّا.





القَاعِدَةُ الخَامِسَةُ:

المُفْرَدُ المُضافُ يُفِيدُ العُمُومَ، كَمَا يُفِيدُ ذَلِكَ اسْمُ الجَمْعِ

فكَمَا أنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ﴾ [النساء:٢٣] إِلَى آخِرِهَا، يَشْمَلُ كُلَّ أُمٍّ انتَسَبْتَ إِلَيْهَا وإِنْ عَلَتْ، وكُلَّ بِنْتٍ انْتَسَبتْ إِلَيْكَ وإِنْ نَزَلَتْ، إِلَى آخِرِ المَذْكُورَاتِ...

التعليق

وفِيهَا أيضًا فَائِدَةٌ ثَانِيَةٌ: أنَّ الأُمَّ تَشْمَلُ كُلَّ مَنِ انتَسَبْتَ إِليْهَا، والبِنْتَ تَشْمَلُ كُلَّ مَنِ انتَسَبَتْ إِلَيْكَ، سَوَاءً مِنْ قِبَلِ الأَبِ أَوِ الأُمِّ، كذلكَ خَالَةُ الإِنْسَانِ خَالَةٌ لَهُ ولِذُرِّيَّتِهِ مِنْ بَعْدِهِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، وعَمَّةُ الإِنْسَانِ عَمَّةٌ لَهُ ولِذُرِّيَّتِهِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، ولَوْ كَانَ مِنْ رَضاعَةٍ، فعَمَّتُكَ عَمَّةٌ لكَ ولأَوْلَادِكَ وبَنَاتِكَ وبَنَاتِ بَناتِكَ... إلخ، وكذلكَ خَالَتُكَ.

...، فكذلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١١] فإِنَّهَا تَشْمَلُ النِّعَمَ الدِّينِيَّةَ والدُّنْيَوِيَّةَ.

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢] فإِنَّهَا تَعُمُّ الصَّلَواتِ كُلَّهَا، والأنساكَ كُلَّهَا، وجَمِيعَ مَا العَبْدُ فِيهِ وعَلَيْهِ فِي حَيَاتِهِ ومَماتِهِ، الجَمِيعُ قَدْ أَوْقَعْتَهُ وأَخْلَصْتَهُ للهِ وحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

وقَوْلُهُ: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة:١٢٥] عَلَى أحدِ القَوْلَيْنِ: أَنَّهُ يَشْمَلُ جَمِيعَ مَقاماتِهِ فِي مَشاعِرِ الحَجِّ، اتَّخِذُوهُ مَعْبَدًا.

وأَصْرَحُ مِنْ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل:١٢٣] وهذَا شامِلٌ لكُلِّ مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ التَّوْحِيدِ، والإخْلاصِ للهِ تَعَالَى، والقِيامِ بحَقِّ العُبُودِيَّةِ.

وأعَمُّ مِنْ ذَلِكَ وأشْمَلُ قَوْلُهُ تعَالَى لَمَّا ذَكَرَ الأَنْبِيَاءَ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:٩٠] فَأَمَرَهُ اللهُ أَنْ يَقْتَدِيَ بجَمِيعِ مَا عَلَيْهِ المُرْسَلُونَ مِنَ الهُدَى، الَّذِي هُوَ العُلُومُ النَّافِعَةُ، والأخْلاقُ الزَّاكِيَةُ، والأعْمالُ الصَّالِحَةُ، والهُدَى المُسْتَقِيمُ. وهذِهِ الآيَةُ أحَدُ الأدِلَّةِ عَلَى الأصْلِ المَعْرُوفِ: «أَنَّ شَرْعَ مَنْ قَبْلَنَا شَرْعٌ لَنَا مَا لَمْ يَرِدْ شَرْعُنَا بخِلَافِهِ» وشَرْعُ الأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ هُوَ هُدَاهُمْ فِي أُصُولِ الدِّينِ وفُرُوعِهِ.

وكذلكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام:١٥٣] وهذَا يَعُمُّ جَمِيعَ مَا شَرَعَهُ لعِبادِهِ: فِعْلًا، وتَرْكًا، اعْتِقَادًا، وانْقِيادًا. وأضافَهُ إِلَى نَفْسِهِ فِي هَذِهِ الآيَةِ لكَوْنِهِ الَّذِي نَصَبَهُ لعِبادِهِ، كَمَا أضافَهُ إِلَى الَّذِينَ أنْعَمَ عليهِمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة:٧] لكَوْنِهِمْ هُمُ السَّالِكُونَ لهُ. فصِراطُ الَّذِينَ أنْعَمَ اللهُ عليهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ، والصِّدِّيقِينَ، والشُّهَدَاءِ، والصَّالِحِينَ: مَا اتَّصَفُوا بِهِ مِنَ العُلُومِ، والأخْلَاقِ، والأوْصَافِ، والأعْمالِ.

وكذلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف:١١٠] يَدْخُلُ فِي ذَلِكَ جَمِيعُ العِبادَاتِ، الظاهِرَةُ والباطِنَةُ، العِبادَاتُ الاعْتِقَادِيَّةُ والعَمَلِيَّةُ.

كَمَا أَنَّ وَصْفَ اللهِ لرَسُولِهِ ﷺ بالعُبُودِيَّةِ المُضافَةِ إِلَى اللهِ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء:١] ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة:٢٣] ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ [الفرقان:١] يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَفَّى جَمِيعَ مَقاماتِ العُبُودِيَّةِ؛ حَيْثُ نَالَ أَشْرَفَ المقاماتِ بتَوْفِيَتِهِ لِجَمِيعِ مَقاماتِ العُبُودِيَّاتِ.

وقَوْلُهُ: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر:٣٦] فكُلَّما كَانَ العَبْدُ أَقْوَمَ بحُقُوقِ العُبُودِيَّةِ كانَتْ كِفايَةُ اللهِ لَهُ أَكْمَلَ وأَتَمَّ، ومَا نَقَصَ مِنْهَا نَقَصَ مِنَ الكِفايَةِ بحَسَبِهِ.

وقَوْلُهُ: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر:٥٠] ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل:٤٠] يَشْمَلُ جَمِيعَ أَوَامِرِهِ القَدَرِيَّةِ وَالكَوْنِيَّةِ، وهذَا فِي القُرْآنِ شَيْءٌ كَثِيرٌ.

التعليق

المُفْرَدُ المُضافُ يُفِيدُ العُمُومَ، والجَمْعُ المُضافُ أيضًا يُفِيدُ العُمُومَ، أَمَّا الجَمْعُ فهُوَ يُفِيدُ العُمُومَ بصِيغَتِهِ وإِضَافَتِهِ، والمُفْرَدُ يُفِيدُ العُمُومَ بالإِضافَةِ فقطْ، فلَوْ نَظَرْنَا إِلَيْهِ لكَوْنِهِ مُفْرَدًا مَا دلَّ عَلَى العُمُومِ، لكنْ بالإِضافَةِ يَدُلُّ عَلَيْهِ.

ولهَذَا قَالَ العُلَماءُ: لَوْ قالَ: امْرَأَتِي طالِقٌ، طُلِّقَتْ جَمِيعُ نِسائِهِ مَا لَمْ يُرِدْ واحِدَةً مُعَيَّنَةً. ولَوْ قالَ: دَارِي وقْفٌ ولَهُ ثَلاثَةُ دُورٍ صارَتْ جَمِيعُ الدُّورِ وقْفًا؛ لِأَنَّ المُفْرَدَ المُضافَ يَعُمُّ. ولوْ قَالَ: غُلامِي حُرٌّ، عَتَقَ جَمِيعُ غِلْمانِهِ، مَا لَمْ يَنْوِ.





القَاعِدَةُ السَّادِسَةُ:

فِي طَرِيقَةِ القُرْآنِ فِي تَقْرِيرِ التَّوْحِيدِ ونَفْيِ ضِدِّهِ

يَكادُ القُرْآنُ أنْ يَكُونَ كُلُّهُ لتَقْرِيرِ التَّوْحِيدِ، ونَفْيِ ضِدِّهِ، وأَكْثَرُ الآياتِ يُقَرِّرُ اللهُ فِيهَا تَوْحِيدَ الإِلَهِيَّةِ، وإِخْلاصَ العِبَادَةِ للهِ وحْدَهُ لَا شَرِيكَ لهُ،...

التعليق

هذَا البَحْثُ مِنْ أَهَمِّ البُحُوثِ؛ لِأَنَّهُ يجِبُ أنْ يَكُونَ الإِنْسَانُ مُوَحِّدًا فِي القَصْدِ والعَمَلِ، فِي القَصْدِ لَا يُرِيدُ بِذَلِكَ إِلَّا وجْهَ اللهِ، فِي العَمَلِ لَا يَتَّبِعُ إِلَّا رَسُولَ اللهِ، فَلَا بُدَّ مِنْ هَذَيْنِ التَّوْحِيدَيْنِ: تَوْحِيدُ القَصْدِ وهُوَ الإِخْلاصُ، وتَوْحِيدُ الاتِّبَاعِ أَوِ العَمَلِ وهُوَ الاتِّبَاعُ للرَّسُولِ، فَإِذَا تحَقَّقَ التَّوْحِيدَانِ صَحَّتِ الأَعْمَالُ، وإِذَا اخْتَلَّ أَحَدُهُمَا فَإِنَّهُ يَخْتَلُّ مِنْ عَمَلِهِ بقَدْرِ مَا اخْتَلَّ مِنْ تَوْحِيدِهِ.

... ويُخْبِرُ أنَّ جَمِيعَ الرُّسُلِ تَدْعُو قَوْمَهَا إِلَى أنْ يَعْبُدُوا اللهَ ولَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وأنَّ اللهَ تَعَالَى إِنَّمَا خَلَقَ الجِنَّ والإِنْسَ لِيَعْبُدُوهُ،...

التعليق

لماذَا لَمْ يَكُنْ تَقْرِيرُ الأَنْبِيَاءِ ودَعْوَتُهُمْ إِلَى تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ؟ لِأَنَّ أَقْوامَهُمْ كَانُوا مُقِرِّينَ بِهِ لَا يُنْكِرُونَهُ، ولمْ يُنْكِرْ أَحَدٌ تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ أَبَدًا إِلَّا مُكابَرَةً، ولَا هُناكَ أَحَدٌ

يَعْتَقِدُ أَنَّ هَذَا الكَوْنَ خلَقَ نَفْسَهُ أبَدًا، حَتَّى المَجُوسُ الوَثَنِيَّةُ يَرَوْنَ أَنَّ للعالَمِ خَالِقَيْنِ، ومَعَ هَذَا يَرَوْنَ أَنَّ أَحَدَ الخَالِقَيْنِ أَكْمَلُ مِنَ الثَّانِي.

نَعَمْ، يَرَوْنَ أَنَّ النُّورَ يَخْلُقُ الخَيْرَ، والظُّلْمَةَ تَخْلُقُ الشَّرَّ، ويَقُولُونَ: إنَّ النُّورَ إلَهٌ خَيِّرٌ نافِعٌ، والظُّلْمَةَ إلِهٌ شِرِّيرٌ. ويَقُولُ بَعْضُهُمْ أيضًا: إنَّ هَذِهِ الظُّلْمَةَ حادِثَةٌ بَعْدَ إذْ لَمْ تَكُنْ بخِلافِ النُّورِ.

وعَلَى كُلِّ حَالٍ: مَا تَجِدُ أحَدًا مِنَ الخَلْقِ يَقُولُ: إنَّ هَذَا العالَمَ خُلِقَ بدُونِ خَالِقٍ أبَدًا، إلَّا مُكابِرًا.

أمَّا تَوْحِيدُ الأُلُوهِيَّةِ: فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي وَقَعَ فِيهِ النِّزَاعُ والجِدَالُ بَيْنَ الرُّسُلِ وأُمَمِهِمْ مُكابَرَةً مِنْهُمْ، ولوْ رَجَعْتَ إلَى قَرارَةِ أَنْفُسِهِمْ لكَانَ كَمَا قَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل:١٤].

... وأنَّ الكُتُبَ والرُّسُلَ اتَّفَقَتْ عَلَى هَذَا الأَصْلِ الَّذِي هُوَ أَصْلُ الأُصولِ كُلِّهَا، وأنَّ مَنْ لَمْ يَدِنْ بهذَا الدِّينِ -الَّذِي هُوَ إخْلاصُ العَمَلِ للهِ- فعَمَلُهُ باطِلٌ ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر:٦٥] ﴿وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:٨٨].

ويَدْعُو العِبادَ إلَى مَا تَقرَّرَ فِي فِطَرِهِمْ وعُقُولِهِمْ مِنْ أَنَّ المُتَفَرِّدَ بالخَلْقِ والتَّدْبِيرِ، والمُتَفَرِّدَ بالنِّعَمِ الظَّاهِرَةِ والبَاطِنَةِ، هُوَ الَّذِي لَا يَسْتَحِقُّ العِبَادَةَ إلَّا هُوَ، وأَنَّ سائِرَ الخَلْقِ لَيْسَ عِنْدَهُمْ خَلْقٌ، ولَا نَفْعٌ، ولَا دَفْعٌ، ولَنْ يُغْنُوا عَنْ أَحَدٍ مِنَ اللهِ شَيْئًا، ويَدْعُوهُمْ أيضًا إلَى هَذَا الأَصْلِ بِمَا يَتَمَدَّحُ بِهِ ويُثْنِي عَلَى نَفْسِهِ الكَرِيمَةِ، مِنْ تَفرُّدِهِ بصِفَاتِ العَظَمَةِ، والمَجْدِ، والجَلالِ، والكَمالِ، وأَنَّ مَنْ لَهُ هَذَا الكَمالُ المُطْلَقُ الَّذِي

لَا يُشارِكُهُ فِيهِ مُشارِكٌ أحَقُّ مَنْ أُخْلِصَتْ لَهُ الأعْمالُ الظاهِرَةُ والباطِنَةُ، ويُقَرِّرُ هَذَا التَّوْحِيدَ بأَنَّهُ هُوَ الحاكِمُ وحْدَهُ، فلَا يَحْكُمُ غَيْرُهُ شَرْعًا ولَا جَزاءً ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [يوسف:٤٠].

التعليق

هُنَا مَا قالَ: ولَا قَدَرًا؛ لِأَنَّهُ يَتَكَلَّمُ عَنْ تَقْرِيرِ الأُلُوهِيَّةِ، وإِلَّا فَلَا يَحْكُمُ غَيْرُهُ، لَا قَدَرًا ولَا شَرْعًا ولَا جَزاءً، ولَا يَحْكُمُ إِلَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

وتَارَةً يُقَرِّرُ هَذَا بذِكْرِ مَحاسِنِ التَّوْحِيدِ، وأَنَّهُ الدِّينُ الوَحِيدُ الواجِبُ شَرْعًا، ونَقْلًا، وفِطْرَةً، عَلَى جَمِيعِ العَبِيدِ، ويَذْكُرُ مَساوِئَ الشِّرْكِ، وقُبْحَهُ، واخْتِلَالَ عُقُولِ أَصْحابِهِ بَعْدَ اخْتِلَالِ أدْيانِهِمْ، وتَقْلِيبَ أفْئِدَتِهِمْ، وكَوْنَهُمْ فِي شَكٍّ وأمْرٍ مَرِيجٍ.

وتَارَةً يَدْعُو إِلَيْهِ بذِكْرِ مَا رَتَّبَ عَلَيْهِ مِنَ الجَزاءِ الحَسَنِ فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ، والحياةِ الطَّيِّبَةِ فِي الدُّورِ الثلاثِ، ومَا رَتَّبَ عَلَى ضِدِّهِ مِنَ العُقُوباتِ العاجِلَةِ والآجِلَةِ، وكَيْفَ كانَتْ عَواقِبُهُمْ أَسْوَأَ العَواقِبِ وشَرَّهَا.

وبالجُمْلَةِ: فكُلُّ خَيْرٍ عاجِلٍ وآجِلٍ فَإِنَّهُ مِنْ ثَمَرَاتِ التَّوْحِيدِ، وكُلُّ شَرٍّ عاجِلٍ وآجِلٍ فَإِنَّهُ مِنْ ثَمراتِ ضِدِّهِ، واللهُ أَعْلَمُ.

التعليق

معْنَى هَذِهِ القَاعِدَةِ: أنَّ اللهَ تَعالَى يُقَرِّرُ تَوْحِيدَ الأُلُوهِيَّةِ فِي القُرْآنِ إمَّا بكَمالِ صِفاتِهِ، وإمَّا بتَوْحِيدِ رُبُوبِيَّتِهِ؛ ولهَذَا يَسْتَدِلُّ اللهُ عَزَّوَجَلَّ عَلَى هَؤُلاءِ المُنْكِرِينَ للأُلُوهِيَّةِ

بالرُّبُوبِيَّةِ؛ إذْ أَنَّهُ يَلْزَمُهُمْ إِذَا أَقَرُّوا أَنَّ اللهَ وحْدَهُ هُوَ الرَّبُّ الخالِقُ المالِكُ المُدبِّرُ لجَمِيعِ الأُمُورِ يَلْزَمُهُمْ أنْ لَا يَعْبُدُوا إلَّا إِيَّاهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لهُ؛ ولهَذَا نَقُولُ:

إنَّ العَلاقَةَ بَيْنَ أقْسامِ التَّوْحِيدِ الثَّلاثَةِ، هيَ: أنَّ تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ مُسْتَلْزِمٌ لتَوْحِيدِ الأُلُوهِيَّةِ، وتَوْحِيدَ الأُلُوهِيَّةِ مُتَضَمِّنٌ لتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ، وتَوْحِيدَ الأَسْمَاءِ والصِّفَاتِ مِنْ تَمامِ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ؛ لِأَنَّهُ يَتَضَمَّنُ كَمالَ صِفاتِ الخالِقِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.





القَاعِدَةُ السَّابِعَةُ:

فِي طَرِيقَةِ القُرْآنِ فِي تَقْرِيرِ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ

هذَا الأَصْلُ الكَبِيرُ قـرَّرَهُ اللهُ فِي كِتابِهِ بالطُّـرُقِ المُتنوِّعَةِ الَّتِي يُعْرَفُ بِهَا كَمالُ صِدْقِهِ ﷺ فأخْبَرَ أَنَّهُ صَدَّقَ المُرْسَلِينَ، ودَعَا إِلَى مَا دَعَوْا إليْهِ، وأنَّ جَمِيعَ المَحاسِنِ الَّتِي فِي الأَنْبِيَاءِ فهِيَ فِي مُحَمَّدٍ ﷺ ومَا نُزِّهُوا عَنْهُ مِنَ النَّواقِصِ والعُيُوبِ فمُحَمَّدٌ أوْلاهُمْ وأحَقُّهُمْ بهذَا التَّنْزِيهِ، وأنَّ شَرِيعَتَهُ مُهَيْمِنَةٌ عَلَى جَمِيعِ الشَّرائِعِ، وكِتابَهُ مُهَيْمِنٌ عَلَى كُلِّ الكُتُبِ، فجَمِيعُ مَحاسِنِ الأدْيانِ والكُتُبِ قدْ جَمَعَهَا هَذَا الكِتَابُ وهذَا الدِّينُ، وفاقَ عَلَيْهَا بمَحاسِنَ وأوْصافٍ لَمْ تُوجَدْ فِي غَيْرِهِ، وقَرَّرَ نُبُوَّتَهُ بأَنَّهُ أُمِّيٌّ لا يَكْتُبُ ولَا يَقْرَأُ، ولَا جَالَسَ أحَدًا مِنْ أهْلِ العِلْمِ بالكُتُبِ السَّابِقَةِ، بلْ لمْ يُفاجَأِ النَّاسُ حَتَّى جَاءَهُمْ بهذَا الكِتابِ، الَّذِي لَوِ اجْتَمَعَتِ الإنْسُ والجِنُّ عَلَى أنْ يَأْتُوا بمِثْلِهِ مَا أَتَوْا، ولَا قَدَرُوا، ولَا هُوَ فِي اسْتِطَاعَتِهِمْ، ولوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لبَعْضٍ ظَهِيرًا، وأنَّهُ مُحالٌ مَعَ هَذَا أنْ يَكُونَ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ، أَوْ مُتَقَوِّلٌ، أَوْ مُتَوَهِّمٌ فِيمَا جاءَ بِهِ.

وأعادَ فِي القُرْآنِ وأبْدَى فِي هَذَا النَّوْعِ، وقرَّرَ ذَلِكَ بأَنَّهُ يُخْبِرُ بِقَصَصِ الأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ مُطَوَّلَةً عَلَى الوَجْهِ الواقِعِ، الَّذِي لَا يَسْتَرِيبُ فِيهِ أحَدٌ. ثُمَّ يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ طَرِيقٌ ولَا وُصُولٌ إِلَى هَذَا إِلَّا بِمَا أتاهُ اللهُ مِنَ الوَحْيِ، كمِثْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى لَمَّا ذَكَرَ قِصَّةَ مُوسَى مُطَوَّلَةً: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص:٤٦] ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ [القصص:٤٤] وكَمَا فِي

قَوْلِهِ: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران:٤٤]. ولمَّا ذَكَرَ قِصَّةَ يُوسُفَ وإِخْوَتِهِ مُطَوَّلَةً قالَ: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف:١٠٢].

فهذِهِ الأُمُورُ والإِخْبَارَاتُ المُفَصَّلَةُ الَّتِي يُفَصِّلُهَا تَفْصِيلًا -لَمْ يَتَمَكَّنْ أَهْلُ الكِتَابِ الَّذِينَ فِي وقْتِهِ ولَا مَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ تَكْذِيبِهِ فِيهَا ولَا مُعارَضَتِهِ- مِنْ أَكْبَرِ الأَدِلَّةِ عَلَى أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ حَقًّا.

وتَارَةً يُقَرِّرُ نُبُوَّتَهُ بكَمالِ حِكْمَةِ اللهِ وتَمامِ قُدْرَتِهِ، وأَنَّ تَأْيِيدَهُ لرَسُولِهِ، ونَصْرَهُ عَلَى أَعْدائِهِ، وتَمْكِينَهُ فِي الأَرْضِ مُوافِقٌ غايَةَ المُوافَقَةِ لِحِكْمَةِ اللهِ، وأَنَّ مَنْ قَدَحَ فِي رِسالَتِهِ فَقَدْ قَدَحَ فِي حِكْمَةِ اللهِ، وفِي قُدْرَتِهِ.

وكذلكَ نَصْرُهُ وتَأْيِيدُهُ الباهِرُ عَلَى الأُمَمِ الَّذِينَ هُمْ أَقْوَى أَهْلِ الأَرْضِ مِنْ آياتِ رِسالَتِهِ، وأَدِلَّةِ تَوْحِيدِهِ، كَما هُوَ ظاهِرٌ للمُتَأَمِّلِينَ.

وتَارَةً يُقَرِّرُ نُبُوَّتَهُ ورِسالَتَهُ بِما حَازَهُ مِنْ أَوْصافِ الكَمالِ، ومَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الأَخْلَاقِ الجَمِيلَةِ، وأَنَّ كُلَّ خُلُقٍ عالٍ سامٍ فلِرَسُولِ اللهِ ﷺ منْهُ أَعْلاهُ وأَكْمَلُهُ، فمَنْ عَظُمَتْ صِفاتُهُ وفَاقَتْ نُعُوتُهُ جَمِيعَ الخَلْقِ الَّتِي أَعْلاهَا الصِّدْقُ أَلَيْسَ هَذَا أَكْبَرَ الأَدِلَّةِ عَلَى أَنَّهُ رَسُولُ ربِّ العالَمِينَ، والمُصْطَفَى المُخْتَارُ مِنَ الخَلْقِ أَجْمَعِينَ؟!

وتارَةً يُقَرِّرُهَا بِما هُوَ مَوْجُودٌ فِي كُتُبِ الأَوَّلِينَ، وبِشاراتِ الأَنْبِياءِ والمُرْسَلِينَ، إِمَّا باسْمِهِ العَلَمِ، أَوْ بأَوْصافِهِ الجَلِيلَةِ، وأَوْصافِ أُمَّتِهِ، وأَوْصافِ دِينِهِ.

وتَارَةً يُقَرِّرُ رِسالَتَهُ بِما أَخْبَرَ بِهِ مِنَ الغُيُوبِ الماضِيَةِ، والغُيُوبِ المُسْتَقْبَلَةِ، الَّتِي وقَعَتْ فِي زَمانِهِ، والَّتِي لَا تَزالُ تَقَعُ فِي كُلِّ وقْتٍ؛ فلَوْلَا الوَحْيُ ما وصَلَ إِلَيْهِ شَيْءٌ

مِنْ هذَا، ولَا لَهُ ولَا لغَيْرِهِ طَرِيقٌ إِلَى العِلْمِ بهِ.

وتَارَةً يُقَـرِّرُهَا بحِفْظِـهِ إِيَّاهُ، وعِصْمَتِهِ لَـهُ مِنَ الخَلْـقِ، مَعَ تَكـالُبِ الأَعْداءِ وضَغْطِهِمْ، وجِدِّهِمُ التَّامِّ فِي الإِيقاعِ بِهِ بكُلِّ مَا فِي وُسْعِهِمْ، واللهُ يَعْصِمُهُ، ويَمْنَعُهُ، ويَنْصُرُهُ!! ومَا ذاكَ إِلَّا لِأَنَّهُ رَسُولُهُ حقًّا، وأَمِينُهُ عَلَى وحْيِهِ.

وتارَةً يُقَرِّرُ رِسالَتَهُ بذِكْرِ عَظَمَةِ مَا جاءَ بِهِ، وهُوَ القُرْآنُ الَّذِي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢] وتحدَّى أَعْداءَهُ ومَنْ كَفَرَ بِهِ أَنْ يَأْتُوا بمِثْلِهِ، أَوْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ، أَوْ بسُورَةٍ واحِدَةٍ؛ فعَجَزُوا، ونَكَصُوا، وبَاؤُوا بالخَيْبَةِ والفَشَلِ!! وهذَا القُرْآنُ أَكْبَرُ أَدِلَّةِ رِسالَتِهِ، وأَجَلُّهَا، وأَعَمُّهَا.

وتارَةً يُقَرِّرُ رِسالَتَهُ بِمَا أَظْهَرَ عَلَى يَدَيْهِ مِنَ المُعْجِزاتِ، ومَا أَجْرَى لَهُ مِنَ الخَوارِقِ والكَراماتِ الدَّالَّةِ -كُلُّ واحِدٍ بمُفْرَدِهِ مِنْهَا فكَيْفَ إِذَا اجْتَمَعَتْ؟!- عَلَى أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ الصادِقُ المَصْدُوقُ، الَّذِي لَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى، إِنْ هُوَ إِلَّا وحْيٌ يُوحَى.

وتَارَةً يُقَرِّرُهَا بعَظِيمِ شَفَقَتِهِ عَلَى الخَلْقِ، وحُنُوِّهِ الكامِلِ عَلَى أُمَّتِهِ، وأَنَّهُ بالمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ، وأَنَّهُ لَمْ يُوجَدْ، ولَـنْ يُوجَدَ، أَحَدٌ مِنَ الخَلْـقِ أَعْظَمُ شَفَقَـةً، وبِرًّا، وإِحْسَانًا، إِلَى الخَلْقِ مِنْهُ، وآثارُ ذَلِكَ ظاهِرَةٌ للنَّاظِرِينَ.

فهذِهِ الأُمُورُ والطُّرُقُ قَدْ أَكْثَرَ اللهُ مِنْ ذِكْرِهَا فِي كِتابِهِ، وقَرَّرَهَا بعِباراتٍ مُتَنَوِّعَةٍ ومَعانٍ مُفَصَّلَةٍ، وأَسَالِيبَ عَجِيبَةٍ، وأَمْثِلَتُهَا تَفُوقُ العَدَّ والإِحْصاءَ. واللهُ أَعْلَمُ.





القَاعِدَةُ الثامِنَةُ:

طَرِيقَةُ القُرْآنِ فِي تَقْرِيرِ المعادِ

وهذَا الأَصْلُ الثَّالِثُ مِنَ الأُصُولِ الَّتِي اتَّفَقَتْ عَلَيْهَا الرُّسُلُ والشَّرائِعُ كُلُّها: التَّوْحِيدُ، والرِّسالَةُ، وأَمْرُ المَعادِ، وحَشْرُ العِبادِ.

وهذَا قَدْ أَكْثَرَ اللهُ مِنْ ذِكْرِهِ فِي كِتابِهِ، وقَرَّرَهُ بطُرُقٍ مُتَنَوِّعَةٍ:

منْهَا: إخْبارُهُ، وهُوَ أَصْدَقُ القائِلِينَ، ومَعَ إكْثارِ اللهِ مِنْ ذِكْرِهِ، فقَدْ أَقْسَمَ عَلَيْهِ فِي ثَلاثَةِ مَواضِعَ مِنْ كِتابِهِ.

ومنْهَا: الإخْبارُ بكَمالِ قُدْرَةِ اللهِ تَعالَى، ونُفُوذِ مَشِيئَتِهِ، وأَنَّهُ لا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ، فإعادَةُ العِبادِ بَعْدَ مَوْتِهِمْ فَرْدٌ مِنْ أفْرادِ آثارِ قُدْرَتِهِ.

ومنْهَا: تَذْكِيرُهُ العِبادَ بالنَّشْأَةِ الأُولَى،...

التعليق

المُؤَلِّفُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى- يَقُولُ: إنَّهُ أَقْسَمَ عَلَيْهِ فِي ثَلاثَةِ مَواضِعَ مِنْ كِتابِهِ، والصَّحِيحُ أَنَّهُ أَمَرَ نَبِيَّهُ أَنْ يُقْسِمَ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ الإقْسامَ عَلَيْهِ كَثِيرٌ، أَكْثَرُ مِنْ ثَلاثَةِ مواضِعَ، لكنَّهُ أَمَرَ نَبِيَّهُ أَنْ يُقْسِمَ فِي ثَلاثَةِ مَواضِعَ:

فِي سُورَةِ يُونُسَ: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ [يونس:٥٣] وفِي سَبأٍ: ﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبأ:٣] وفِي التَّغابُنِ: ﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن:٧].

... وأنَّ الَّذِي أوْجَدَهُمْ ولَمْ يَكُونُوا شَيْئًا مَذْكُورًا لَا بُدَّ أنْ يُعِيدَهُمْ كَمَا بَدَأَهُمْ. وأعادَ هَذَا المَعْنَى فِي مَواضِعَ كَثِيرَةٍ، بأساليبَ مُتَنَوِّعَةٍ.

ومِنْهَا: إحْياؤُهُ الأرْضَ الهامِدَةَ المَيْتَةَ بَعْدَ مَوْتِهَا، وأنَّ الَّذِي أحْيَاهَا سيُحْيِي المَوْتَى. وقرَّرَ ذَلِكَ بقُدْرَتِهِ عَلَى مَا هُوَ أكْبَرُ مِنْ ذلكَ، وهُوَ خَلْقُ السَّماوَاتِ والأرْضِ، والمَخْلُوقاتِ العَظِيمَةِ، فمَتَى أثْبَتَ المُنْكِرُونَ لذلكَ -ولنْ يَقْدِرُوا عَلَى إنْكارِهِ- فلِأَيِّ شَيْءٍ يَسْتَبْعِدُونَ إحْياءَهُ المَوْتَى؟

وقرَّرَ ذَلِكَ بسَعَةِ عِلْمِهِ، وكَمالِ حِكْمَتِهِ، وأنَّهُ لا يَلِيقُ بِهِ ولَا يَحْسُنُ أنْ يَتْرُكَ خَلْقَهُ سُدًى مُهْمَلِينَ، لا يُؤْمَرُونَ، ولَا يُنْهَوْنَ، ولَا يُثَابُونَ، ولَا يُعاقَبُونَ!! وهذَا طَرِيقٌ قرَّرَ بِهِ النُّبُوَّةَ وأمْرَ المَعادِ.

ومِمَّا قرَّرَ بِهِ البَعْثَ، ومُجازاةَ المُحْسِنِينَ بإحْسانِهِمْ، والمُسِيئِينَ بإسَاءَتِهِمْ: مَا أخْبَرَ بِهِ مِنْ أيَّامِهِ فِي الأُمَمِ الماضِيَةِ، والقُرُونِ الغابِرَةِ، وكيْفَ نَجَّى الأنْبياءَ وأتْباعَهُمْ، وأهْلَكَ المُكَذِّبِينَ لهُمُ، المُنْكِرِينَ للبَعْثِ، ونَوَّعَ عَلَيْهِمُ العُقُوباتِ، وأحَلَّ بِهِمُ المَثُلاتِ، فهذَا جَزاءٌ مُعَجَّلٌ، ونُمُوذَجٌ مِنْ جَزاءِ الآخِرَةِ أراهُ اللهُ عِبادَهُ؛ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ، ويَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ.

ومِنْ ذَلِكَ مَا أَرَى اللهُ عِبادَهُ مِنْ إحيائِهِ الأمْوَاتَ فِي الدُّنْيَا، كَمَا ذَكَرَهُ اللهُ عَنْ صاحِبِ البَقَرَةِ، والأُلُوفِ مِنْ بَنِي إسْرَائِيلَ، والَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وهِيَ خاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا، وقِصَّةِ إبْراهِيمَ الخَلِيلِ والطُّيُورِ، وإحْياءِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ للأمْواتِ، وغيْرِهَا مِمَّا أَرَاهُ اللهُ عِبادَهُ فِي هَذِهِ الدَّارِ؛ لِيَعْلَمُوا أنَّهُ قَوِيٌّ ذُو اقْتِدَارٍ، وأنَّ العِبادَ لَا بُدَّ أنْ يَرِدُوا دَارَ القَرَارِ، إمَّا الجَنَّةَ أَوِ النَّارَ. وهذِهِ المَعانِي أبْدَاهَا اللهُ وأعَادَهَا فِي مَحالٍّ كَثِيرَةٍ. واللهُ أَعْلَمُ.

التعليق

وإنَّما أَبْدَى اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وأعادَ لسَبَبَيْنِ:

السَّبَبُ الأَوَّلُ: قُوَّةُ المُنازِعِ والمُكابِرِ والمُعانِدِ والمُنْكِرِ، وكُلَّما قَوِيَ الإنْكارُ وكَثُرَ المُعانِدُ، فَإِنَّهُ لَا بُدَّ أنْ يُكرِّرَ الأمْرَ؛ رَدْعًا لَهُ، وإِثْباتًا للحَقِّ.

والثَّاني: لِأَهَمِّيَّةِ الإيمانِ باليَوْمِ الآخِرِ؛ لِأَنَّ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ باليَوْمِ الآخِرِ لنْ يَعْمَلَ، فإِنَّ الإنْسانَ إِذَا كَانَ يَقُولُ: مَا ثَمَّ بَعْثٌ ولَا جَزَاءٌ ولَا حِسابٌ، فهُوَ لَنْ يَعْمَلَ. مَا دامَ يَقُولُ: أَنَا إنْ فَعَلْتُ الخَطِيئَةَ، أَوْ فَعَلْتُ حَسَنَةً، فهُوَ عَلَيَّ سَواءٌ، فلنْ يَعْمَلَ؛ فلهَذَا كَانَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ يُكْثِرُ مِنْ ذِكْرِ البَعْثِ بَعْدَ المَوْتِ، وضَرْبِ الأَمْثالِ لهُ، والإقْسامِ عَلَى ثُبُوتِهِ، وغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا أشارَ إِلَيْهِ الشَّيْخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لهذَا السَّبَبِ.





القَاعِدَةُ التَّاسِعَةُ:

فِي طَرِيقَةِ القُرْآنِ فِي أَمْرِ المُؤْمِنِينَ وخِطابِهِمْ بالأحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ

قَدْ أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بالدُّعاءِ إِلَى سَبيلِهِ بالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، أيْ: بأقْرَبِ طَرِيقٍ مُوَصِّلٍ للمَقْصُودِ، مُحَصِّلٍ للمَطْلُوبِ. ولَا شَكَّ أنَّ الطُّرُقَ الَّتِي سَلَكَهَا اللهُ فِي خِطابِ عِبادِهِ المُؤْمِنِينَ بالأحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ هِيَ أَحْسَنُهَا وأقْرَبُهَا، فأكْثَرُ مَا يَدْعُوهُمْ إِلَى الخَيْرِ، ويَنْهَاهُمْ عَنِ الشَّرِّ بالوَصْفِ الَّذِي مَنَّ عليْهِمْ بِهِ، وهُوَ الإيمانُ؛ فيَقُولُ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا افْعَلُوا كذَا، واتْرُكُوا كذَا؛ لأنَّ فِي ذَلِكَ دَعْوَةً لَهُمْ مِنْ وجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: مِنْ جِهَةِ الحَثِّ عَلَى القِيامِ بلَوازِمِ الإيمانِ، وشُرُوطِهِ، ومُكَمِّلاتِهِ، فكَأَنَّهُ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُومُوا بِمَا يَقْتَضِيهِ إيمانُكُمْ، مِنِ امْتِثالِ الأوامِرِ، واجْتِنَابِ النَّواهِي، والتَّخَلُّقِ بكُلِّ خُلُقٍ حَمِيدٍ، والتَّجَنُّبِ لكُلِّ خُلُقٍ رَذِيلٍ، فإنَّ الإيمانَ الحَقِيقِيَّ هكَذَا يَقْتَضِي؛ ولهَذَا أَجْمَعَ السَّلَفُ أنَّ الإيمانَ يَزِيدُ ويَنْقُصُ، وأنَّ جَمِيعَ شَرائِعِ الدِّينِ الظَّاهِرَةِ والبَاطِنَةِ مِنَ الإيمانِ ولَوازِمِهِ، كَمَا دَلَّتْ عَلَى هَذَا الأَصْلِ الأَدِلَّةُ الكَثِيرَةُ مِنَ الكِتَابِ والسُّنَّةِ، وهذَا أَحدُهَا؛ حَيْثُ يُصَدِّرُ اللهُ أَمْرَ المُؤْمِنِينَ بقَوْلِهِ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ أَوْ يُعَلِّقُ فِعْلَ ذَلِكَ عَلَى الإيمانِ، وأَنَّهُ لَا يَتِمُّ الإيمانُ إِلَّا بِذَلِكَ المَذْكُورِ.

والوَجْهُ الثَّانِي: أَنَّهُ يَدْعُوهُمْ بقَوْلِهِ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ افْعَلُوا كَذَا، أَوِ اتْرُكُوا كَذَا». أَوْ يُعَلِّقُ ذَلِكَ بالإيمانِ، يَدْعُوهُمْ بِمِنَّتِهِ عَلَيْهِمْ بهذِهِ المِنَّةِ الَّتِي هِيَ أَجَلُّ

المِنَنِ، أيْ: يَا مَنْ مَنَّ اللهُ عليهِمْ بالإيمانِ قُومُوا بشُكْرِ هَذِهِ النِّعْمَةِ بِفِعْلِ كذَا وتَرْكِ كذَا.

التعليق

يَقُولُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

أَحَدُهُمَا: مِنْ جِهَةِ الحَثِّ عَلَى القِيامِ بلَوَازِمِ الإيمانِ وشُرُوطِهِ.

والثَّانِي: أنْ يَدْعُوهُمْ بقَوْلِهِ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ افْعَلُوا كذَا واتْرُكُوا كذَا، أَوْ يُعَلِّقُ ذَلِكَ بالإيمانِ، يَدْعُوهُمْ بمِنَّتِهِ عليْهِمْ بهذِهِ المِنَّةِ الَّتِي هِيَ أَجَلُّ المِنَنِ، ومُنادَاتُهُمْ بـ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ لأجْلِ إغْرائِهِمْ وحَثِّهِمْ عَلَى أنْ يَفْعَلُوا وأنَّ ذَلِكَ مِنْ مُقْتَضَى الإيمانِ. الثَّانِي: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ إشْعارٌ لهُمْ بمِنَّةِ اللهِ عليهِمْ بالإيمانِ، يعْنِي: هَذِهِ النِّعْمَةُ الَّتِي أنْعمْتُ بِهَا عَلَيْكُمْ، وهيَ الإيمانُ الَّذِي نَادَيْتُكُمْ بِهِ.

فالوَجْهُ الأوَّلُ: دَعْوَةٌ لهُمْ أنْ يُتَمِّمُوا إيمانَهُمْ ويُكَمِّلُوهُ بالشَّرائِعِ الظَّاهِرَةِ والبَاطِنَةِ.

والوَجْهُ الثَّانِي: دَعْوَةٌ لهُمْ إِلَى شُكْرِ نِعْمَةِ الإيمانِ ببَيَانِ تَفْصِيلِ هَذَا الشُّكْرِ، وهُوَ الانْقيادُ التَّامُّ لأَمْرِهِ ونَهْيِهِ.

وتَارَةً يَدْعُو المُؤْمِنِينَ إِلَى الخَيْرِ، ويَنْهَاهُمْ عَنِ الشَّرِّ، بذِكْرِ آثارِ الخَيْرِ، وعَوَاقِبِهِ الحَمِيدَةِ، العَاجِلَةِ والآجِلَةِ، وبذِكْرِ آثارِ الشَّرِّ، وعَوَاقِبِهِ الوَخِيمَةِ، فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ.

وتارَةً يَدْعُوهُمْ إِلَى ذَلِكَ بذِكْرِ نِعَمِهِ المُتَنوِّعَةِ، وآلائِهِ الجَزِيلَةِ، وأنَّ النِّعَمَ تَقْتَضِي مِنْهُمُ القيامَ بشُكْرِهَا، وشُكْرُهَا هُوَ القِيامُ بحُقُوقِ الإيمانِ.

وتارَةً يدْعُوهُمْ إِلَى ذَلِكَ بالتَّرْغِيبِ والتَّرْهِيبِ، وبذِكْرِ مَا أَعَدَّ اللهُ للمُؤْمِنِينَ الطَّائِعِينَ مِنَ الثَّوَابِ، ومَا لغَيْرِهِمْ مِنَ العِقَابِ.

وتَارَةً يَدْعُوهُمْ إِلَى ذَلِكَ بذِكْرِ مَا لَهُ مِنَ الأسْمَاءِ الحُسْنَى، ومَا لَهُ مِنَ الحقِّ العَظِيمِ عَلَى عِبادِهِ، وأنَّ حَقَّهُ عليْهِمْ أنْ يَقُومُوا بعُبُودِيَّتِهِ ظاهِرًا وباطِنًا، ويَتَعَبَّدُوا لَهُ ويَدْعُوهُ بأسْمائِهِ الحُسْنَى، وصِفاتِهِ المُقَدَّسَةِ؛ فالعِبادَاتُ كُلُّهَا تَعْظِيمٌ وتَكْبِيرٌ للهِ، وإجْلالٌ وإكْرَامٌ، وتَوَدُّدٌ إليْهِ، وتَقَرُّبٌ منْهُ.

وتارَةً يَدْعُوهُمْ إِلَى ذَلِكَ لأجْلِ أنْ يَتَّخِذُوهُ وحْدَهُ وَلِيًّا، ومَلْجأً، ومَلاذًا، ومَعَاذًا، ومَفْزَعًا إلَيْهِ فِي الأُمُورِ كُلِّهَا، وإنابَةً إلَيْهِ فِي كُلِّ حالٍ، ويُخْبِرُهُمْ أنَّ هَذَا هُوَ أَصْلُ سَعادَةِ العَبْدِ وصَلاحِهِ وفَلاحِهِ، وأَنَّهُ إنْ لَمْ يَدْخُلْ فِي وِلايَةِ اللهِ وتَولِّيهِ الخاصِّ تَولَّاهُ عَدُوُّهُ الَّذِي يُرِيدُ لَهُ الشَّرَّ والشَّقاءَ، ويُمَنِّيهِ ويَغُرُّهُ حَتَّى يُفَوِّتَهُ المنافِعَ والمصالِحَ، ويُوقِعَهُ فِي المَهالِكِ، وهذَا كُلُّهُ مَبْسُوطٌ فِي القُرْآنِ بعِباراتٍ مُتَنَوِّعَةٍ.

وتارَةً يَحُثُّهُمْ عَلَى ذلكَ، ويُحَذِّرُهُمْ مِنَ التَّشَبُّهِ بأهْلِ الغَفْلَةِ، والإعْرَاضِ، والأدْيانِ المُبَدَّلَةِ؛ لئَلَّا يَلْحَقَهُمْ مِنَ اللَّوْمِ مَا لَحِقَ أُولَئِكَ الأقْوَامَ، كَقَوْلِهِ: ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [يونس:٩٥] ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام:٥٢] ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف:٢٠٥] ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد:١٦] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الآياتِ.



القَاعِدَةُ العَاشِرَةُ:

فِي الطُّرُقِ الَّتِي فِي القُرْآنِ لدَعْوَةِ الكُفَّارِ عَلَى اخْتِلَافِ مِلَلِهِمْ ونِحَلِهِمْ

يَدْعُوهُمْ إِلَى الدِّينِ الإِسْلَامِيِّ والإِيمانِ بمُحَمَّدٍ ﷺ بِمَا يَصِفُهُ مِنْ مَحَاسِنِ شَرْعِهِ ودِينِهِ، ومَا يَذْكُرُهُ مِنْ بَراهِينِ رِسالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ لِيَهْتَدِيَ مَنْ قَصْدُهُ الحَقُّ والإِنْصافُ، وتَقُومُ الحُجَّةُ عَلَى المُعانِدِ. وهذِهِ أَعْظَمُ طَرِيقٍ يُدْعَى بِهَا جَمِيعُ المُخالِفِينَ لِدِينِ الإِسْلَامِ، فإِنَّ مَحاسِنَ دِينِ الإِسْلَامِ، ومَحاسِنَ النَّبِيِّ ﷺ وآياتِهِ، وبَرَاهِينَهُ، فِيهَا كِفايَةٌ تامَّةٌ للدَّعْوَةِ، بقَطْعِ النَّظَرِ عَنْ إِبْطالِ شُبهِهِمْ، ومَا يَحْتَجُّونَ بهِ، فإِنَّ الحَقَّ إِذَا اتَّضَحَ عُلِمَ أَنَّ مَا خَالَفَهُ فهُوَ باطِلٌ ضَلالٌ.

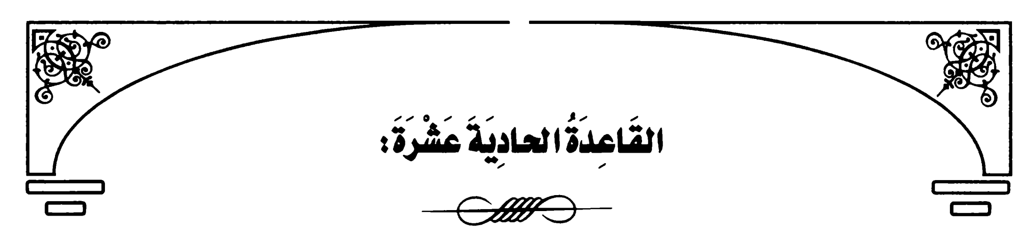
ويَدْعُوهُمْ بِمَا يُخَوِّفُهُمْ مِنْ أَخذاتِ الأُمَمِ، وعُقُوباتِ الدُّنْيَا، وعُقُوباتِ الآخِرَةِ، وبِمَا فِي الأَدْيانِ الباطِلَةِ مِنْ أَنْواعِ الشُّرُورِ، والعَوَاقِبِ الخَبِيثَةِ، ويُحَذِّرُهُمْ مِنْ طاعَةِ رُؤساءِ الشَّرِّ، ودُعاةِ النَّارِ، وأَنَّهُمْ لا بُدَّ أَنْ تَتَقَطَّعَ نُفُوسُهُمْ عَلَى طَاعَتِهِمْ حَسَرَاتٍ، وأَنَّهُمْ يَتَمَنَّوْنَ أَنْ لَوْ أَطَاعُوا الرَّسُولَ ولَمْ يُطِيعُوا السَّادَةَ والرُّؤَساءَ، وأَنَّ مَوَدَّتَهُمْ وصَدَاقَتَهُمْ سَتَتَبَدَّلُ بَغْضاءَ وعَدَاوَةً.

ويَدْعُوهُمْ أَيضًا بنَحْوِ مَا يَدْعُو المُؤْمِنِينَ بذِكْرِ آلائِهِ ونِعَمِهِ، وأَنَّ المُنْفَرِدَ بالخَلْقِ والتَّدْبِيرِ والنِّعَمِ الظَّاهِرَةِ والبَاطِنَةِ هُوَ الَّذِي يَجِبُ عَلَى العِبادِ طَاعَتُهُ، وامْتِثَالُ أَمْرِهِ، واجْتِنَابِ نَهْيِهِ.

ويَدْعُوهُمْ أيضًا بشَرْحِ مَا فِي أدْيانِهِمُ البَاطِلَةِ، ومَا احْتَوَتْ عَلَيْهِ مِنَ القُبْحِ، والمُقَارَنَةِ بَيْنَهَا وبَيْنَ دِينِ الإسْلَامِ؛ لِيَتَبَيَّنَ ويَتَّضِحَ مَا يَجِبُ إيثارُهُ ومَا يَتعَيَّنُ اخْتِيَارُهُ.

ويَدْعُوهُمْ بالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، فَإِذَا وَصَلَتْ بِهِـمُ الحالُ إِلَى العِنادِ والمُكـابَرَةِ الظَّاهِرَةِ تَوَعَّدَهُمْ بالعُقُوباتِ الصَّوارِمِ، وبَيَّنَ للنَّاسِ طَرِيقَتَهُمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا، وأَنَّهُمْ لَمْ يُخالِفُوا الدِّينَ جَهْلًا وضَلالًا، أَوْ لِقيامِ شُبْهَةٍ أَوْجَبَتْ لَهُمُ التَّوَقُّفَ، وإِنَّمَا ذَلِكَ جُحُودٌ ومُكابَرَةٌ وعِنادٌ، ويُبَيِّنُ مَعَ ذَلِكَ الأَسْبَابَ الَّتِي مَنَعَتْهُمْ مِنْ مُتابَعَةِ الهُدَى، وأَنَّها رِياساتٌ وأَغْرَاضٌ نَفْسِيَّةٌ، وأَنَّهُمْ لَمَّا آثَرُوا الباطِلَ عَلَى الحَقِّ طُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ، وخُتِمَ عَلَيْهَا، وسُدَّ عَلَيْهِمْ طُرُقُ الهُدَى؛ عُقُوبَةً لَهُمْ عَلَى إعْراضِهِمْ، وَتَوَلِّيهِمْ للشَّيْطَانِ، وتَخَلِّيهِمْ مِنْ وِلايَةِ الرَّحْمَنِ، وأَنَّهُ وَلَّاهُمْ مَا تَوَلَّوا لِأَنْفُسِهِمْ، وهذِهِ المَعانِي الجَزِيلَةُ مَبْسُوطَةٌ فِي القُرْآنِ فِي مَواضِعَ كَثِيرَةٍ، فتَأَمَّلْ وتدَبَّرِ القُرْآنَ تَجِدْهَا واضِحَةً جَلِيَّةً. واللهُ أَعْلَمُ.





القَاعِدَةُ الحادِيَةَ عَشْرَةَ:

كَمَا أَنَّ المُفَسِّرَ للقُرْآنِ يُرَاعِي مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ أَلْفَاظُهُ مُطَابِقَةً، ومَا دَخَلَ فِي ضِمْنِهَا، فَعَلَيْهِ أَنْ يُرَاعِيَ لَوَازِمَ تِلْكَ المَعَانِي، ومَا تَسْتَدْعِيهِ مِنَ المَعَانِي الَّتِي لَمْ يُصَرِّحِ اللَّفْظُ بِذِكْرِهَا

التعليق

فَتَحَ لَنَا المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي هَذِهِ العِبارَةِ أَبْوابَ الدَّلالَةِ، وأنَّها ثَلاثَةُ أَقْسامٍ: دَلالَةُ مُطابَقَةٍ، ودَلالَةُ تَضَمُّنٍ، ودَلالَةُ الْتِزامٍ. فدَلالَةُ المُطابَقَةِ هِيَ: دَلالَةُ اللَّفْظِ عَلَى جَمِيعِ مَعْنَاهُ. ودَلالَةُ التَّضَمُّنِ: دَلالَتُهُ عَلَى جُزْءٍ مِنْ مَعْنَاهُ. ودَلالَةُ الالْتِزامِ: دَلالَتُهُ عَلَى لازِمِ مَعْنَاهُ، ودَلالَةُ اللَّازِمِ عَلَى أمْرٍ خارِجٍ.

مِثالُ ذَلِكَ إِذَا قُلْتَ: هَذِهِ دَارٌ، فدَلالَةُ هَذِهِ الكَلِمَةِ عَلَى مَا فِي الدَّارِ مِنَ الغُرَفِ والحُجَرِ والفَسَحَاتِ والحَمَّاماتِ ومَا أَشْبَهَهَا دَلالَةُ مُطابَقَةٍ، ودَلالَتُها عَلَى كُلِّ غُرْفَةٍ بمُفْرَدِهَا دَلالَةُ تَضَمُّنٍ، ودَلالَتُها عَلَى أَنَّ لهَذِهِ الدَّارِ بانيًا دَلالَةُ الْتِزامٍ.

هذِهِ أَنْواعُ الدَّلالاتِ الثَّلاثَةِ، ولَا شَكَّ أَنَّ اللهَ إِذَا فَتَحَ عَلَى الإنْسَانِ مَعْرِفَةَ هَذِهِ الدَّلالاتِ فَإِنَّهُ يُحَصِّلُ عِلْمًا كَثِيرًا بأدِلَّةٍ قَلِيلَةٍ؛ ولهَذَا تَجِدُ بَعْضَ العُلَماءِ يَسْتَنْبِطُ مِنَ الآيَةِ أَحْكامًا كَثِيرَةً، وآخَرِينَ لَا يَسْتَنْبِطُونَ مِنْهَا إِلَّا بَعْضَ هَذِهِ الأَحْكَامِ، كُلُّ ذَلِكَ بِمَا يَفْتَحِ اللهُ عَلَى الإنْسَانِ مِنَ الفَهْمِ فِي أَنْوَاعِ الدَّلالَةِ.



وهذِهِ القَاعِدَةُ مِنْ أَجَلِّ قَوَاعِدِ التَفْسِيرِ وأَنْفَعِهَا، وتَسْتَدْعِي قُوَّةَ فِكْرٍ، وحُسْنَ تَدَبُّرٍ، وصِحَّةَ قَصْدٍ؛ فإِنَّ الَّذِي أَنْزَلَهُ هُوَ العالِمُ بكُلِّ شَيْءٍ، الَّذِي أَحاطَ عِلْمُهُ بِمَا تَحْتَوِي عَلَيْهِ القُلُوبُ، ومَا تَضَمَّنَهُ المَعَانِي، ومَا يَتْبَعُهَا ويَتَقَدَّمُهَا وتَتَوَقَّفُ هِيَ عليْهِ؛ ولهَذَا أَجْمَعَ العُلَماءُ عَلَى الاسْتِدْلالِ باللَّازِمِ فِي كَلامِ اللهِ لهذَا السَّبَبِ.

والطَّرِيقُ إِلَى سُلُوكِ هَذَا الأَصْلِ النَّافِعِ: أَنْ تَفْهَمَ مَا دلَّ عَلَيْهِ اللَّفْظُ مِنَ المَعَانِي، فَإِذَا فَهِمْتَهَا فَهْمًا جَيِّدًا ففَكِّرْ فِي الأُمُورِ الَّتِي تَتَوَقَّفُ عَلَيْهَا، ولَا تَحْصُلُ بدُونِهَا، ومَا يُشْتَرَطُ لَهَا، وكذلكَ فَكِّرْ فِيمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا، ومَا يَتَفَرَّعُ عنْهَا، ويَنْبَنِي عَلَيْهَا، ولَا تَزَالُ تُفَكِّرُ فِي هَذِهِ الأُمُورِ حَتَّى يَصِيرَ لكَ مَلَكَةٌ جَيِّدَةٌ فِي الغَوْصِ عَلَى المَعَانِي الدَّقِيقَةِ؛ فإِنَّ القُرْآنَ حَقٌّ، ولازِمُ الحقِّ حَقٌّ، ومَا يَتَوَقَّفُ عَلَى الحَقِّ حَقٌّ، ومَا يَتَفَرَّعُ عَلَى الحَقِّ حَقٌّ. فمَنْ وُفِّقَ لهذِهِ الطَّرِيقَةِ، وأَعْطَاهُ اللهُ تَوْفِيقًا ونُورًا، انْفَتَحَتْ لَهُ العُلُومُ النَّافِعَةُ، والمَعَارِفُ الجَلِيلَةُ.

ولْنُمَثِّلْ لهذَا الأَصْلِ أَمْثِلَةً تُوَضِّحُهُ:

منْهَا: فِي أَسْمائِهِ الحُسْنَى (الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ) فإِنَّهَا تَدُلُّ بلَفْظِهَا عَلَى وصْفِهِ بالرَّحْمَةِ، وسَعَةِ رَحْمَتِهِ، فَإِذَا فَهِمْتَ أَنَّ الرَّحْمَةَ الَّتِي لَا يُشْبِهُهَا رَحْمَةُ أَحَدٍ هِيَ وصْفُهُ الثَّابِتُ، وأَنَّهُ أَوْصَلَ رَحْمَتَهُ إِلَى كُلِّ مَخْلُوقٍ، ولَمْ يَخْلُ أَحدٌ مِنْ رَحْمَتِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، عَرفْتَ أَنَّ هَذَا الوَصْفَ يَدُلُّ عَلَى كَمالِ حَياتِهِ، وكَمالِ قُدْرَتِهِ، وإِحاطَةِ عِلْمِهِ، ونُفُوذِ مَشِيئَتِهِ، وكَمالِ حِكْمَتِهِ؛ لِتَوَقُّفِ الرَّحْمَةِ عَلَى ذَلِكَ كُلِّهِ، ثُمَّ اسْتَدْلَلْتَ بسَعَةِ رَحْمَتِهِ عَلَى أَنَّ شَرْعَهُ نُورٌ ورَحْمَةٌ؛ ولهَذَا يُعَلِّلُ تَعَالَى كَثِيرًا مِنَ الأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ برَحْمَتِهِ وإِحْسانِهِ؛ لِأَنَّهَا مِنْ مُقْتَضَاهُ وأَثَرِهِ.

ومنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ [النساء:٥٨] فَإِذَا فَهِمْتَ أَنَّ اللهَ أَمَرَ بأداءِ الأمَاناتِ كُلِّهَا إِلَى أَهْلِهَا اسْتَدْلَلْتَ بِذَلِكَ عَلَى وُجُوبِ حِفْظِ الأماناتِ، وعَدَمِ إِضَاعَتِهَا والتَّفْرِيطِ والتَّعدِّي فيها، وأَنَّهُ لَا يَتِمُّ الأداءُ لأَهْلِهَا إِلَّا بذلكَ...

التعليق

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ هَذَا أَمْرٌ بأداءِ الأمانَةِ يَسْتَلْزِمُ أَنْ نَحْفَظَهَا؛ لِأَنَّهُ لَا يَتِمُّ الأداءُ إِلَّا بذلكَ؛ ولهَذَا لَوْ أَعطَيْتَنِي أَمَانَةً ووضَعْتُهَا عَلَى العَتَبَةِ عِنْدَ البابِ، فإِنِّي مَا أَدَّيْتُها طَبْعًا.

فإِنْ قِيلَ: مَا هُوَ الدَّلِيلُ عَلَى وُجُوبِ حِفْظِ الأمانَةِ فِي حِرْزِ مِثْلِهَا وعَدَمِ التَّعَدِّي فِيهَا وعَدَمِ التَّفْرِيطِ؟

قُلْنَا: الدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ لِأَنَّهُ لَا يَتِمُّ الأداءُ إِلَّا بذلكَ. وهذِهِ دَلالَةُ الْتِزَامٍ.

... وإِذَا فَهِمْتَ أَنَّ اللهَ أَمَرَ بالحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ بالعَدْلِ اسْتَدْلَلْتَ بِذَلِكَ عَلَى أَنَّ كُلَّ حَاكِمٍ بَيْنَ النَّاسِ فِي الأُمُورِ الكِبارِ والصِّغارِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ عَالِمًا بِمَا يَحْكُمُ بِهِ، فإِنْ كَانَ حاكِمًا عامًّا فَلَا بُدَّ أَنْ يُحَصِّلَ مِنَ العِلْمِ مَا يُؤَهِّلُهُ إِلَى ذلكَ، وإِنْ كَانَ حاكِمًا ببعْضِ الأُمُورِ الجُزْئِيَّةِ كالشِّقاقِ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ -حَيْثُ أَمَرَ اللهُ أَنْ نَبْعَثَ حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا- فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ عارِفًا بهذِهِ الأُمُورِ الَّتِي يُرِيدُ أَنْ يَحْكُمَ بِهَا، ويَعْرِفَ الطَّرِيقَ الَّتِي تُوَصِّلُهُ إليْهَا.

وبهذَا بِعَيْنِهِ نَسْتَدِلُّ عَلَى وُجُوبِ طَلَبِ العِلْمِ، وأَنَّهُ فَرْضُ عَيْنٍ فِي كُلِّ أمْرٍ يَحْتَاجُهُ العَبْدُ؛ فإنَّ اللهَ أمَرَنَا بأوَامِرَ كَثِيرَةٍ، ونَهَانَا عَنْ أُمُورٍ كَثِيرَةٍ، ومِنَ المَعْلُومِ أنَّ امْتِثَالَ أمْرِهِ واجْتِنَابَ نَهْيِهِ يَتَوَقَّفُ عَلَى مَعْرِفَتِهِ وعِلْمِهِ، فكَيْفَ يُتَصَوَّرُ أنْ يَمْتَثِلَ الجاهِلُ الأمْرَ الَّذِي لَا يَعْرِفُهُ، أَوْ يَدَعَ الأمْرَ الَّذِي يَعْرِفُهُ؟!

وكذلكَ أَمْرُهُ لِعِبَادِهِ أنْ يَأْمُرُوا بالمَعْرُوفِ، ويَنْهَوْا عَنِ المُنْكَرِ، يَتَوَقَّفُ ذَلِكَ عَلَى العِلْمِ بالمَعْرُوفِ والمُنْكَرِ؛ ليَأْمُرَ بهذَا، ويَنْهَى عَنْ هذا، فما لَا يَتِمُّ الوَاجِبُ إلَّا بِهِ فهُوَ واجِبٌ، ومَا لَا يَحْصُلُ تَرْكُ المَنْهِيِّ عَنْهُ إلَّا بِهِ فهُوَ واجِبٌ؛ فالعِلْمُ بالإيمانِ والعَمَلِ الصَّالِحِ مُتَقَدِّمٌ عَلَى القِيامِ بهِ، والعِلْمُ بضِدِّ ذَلِكَ مُتقَدِّمٌ عَلَى تَرْكِهِ؛ لاسْتِحَالَةِ تَرْكِ مَا لَا يَعْرِفُهُ العَبْدُ قَصْدًا وتَقَرُّبًا وتَعَبُّدًا.

التعليق

كُلُّ هَذِهِ الأمْثِلَةِ الْتِزَامٌ، إِذَا أمَرَنَا اللهُ بالصَّلاةِ فهُوَ أمْرٌ بِهَا، وبِما لَا تَتِمُّ إلَّا بِهَا. إِذَا أمَرَنَا بالزَّكَاةِ، فهُوَ أمْرٌ بِهَا وبِما لَا تَتِمُّ إلَّا بِهَا، فهذَا الرَّجُلُ الَّذِي عِنْدَهُ مالٌ يَجِبُ عَلَيْهِ أنْ يَتَعَلَّمَ أحْكامَ الزَّكَاةِ، والَّذِي مَا عِنْدَهُ مالٌ لَا يَجِبُ عَلَيْهِ إلَّا إِذَا كَانَ مِنْ بابِ فُرُوضِ الكِفايَةِ.

والإنْسَانُ الَّذِي يَجِبُ عَلَيْهِ الحجُّ يَجِبُ عَلَيْهِ أنْ يَتَعَلَّمَ أحْكامَ الحَجِّ بخِلافِ الآخَرِ، والآمِرُ بالمَعْرُوفِ النَّاهِي عَنِ المُنْكَرِ لَا يُمْكِنُ أنْ يَأْمُرَ ويَنْهَى إلَّا وهُوَ عالِمٌ بالحُكْمِ الشَّرْعِيِّ، وعالِمٌ بالمَعْرُوفِ وعالِمٌ بالمُنْكَرِ.

وعَلَى كُلِّ حَالٍ: مَا لَا يَتِمُّ الوَاجِبُ إلَّا بِهِ فهُوَ واجِبٌ. وهذِهِ القَاعِدَةُ الفِقْهِيَّةُ الأُصُولِيَّةُ هِيَ مِنْ هَذَا البابِ، دَلالَتُهَا دَلالَةُ الْتِزَامٍ، فهُوَ وُجُوبُ الْتِزَامٍ.

ومِنْ ذلكَ: الأمْرُ بالجِهادِ، والحَثُّ عليْهِ، مِنْ لازِمِ ذلكَ: الأمْرُ بكُلِّ مَا لَا يَتِمُّ الجِهَادُ إلَّا بهِ، مِنْ تَعَلُّمِ الرَّمْيِ، والرُّكوبِ، وعَمَلِ آلاتِهِ وصِناعاتِهِ، مَعَ أنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ داخِلٌ دُخُولَ مُطابَقَةٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال:٦٠] فإنَّهَا تتَنَاوَلُ كُلَّ قُوَّةٍ عَقْلِيَّةٍ، وبَدَنِيَّةٍ، وسِياسِيَّةٍ، ونَحْوِهَا.

ومِنْ ذلكَ: أنَّ اللهَ اسْتَشْهَدَ بأهْلِ العِلْمِ عَلَى تَوْحِيدِهِ، وقَرَنَ شَهادَتَهُمْ بشَهادَتِهِ وشَهادَةِ مَلائِكَتِهِ، وهَذَا يَدُلُّ عَلَى عَدالَتِهِمْ، وأَنَّهُمْ حُجَّةٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى عَلَى مَنْ كَذَّبَ، بمَنْزِلَةِ آياتِهِ وأدِلَّتِهِ.

التعليق

وهذَا واضِحٌ؛ لِأَنَّ أهْلَ العِلْمِ هُمُ الَّذِينَ تُقْبَلُ شَهادَتُهُمْ فِيمَا عَلِمُوا. أمَّا الجاهِلُ فلَا؛ ولهَذَا لَا يَجُوزُ للإنْسانِ أنْ يَشْهَدَ إلَّا بِمَا عَلِمَ، فلَا يَشْهَدُ بِمَا ظَنَّ، إلَّا أنْ يَشْهَدَ بِهِ عَلَى وجْهِهِ، فيَقُولُ: هَذَا الرَّجُلُ أَتَى مَا تَدُلُّ القَرِينَةُ عَلَى أَنَّهُ فَعَلَ كذَا.

الحاصِلُ أنَّ الشَّهادَةَ لَا بُـدَّ لَهَا مِنْ عِلْمٍ؛ ولهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران:١٨] أي: شَهِدُوا. أمَّا الجاهِلُ فلَيْسَ عنْدَهُ مِنَ الآياتِ الدَّالَّةِ عَلَى وحْدَانِيَّةِ اللهِ مَا يَسْتَطِيعُ أنْ يَشْهَدَ بذلكَ؛ ولهَذَا لَا يَجُوزُ أنْ تَسْتَفْتِيَ إلَّا مَنْ تَعْلَمُ أَنَّهُ عالِمٌ، أَوْ يغْلِبُ عَلَى ظَنِّكَ أَنَّهُ عالِمٌ، فَإِذَا أَتَيْتَ بَلَدًا لَا تعْرِفُ أهْلَهَا ولَا تَعْرِفُ مَنْ هُوَ العالِمُ فِيهَا ثُمَّ رَأَيْتَ رَجُلًا يأْتِيهِ النَّاسُ ويَسْتَفْتُونَهُ وهُوَ يُفْتِيهِمْ، غَلَبَ عَلَى ظَنِّكَ أَنَّهُ عالِمٌ. فهذِهِ طَرِيقَةٌ.

ومِنْ ذلكَ: سُؤالُ عِبادِ الرَّحْمَنِ رَبَّهُمْ أنْ يَجْعَلَهُمْ للمُتَّقِينَ إمَامًا يَقْتَضِي سُؤَالُهُمُ اللهَ جَمِيعَ مَا تَتِمُّ الإمامَةُ فِي الدِّينِ بِهِ، مِنْ عُلومٍ، ومَعارِفَ جَلِيلَةٍ، وأعْمالٍ صَالِحَةٍ، وأخْلاقٍ فاضِلَةٍ؛ لِأَنَّ سُؤَالَ العَبْدِ لرَبِّهِ شَيْئًا سُؤالٌ لَهُ ولِمَا لَا يَتِمُّ إلَّا بِهِ، كَمَا إذَا سَأَلَ اللهَ الجَنَّةَ واسْتَعَاذَ بِهِ مِنَ النَّارِ، فَإِنَّهُ يَقْتَضِي سُؤَالَ كُلِّ مَا يُقَرِّبُ إِلَى هَذِهِ ويُبْعِدُ مِنْ هذِهِ.

التعليق

ومِثْلُهُ أيضًا: لَوْ قَالَ الطالِبُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ النَّجاحَ، يَتَضَمَّنُ وَسائِلَ المُذاكَرَةِ والمُراجَعَةِ.

ومِنْ ذَلِكَ أَنَّـهُ أمَرَ بالصَّـلاحِ والإصْـلاحِ، وأثْنَى عَلَى المُصْلِحِينَ، وأخْبَرَ أَنَّهُ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ المُفْسِدِينَ، فيُسْتَدَلُّ بِذَلِكَ عَلَى أَنَّ كُلَّ أمْرٍ فِيهِ صَلاحٌ للعِبادِ فِي أمْرِ دِينِهِمْ ودُنْيَاهُمْ، وكُلَّ أمْرٍ يُعِينُ عَلَى ذلكَ، فَإِنَّهُ داخِلٌ فِي أمْرِ اللهِ وتَرْغِيبِهِ، وأنَّ كُلَّ فَسادٍ وضَرَرٍ وشَرٍّ، فَإِنَّهُ داخِلٌ فِي نَهْيِهِ والتَّحْذِيرِ عنْهُ، وأَنَّهُ يَجِبُ تَحْصِيلُ كُلِّ مَا يَعُودُ إِلَى الصَّلاحِ والإصْلاحِ بحَسَبِ اسْتِطَاعَةِ العَبْدِ، كَمَا قَالَ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ [هود:٨٨].

ومِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٢٢٣] و﴿حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾ [الأنفال:٦٥] يَقْتَضِي الأمْرَ بكُلِّ مَا لَا تَتِمُّ البِشَارَةُ إلَّا بِهِ، والأمْرَ بكُلِّ مَا فِيهِ حَثٌّ وتَحْرِيضٌ، ومَا يَتَوَقَّفُ عَلَى ذَلِكَ ويَتْبَعُهُ مِنَ الاسْتِعْدَادِ والتَّمَرُّنِ عَلَى أسْبابِ الشَّجاعَةِ والسَّعْيِ فِي القُوَّةِ المَعْنَوِيَّةِ مِنَ التَّآلُفِ، واجْتِمَاعِ الكَلِمَةِ، ونَحْوِ ذلكَ.

ومِنْ ذلكَ: الأمْرُ بتَبْلِيغِ الأحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ، والتَّذْكِيرِ بِهَا وتَعْلِيمِهَا، فإنَّ كُلَّ أمْرٍ يَحْصُلُ بِهِ التَّبْلِيغُ وإِيصالُ الأحْكَامِ إِلَى المُكَلَّفِينَ يَدْخُلُ فِي ذلكَ، حَتَّى إنَّهُ يَدْخُلُ فِيهِ إِذَا ثَبَتَتِ الأحْكَامُ الشَّرْعِيَّةُ، ووُجِدَتْ أسْبابُهَا، وكَانَتْ تَخْفَى عَادَةً عَلَى أكْثَرِ النَّاسِ، كثُبُوتِ الأهِلَّةِ -بالصِّيامِ والفِطْرِ والحَجِّ وغَيْرِهِ- إبْلاغُهَا بالأصْوَاتِ، والرَّمْيِ، وإبْلاغُهَا بِمَا هُوَ أبْلَغُ مِنْ ذلكَ، كالبَرْقِيَّاتِ ونَحْوِهَا، وكذلِكَ يَدْخُلُ فِيهِ كُلُّ مَا أعانَ عَلَى إِيصالِ الأصْوَاتِ إِلَى السَّامِعِينَ مِنَ الآلاتِ الحادِثَةِ، فحُدُوثُهَا لَا يَقْتَضِي مَنْعَهَا،...

التعليق

شَيْخُنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ رَحِمَهُ اللَّهُ دَقِيقٌ فِي هَذِهِ المَسائِلِ، ولَا يَسْتَوْحِشُ مِنَ المُخْتَرَعاتِ العَصْرِيَّةِ، بَيْنَمَا كَانَ بَعْضُ النَّاسِ فِي وقْتِهِ يُنْكِرُونَ أنْ تُثْبَتَ الأهِلَّةُ بالإذاعَةِ أَوْ بالبَرْقِيَّاتِ أَوْ مَا أشْبَهَ ذلكَ، ويَقُولُ بَعْضُهُمْ: إنَّ هَذِهِ البَرْقِيَّاتِ سِحْرٌ أَوْ شَياطِينُ تَنْقُلُ الصَّوْتَ. لكنِ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ لَيسَ عَلَى هذَا.

وكَانَ النَّاسُ قَبْلَ أنْ تَأْتِيَ الإذاعَةُ، وقَبْلَ أنْ تَأْتِيَ المَدافِعُ يَمْشُونَ بالأسْوَاقِ ويَرْمُونَ بالبَنادِقِ، فهذِهِ وَسائِلُ لَا يُقالُ عنْهَا بِدْعَةٌ، كَما اشْتَبَهَ عَلَى بَعْضِ النَّاسِ فقَالُوا: هَذِهِ الوَسِيلَةُ لَيْسَتْ مَوْجُودَةً فِي عَهْدِ الرَّسُولِ ﷺ وأصْحابِهِ. وقَالُوا: وسِيلَةُ حِفْظِ العِلْمِ بالأشْرِطَةِ لَيسَتْ مَوْجُودَةً فِي عَهْدِ الرَّسُولِ ﷺ وأصْحابِهِ، فَهِيَ إذَنْ بِدْعَةٌ، وقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ**»[1] فتَسْجِيلَاتُكُمْ وأشْرِطَتُهَا كُلُّهَا فِي النَّارِ؛ لِأَنَّهَا بِدْعَةٌ!

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، رقم (٨٦٧)، والنسائي: كتاب صلاة العيدين، باب كيف الخطبة، رقم (١٥٧٨) واللفظ له، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

هَذَا غَيْرُ صَحِيحٍ؛ لِأَنَّ هَذِهِ وَسِيلَةٌ، أَنَا لَمْ أَتَعَبَّدْ للهِ بِأَنِّي أَضَعُهَا فِي الْمُسَجِّلِ وأَجْعَلُهَا عِبادَةً، إِنَّمَا هِيَ وسِيلَةٌ، كالأقْلامِ مِنْ عَهْدِ الرَّسُولِ ﷺ فقدْ كَانُوا يَكْتُبُونَ بالعِيدَانِ والقَصَبِ ومَا أَشْبَهَهَا. أَمَّا الآنَ: فاخْتَلَفَتِ الأَحْوَالُ. وكذلكَ الوَرَقُ كَانَ نادِرًا، فكَانُوا يَكْتُبُونَ عَلَى العِظَامِ والحَصَا واللِّخَافِ ومَا أَشْبَهَهَا.

فالْمُهِمُّ أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ نَعْرِفَ الفَرْقَ بَيْنَ الوَسِيلَةِ وبَيْنَ القَصْدِ أَوِ الغايَةِ، فوسائِلُ الْمَشْرُوعِ مَشْرُوعَةٌ؛ فالبِدْعَةُ لَا تَكُونُ إِلَّا فِيمَا قُصِدَ لذاتِهِ. أَمَّا مَا كَانَ وَسِيلَةً لغَيْرِهِ فلَا.

والوَسائِلُ لهَا أَحْكَامُ الْمَقَاصِدِ، ولَيْسَ قَوْلُنَا: إِنَّ الوَسَائِلَ لهَا أَحْكَامُ الْمَقاصِدِ مِثْلَ قَـوْلِ بَعْضِ النَّاسِ: إِنَّ الغَايَةَ تُبَرِّرُ الوَسِيلَةَ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الأَخِيرَةَ مَقُولَةٌ خَبِيثَةٌ، اسْتَخْدَمَهَا الشُّيُوعِيُّونَ لأَغْرَاضِهِمْ؛ ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّ غَاياتِهِمْ حَمِيدَةٌ، فِهِيَ تَتَكَلَّمُ فِي الحَقِّ، لكنْ قَدْ تُؤَدِّي إِلَى باطِلٍ.

أَنَا مَا أَسْتَمِعُ للمُسَجِّلِ للتَّعَبُّدِ بالاسْتِمَاعِ، إِنَّمَا أَسْتَمِعُ للمُسَجِّلِ لضَبْطِ القُرْآنِ فقطْ. لَوْ قَالَ أَحَدٌ: بَدَلَ أَنْ نَجْعَلَ واحِدًا يَقْرَأُ ونَسْتَمِعُ، نَجْعَلُ هَذَا الْمُسَجِّلَ يَقْرَأُ ونَسْتَمِعُ! قدْ نَقُولُ: هَذَا لَيْسَ بمَشْرُوعٍ؛ لِأَنَّ هَذَا الْمُسَجِّلَ مَا يَنَالُ الأَجْرَ، وإِلَّا لقُلْنَا: إِنَّهُ يَصْلُحُ أَنْ نَجْعَلَهُ عنْدَ الْمِيكروفونِ ويُؤَذِّنَ بَدَلَ الْمُؤَذِّنِ، كَمَا يَفْعَلُ بَعْضُ النَّاسِ، وسَمِعْتُ أَنَّهُ فِي بَعْضِ البِلادِ الإِسْلَامِيَّةِ يَجْعَلُونَ مُسَجِّلًا عَلَى الساعَةِ، فَإِذَا وَصَلَتِ الساعَةُ إِلَى الوَقْتِ انْفَتَحَ الْمُسَجِّلُ بالأَذَانِ، وهَذَا خَطَأٌ؛ لِأَنَّ الأذانَ عِبادَةٌ، وهَذَا الْمُسَجِّلُ جَمادٌ لَا يَتَعَبَّدُ.

لكنِ الاسْتِمَاعُ للتِّلاوَةِ مِنَ الْمُسَجِّلِ لَا شَيْءَ فِيهِ؛ لِأَنَّهُ يَسْتَمِعُ إِلَيْهِ للتِّلاوَةِ

والضَّبْطِ فَقَطْ، وكَمَا يَنْظُرُ إلَيْهِ فِي وَرَقِ المُصْحَفِ، كذلكَ يَسْتَمِعُ إليْهِ، ويُمْكِنُ أنْ يَكُونَ لَهُ الأَجْرُ بِمَا يَقُومُ فِي قَلْبِهِ مِنَ الخُشُوعِ والإنابَةِ وتَدَبُّرِ المَعْنَى كَمَا لَوْ سَمِعَ أحدًا يَتْلُو.

فالمُسَجِّلُ لَا يُسْتَمَعُ إلَيْهِ تَعَبُّدًا، ومَا يَحْصُلُ فِي قَلْبِهِ مِنْ خُشُوعٍ وتَدَبُّرٍ يُؤْجَرُ عَلَيْهِ مِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ. لكنْ لَيْسَ كَمَا لَوْ قَرَأَ عنْدَهُ إنسانٌ، أَوِ اتَّفَقَ وإِيَّاهُ عَلَى أنْ يَقْرَأَ؛ لِأَنَّ القارِئَ لَهُ بكُلِّ حَرْفٍ عَشْرُ حَسَنَاتٍ، والمُسْتَمِعُ كذلكَ.

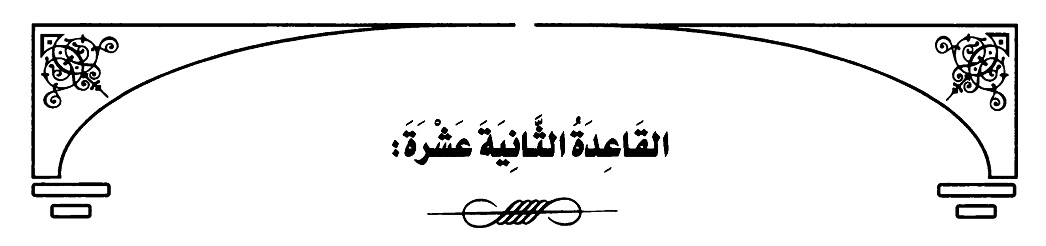
... فكُلُّ أمْرٍ يَنْفَعُ النَّاسَ فَإِنَّ القُرْآنَ لَا يَمْنَعُهُ، بلْ يَدُلُّ عَلَيْهِ لِمَنْ أَحْسَنَ الاسْتِدْلالَ بِهِ، وهَذَا مِنْ آياتِ القُرْآنِ، وأكْبَرِ بَرَاهِينِهِ، أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أنْ يَحْدُثَ عِلْمٌ صَحِيحٌ يَنْقُصُ شَيْئًا منهُ، فَإِنَّهُ يَرِدُ بِمَا تَشْهَدُ بِهِ العُقُولُ جُمْلَةً أَوْ تَفْصِيلًا، أَوْ يَرِدُ بِمَا لَا تَهْتَدِي إِلَيْهِ العُقُولُ. وأَمَّا وُرُودُهُ بِمَا تُحِيلُهُ العُقُولُ الصَّحِيحَةُ وتَمْنَعُهُ، فهذَا مُحَالٌ، والحِسُّ والتَّجْرِبَةُ شَاهِدَانِ بذلكَ؛ فَإِنَّهُ مَهْمَا تَوَسَّعَتِ الاخْتِرَاعاتُ، وعَظُمَتِ الصِّناعاتُ، وتَوَسَّعَتِ المَعارِفُ الطَّبِيعِيَّةُ، وظَهَرَ للنَّاسِ فِي هَذِهِ الأَوْقاتِ مَا كَانُوا يَجْهَلُونَهُ قَبْلَ ذلكَ -فإِنَّ القُرْآنَ -وللهِ الحَمْدُ- لَا يُخْبِرُ بإحالَتِهِ، بلْ تَجِدُ بَعْضَ الآياتِ فِيهَا إجْمالٌ أَوْ إشارَةٌ تَدُلُّ عليْهِ. وقَدْ ذَكَرْنَا شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فِي غَيْرِ هَذَا المَوْضِعِ، واللهُ أَعْلَمُ وأَحْكَمُ، وباللهِ التَّوْفِيقُ.

التعليق

مِثْلُ الكَهْرَبَاءِ، فقدْ تكَلَّمَ الشَّيْخُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي الكَهْرَباءِ وآثارِهَا النَّافِعَةِ.

خُلاصَةُ هَذِهِ القَاعِدَةِ: أنَّ دَلالَةَ القُرْآنِ عَلَى الأشْياءِ ثَلاثَةُ أقْسامٍ: المُطَابَقَةُ والتَّضَمُّنُ والالْتِزَامُ، وأَنَّهُ يَنْبَغِي للإنْسَانِ أنْ يَعْتَنِيَ بأنْواعِ هَذِهِ الدَّلالاتِ حَتَّى يُفْتَحَ لَهُ بِذَلِكَ بابٌ عَظِيمٌ مِنَ العِلْمِ، بَلْ أبْوَابٌ، والنَّاسُ يَخْتَلِفُونَ فِي هَذَا اخْتلافًا كَثِيرًا، فتَجِدُ بَعْضَ النَّاسِ إِذَا تَكَلَّمَ عَلَى حَدِيثٍ أَوْ عَلَى آيَةٍ؛ لِيَسْتَنْبِطَ مِنْهَا الأَحْكَامَ أَتَى بفَوائِدَ كَثِيرَةٍ، بَيْنَمَا غَيْرُهُ لَا يَأْتِي إِلَّا بقَلِيلٍ، والمُؤَلِّفُ ذَكَرَ عِدَّةَ أمْثِلَةٍ فِي هذَا، خُصُوصًا فِيمَا يَتَعَلَّقُ بدَلالَةِ الالْتِزَامِ.





القَاعِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ:

الآياتُ القُرْآنِيَّةُ الَّتِي ظَاهِرُهَا التَّضَادُّ يَجِبُ حَمْلُ كُلِّ نَوْعٍ مِنْهَا عَلَى حَالٍ بحَسَبِ مَا يَلِيقُ ويُناسِبُ المَقامَ

وهذَا فِي مَوَاضِعَ مُتَعَدِّدَةٍ مِنَ القُرْآنِ:

منْهَا: الإِخْبَارُ فِي بَعْضِ الآياتِ أَنَّ الكُفَّارَ لَا يَنْطِقُونَ ولَا يتكَلَّمُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ، وفِي بَعْضِهَا: أَنَّهُمْ يَنْطِقُونَ، ويُحَاجُّونَ، ويَعْتَذِرُونَ، ويَعْتَرِفُونَ. فحَمْلُ كَلامِهِمْ ونُطْقِهِمْ: أَنَّهُمْ فِي أَوَّلِ الأَمْرِ يَتكَلَّمُونَ ويَعْتَذِرُونَ، وقَدْ يُنْكِرُونَ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الكُفْرِ، ويُقْسِمُونَ عَلَى ذلكَ، ثُمَّ إِذَا خُتِمَ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ، وشَهِدَتْ عَلَيْهِمْ جَوارِحُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ، ورَأَوْا أَنَّ الكَذِبَ غَيْرُ مُفِيدٍ لَهُمْ، أُخْرِسُوا فَلَمْ يَنْطِقُوا.

وكذلكَ الإِخْبَارُ بأَنَّ اللهَ تَعَالَى لَا يُكَلِّمُهُمْ ولَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ، مَعَ أَنَّهُ أَثْبَتَ الكَلامَ لَهُمْ معَهُ؛ فالنَّفْيُ واقِعٌ عَلَى الكَلامِ الَّذِي يَسُرُّهُمْ ويَجْعَلُ لَهُمْ نَوْعَ اعْتِبَارٍ، وكذلكَ النَّظَرُ، والإِثْبَاتُ واقِعٌ عَلَى الكَلامِ الواقِعِ بَيْنَ اللهِ وبَيْنَهُمْ عَلَى وجْهِ التَّوْبِيخِ لَهُمْ والتَّقْرِيعِ. فالنَّفْيُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللهَ ساخِطٌ عليْهِمْ، غَيْرُ رَاضٍ عنْهُمْ، والإِثْبَاتُ يُوَضِّحُ أَحْوَالَهُمْ، ويُبَيِّنُ للعِبادِ كَمالَ عَدْلِ اللهِ بِهِمْ؛ إِذْ وَضَعَ العُقُوبَةَ مَوْضِعَهَا.

ونَظِيرُ ذَلِكَ أَنَّ فِي بعضِ الآياتِ أَخْبَرَ أَنَّهُ: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن:٣٩] وفِي بَعْضِهَا أَنَّهُ يَسْأَلُهُمْ: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ [الشعراء:٩٢] و ﴿مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:٦٥] ويَسْأَلُهُمْ عَنْ أَعمالِهِمْ كُلِّهَا.

فالسُّؤَالُ المَنْفِيُّ: هُوَ سُؤَالُ الاسْتِعْلامِ والاسْتِفْهَامِ عَنِ الأُمُورِ المَجْهُولَةِ، فَإِنَّهُ لَا حَاجَةَ إِلَى سُؤَالِهِمْ مَعَ كَمالِ عِلْمِ اللهِ، واطِّلاعِهِ عَلَى ظَاهِرِهِمْ وبَاطِنِهِمْ، وجَلِيلِ أُمُورِهِمْ ودَقِيقِهَا. والسُّؤَالُ المُثْبَتُ واقِعٌ عَلَى تَقْرِيرِهِمْ بأعْمالِهِمْ، وتَوْبِيخِهِمْ، وإظْهارِ أَنَّ اللهَ حَكَمَ فِيهِمْ بعَدْلِهِ وحِكْمَتِهِ.

ومِنْ ذَلِكَ الإِخْبَارُ فِي بَعْضِ الآياتِ أَنَّهُ لَا أَنْسابَ بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ، وفِي بَعْضِهَا أَثْبَتَ لَهُمْ ذلكَ. فالمُثْبَتُ: هُوَ الأَمْرُ الوَاقِعُ والنَّسَبُ الحاصِلُ بَيْنَ الناسِ، كَقَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ﴾ [عبس:٣٤-٣٥] إِلَى آخِرِهَا. والمَنْفِيُّ: هُوَ الانْتِفَاعُ بِهَا؛ فإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الكُفَّارِ يَدَّعُونَ أَنَّ أَنسابَهُمْ تَنْفَعُهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ، فأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٨٨-٨٩].

ونظيرُ ذلكَ: الإِخْبَارُ فِي بَعْضِ الآياتِ أَنَّ النَّسَبَ نافِعٌ يَوْمَ القِيَامَةِ، كَما فِي إِلْحاقِ ذُرِّيَّةِ المُؤْمِنِينَ لآبائِهِمْ فِي الدَّرجاتِ، وإِنْ لَمْ يَبْلُغُوا مَنْزِلَتَهُمْ، وأَنَّ اللهَ يَجْمَعُ لأَهْلِ الجَنَّاتِ والدَّرجاتِ العالِيَةِ مَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وأَزْواجِهِمْ وذُرِّيَّاتِهِمْ، فهذَا لَمَّا اشْتَرَكُوا فِي الإِيمانِ وأَصْلِ الصَّلاحِ زَادَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وكَرَمِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْقِصَ مِنْ أُجُورِ السَّابِقِينَ لَهُمْ شَيْئًا.

التعليق

وبذلكَ تَظْهَرُ الحِكْمَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِيٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور:٢١] لِأَنَّهُ قَدْ يَقُولُ قائِلٌ: هَؤُلاءِ يُرْفَعُونَ قَلِيلًا، وهَؤُلاءِ يُنْزَلُونَ، فَبَيَّنَ اللهُ أَنَّهُ لَا يُنْزِلُ، بَلْ يَرْفَعُ النَّازِلَ، ولَا يُنزِلُ المُرْتَفِعَ.



ومِنْ ذَلِكَ الشَّفَاعَةُ، فَإِنَّهُ أَثْبَتَهَا فِي مَواضِعَ، ونَفاهَا فِي مَوَاضِعَ مِنَ القُرْآنِ، وقَيَّدَهَا فِي بَعْضِ المواضِعِ بإِذْنِهِ، ولِمَنِ ارْتَضَى مِنْ خَلْقِهِ، فتَعَيَّنَ حَمْلُ المُطْلَقِ عَلَى المُقَيَّدِ، وأَنَّهُ حَيْثُ نُفِيَتْ فهِيَ الشَّفَاعَةُ الَّتِي بغَيْرِ إِذْنِهِ، ولغَيْرِ مَنْ رَضِيَ اللهُ قَوْلَهُ وعَمَلَهُ، وحَيْثُ أُثْبِتَتْ فهِيَ الشَّفَاعَةُ الَّتِي بإِذْنِهِ، لِمَنْ رَضِيَهُ وأَذِنَ فِيهِ.

ومِنْ ذلكَ: أنَّ اللهَ أخْبرَ فِي آياتٍ كَثِيرَةٍ أَنَّهُ لا يَهْدِي القَوْمَ الكافِرِينَ، والفَاسِقِينَ، والظَّالِمِينَ ونَحْوِهِمْ، وفِي بَعْضِهَا: أَنَّهُ يَهْدِيهِمْ ويُوَفِّقُهُمْ، فتَعَيَّنَ حَمْلُ المَنْفِيَّاتِ عَلَى مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ كَلِمَةُ اللهِ؛ لقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ [يونس:٩٦-٩٧] وحَمْلُ المُثْبَتَاتِ عَلَى مَنْ لَمْ تَحِقَّ عَلَيْهِمُ الكَلِمَةُ، وهَذَا هُوَ الحَقُّ الَّذِي لَا رَيْبَ فِيهِ.

ومِنْ ذلكَ: الإِخْبَارُ فِي بَعْضِ الآياتِ أَنَّهُ العَلِيُّ الأَعْلَى، وأَنَّهُ فَوْقَ عِبادِهِ، وعَلَى عَرْشِهِ، وفِي بَعْضِهَا: أَنَّهُ مَعَ العِبادِ أَيْنَمَا كانُوا، وأَنَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ، والصَّادِقِينَ، والمُحْسِنِينَ ونَحْوِهِمْ. فَعُلُوُّهُ تَعَالَى أَمْرٌ ثابِتٌ لهُ، وهُوَ مِنْ لَوازِمِ ذَاتِهِ، ودُنُوُّهُ ومَعِيَّتُهُ لعِبَادِهِ؛ لِأَنَّهُ أَقْرَبُ إِلَى كُلِّ أحَدٍ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ.

فهُوَ عَلَى عَرْشِهِ عَلِيٌّ عَلَى خَلْقِهِ، ومعَ ذَلِكَ فهُوَ مَعَهُمْ فِي كُلِّ أَحْوَالِهِمْ، ولَا مُنافاةَ بَيْنَ الأَمْرَيْنِ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعالَى لَيسَ كمِثْلِهِ شَيْءٌ فِي جَمِيعِ نُعُوتِهِ، ومَا يُتَوَهَّمُ بخِلافِ ذَلِكَ فَإِنَّهُ فِي حَقِّ المَخْلُوقِينَ.

وأَمَّا تَخْصِيصُ المَعِيَّةِ بالمُحْسِنِينَ ونَحْوِهِمْ، فهِيَ مَعِيَّةٌ أَخَصُّ مِنَ المَعِيَّةِ العامَّةِ، فإِنَّهَا تَتَضَمَّنُ مَحَبَّتَهُمْ، وتَوْفِيقَهُمْ، وكَلاءَتَهُمْ، وإِعَانَتَهُمْ فِي كُلِّ أَحْوَالِهِمْ، فحَيْثُ وقَعَتْ فِي سِياقِ المَدْحِ والثَّناءِ فهِيَ مِنْ هَذَا النَّوْعِ، وحيثُ وَقَعَتْ فِي سِياقِ التَّحْذِيرِ

والتَّرْغِيبِ والتَّرْهِيبِ فهِيَ مِنَ النَّوْعِ الأوَّلِ.

ومِنْ ذلكَ: النَّهْيُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الآياتِ عَنْ مُوالاةِ الكَافِرِينَ، وعَنْ مَوَدَّتِهِمْ والاتِّصالِ بِهِمْ، وفِي بَعْضِهَا: الأمْرُ بالإحْسانِ إِلَى مَنْ لَهُ حَقٌّ عَلَى الإنْسَانِ مِنْهُمْ، ومُصاحَبَتِهِ بالمَعْرُوفِ؛ كالوالِدَيْنِ ونَحْوِهِمْ، فهذِهِ الآياتُ العامَّاتُ مِنَ الطَّرَفَيْنِ قَدْ وَضَّحَهَا اللهُ غايَةَ التَّوْضِيحِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾ الآيَةَ [الممتحنة:٨-٩] فالنَّهْيُ واقِعٌ عَلَى التَّوَلِّي والمَحَبَّةِ لأجْلِ الدِّينِ، والأمْرُ بالإحْسانِ والبِرِّ واقِعٌ عَلَى الإحْسانِ؛ لأجْلِ القَرابَةِ، أَوْ لأجْلِ الإنْسَانِيَّةِ عَلَى وجْهٍ لَا يُخِلُّ بدِينِ الإنْسَانِ.

التعليق

الفَرْقُ بَيْنَ البِرِّ والإقْساطِ فِي قَوْلِ اللهِ: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ﴾ أَنَّ البِرَّ: زِيادَةٌ فِي الفَضْلِ، والإقْساطَ: العَدْلُ. فمَثَلًا: إِذَا أَحْسَنُوا إلَيْنَا نُحْسِنُ إلَيْهِمْ، وإِذَا كَانَ لَهُمْ حَقٌّ نُحْسِنُ إلَيْهِمْ.

أَمَّا الثَّانِي: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾ ولَمْ يَقُلْ: أَنْ تَبَرُّوهُمْ، حَتَّى هَؤُلاءِ رُبَّما يَكُونُ فِي الإحْسَانِ إِلَيْهِمْ خَيْرٌ؛ لكنَّهُمْ لَيْسُوا كالأوَّلِينَ. والمُوالاةُ والمُوادَّةُ لِجَمِيعِ الكُفَّارِ مُحَرَّمَةٌ. وكذلكَ الفِرَقُ الضَّالَّةُ إِذَا كانَتْ بِدْعَتُهُمْ تُكَفِّرُهُمْ، فلَا تَجُوزُ مُوالاتُهُمْ.

ومِنْ ذلكَ: أَنَّهُ أخبرَ فِي بعضِ الآياتِ أنَّ اللهَ خَلَقَ الأرْضَ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاواتٍ، وفِي بعْضِهَا: أَنَّهُ لَمَّا أَخْبَرَ عَنْ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ أَخْبَرَ أَنَّ الأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحاهَا؛ فهذِهِ الآيَةُ تُفَسِّرُ المُرادَ، وأَنَّ خَلْقَ الأرْضِ مُتَقَدِّمٌ عَلَى خَلْقِ السَّمَاوَاتِ، ثُمَّ لَمَّا خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَى الأَرْضَ، فأَوْدَعَ فِيهَا جَمِيعَ مَصالِحِهَا المُحْتاجِ إليْهَا.

ومِنْ ذلكَ: تَارَةً يُخْبِرُ أَنَّهُ بكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، وتارَةً يُخْبِرُ بِتَعَلُّقِ عِلْمِهِ ببَعْضِ أعْمالِ العِبَادِ ببَعْضِ أحْوَالِهِمْ، وهَذَا الأخِيرُ فِيهِ زِيادَةُ مَعْنًى، وَهُوَ أَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى المُجازَاةِ عَلَى ذَلِكَ العَمَلِ، سَوَاءً كَانَ خَيْرًا أَوْ شَرًّا، فيَتَضَمَّنُ مَعَ إحاطَةِ عِلْمِهِ: التَّرْغِيبَ والتَّرْهِيبَ.

ومِنْ ذلكَ: الأمْرُ بالجِهادِ فِي آياتٍ كَثِيرَةٍ، وفِي بَعْضِ الآياتِ الأمْرُ بكَفِّ الأيْدِي والإخْلادِ إِلَى السُّكُونِ، فهذِهِ حِينَ كَانَ المُسْلِمُونَ لَيْسَ لَهُمْ قُوَّةٌ ولَا قُدْرَةٌ عَلَى الجِهَادِ باليَدِ، والآياتُ الأُخَرُ حِينَ قَوَوْا وصَارَ ذَلِكَ عَيْنَ المَصْلَحَةِ، وَهُوَ الطَّرِيقُ إِلَى قَمْعِ الأعْدَاءِ.

ومِنْ ذلكَ: أَنَّهُ تارَةً يُضِيفُ الأشْيَاءَ إِلَى أسْبابِهَا الَّتِي وَقَعَتْ وتَقَعُ بِهَا، وتارَةً يُضِيفُهَا إِلَى عُمُومِ قُدْرَتِهِ، وأَنَّ جَمِيعَ الأشْيَاءِ واقِعَةٌ بإرادَتِهِ ومَشِيئَتِهِ؛ فيُفِيدُ مَجْمُوعَ الأمْرَيْنِ: إثْباتَ التَّوْحِيدِ، وتَفَرُّدَ البارِي بوُقُوعِ الأشْيَاءِ بقُدْرَتِهِ ومَشِيئَتِهِ، وإثْباتَ الأَسْبَابِ والمُسَبَّباتِ، والأمْرَ بالمَحْبُوبِ مِنْهَا، والنَّهْيَ عَنِ المَكْرُوهِ، وإباحَةَ مُسْتَوِي الطَّرَفَيْنِ، فيَسْتَفِيدُ المُؤْمِنُ الجِدَّ والاجْتِهَادَ فِي عَمَلِ الأسْبَابِ النَّافِعَةِ، والنَّظَرِ، ومُلاحَظَةَ فَضْلِ اللهِ فِي كُلِّ أحْوالِهِ، وأَنْ لَا يَتَّكِلَ عَلَى نَفْسِهِ فِي أمْرٍ مِنَ الأُمُورِ، بَلْ يَتَّكِلُ ويَسْتَعِينُ برَبِّهِ.

وقَدْ يُخْبِرُ أَنَّ مَا أصابَ العَبْدَ مِنْ حَسَنَةٍ فمِنَ اللهِ، ومَا أَصَابَهُ مِنْ سَيِّئَةٍ فمِنْ نَفْسِهِ؛ ليُعَرِّفَ عِبادَهُ أَنَّ الخَيْرَ والحسناتِ والمَحَابَّ تَقَعُ بمَحْضِ فَضْلِهِ وجُودِهِ، وإنْ جَرَتْ ببَعْضِ الأَسْبَابِ الوَاقِعَةِ مِنَ العِبَادِ، فإِنَّ الأَسْبَابَ هُوَ الَّذِي أَنْعَمَ بِهَا، وَهُوَ الَّذِي يَسَّرَهَا، وأَنَّ السَّيِّئَاتِ -وهِيَ المَصائِبُ الَّتِي تُصِيبُ العَبْدَ- أَسْبابُهَا مِنْ نَفْسِ العَبْدِ وبتَقْصِيرِهِ فِي حُقُوقِ رَبِّهِ، وتَعَدِّيهِ لِحُدُودِهِ، فاللهُ وإنْ كَانَ هُوَ المُقَدِّرَ لهَا فَإِنَّهُ أَجْرَاهَا عَلَى العَبْدِ بِمَا كَسَبَتْ يَدَاهُ، ولهَذَا أَمْثِلَةٌ يَطُولُ عَدُّهَا.

التعليق

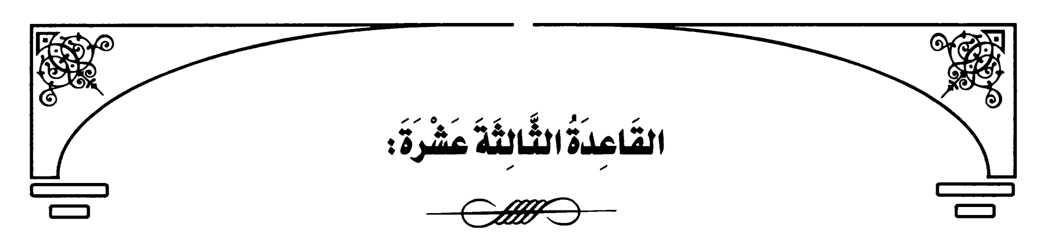
جاءَ فِي القُرْآنِ آياتٌ ظاهِرُهَا التَّعارُضُ، يعْنِي: أَنَّ بَعْضَهَا يُعارِضُ بَعْضًا ظاهِرًا. ولَا يُمْكِنُ فِي القُرْآنِ ولَا فِي صَحِيحِ السُّنَّةِ أَنْ تَتَعارَضَ النُّصُوصُ؛ لِأَنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢] فمَا كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ فلَيْسَ فِيهِ اخْتِلَافٌ.

والعُلَمَاءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ يَذْهَبُونَ إِلَى الجَمْعِ بَيْنَ هَذِهِ النُّصُوصِ الَّتِي ظاهِرُهَا التَّعارُضُ إِمَّا بحَمْلِهَا عَلَى اخْتِلَافِ الأَحْوَالِ، أَوِ اخْتِلَافِ الأَشْخاصِ، أَوِ اخْتِلَافِ الأَسْماءِ، أَوِ اخْتِلَافِ الأَمْكِنَةِ. فهذِهِ أَرْبَعَةُ احْتِمالاتٍ لَا تَعْدُوهَا هَذِهِ الأَحْوَالُ.

يعْنِي: يَكُونُ هَذَا الَّذِي ظاهِرُهُ اخْتِلافٌ يَنْزِلُ عَلَى حالٍ دُونَ حالٍ، أَوْ فِي وقْتٍ دُونَ وَقْتٍ، أَوْ فِي مَكانٍ دُونَ مَكَانٍ، أَوْ فِي أَشْخاصٍ دُونَ أَشْخاصٍ. وقَدْ أَلَّفَ الشَّيْخُ الشِّنْقِيطِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- كِتابًا سَمَّاهُ: (دَفْعُ إِيهامِ الاضْطِرَابِ عَنْ آيِ الكِتَابِ) جَمَعَ فِيهِ الآياتِ الَّتِي قِيلَ إِنَّها مُتعارِضَةٌ، أيْ: ظاهِرُهَا التَّعارُضُ، وجَمَعَ بيْنَهَا.

والجَمْعُ قدْ يَكُونُ مُتكَلَّفًا وبَعِيدًا، وقَدْ يَكُونُ قَرِيبًا، حَسَبَ مَا يُوَفَّقُ الإنْسَانُ لهُ. والمُهِمُّ أنَّ لدَيْنَا قاعِدَةً ثابِتَةً راسِخَةً، وهيَ أنَّ القُرْآنَ لَا يُمْكِنُ أنْ يَتَعَارَضَ؛ لِأَنَّ التَّعارُضَ معْنَاهُ دَفْعُ بَعْضِهِ ببَعْضٍ، وهَذَا لَا يُمْكِنُ؛ لِأَنَّهُ كَلامٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، والمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذَكَرَ أَمْثِلَةً كَثِيرَةً مِنْ هَذَا النَّوْعِ، وذَكَرَ كَيْفَ يُجْمَعُ بَيْنَ هَذِهِ الآياتِ الَّتِي ظَاهِرُهَا التَّعارُضُ.





القَاعِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ:

طَرِيقَةُ القُرْآنِ فِي الحِجَاجِ والمُجَادَلَةِ مَعَ أَهْلِ الأَدْيَانِ الباطِلَةِ

قَدْ أَمَرَ اللهُ بالمُجادَلَةِ بالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، ومَنْ تَأَمَّلَ الطُّرُقَ الَّتِي نَصَبَ اللهُ المُحاجَّةَ بِهَا مَعَ المُبْطِلِينَ عَلَى أَيْدِي رُسُلِهِ رَآهَا مِنْ أَوْضَحِ الحُجَجِ، وأَقْوَاهَا، وأَقْوَمِهَا، وأَدَلِّهَا عَلَى إِحْقاقِ الحَقِّ، وإِزْهاقِ الباطِلِ عَلَى وجْهٍ لَا تَشْوِيشَ فِيهِ، ولَا إِزْعَاجَ.

فتَأَمَّلْ مُحاجَّةَ الرُّسُلِ مَعَ أُمَمِهِمْ، وكَيْفَ دَعَوْهُمْ إِلَى عِبادَةِ اللهِ وحْدَهُ لَا شَرِيكَ لهُ، مِنْ جِهَةِ أَنَّهُ المُتفَرِّدُ بالرُّبُوبِيَّةِ، والمُتَوَحِّدُ بالنِّعَمِ، وَهُوَ الَّذِي أَعْطَاهُمُ العافِيَةَ، والأَسْمَاعَ، والأَبْصارَ، والعُقُولَ، والأَرْزَاقَ، وسائِرَ أَصْنَافِ النِّعَمِ، كَمَا أَنَّهُ المُنْفرِدُ بدَفْعِ النِّقَمِ، وأَنَّ أَحَدًا مِنَ الخَلْقِ لَيْسَ يَقْدِرُ عَلَى نَفعٍ ولَا دَفْعٍ، ولَا ضُرٍّ ولَا نَفعٍ؛ فَإِنَّهُ بمُجَرَّدِ مَعْرِفَةِ العَبْدِ بِذَلِكَ واعْتِرَافِهِ بِهِ لَا بُدَّ أَنْ يَنْقَادَ للدِّينِ الحَقِّ الَّذِي بِهِ تَتِمُّ النِّعْمَةُ، وَهُوَ الطَّرِيقُ الوَحِيدُ لشُكْرِهَا.

وكَثِيرًا مَا يَحْتَجُّ عَلَى المُشْرِكِينَ بِهِ فِي عِبادَتِهِ بِإِلْزَامِهِمْ باعْتِرَافِهِمْ برُبُوبِيَّتِهِ، وأَنَّهُ الخالِقُ لكُلِّ شَيْءٍ، والرَّازِقُ لكُلِّ شَيْءٍ؛ فيَتَعَيَّنُ أَنَّهُ المَعْبُودُ وحْدَهُ، فانْظُرْ إِلَى هَذَا البُرْهَانِ كَيْفَ يَنْتَقِلُ الذِّهْنُ مِنْهُ بأَوَّلِ وهْلَةٍ إِلَى وُجُوبِ عِبادَةِ مَنْ هَذَا شَأْنُهُ، ووُجُوبِ الإِخْلاصِ لهُ...

التعليق

أَظُنُّ الانْتقالُ هَذَا واضِحٌ جِدًّا، مثلًا: لَوْ أَنَّ رَجُلًا يَعْبُدُ صَنمًا، نَقُولُ له: هل هَذَا الصَّنَمُ أوْجَدَكَ؟ هَلْ خلقَكَ؟ سيقُولُ: لَا. هَلْ هُوَ الَّذِي يَرْزُقُكَ ويُعافِيكَ ويَدْفَعُ عَنْكَ النِّقَمَ؟ سيقُولُ: لَا. مَنِ الَّذِي يفْعَلُ ذلكَ؟ سيقُولُ: اللهُ. فإذَا قالَ: إنَّ ذَلِكَ هُوَ اللهُ، قُلْنَا: إذَنْ يَجِبُ عَلَيْكَ أنْ لَا تَعْبُدَ إلَّا اللهَ، مَا دُمْتَ تَعْتَرِفُ أنَّ النِّعَمَ الَّتِي أَمَدَّكَ اللهُ بِهَا، والنِّقَمَ الَّتِي دفَعَهَا اللهُ عَنْكَ قَبْلَ أنْ تُصِيبَكَ، ورَفَعَها عَنْكَ بَعْدَ أنْ أَصَابَتْكَ، مَا دُمْتَ تَعْتَرِفُ أَنَّهَا مِنَ اللهِ، فإنَّ الوَاجِبَ عليْكَ أنْ لَا تَعْبُدَ إلَّا إيَّاهُ.

وأَظُنُّ هَذَا واضِحًا جِدًّا؛ ولهَذَا يَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت:٦١] ﴿أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾ [غافر:٦٩] يَعْنِي: كَيْفَ يُصْرَفُونَ عَنِ الحَقِّ مَعَ وُضُوحِهِ؟!

... ويُجادِلُ المُبْطِلِينَ أيضًا بذِكْرِ عَيْبِ آلِهَتِهِمْ، وأنَّها ناقِصَةٌ مِنْ كُلِّ وجْهٍ، لَا تُغْنِي عَنْ أَهْلِهَا شَيْئًا...

التعليق

هذَا أيضًا مِنْ وُجُوهِ الإلْزَامِ بعِبادَتِهِ وحْدَهُ أنْ يُقالَ: هَذِهِ الآلِهَةُ الَّتِي تَعْبُدُ هَلْ هِيَ تَنْفَعُكَ؟ مَا هُوَ الجَوَابُ: لَا، بلْ هِيَ بنفْسِهَا ناقِصَةٌ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ﴾ [الحج:٧٣] نَقْصٌ فِي القُدْرَةِ، وزِيادَةٌ عَلَى ذَلِكَ نَقْصٌ فِي الضَّعْفِ؛ مَا يَسْتَطِيعُونَ، ولَا يُدَافِعُونَ عَنْ أنفُسِهِمْ ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ [الحج:٧٣] مَعَ أَنَّ الذُّبابَ مِنْ أَهْوَنِ الحَشَرَاتِ وأحْقَرِهَا، ومعَ ذَلِكَ إِذَا سَلَبَ هَذِهِ الأَصْنامَ

شَيْئًا وأخَذَهُ مِنْهَا مَا اسْتَنْقَذُوهُ مِنْهُ! وهَذَا مَثَلٌ عَظِيمٌ إِذَا تَأَمَّلْتَهُ عَرَفْتَ أَنَّ جَمِيعَ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يَكُونَ رَبًّا ولَا مَعْبُودًا.

... ويُقِيمُ الأدِلَّةَ عَلَى أَهْلِ الكِتَابِ بأَنَّهُمْ لَهُمْ مِنْ سَوَابِقِ المُخالفاتِ لرُسُلِهِمْ مَا لَا يُسْتَغْرَبُ مَعَهُ مُخَالَفَتُهُمْ لِمُحَمَّدٍ ﷺ ويَنْقُضُ عَلَيْهِمْ دعاوِيَهُمُ الباطِلَةَ، وتَزْكِيَتَهُمْ لأنْفُسِهِمْ، بِبَيَانِ مَا يُضادُّ ذَلِكَ مِنْ أَحْوَالِهِمْ، وأوْصافِهِمْ، ويُجادِلُهُمْ بتَوْضِيحِ الحَقِّ وبَيانِ بَراهِينِهِ، وأَنَّ صِدْقَهُ وحَقِّيَّتَهُ تَدْفَعُ بِمُجَرَّدِهَا جَمِيعَ الشُّبَهِ المُعارِضَةِ لَهُ ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس:٣٢].

وهذَا الأَصْلُ فِي القُرْآنِ كَثِيرٌ، فَإِنَّهُ يُفِيدُ فِي الدَّعْوَةِ للحَقِّ، ورَدِّ كُلِّ مَا يُنافِيهِ. ويُجادِلُهُمْ بوُجُوبِ تَنْزِيلِ الأُمورِ مَنازِلَهَا، وأَنَّهُ لَا يَلِيقُ أَنْ يُجْعَلَ للمَخْلُوقِ العَبْدِ الفَقِيرِ العاجِزِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ بَعْضُ حُقُوقِ الرَّبِّ الخالِقِ الغَنِيِّ الكامِلِ مِنْ جَمِيعِ الوُجُوهِ.

ويَتَحَدَّاهُمْ أَنْ يَأْتُوا بكِتابٍ أَوْ شَرِيعَةٍ أَهْدَى وأَحْسَنَ مِنْ هَذِهِ الشَّرِيعَةِ، وأَنْ يُعارِضُوا القُرْآنَ فيَأْتُوا بمِثْلِهِ إنْ كَانُوا صَادِقِينَ، ويَأْمُرُ نَبِيَّهُ بمُبَاهَلَةِ مَنْ ظَهَرَتْ مُكَابَرَتُهُ وعِنادُهُ، فيَنْكِصُونَ عنْهَا؛ لِعِلْمِهِمْ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ، الصَّادِقُ، الَّذِي لَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى، وأَنَّهُمْ لَوْ بَاهَلُوهُ لَهَلَكُوا.

وفِي الجُمْلَةِ: لَا تَجِدُ طَرِيقًا نافِعًا فِيهِ إحْقاقُ الحَقِّ، وإبْطالُ الباطِلِ، إلَّا وقَدِ احْتَوَى عَلَيْهِ القُرْآنُ عَلَى أَكْمَلِ الوُجُوهِ.

التعليق

المُباهَلَةُ هِيَ مَأْخُوذَةٌ مِنَ الابْتِهَالِ إِلَى اللهِ جَلَّ وَعَلَا، وَهِيَ المُبالَغَـةُ فِي الدُّعَاءِ، وصُورَتُهَا أَنْ يَأْتِيَ المُتخاصِمانِ ويَقُولَ بَعْضُهُمْ لبَعْضٍ: لِنَتَباهَلْ، ونَقُولُ: اللَّهُمَّ مَنْ كَانَ مِنَّا كاذِبًا فعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ، ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِمَّا يَدْعُونَ بِهِ عَلَى الكاذِبِ. وقَدْ أَشَارَ اللهُ إِلَيْهَا فِي قَوْلِهِ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٦٤] والآيَةِ الثانِيَةِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران:٦١].

والخُلاصَةُ: أَنَّ هَذِهِ القَاعِدَةَ فِي بَيانِ مُجادَلَةِ القُرْآنِ ومُحاجَّتِهِ للمُخالِفِينَ، وأَنَّهَا مِنْ أَبْيَنِ المُجادَلاتِ وأَوْضَحِهَا وأَقْوَمِهَا حُجَّةً.

ومِنْ طَرِيقَةِ القُرْآنِ فِي المُجادَلَةِ أَنَّهُ يَعْدِلُ إِلَى الطَّرِيقِ الَّذِي لَا نِزَاعَ فِيهِ عَنِ الطَّرِيقِ الَّذِي فِيهِ نِزاعٌ، حَتَّى وإِنْ أَمْكَنَ إِقْناعُ الخَصْمِ بِمَا فِيهِ مِنْ نِزاعٍ، فَإِنَّهُ يَدَعُهُ ويَأْتِي بالطَّرِيقِ الواضِحِ.

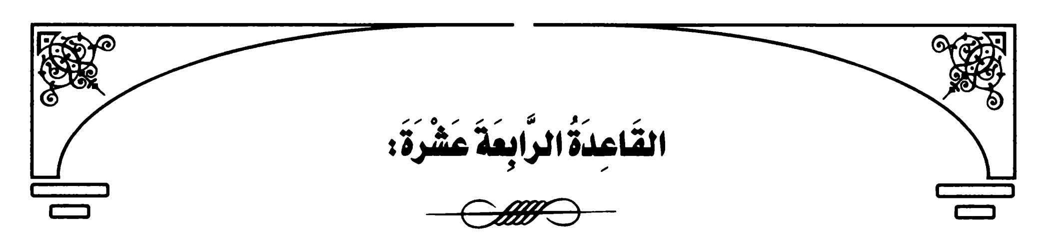
مِثالُهُ: مُحاجَّةُ إِبْرَاهِيمَ للَّذِي حاجَّهُ فِي رَبِّهِ ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨] يَعْنِي: فأَنَا مِثْلُ رَبِّكَ. كَيْفَ يُحْيِي ويُمِيتُ؟ هَذَا الرَّجُلُ الظالِمُ يَقُولُ: إِنَّهُ يُؤْتَى إِلَيْهِ بالرَّجُلِ مُسْتَحِقًّا للقَتْلِ فيَعْفُو عنْهُ، وهَذَا عَلَى زَعْمِهِ إِحْياءٌ، ويُؤْتَى إِلَيْهِ بالرَّجُلِ غَيْرِ جَانٍ عَلَى نَفْسِهِ ولَا غَيْرِهِ ولَا يَسْتَحِقُّ القَتْلَ فيَقْتُلُهُ، وهَذَا عَلَى زَعْمِهِ إِماتَةٌ.

إبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَذْهَبْ لِيُحَاجَّ فِي هَذِهِ النُّقْطَةِ، ولوْ حَاجَّهُ إبْرَاهِيمُ لَغَلَبَهُ بلَا شَكٍّ؛ لِأَنَّ هَذَا لَيْسَ إحْياءً ولَا إماتَةً. غايَةُ مَا هُنالِكَ فِي المَسْأَلَةِ الأُولَى أنَّ الَّذِي يَسْتَحِقُّ القَتْلَ رَفَعَ عَنْهُ القَتْلَ، والَّذِي أبْقَى الحَيَاةَ فِيهِ هُوَ اللهُ، ولوْ شَاءَ اللهُ لماتَ. وفِي الثانِيَةِ أيضًا غايَةُ مَا فِيهِ أنَّهُ فعَلَ سَببًا يقْتَضِي أنْ يَمُوتَ هَذَا الرَّجُلُ فقُتِلَ، ولكنِ الَّذِي أمَاتَهُ هُوَ الَّذِي أحْياهُ.

فبِإمْكَانِ إبْرَاهِيمَ أنْ يُجادِلَ عَلَى هَذِهِ النُّقْطَةِ، ولكنَّهُ عَدَلَ إِلَى أمْرٍ يُفْحِمُهُ، ولَا يَسْتَطِيعُ التَّخَلُّصَ منْهُ، فقالَ لَهُ إبْرَاهِيمُ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:٢٥٨].

فهُنَا يَنْبَغِي عِنْدَ المُحَاجَّةِ -خُصُوصًا إِذَا عَرَفْتَ أنَّ الَّذِي يُحاجُّكَ لَا يُرِيدُ إلَّا أنْ يَنْصُرَ قَوْلَهُ- يَنْبَغِي أنْ تَعْدِلَ عَنِ الطَّرِيقِ الَّذِي يَحْتَاجُ إِلَى جَدَلٍ إِلَى طَرِيقٍ واضِحٍ لَا يَحْتَاجُ إِلَى جَدَلٍ، مَا دامَ المَقْصُودُ الوُصُولَ إِلَى إفْحامِ الخَصْمِ، فَإِذَا أرادَ أنْ يَسُدَّ عَلَيْنَا طَرِيقًا بإمْكانِنَا أنْ نَفْتَحَهُ، فلْنَرْجِعْ إِلَى طَرِيقٍ آخَرَ لَا يَسْتَطِيعُ أنْ يَسُدَّهُ.





القَاعِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ:

حَذْفُ المُتَعَلَّقِ -المَعْمُولِ فِيهِ- يُفِيدُ تَعْمِيمَ المَعْنَى المُناسِبِ لَهُ

وهذِهِ قاعِدَةٌ مُفِيدَةٌ جِدًّا، مَتَى اعْتَبَرَهَا الإنْسَانُ فِي الآياتِ القُرْآنِيَّةِ أَكْسَبَتْهُ فَوائِدَ جَلِيلَةً، وذلكَ أنَّ الفِعْلَ، أَوْ مَا هُوَ فِي مَعْنَاهُ، مَتَى قُيِّدَ بشَيْءٍ تَقَيَّدَ بِهِ، فَإِذَا أَطْلَقَهُ اللهُ تَعَالَى، وحَذَفَ المُتَعَلَّقَ فعَمَّمَ ذَلِكَ المَعْنَى، ويَكُونُ الحَذْفُ هُنَا أَحْسَنَ وأَفْيَدَ كَثِيرًا مِنَ التَّصْرِيحِ بالمُتَعَلَّقاتِ، وأَجْمَعَ للمَعانِي النَّافِعَةِ، ولذلكَ أمْثِلَةٌ كَثِيرَةٌ جِدًّا:

منْهَا: أَنَّهُ قَالَ فِي عِدَّةِ آياتٍ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [النور:٦١] ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام:١٥٢] ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:٢١] فيَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى أنَّ المُرادَ: لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ عَنِ اللهِ كُلَّ مَا أَرْشَدَكُمْ إِلَيْهِ، وكُلَّ مَا عَلَّمَكُمُوهُ، وكُلَّ مَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الكِتَابِ والحِكْمَةِ؛ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ جَمِيعَ مَصالِحِكُمُ الدِّينِيَّةِ والدُّنْيَوِيَّةِ، لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ جَمِيعَ مَا يَجِبُ اتِّقاؤُهُ مِنْ جَمِيعِ الذُّنُوبِ والمَعَاصِي.

ويَدْخُلُ فِي ذَلِكَ مَا كَانَ السِّياقُ فِيهِ، وَهُوَ فَرْدٌ مِنْ أَفْرَادِ هَذَا المَعْنَى العامِّ؛ ولهَذَا كَانَ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٨٣] يُفِيدُ كُلَّ مَا قِيلَ فِي حِكْمَةِ الصِّيَامِ، أيْ: لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ المَحارِمَ عُمُومًا، ولَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ مَا حُرِّمَ عَلَى الصَّائِمِينَ مِنَ المُفطِّرَاتِ والمَمْنُوعَاتِ، ولَعَلَّكُمْ تَتَّصِفُونَ بِصِفَةِ التَّقْوَى وتَتَخَلَّقُونَ بأخْلاقِهَا، وهكَذَا سائِرُ مَا ذُكِرَ فِيهِ هَذَا اللَّفْظُ، مِثْلُ قَوْلِهِ: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:٢] أي: المُتَّقِينَ لكُلِّ

مَا يُتَّقى مِنَ الكُفْرِ والفُسُوقِ والعِصْيَانِ، أيِ: المُؤَدِّينَ للفَرَائِضِ والنَّوَافِلِ الَّتِي هِيَ خِصالُ التَّقْوَى.

وكذلكَ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:٢٠١] أيْ: إنَّ الَّذِينَ كانَتِ التَّقْوَى وصْفَهُمْ، وتَرْكُ المَحَارِمِ شِعَارَهُمْ، مَتَى زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ بَعْضَ الذُّنُوبِ تَذَكَّرُوا كُلَّ أَمْرٍ يُوجِبُ لَهُمُ المُبادَرَةَ إِلَى المَتابِ، كعَظَمَةِ اللهِ، ومَا يَقْتَضِيهِ الإيمانُ، ومَا تُوجِبُهُ التَّقْوَى، وتَذَكَّرُوا عِقابَهُ ونكالَهُ، وتَذَكَّرُوا مَا تُحْدِثُهُ الذُّنُوبُ مِنَ العُيُوبِ والنَّقَائِصِ، ومَا تَسْلُبُهُ مِنَ الكَمالاتِ ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ مِنْ أَيْنَ أُتوا، ومُبْصِرُونَ الوَجْهَ الَّذِي فِيهِ التَّخَلُّصُ مِنْ هَذَا الذَّنْبِ الَّذِي وَقَعُوا فِيهِ، فبَادَرُوا فِي التَّوْبَةِ النَّصُوحِ، فعَادُوا إِلَى مَرْتَبَتِهِمْ، وعادَ الشَّيْطَانُ خاسِئًا مَدْحُورًا.

وكذلكَ مَا ذَكَرَهُ عَلَى وجْهِ الإطْلاقِ عَلَى المُؤْمِنِينَ، وبلَفْظِ «المُؤْمِنِينَ» أَوْ بلَفْظِ: «إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا» ونَحْوِهَا، فَإِنَّهُ يَدْخُلُ فِيهِ جَمِيعُ مَا يَجِبُ الإيمانُ بِهِ مِنَ الأُصُولِ والعَقَائِدِ، مَعَ أَنَّهُ قَيَّدَ ذَلِكَ فِي بعضِ الآياتِ، مِثْلِ قَوْلِهِ: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ الآيَةَ [البقرة:١٣٦] ونَحْوِهَا.

وكذلكَ مَا أَمَرَ بِهِ مِنَ الصَّلاحِ والإصْلاحِ، ومَا نَهَى عَنْهُ مِنَ الفَسادِ والإفْسادِ مُطْلَقًا، يَدْخُلُ فِيهِ كُلُّ صَلاحٍ، كَمَا يَدْخُلُ فِي النَّهْيِ كُلُّ فَسادٍ.

وكذلكَ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة:١٩٥] ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ﴾ [البقرة:١٩٥] ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [يونس:٢٦] ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن:٦٠] يَدْخُلُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ: الإحْسَانُ فِي عِبادَةِ الخالِقِ بأَنْ تَعْبُدَ اللهَ كأَنَّكَ تَراهُ، فإِنْ لَمْ

تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ، والإحْسَانُ إِلَى المَخْلُوقِينَ بجَمِيعِ وُجُوهِ الإحْسَانِ: مِنْ قَوْلٍ، وفِعْلٍ، وجاهٍ، وعِلْمٍ، ومالٍ، وغَيْرِهَا.

وكذلكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر:١] فحَذَفَ المُتكاثَرَ بِهِ؛ لِيَعُمَّ جَمِيعَ مَا يَقْصِدُ النَّاسُ فِيهِ المُكاثَرَةَ: مِنَ الرِّياساتِ، والأَمْوَالِ، والجاهِ، والضَّيْعَاتِ، والأَوْلادِ، وغَيْرِهَا مِمَّا تَتَعَلَّقُ بِهِ أغْراضُ النُّفُوسِ، ويُلْهِيهَا عَنْ طاعَةِ اللهِ.

وكذلكَ قَوْلُهُ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر:١-٢] أيْ: فِي خَسارَةٍ مِنْ جَمِيعِ الوُجُوهِ، إلَّا مَنِ اتَّصَفَ بالإيمانِ، والعَمَلِ الصالِحِ، والتَّوَاصِي بالحَقِّ والصَّبْرِ.

التعليق

ولهذَا قالَ: ﴿لَفِى خُسْرٍ﴾ فجَعَلَ الخُسْرَ ظَرْفًا لَهُ فِيهِ. والظَّرْفُ مُحِيطٌ بالمَظْرُوفِ، يعْنِي: إنَّ الإنْسَانَ مُنْغَمِسٌ فِي الخُسْرِ، والخُسْرُ مُحِيطٌ بِهِ مِنْ كُلِّ جانِبٍ، إلَّا مَنِ اتَّصَفَ بهذِهِ الصِّفَاتِ الأرْبَعِ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر:٣].

وقَوْلُهُ: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣] فذَكَرَ المَسْؤُولِينَ، وأطْلَقَ المَسْؤُولَ عنْهُ؛ لِيَعُمَّ كُلَّ مَا يَحْتَاجُهُ العَبْدُ ولَا يَعْلَمُهُ.

وكذلكَ أمْرُهُ تَعَالَى بالصَّبْرِ، ومَحَبَّةِ الصَّابِرِينَ، وثَنَاؤُهُ عَلَيْهِمْ، وبَيانُ كَثْرَةِ أجْرِهِمْ، مِنْ غَيْرِ أنْ يُقَيِّدَ ذَلِكَ بنَوْعٍ؛ لِيَشْمَلَ أنْوَاعَ الصَّبْرِ الثَّلاثَةَ، وهيَ: الصَّبْرُ عَلَى طاعَةِ اللهِ، وعَنْ مَعْصِيَتِهِ، وعَلَى أقْدارِهِ المُؤْلِمَةِ. ومُقابِلُ ذلكَ: ذَمُّهُ للكافِرِينَ، والظَّالِمِينَ،

والفاسِقِينَ، والمُشرِكِينَ، والمُنافِقِينَ، والمُعْتَدِينَ، ونَحْوِهِمْ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يُقَيِّدَهُ بشَيْءٍ؛ لِيَشْمَلَ جَمِيعَ ذَلِكَ المَعْنَى.

ومِنْ هَذَا قَوْلُهُ: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ [البقرة:١٩٦] لِيَشْمَلَ كُلَّ حَصْرٍ.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ [البقرة:٢٣٩] لِيَعُمَّ كُلَّ خَوْفٍ.

وقَدْ يُقَيِّدُ ذَلِكَ ببَعْضِ الأُمُورِ، فيَتَقَيَّدُ بِهِ مَا سِيقَ الكَلامُ لأَجْلِهِ، وهَذَا شَيْءٌ كَثِيرٌ لَوْ ذَهَبْنَا نَذْكُرُ الأَمْثِلَةَ لطَالَتْ، ولكنْ قَدْ فُتِحَ لكَ البابُ فامْشِ عَلَى هَذَا السَّبِيلِ المُفْضِي إِلَى رِياضٍ بَهِيجَةٍ مِنْ أَصْنافِ العُلُومِ.

التعليق

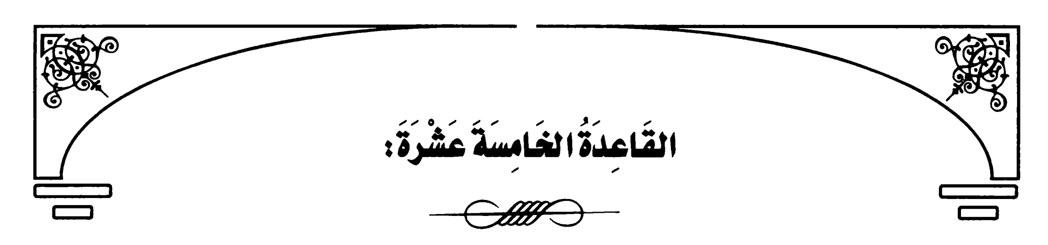
ويَلْتَحِقُ بهذِهِ القَاعِدَةِ: أَنَّ الحُكْمَ المُعَلَّقَ بوَصْفٍ يَدُلُّ عَلَى عِلِّيَّةِ ذَلِكَ الوَصْفِ فِيهِ، فمَثَلًا إِذَا قُلْتَ: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الحجر:٤٥] أَيْ: لتَقْوَاهُمْ؛ فالحُكْمُ المُعَلَّقُ بوَصْفٍ يَدُلُّ عَلَى عِلِّيَّةِ ذَلِكَ الوَصْفِ لهَذَا الحُكْمِ، ويَدُلُّ أيضًا عَلَى أَنَّهُ يَعُمُّ بعُمُومِ هَذَا الوَصْفِ، وأَنَّهُ يَقْوَى كُلَّمَا قَوِيَ ذَلِكَ الوَصْفُ، ويَضْعُفُ كُلَّمَا ضَعُفَ.

وقَدْ أشارَ المُؤَلِّفُ إِلَى أَنَّ الأَمْثِلَةَ كَثِيرَةٌ، فمِنْهَا: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى:٦-٨] لَمْ يَقُلْ: أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فآواكَ، وضالًّا فَهَدَاكَ، وعائِلًا فأَغْنَاكَ؛ لِأَنَّ الَّذِي حَصَلَ مِنْ هَذَا حَصَلَ لَهُ ولِغَيْرِهِ، فإِنَّ اللهَ تَعَالَى آواهُ وآوَى بِهِ أيضًا، فهُوَ فِئَةُ كُلِّ مُؤْمِنٍ، ومَلْجَأُ كُلِّ مُؤْمِنٍ فِيمَا يَقْدِرُ عليْهِ.

﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ هداهُ وهَدَى بهِ ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ أغْنَاهُ وأغْنى بهِ؛ ولهَذَا قَالَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ للأنْصَارِ: «**أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمُ اللهُ بِي، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللهُ بِي، وَمُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللهُ بِي**»[1]. هَذِهِ فائِدَةٌ، لَوْ قالَ: أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَاكَ، ووَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَاكَ، وَوَجَدَكَ عائِلًا فَأَغْنَاكَ -صار مُخَصَّصًا، فلمَّا حَذَفَ المُتَعَلَّقَ صَارَ عَامًّا.



(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة الطائف، رقم (٤٣٣٠). ومسلم: كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام، رقم (١٠٦١)، من حديث عبد الله بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



القَاعِدَةُ الخَامِسَةَ عشْرَةَ:

جَعَلَ اللهُ الأَسْبَابَ لِلمَطَالِبِ العالِيَةِ مُبَشِّرَاتٍ لِتَطْمِينِ القُلُوبِ وزِيَادَةِ الإيمانِ

وهَذَا فِي عِدَّةِ مَوَاضِعَ مِنْ كِتابِهِ، فمِنْ ذلكَ:

النَّصْرُ، قَالَ فِي إِنْزَالِ المَلائِكَةِ: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأنفال:١٠].

وقَالَ فِي أسْبابِ الرِّزْقِ ونُزُولِ المَطَرِ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ [الروم:٤٦].

وأَعَمُّ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ قَوْلُهُ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [يونس:٦٢-٦٤] وَهِيَ كُلُّ دَلِيلٍ وعَلامَةٍ تَدُلُّهُمْ عَلَى أَنَّ اللهَ قَدْ أرادَ بِهِمُ الخَيْرَ، وأَنَّهُمْ مِنْ أَوْلِيائِهِ وصَفْوَتِهِ، فيَدْخُلُ فِيهِ الثَّناءُ الحَسَنُ، والرُّؤْيَا الصالِحَةُ، ويَدْخُلُ فِيهِ مَا يُشاهِدُونَهُ مِنَ اللُّطْفِ، والتَّوْفِيقِ، والتَّيْسِيرِ للِيُسْرَى، وتَجْنِيبِهِمُ العُسْرَى.

ومِنْ ذَلِكَ بَلْ أَلْطَفُ: أَنْ يَجْعَلَ الشِّدَّاتِ مُبَشِّرَةً بالفَرَجِ،...

التعليق

لأَنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل:٥-٧] ويقولُ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق:٤] فَإِذَا رَأَيْتَ الأُمُورَ

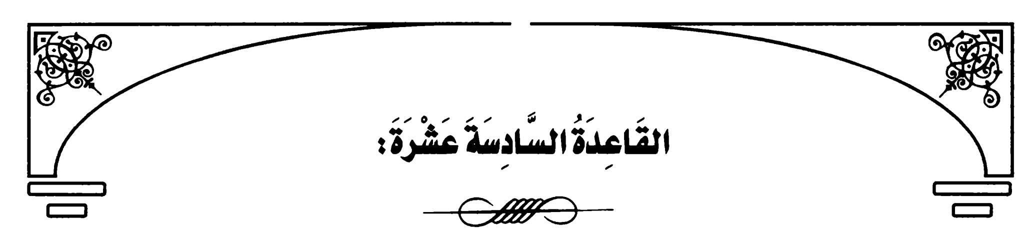
مُتيَسِّرَةً لكَ مُتسَهِّلَةً، وأنَّ اللهَ يُقدِّمُ لكَ الخَيْرَ حَتَّى وإنْ كُنْتَ لَا تَحْتَسِبُهُ، فهذِهِ لَا شَكَّ أَنَّهَا بُشْرَى. وإذَا رَأَيْتَ الأمْرَ بالعَكْسِ فصَحِّحْ مَسارَكَ، فإنَّ فِيكَ بَلاءً.

أمَّا الاسْتِدْرَاجُ، فيَقَعُ إذَا كُنْتَ مُقِيمًا عَلَى مَعْصِيَتِهِ، والنِّعَمُ مَا تَكُونُ اسْتِدْرَاجًا إلَّا لِمَنْ أقامَ عَلَى مَعْصِيَةِ اللهِ، كَمَا قَالَ تَعالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف:١٨٢] أمَّا إِذَا كانَتْ للمُؤْمِنِ فلَيْسَتِ اسْتِدْرَاجًا.

... والعُسْرُ مُؤْذِنًا باليُسْرِ، وإذَا تَأَمَّلْتَ مَا قصَّهُ عَنْ أنْبِيَائِهِ وأصْفِيَائِهِ، وكَيْفَ لَمَّا اشْتَدَّتْ بِهِمُ الحالُ، وضاقَتْ بِهِمُ الأرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴿وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة:٢١٤] رَأَيتَ مِنْ ذَلِكَ العَجَبَ العُجابَ. وقالَ تَعالَى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح:٥-٦] ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ [الطلاق:٧] وقالَ ﷺ: «**واعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الفَرَجَ مَعَ الكَرْبِ، وأَنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا**»[1] وأمْثِلَةُ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ، واللهُ أَعْلَمُ.



(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٠٧)، وعبد بن حميد كما في المنتخب (٦٣٦)، وابن أبي عاصم في السنة (٣١٥)، والعقيلي في الضعفاء (٣/ ٣٩٧-٣٩٨)، والطبراني في الكبير (١١/ ١٢٣ رقم ١١٢٤٣)، وابن عدي في الكامل (٨/ ٣٣٠)، والحاكم (٣/ ٦٢٤)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٤/ ٦٧٧)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٣١٤)، والبيهقي في الشعب (١٠٤٣)، وفي الأسماء والصفات (١٢٦)، وفي الاعتقاد (ص:١٣٩)، وذكره الهيثمي في المجمع (٧/ ١٨٩-١٩٠) وقال: رواه الطبراني، وفيه علي بن أبي علي القرشي وهو ضعيف. وهو قطعة من الحديث المشهور في وصية النبي ﷺ لابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا (كما في بعض روايات الحديث).
وصححه الألباني في ظلال السنة (٣١٥).



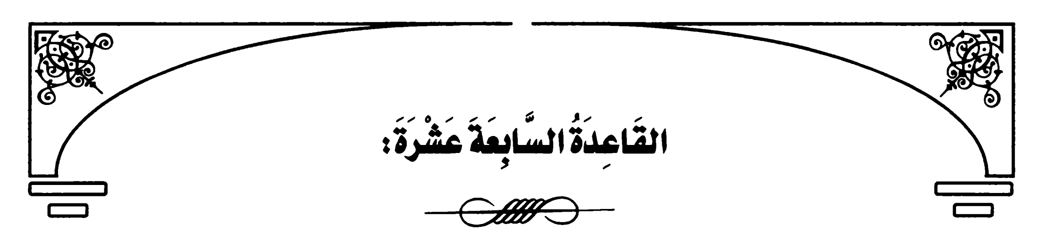
القَاعِدَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ:

حَذْفُ جَوَابِ الشَّرْطِ يَدُلُّ عَلَى تَعْظِيمِ الأَمْرِ وَشِدَّتِهِ فِي مَقَامَاتِ الوَعِيدِ

وذلكَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [السجدة:١٢] ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ﴾ [سبأ:٥١] ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:١٦٥] ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام:٣٠] ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [الأنعام:٢٧] فحَذْفُ الجَوابِ فِي هَذِهِ الآياتِ وشِبْهِهَا أَوْلَى مِنْ ذِكْرِهِ؛ لِيَدُلَّ عَلَى عَظَمَةِ ذَلِكَ المَقامِ، وأَنَّهُ لِهَوْلِهِ، وشِدَّتِهِ، وفَظاعَتِهِ، لَا يُعَبَّرُ عنْهُ، ولَا يُدرَكُ بالوَصْفِ. ومِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر:٥] أَيْ: لَمَا أَقَمْتُمْ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ التَّفْرِيطِ، والغَفْلَةِ، واللَّهْوِ.

التعليق

هذا واضِحٌ، حَذْفُ الشَّيْءِ فِي مَقامِ التَّعْظِيمِ يَدُلُّ عَلَى شِدَّتِهِ وهَوْلِهِ، وكذلكَ إِبْهامُهُ وإجمالُهُ، مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه:٧٨] فإِنَّ هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ غَشِيَهُمْ أَمْرٌ عَظِيمٌ، وإِلَّا لقالَ قائِلٌ: هَذَا تَحْصِيلُ حاصِلٍ، غَشِيَهُمْ مَا غَشِيَهُمْ، لكنْ هَذَا مِنْ بابِ التَّعْظِيمِ وتَفْخِيمِ الشَّيْءِ، كذلكَ هَذِهِ الآياتُ الَّتِي فِيهَا ذِكْرُ الشَّرْطِ وحَذْفُ الجَوَابِ، كُلُّهَا تَدُلُّ عَلَى عَظَمَةِ هَذَا الجَوَابِ.



القَاعِدَةُ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ:

بَعْضُ الأَسْمَاءِ الوَارِدَةِ فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ إِذَا أُفْرِدَ دَلَّ عَلَى المَعْنَى العَامِّ المُنَاسِبِ لَهُ، وإِذَا قُرِنَ مَعَ غَيْرِهِ دَلَّ عَلَى بَعْضِ المَعْنَى، ودَلَّ مَا قُرِنَ مَعَهُ عَلَى بَاقِيهِ

التعليق

يُقَالُ: «إِذَا أُفْرِدَتْ عَمَّتْ، وإِذَا قُرِنَ مَعَهَا غَيْرُهَا خَصَّتْ» ويُقَالُ: «إِذَا اجْتَمَعَا افْتَرَقَا، وإِذَا افْتَرَقَا اجْتَمَعَا».



ولهذِهِ القَاعِدَةُ أَمْثِلَةٌ كَثِيرَةٌ:

منْهَا: (الإِيمَانُ) أُفْرِدَ وحْدَهُ فِي آياتٍ كَثِيرَةٍ، وقُرِنَ مَعَ العَمَلِ الصالِحِ فِي آياتٍ كَثِيرَةٍ، فالآياتُ الَّتِي أُفْرِدَ فِيهَا يَدْخُلُ فِيهِ جَمِيعُ عَقَائِدِ الدِّينِ، وشَرَائِعِهِ الظَّاهِرَةِ والبَاطِنَةِ؛ ولهَذَا يُرَتِّبُ اللهُ عَلَيْهِ حُصُولَ الثَّوَابِ، والنَّجاةَ مِنَ العِقَابِ، ولَوْلَا دُخُولُ المَذْكُورَاتِ مَا حَصَلَتْ آثارُهُ، وَهُوَ عنْدَ السَّلَفِ: قَوْلُ القَلْبِ واللِّسَانِ، وعَمَلُ القَلْبِ واللِّسانِ والجَوَارِحِ.

والآياتُ الَّتِي قُرِنَ الإِيمانُ فِيهَا للعَمَلِ الصالِحِ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة:٢٧٧] يُفَسَّرُ الإِيمانُ فِيهَا: بِمَا فِي القُلُوبِ مِنَ المَعارِفِ، والتَّصْدِيقِ، والاعْتِقَادِ، والإِنابَةِ. والعَمَلُ الصالِحُ: بجَمِيعِ الشَّرَائِعِ القَوْلِيَّةِ والفِعْلِيَّةِ.

وكذلكَ لَفْظُ «البِرّ» و«التَّقْوَى» فحَيْثُ أُفْرِدَ البِرُّ دَخَلَ فِيهِ امْتِثَالُ الأوامِرِ واجْتِنَابُ النَّوَاهِي، وكذلكَ إِذَا أُفْرِدَتِ التَّقْوَى؛ ولِهَذَا يُرَتِّبُ اللهُ عَلَى البِرِّ والتَّقْوَى عِنْدَ الإطْلَاقِ الثَّوَابَ المُطْلَقَ، والنَّجاةَ المُطْلَقَةَ، كَما يُرَتِّبُهُ عَلَى الإيمانِ.

وتَارَةً يُفَسِّرُ أعمالَ البِرِّ بِما يَتَنَاوَلُ أفْعَالَ الخَيْرِ، وتَرْكَ المَعَاصِي. وكذلكَ فِي بَعْضِ الآياتِ تَفْسِيرُ خِصالِ التَّقْوَى، كَما فِي قَوْلِهِ: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ [آل عمران:١٣٣-١٣٤] إِلَى آخِرِ مَا ذَكَرَهُ مِنَ الأوْصَافِ الَّتِي تَتِمُّ بِهَا التَّقْوَى.

وإِذَا جُمِعَ بَيْنَ البِرِّ والتَّقْوَى، مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ﴾ [المائدة:٢] كَانَ البِرُّ اسْمًا جامِعًا لكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ، مِنَ الأقْوَالِ، والأفْعَالِ، الظَّاهِرَةِ والبَاطِنَةِ. وكَانَتِ التَّقْوَى اسْمًا جامِعًا يَتَنَاوَلُ تَرْكَ جَمِيعِ المُحَرَّماتِ.

وكذلكَ لَفْظُ «الإِثْمِ» و«العُدْوَانِ» إِذَا قُرِنَتْ فُسِّرَ الإِثْمُ: بالمَعَاصِي الَّتِي بَيْنَ العَبْدِ وبَيْنَ رَبِّهِ. والعُدْوَانُ: بالتَّجَرُّؤِ عَلَى النَّاسِ فِي دِمائِهِمْ، وأَمْوَالِهِمْ، وأعْرَاضِهِمْ. وإِذَا أُفْرِدَ الإِثْمُ دَخَلَ فِيهِ كُلُّ المَعَاصِي الَّتِي تُؤَثِّمُ صَاحِبَهَا، سَوَاءٌ كانَتْ بَيْنَهُ وبَيْنَ رَبِّهِ، أَوْ بَيْنَهُ وبَيْنَ الخَلْقِ. وكذلكَ إِذَا أُفْرِدَ العُدْوَانُ.

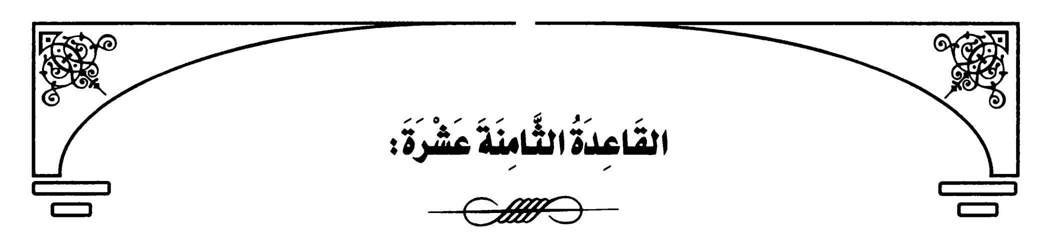
وكذلكَ لَفْظُ «العِبَادَةِ» و«التَّوَكُّلِ» ولَفْظُ «العِبَادَةِ» و«الاسْتِعَانَةِ» إِذَا أُفْرِدَتِ العِبَادَةُ فِي القُرْآنِ تَنَاوَلَتْ جَمِيعَ مَا يُحِبُّهُ اللهُ ويَرْضَاهُ ظَاهِرًا وباطِنًا، ومِنْ أَوَّلِ مَا يَدْخُلُ فِيهَا: التَّوَكُّلُ، والاسْتِعَانَةُ، وإِذَا جُمِعَ بَيْنَهَا وبَيْنَ التَّوَكُّلِ والاسْتِعَانَةِ، نحْوُ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥] ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ﴾ [هود:١٢٣] فُسِّرَتِ العِبَادَةُ بجَمِيعِ المَأْمُورَاتِ البَاطِنَةِ والظَّاهِرَةِ، وفُسِّرَ التَّوَكُّلُ باعْتِمادِ القَلْبِ عَلَى اللهِ فِي حُصُولِهَا،

وحُصُولِ جَمِيعِ المنافِعِ، ودَفْعِ المَضَارِّ، مَعَ الثِّقَةِ التَّامَّةِ باللهِ فِي حُصُولِهَا.

وكذلكَ (الفَقِيرُ) و(المِسْكِينُ) إِذَا أُفْرِدَ أَحَدُهُمَا دَخَلَ فِيهِ الآخَرُ، كَمَا فِي أَكْثَرِ الآياتِ، وإذَا جُمِعَ بَيْنَهُمَا كَمَا فِي آيةِ الصَّدقاتِ: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة:٦٠] فُسِّرَ الفَقِيرُ بمَنِ اشْتَدَّتْ حَاجَتُهُ، وكَانَ لَا يَجِدُ شَيْئًا، أَوْ يَجِدُ شَيْئًا لَا يَقَعُ مِنْهُ مَوْقِعًا. وفُسِّرَ المِسْكِينُ بمَنْ حَاجَتُهُ دُونَ ذلكَ.

ومِثْلُ ذَلِكَ الأَلْفَاظُ الدَّالَّةُ عَلَى تِلاوَةِ الكِتابِ، والتَّمَسُّكِ بهِ، وهُوَ: اتِّبَاعُهُ، يَشْمَلُ ذلكَ: القِيامَ بالدِّينِ كُلِّهِ، فَإِذَا قُرِنَتْ مَعَهُ الصَّلاةُ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [العنكبوت:٤٥] وقَوْلِهِ: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [الأعراف:١٧٠] كَانَ ذِكْرُ الصَّلاةِ تَعْظِيمًا لها، وتَأْكِيدًا لشَأْنِهَا، وحَثًّا عَلَيْهَا، وإلَّا فهِيَ دَاخِلَةٌ بالاسْمِ العامِّ، وَهُوَ التِّلاوَةُ، والتَّمَسُّكُ بهِ، ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِنَ الأَسْماءِ.





القَاعِدَةُ الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ:

فِي كَثِيرٍ مِنَ الآياتِ يُخْبِرُ بِأَنَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ويُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وفِي بَعْضِهَا يَذْكُرُ مَعَ ذَلِكَ الأَسْبَابَ المُتَعَلِّقَةَ بالعَبْدِ المُوجِبَةَ للهِدَايَةِ أَوِ المُوجِبَةَ للإِضْلَالِ وكَذَلِكَ حُصُولِ المَغْفِرَةِ وضِدِّهَا وَبَسْطِ الرِّزْقِ وتَقْدِيرِهِ

وذلكَ فِي آياتٍ كَثِيرَةٍ، فحَيْثُ أَخْبَرَ أَنَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ، ويُضِلُّ مَنْ يَشاءُ، ويَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ، ويُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ، ويَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ، ويَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يشَاءُ، ويُقَتِّرُهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ -دَلَّ ذَلِكَ عَلَى كَمالِ تَوْحِيدِهِ، وانْفِرادِهِ بخَلْقِ الأشْيَاءِ، وتَدْبِيرِ جَمِيعِ الأُمُورِ، وأنَّ خَزائِنَ الأشْيَاءِ بِيَدِهِ، يُعْطِي ويَمْنَعُ، ويَخْفِضُ ويَرْفَعُ، فيَقْتَضِي مَعَ ذَلِكَ مِنَ العِبَادِ أنْ يَعْتَرِفُوا بذلكَ، وأنْ يُعَلِّقُوا أَمَلَهُمْ ورَجَاءَهُمْ بِهِ فِي حُصُولِ مَا يُحِبُّونَ مِنْهَا، وفِي دَفْعِ مَا يَكْرَهُونَ، وأنْ لَا يَسْأَلُوا أَحَدًا غَيْرَهُ، كَما فِي الحَدِيثِ القُدْسِيِّ: «**يَا عِبادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ**»[1] إِلَى آخِرِهِ.

وفِي بَعْضِ الآياتِ يَذْكُرُ فِيهَا أَسْبابَ ذلكَ؛ لِيَعْرِفَ العِبَادَ الأَسْبَابَ والطُّرُقَ المُفْضِيَةَ إِلَيْهَا، فيَسْلُكُوا النَّافِعَ، ويَدَعُوا الضَّارَّ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل:٥-١٠] فبَيَّنَ أَنَّ أَسْبَابَ الهِدَايَةِ والتَّيْسِيرِ: تَصْدِيقُ العَبْدِ لِرَبِّهِ،

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم. رقم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وانْقِيَادُهُ لِأَمْرِهِ، وأنَّ أسْبَابَ الضَّلالِ والتَّعْسِيرِ ضِدُّ ذلكَ.

وكـذلكَ قَـوْلُهُ تعـالَى: ﴿ يَهْدِى بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُۥ ﴾ [المائدة:١٦] ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا الْفَٰسِقِينَ ﴾ [البقرة:٢٦] ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَٰلَةُۗ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ [الأعراف:٣٠] فأخبَرَ أنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ كَانَ قَصْدُهُ حَسنًا، ومَنْ رَغِبَ فِي الخَيْرِ، واتَّبَعَ رِضْوَانَ اللهِ، وأنَّهُ يُضِلُّ مَنْ فَسَقَ عَنْ طَاعَةِ اللهِ تَعَالَى، وتَوَلَّى أعْداءَهُ الشَّياطِينَ، ورَضِيَ بِوِلَايَتِهِمْ عَنْ وِلَايَةِ رَبِّ العالَمِينَ. وكذلكَ قَـوْلُهُ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥] وقَوْلُهُ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام:١١٠].

وكذلكَ يَذْكُرُ فِي بَعْضِ الآياتِ الأسْبَابَ الَّتِي تُنالُ بِهَا المَغْفِرَةُ والرَّحْمَةُ، ويُسْتَحَقُّ بِهَا العَذَابُ، كَقَوْلِهِ: ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴾ [طه:٨٢] ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِىَّ الْأُمِّىَّ ﴾ [الأعراف:١٥٦-١٥٧] ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف:٥٦] ﴿وَسَارِعُوٓا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَٰوَٰتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران:١٣٣].

ثُمَّ ذَكَرَ الأسْبَابَ الَّتِي تُنالُ بِهَا المَغْفِرَةُ والرَّحْمَةُ، وَهِيَ خِصالُ التَّقْوى المَذْكُورَةُ فِي هَذِهِ الآيَةِ وغَيْرِهَا: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ [البقرة:٢١٨] ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْءَانُ فَاسْتَمِعُوا لَهُۥ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف:٢٠٤]...

التعليق

هذِهِ الآيَةُ عَظِيمَةٌ! لَوْ قَالَ لَنَا قائِلٌ: أَنَا أَرْجُو رَحْمَةَ اللهِ، وأخافُ عذابَ اللهِ! نَنْظُرُ هَلْ هُوَ مِنْ هَؤُلاءِ الْمُتَّصِفِينَ بهذِهِ الصفاتِ، إنْ كَانَ كذلكَ فهُوَ صادِقٌ، وإنْ كَانَ غَيْرَ ذلكَ فَإِنَّهُ مِمَّنْ تَمَنَّى عَلَى اللهِ الأمانِيَ؛ لِأَنَّ اللهَ قالَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾. أَمَّا أَنْ يَقُولَ: أَنَا أَرْجُو رَحْمَةَ اللهِ، وَهُوَ لَا يُصَلِّي -مثلًا- فهذا غَيْرُ مَقْبُولٍ. فالَّذِي يَرْجُو رَحْمَةَ اللهِ حَقِيقَةً لا بُدَّ أَنْ يَسْعَى لَهَا.

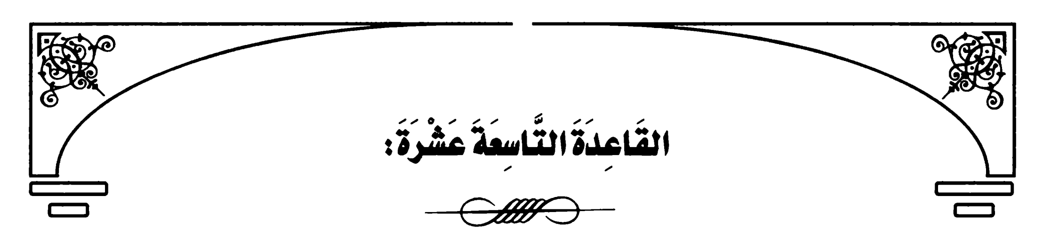
... وأعَمُّ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران:١٣٢] فطريقُ الرَّحْمَةِ والمَغْفِرَةِ سُلُوكُ طَاعَةِ اللهِ ورَسُولِهِ عُمومًا، وهذِهِ الأَسْبَابِ المَذْكُورَةِ خُصُوصًا.

وأَخْبَرَ أَنَّ العَذَابَ لَهُ أَسْبابٌ مُتَعَدِّدَةٌ، وكُلُّهَا راجِعَةٌ إِلَى شَيْئَيْنِ: التَّكْذِيبِ للهِ ورَسُولِهِ، والتَّوَلِّي عَنْ طاعَةِ اللهِ ورَسُولِهِ، كَقَوْلِهِ تَعالَى: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ [الليل:١٥-١٨] ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [طه:٤٨].

وكذلكَ يَذْكُرُ أَسْبابَ الرِّزْقِ، وأَنَّهُ لُزُومُ طاعَةِ اللهِ ورَسُولِهِ، والسَّعْيُ الجَمِيلُ مَعَ لُزُومِ التَّقْوَى، كَقَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢-٣] وانْتِظَارُ الفَرَجِ والرِّزْقِ، كَقَوْلِهِ: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق:٧] وكَثْرَةِ الذِّكْرِ والاسْتِغْفَارِ: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم

مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هود:٣] ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ [نوح:١٠-١١] فأَخْبَرَ أَنَّ الاسْتِغْفَارَ سَبَبٌ يُسْتَجْلَبُ بِهِ مَغْفِرَةُ اللهِ، ورِزْقُهُ، وخَيْرُهُ، وضِدُّ ذَلِكَ سَبَبٌ للفَقْرِ والتَّيْسِيرِ للعُسْرَى. وأَمْثِلَةُ هَذِهِ القَاعِدَةِ كَثِيرَةٌ، قدْ عَرَفْتَ طَرِيقَهَا فَالْزَمْهُ.





القَاعِدَةَ التَّاسِعَةَ عَشْرَةَ:

خَتْمُ الآياتِ بأسْماءِ اللهِ الحُسْنَى يَدُلُّ عَلَى أنَّ الحُكْمَ المَذْكُورَ لَهُ تَعَلُّقٌ بِذَلِكَ الاسْمِ الكَرِيمِ

وهذِهِ قاعِدَةٌ لَطِيفَةٌ نافِعَةٌ، عَلَيْكَ بتَتَبُّعِهَا فِي جَمِيعِ الآياتِ المَخْتُومَةِ بِهَا تَجِدْهَا فِي غايةِ المُناسَبَةِ، وتَدُلُّكَ عَلَى أنَّ الشَّرْعَ والأمْرَ والخَلْقَ كُلَّهُ صادِرٌ عَنْ أسْمائِهِ وصِفَاتِهِ، ومُرْتَبِطٌ بِهَا.

وهَذَا بابٌ عَظِيمٌ مِنْ مَعْرِفَةِ اللهِ، ومَعْرِفَةِ أحْكامِهِ، مِنْ أجَلِّ المعارِفِ وأشْرَفِ العُلُومِ، تَجِدُ آيَةَ الرَّحْمَةِ مَخْتُومَةً بأسْماءِ الرَّحْمَةِ، وآياتِ العُقُوبَةِ والعَذَابِ مَخْتُومَةً بأسْماءِ العِزَّةِ، والقُدْرَةِ، والحِكْمَةِ، والعِلْمِ، والقَهْرِ.

ولَا بَأْسَ هُنَا أنْ نَتَتَبَّعَ الآياتِ الكَرِيمَةَ فِي هذَا، ونُشِيرَ إِلَى مُناسَبَتِهَا بحَسَبِ مَا وَصَلَ إِلَيْهِ عِلْمُنَا القاصِرُ، وعِبارَتُنَا الضَّعِيفَةُ، ولوْ طالَتِ الأمْثِلَةُ هُنَا؛ لِأَنَّهَا مِنْ أَهَمِّ المُهِمَّاتِ، ولَا تَكَادُ تَجِدُهَا فِي كُتُبِ التَفْسِيرِ إِلَّا يَسِيرًا مِنْهَا.

فقَوْلُهُ تَعَالَى فِي قَوْلِهِ: ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٩] ذِكْرُ إحاطَةِ عِلْمِهِ بَعْدَ ذِكْرِ خَلْقِهِ للأرْضِ والسَّمَوَاتِ يَدُلُّ عَلَى إحاطَةِ عِلْمِهِ بِمَا فِيهِمَا مِنَ العَوالِمِ العَظِيمَةِ، وأَنَّهُ حَكِيمٌ حَيْثُ وضَعَهَا لعِبادِهِ، وأحْكَمَ صُنْعَهَا فِي أحْسَنِ خَلْقٍ وأكْمَلِ نِظامٍ، وأنَّ خَلْقَهُ لها مِنْ أَدِلَّةِ عِلْمِهِ، كَمَا قَالَ فِي الآيَةِ الأُخْرَى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤] فخَلْقُهُ للمَخْلُوقاتِ مِنْ أكْبَرِ الأدِلَّةِ

العَقْلِيَّةِ عَلَى عِلْمِهِ، فكَيْفَ يَخْلُقُهَا وَهُوَ لَا يَعْلَمُهَا؟

ولَمَّا ذَكَرَ كَلامَ المَلائِكَةِ حِينَ أَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ جاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً، ومُراجَعَتَهُمْ لِرَبِّهِمْ فِي ذلكَ، فلمَّا خَلَقَ آدَمَ، وعَلَّمَهُ أَسْماءَ كُلِّ شَيْءٍ، وعَجَزَتِ المَلائِكَةُ عنْهَا، وأَنْبَأَهُمْ آدمُ بِهَا: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة:٣٢] فاعْتَرَفُوا للهِ تَعَالَى بسَعَةِ العِلْمِ، وكَمالِ الحِكْمَةِ، وأَنَّهُمْ مُخْطِئُونَ فِي مُراجَعَتِهِمْ فِي اسْتِخْلافِهِ فِي الأَرْضِ.

وفِي هَذَا أَنَّ المَلائِكَةَ عَلَى عَظَمَتِهِمْ، وسَعَةِ مَعارِفِهِمْ برَبِّهِمْ، اعْتَرَفُوا بأَنَّ عُلُومَهُمْ تَضْمَحِلُّ عِنْدَ عِلْمِ رَبِّهِمْ، وأَنَّهُ لا عِلْمَ لَهُمْ إِلَّا مِنْهُ، فخَتْمُ هَذِهِ الآياتِ بهَذَيْنِ الاسْمَيْنِ الكَرِيمَيْنِ -الدَّالَّيْنِ عَلَى عِلْمِ اللهِ بآدَمَ، وتَمامِ حِكْمَتِهِ فِي خَلْقِهِ، ومَا يَتَرَتَّبُ عَلَى ذَلِكَ مِنَ المَصالِحِ المُتَنَوِّعَةِ- مِنْ أَحْسَنِ المُناسَبَاتِ.

وأَمَّا قَوْلُهُ عَنْ آدَمَ: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:٣٧] وخَتْمُهُ كَثِيرًا مِنَ الآياتِ بهَذَيْنِ الاسْمَيْنِ بَعْدَ ذِكْرِ رَحْمَتِهِ، ومَغْفِرَتِهِ، وتَوْفِيقِهِ، وحِلْمِهِ؛ فمُناسَبَتُهُ لكُلِّ أحَدٍ، وأَنَّهُ لَمَّا كَانَ هُوَ التَّوَّابَ الرَّحِيمَ أَقْبَلَ بقُلُوبِ التَّائِبِينَ إِلَيْهِ، ووَفَّقَهُمْ لفِعْلِ الأَسْبابِ الَّتِي يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ويَرْحَمُهُمْ بِهَا، ثُمَّ غَفَرَ لَهُمْ ورَحِمَهُمْ، فتَابَ عَلَيْهِمْ أَوَّلًا بتَوْفِيقِهِمْ للتَّوْبَةِ والأَسْبابِ، وتابَ عَلَيْهِمْ ثانِيًا حِينَ قَبِلَ مَتابَهُمْ، وأجابَ سُؤَالَهُمْ؛ ولهَذَا قَالَ فِي الآيَةِ الأُخْرَى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟﴾ [التوبة:١١٨] أَيْ: أَقْبَلَ بقُلُوبِهِمْ، فَإِنَّهُ لَوْلَا تَوْفِيقُهُ وصَرْفُ قُلُوبِهِمْ إِلَى ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ سَبِيلٌ إِلَى ذَلِكَ حِينَ اسْتَوْلَتْ عَلَيْهِمُ النَّفْسُ الأَمَّارَةُ؛ فإِنَّهَا لَا تَأْمُرُ إِلَّا بالسُّوءِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللهُ، فأَعاذَهُ مِنْهَا ومِنْ نَزَغَاتِ الشَّيْطَانِ.

ولَمَّا ذَكَرَ اللهُ النَّسْخَ أخبرَ عَنْ كَمالِ قُدْرَتِهِ وتَفرُّدِهِ بالمُلْكِ، فقالَ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة:١٠٦-١٠٧] وفِي هَذَا رَدٌّ عَلَى مَنْ أنكرَ النَّسْخَ -كاليهُودِ- وأنَّ نَسْخَهُ لِمَا يَنْسَخُهُ مِنْ آثارِ قُدْرَتِهِ وتَمامِ مُلْكِهِ، فَإِنَّهُ تَعالَى يَتصَرَّفُ فِي عِبادِهِ، ويَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي أحْكامِهِ القَدَرِيَّةِ وأحكامِهِ الشَّرْعِيَّةِ، فلا حَجْرَ عَلَيْهِ فِي شَيْءٍ مِنْ ذلك.

ولَمَّا قالَ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:١١٥] أيْ: واسِعُ الفَضْلِ، واسِعُ المُلْكِ، جَمِيعُ العالَمِ العُلْوِيِّ والسُّفْلِيِّ داخِلٌ فِي مُلْكِهِ، ومَعَ سَعَتِهِ فِي مُلْكِهِ وفَضْلِهِ فهُوَ مُحِيطٌ عِلْمُهُ بِذَلِكَ كُلِّهِ، ومُحِيطٌ عِلْمُهُ فِي الأُمُورِ الماضِيَةِ والمُسْتَقْبَلَةِ، ومُحِيطٌ عِلْمُهُ بِمَا فِي التَّوَجُّهِ إِلَى القِبَلِ المُتنَوِّعَةِ مِنَ الحِكْمَةِ، ومُحِيطٌ عِلْمُهُ بنيَّاتِ المُسْتَقْبِلِينَ لِجِهَةٍ مِنَ الجِهاتِ إِذَا أَخْطَؤُوا القِبْلَةَ المُعَيَّنَةَ، فحَيْثُ تَيَمَّمَ المُصَلِّي تيَمَّمَ إِلَى وَجْهِ رَبِّهِ.

التعليق

المَعْنَى: أَنَّ النَّاسَ كَانُوا أَوَّلَ مَا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى المَدِينَةِ يُصَلُّونَ إِلَى بَيْتِ المَقْدِسِ، فهُوَ قِبْلَةٌ، ثُمَّ نُسِخَ إِلَى بَيْتِ اللهِ الحَرَامِ، فصارَ قِبْلَةً. فإِذَنْ: الحِكْمَةُ فِي كَوْنِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أَقَرَّهُمْ أَوْ أَذِنَ لَهُمْ أَوْ شَرَعَ لَهُمْ أَنْ يُصَلُّوا إِلَى بَيْتِ المَقْدِسِ أَوَّلَ مَا قَدِمَ الرَّسُولُ ﷺ إِلَى المَدِينَةِ، ثُمَّ نُسِخَ ذلك.

وأَمَّا قَوْلُ الخَلِيلِ وإِسْمَاعِيلَ -عَلَيْهِمَا السَّلامُ- وهُمَا يَرْفَعانِ القَوَاعِدَ مِنَ البَيْتِ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة:١٢٧] فَإِنَّهُ تَوَسَّلَ إِلَى اللهِ بِهَذَيْنِ

الاسْمَيْنِ إِلَى قَبُولِ هَذَا العَمَلِ الجَلِيلِ؛ حَيْثُ كَانَ اللهُ يَعْلَمُ نِيَّاتِهِمَا ومَقاصِدَهُمَا، ويَسْمَعُ كَلامَهُمَا، ويُجِيبُ دُعاءَهُمَا؛ فَإِنَّهُ يُرادُ بالسَّمِيعِ فِي مَقام الدُّعَاءِ -دُعاءُ العِبادَةِ، ودُعاءُ المَسْأَلَةِ- معْنَى المُسْتَجِيبِ، كَمَا قَالَ الخَلِيلُ فِي الآيَةِ الأُخْرَى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم:٣٩].

التعليق

هذِهِ فائِدَةٌ: إِذَا جاءَ اسْمُ اللهِ السَّمِيعِ فِي مَقامِ الدُّعَاءِ، سواءً دُعاءِ المَسْأَلَةِ أَوْ دُعاءِ العِبادَةِ، فهُوَ بِمَعْنَى الإجابَةِ أَوِ الاسْتِجابَةِ، ومنْهُ فِي دُعاءِ العِبادَةِ «سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ» فإنَّ الحامِدَ يَدْعُو اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعِبادَتِهِ، فمَعْنَى: سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، أيِ: اسْتَجابَ. وأمَّا قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَآءِ﴾ فهذَا دُعاءُ مَسْأَلَةٍ، فمَعْنَى: سَمِيعٌ، أيْ: مُجِيبُ الدُّعَاءِ.

وأمَّا نَحْوُ قَوْلِهِ: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ [آل عمران:١٨١] فهُوَ سَمْعٌ بمَعْنَى إِدْرَاكِ المَسْمُوعِ.

وأمَّا خَتْمُ قَوْلِهِ: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة:١٢٩] بقَوْلِهِ: ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة:١٢٩] أيْ: فكَمَا أنَّ بَعْثَتَكَ لهَذَا الرَّسُولِ فِيهَا الرَّحْمَةُ السَّابِغَةُ، ففِيهَا تَمامُ عِزَّةِ اللهِ، وكَمالُ حِكْمَتِهِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ حِكْمَتِهِ أنْ يَتْرُكَ الخَلْقَ سُدًى -عَبَثًا- لَا يُرْسِلُ إِلَيْهِمْ رَسُولًا، فحَقَّقَ اللهُ حِكْمَتَهُ بِبَعْثَتِهِ؛ لِئَلَّا يَكُونَ للنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ. والأُمُورُ كُلُّهَا -قَدَرِيُّهَا وشَرْعِيُّهَا- لَا تَقُومُ إِلَّا بعِزَّةِ اللهِ ونُفُوذِ حُكْمِهِ.

وقَدْ يَكْتَفِي اللهُ بذِكْرِ أسْمائِهِ الحُسْنَى عَنِ التَّصْريحِ بذِكْرِ أحْكامِهَا، وجَزائِهَا؛ لِيُنَبِّهَ عِبادَهُ أَنَّهُمْ إِذَا عَرَفُوا اللهَ بِذَلِكَ الاسْمِ العَظِيمِ عَرَفُوا مَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنَ الأَحْكَامِ، مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ [البقرة:٢٠٩] لَمْ يَقُلْ: فلَكُمْ مِنَ العُقُوبَةِ كذَا، بلْ قالَ: ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة:٢٠٩] أي: فَإِذَا عَرَفْتُمْ عِزَّتَهُ (وهُوَ قَهْرُهُ، وغَلَبَتُهُ، وقُوَّتُهُ، وامْتِنَاعُهُ) وعَرَفْتُمْ حِكْمَتَهُ (وهُوَ وضْعُهُ الأشْيَاءَ مَوَاضِعَهَا، وتَنْزِيلَهَا مَحَالَّهَا) أوْجَبَ لكُمُ الخَوْفَ مِنَ البقاءِ عَلَى ذُنُوبِكُمْ وزَلَلِكُمْ؛ لِأَنَّ مِنْ حِكْمَتِهِ مُعاقَبَةَ مَنْ يَسْتَحِقُّ العُقُوبَةَ -وهُوَ المُصِرُّ عَلَى الذَّنْبِ مَعَ عِلْمِهِ- وأَنَّهُ لَيْسَ لكُمُ امْتِنَاعٌ عَلَيْهِ، ولَا خُرُوجٌ عَنْ حُكْمِهِ وجَزَائِهِ؛ لكَمالِ قَهْرِهِ وعِزَّتِهِ.

وكذلكَ لَمَّا قَالَ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة:٣٤] لَمْ يَقُلْ: فاعْفُوا عنْهُمْ، أوِ: اتْرُكُوهُمْ، ونَحْوَهَا، بلْ قَالَ: ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة:٣٤] يعْنِي: فَإِذَا عَرَفْتُمْ ذَلِكَ وعَلِمْتُمُوهُ عَرَفْتُمْ أنَّ مَنْ تَابَ وأنابَ، فإنَّ اللهَ يَغْفِرُ لَهُ ويَرْحَمُهُ فيَدْفَعُ عَنْهُ العُقُوبَةَ.

ولَمَّا ذَكَرَ عُقُوبَةَ السَّارِقِ، قَالَ فِي آخِرِهَا: ﴿نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة:٣٨] أي: عزَّ وحَكَمَ فقَطَعَ يَدَ السَّارِقِ، وعَزَّ وحَكَمَ فعَاقَبَ المُعْتَدِيَ شَرْعًا، وقَدَرًا، وجَزَاءً.

ولَمَّا ذَكَرَ اللهُ مَوارِيثَ الوَرَثَةِ وقَدَّرَهَا، قَالَ: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١١] فكَوْنُهُ عَلِيمًا حَكِيمًا يَعْلَمُ مَا لَا يَعْلَمُ العِبادُ، ويَضَعُ الأَشْيَاءَ مَوَاضِعَهَا، فاخْضَعُوا لِمَا قالَهُ وفَصَّلَهُ فِي تَوْزِيعِ الأمْوالِ عَلَى مُسْتَحِقِّيهَا، الَّذِينَ

يَسْتَحِقُّونَهَا بحَسَبِ عِلْمِ اللهِ وحِكْمَتِهِ، فلوْ وُكِلَ العِبادُ إِلَى أَنْفُسِهِمْ، وقِيلَ لَهُمْ: وَزِّعُوهُ أَنْتُمْ بحَسَبِ اجْتِهَادِكُمْ، لدَخلَهَا الجَهْلُ والهَوَى، وعَدَمُ الحِكْمَةِ، وصارَتِ المَوارِيثُ فَوْضَى، وحَصَلَ فِي ذَلِكَ مِنَ الضَّرَرِ مَا اللهُ بِهِ عَلِيمٌ، ولكنْ تَوَلَّاهَا وقَسَمَهَا بأحْكَمِ قِسْمَةٍ وأوْفَقِهَا للأحْوالِ، وأقْرَبِهَا للنَّفْعِ؛ ولهَذَا مَنْ قَدَحَ فِي شَيْءٍ مِنْ أحكامِهِ، أَوْ قَالَ: لَوْ كَانَ كذا، أَوْ كذَا، فهو قادِحٌ فِي عِلْمِ اللهِ، وفِي حِكْمَتِهِ؛ ولهَذَا يَذْكُرُ اللهُ العِلْمَ والحِكْمَةَ بَعْدَ ذِكْرِ الأحْكَامِ، كَمَا يَذْكُرُهَا فِي آياتِ الوَعِيدِ؛ ليُبَيِّنَ للعِبادِ أنَّ الشَّرْعَ والجَزاءَ مَرْبُوطٌ بحِكْمَتِهِ، غَيْرُ خارِجٍ عَنْ عِلْمِهِ، ويَخْتِمُ الأدْعِيَةَ بأسْمَاءٍ تُناسِبُ المَطْلُوبَ، وهَذَا مِنَ الدُّعَاءِ بالأسْمَاءِ الحُسْنَى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠] أيْ: تَعَبَّدُوا للهِ بِهَا، واطْلُبُوهُ بكُلِّ اسمٍ مُناسِبٍ لِمَطْلُوبِكُمْ.

وقَوْلُهُ تَعالَى: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [الحج:٥٩] والآياتُ المُتَتابِعَةُ الَّتِي بَعْدَهَا، كُلُّ واحِدَةٍ خُتِمَتْ باسْمَيْنِ كَرِيمَيْنِ؛ فالأُولَى مِنْهَا هذِهِ، خَتْمُهَا بالعِلْمِ والحِلْمِ يَقْتَضِي عِلْمَهُ بِنِيَّاتِهِمُ الجَمِيلَةِ، وأعْمالِهِمُ الجَلِيلَةِ، ومَقاماتِهِمُ الشَّامِخَةِ، فيُجازِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ بالفَضْلِ العَظِيمِ، ويَعْفُو ويَحْلُمُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ، فكأَنَّهُمْ مَا فَعَلُوهَا.

وخَتَمَ الثَّانِيَةَ بالعَفُوِّ الغَفُورِ، فَإِنَّهُ أباحَ المُعاقَبَةَ بالمِثْلِ، ونَدَبَ إِلَى مَقامِ الفَضْلِ -وهُوَ العَفْوُ وعَدَمُ مُعاقَبَةِ المُسِيءِ- وأَنَّهُ يَنْبَغِي لكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ بالاتِّصافِ بهَذَيْنِ الوَصْفَيْنِ الجَلِيلَيْنِ؛ لِتَنالُوا عَفْوَهُ ومَغْفِرَتَهُ.

وخَتْمُ الآيَةِ الثالِثَةِ بالسَّمِيعِ البَصِيرِ يَقْتَضِي سَمْعَهُ لجَمِيعِ أصْواتِ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ والنَّهارِ، وبَصَرَهُ بحَرَكاتِهِمْ عَلَى اخْتلافِ الأوْقاتِ، وتَبَايُنِ الحالاتِ.

وخَتْمُ الآيَةِ الرَّابِعَةِ بالعَلِيِّ الكَبيرِ؛ لِأَنَّ عُلُوَّهُ المُطْلَق، وكِبْرِياءَهُ، وعَظَمَتَهُ، ومَجْدَهُ، تَضْمَحِلُّ مَعَهَا المَخْلُوقاتُ، ويَبْطُلُ مَعَهَا كُلُّ مَا عُبِدَ مِنْ دُونِهِ، وبإثْباتِ كَمالِ عُلُوِّهِ وكِبْرِيَائِهِ يَتَعَيَّنُ أَنَّهُ هُوَ الحَقُّ، ومَا سِواهُ باطِلٌ.

وخَتَمَ الآيَةَ الخامِسَةَ باللَّطِيفِ الخَبِيرِ، الدَّالَّيْنِ عَلَى سَعَةِ عِلْمِهِ وخِبْرَتِهِ بالبَواطِنِ كالظَّواهِرِ، وبِمَا تَحْتَوِي عَلَيْهِ الأَرْضُ مِنْ أَصْنافِ البُذُورِ، وأَلْوَانِ النَّباتاتِ، وأَنَّهُ لَطُفَ بعِبادِهِ حَيْثُ أَخْرَجَ لَهُمْ أَصْنَافَ الأَرْزَاقِ بِمَا أَنْزَلَهُ مِنَ الماءِ النَّمِيرِ والخَيْرِ الغَزِيرِ.

وخَتَمَ الآيَةَ السَّادِسَةَ بالغَنِيِّ الحَمِيدِ، بَعْدَمَا ذَكَرَ مُلْكَهُ للسَّماواتِ والأَرْضِ، ومَا فِيهِمَا مِنَ المَخْلُوقاتِ، وأَنَّهُ لَمْ يَخْلُقْهَا حاجَةً منْهُ لهَا؛ فَإِنَّهُ الغَنِيُّ المُطْلَقُ، ولَا لِيَتَكَمَّلَ بِهَا، فَإِنَّهُ الحَمِيدُ الكامِلُ؛ ولِيَدُلَّهُمْ عَلَى أَنَّهُمْ كُلَّهُمْ فُقَرَاءُ إِلَيْهِ مِنْ جَمِيعِ الوُجُوهِ، وأَنَّهُ حَمِيدٌ فِي أَقْدارِهِ، حَمِيدٌ فِي شَرْعِهِ، حَمِيدٌ فِي جَزائِهِ؛ فلهُ الحَمْدُ المُطْلَقُ ذَاتًا، وصِفَاتًا، وأَفْعَالًا.

وخَتْمُ الآيَةِ السابِعَةِ بالرَّؤُوفِ الرَّحِيمِ، أيْ: مِنْ رَأْفَتِهِ، ورَحْمَتِهِ، تَسْخِيرُهُ المُخْلُوقَاتِ لبَنِي آدَمَ، وحِفْظُ السَّماوَاتِ والأَرْضِ، وإبْقاؤُهَا؛ لِئَلَّا تَزُولَ فتَخْتَلَّ مَصالِحُهُمْ، ومِنْ رَحْمَتِهِ سَخَّرَ لَهُمُ البِحارَ؛ لِتَجْرِيَ فِي مَنافِعِهِمْ، ومَصالِحِهِمْ، فرَحِمَهُمْ حَيْثُ خَلَقَ لَهُمُ المَسْكَنَ، وأَوْدَعَ فِيهِ كُلَّ مَا يَحْتَاجُونَهُ، وحَفِظَهُ عَلَيْهِمْ وأَبْقَاهُ.

ولَمَّا ذَكَرَ فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ قَصَصَ الأَنْبِياءِ مَعَ أُمَمِهِمْ خَتَمَ كُلَّ قِصَّةٍ بقَوْلِهِ: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء:٩، ٦٨، ١٠٤، ١٢٢، ١٤٠، ١٥٩، ١٧٥، ١٩١] فإِنَّ كُلَّ قِصَّةٍ تَضَمَّنَتْ نَجاةَ النَّبِيِّ وأَتْباعِهِ، وذلكَ برَحْمَةِ اللهِ ولُطْفِهِ، وإهْلاكِ المُكَذِّبِينَ لهُ، وذلكَ مِنْ آثارِ عِزَّتِهِ، وقَدْ يَتَعَلَّقُ مُقْتَضَى الاسْمَيْنِ بكُلٍّ مِنَ الحالَتَيْنِ، فَإِنَّهُ نَجَّى

الرَّسُولَ وأتْباعَهُ بكَمالِ قُوَّتِهِ، وعِزَّتِهِ، ورَحْمَتِهِ؛ وأهْلَكَ المُكَذِّبِينَ بعِزَّتِهِ وحِكْمَتِهِ. ويَكُونُ ذِكْرُ الرَّحْمَةِ يَقْتَضِي عِظَمَ جُرْمِهِمْ، وأنَّهُ لَوْلَا أنَّ جُرْمَهُمْ تَعاظَمَ، وسَدُّوا عَلَى أنْفُسِهِمْ أبْوابَ الرَّحْمَةِ، ولَمْ يَكُنْ لَهُمْ طَرِيقٌ إليْهَا لَما أَحَلَّ بِهِمُ العِقَابَ.

وأمَّا قَوْلُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة:١١٨] ولَمْ يَقُلْ: أنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ. فإنَّ المَقامَ لَيْسَ مَقامَ اسْتِعْطَافٍ واسْتِرْحَامٍ، وإنَّما هُوَ مَقامُ غَضَبٍ وانْتِقامٍ مِمَّنِ اتَّخَذَهُ إلهًا مَعَ اللهِ، فناسَبَ ذِكْرَ العِزَّةِ والحِكْمَةِ، وصارَ أوْلَى مِنْ ذِكْرِ الرَّحْمَةِ.

ومِنْ أَلْطَفِ مَقاماتِ الرَّجاءِ: أنَّهُ يَذْكُرُ أسْبابَ الرَّحْمَةِ، وأسْبابَ العُقُوبَةِ، ثُمَّ يَخْتِمُهَا بِمَا يَدُلُّ عَلَى الرَّحْمَةِ، مِثْلُ قَوْلِهِ: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران:١٢٩] وقَوْلِهِ: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٣] وذلكَ يَدُلُّ عَلَى أنَّ رَحْمَتَهُ سَبقَتْ غَضَبَهُ وغَلَبَتْهُ، وصارَ لَهَا الظُّهُورُ، وإلَيْهَا يَنْتَهِي كُلُّ مَنْ وُجِدَ فِيهِ أدْنَى سَبَبٍ مِنْ أسْبابِ الرَّحْمَةِ؛ ولهَذَا يَخْرُجُ مِنَ النارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أدْنَى حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنَ الإيمانِ.

ولْنَقْتَصِرْ عَلَى هَذِهِ الأمْثِلَةِ فَإِنَّهُ يُعْرَفُ بِهَا صِفَةُ الاسْتِدْلالِ بذلكَ.

التعليق

الخُلَاصَةُ: تَتَضَمَّنُ هَذِهِ القَاعِدَةُ قَاعِدَتَيْنِ، أَوْ قاعِدَةً واحِدَةً لَهَا وجْهَانِ:

الأوَّلُ: أنَّ خَتْمَ الآيَةِ باسْمٍ مِنْ أسْماءِ اللهِ تَعالَى لَا يَكُونُ إلَّا مُناسِبًا لذلكَ الحُكْمِ. ولَا يَخْرُجُ عَنْ هَذِهِ القَاعِدَةِ شَيْءٌ إلَّا لسَبَبٍ، مِثْلُ قَوْلِهِ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ

عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة:١١٨] فقدْ يَقُولُ قائِلٌ: وإنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فإنَّكَ أنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ. لكنْ لَمَّا كَانَ المَقامُ مَقامَ عِزَّةٍ، وكَمالَ تَصرُّفٍ؛ لكَوْنِ هؤُلاءِ لَهُمْ حالانِ: إمَّا عذابٌ، وإمَّا رَحْمَةٌ ومَغْفِرَةٌ -فلَهُمْ مَا تَقْتَضِيهِ العِزَّةُ والحِكْمَةُ بسَبَبِ عِنادِهِمْ واسْتِكْبارِهِمْ.

الوَجْهُ الثَّانِي: أنَّ خَتْمَ الآيَةِ باسْمٍ مِنْ أسْماءِ اللهِ يَدُلُّ عَلَى أنَّ الحُكْمَ مُطابِقٌ لذلكَ الاسْمِ. وهَذَا الوَجْهُ غيْرُ الوَجْهِ الأوَّلِ، فمَثَلًا قَوْلُهُ: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ ﴾ [المائدة:٣٤] يَتوَقَّعُ الإنْسَانُ أنْ يُقالَ: فتَسْقُطُ عنهُمُ العُقُوبَةُ، لكنَّهُ لَمْ يَقُلْ هكَذَا، وإنَّما قَالَ: ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة:٣٤] أيْ: لقدْ سَقطَ عنْهُمُ الحدُّ بمُقْتَضَى مَغْفِرَةِ اللهِ ورَحْمَتِهِ.

ومِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تعَالَى فِي المُولِي: ﴿فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة:٢٢٦-٢٢٧] لِأَنَّ فَيْأَهُمْ إِلَى زَوْجَاتِهِمْ مِمَّا يُحِبُّهُ اللهُ ويَكُونُ سَبَبًا للمَغْفِرَةِ والرَّحْمَةِ. وأمَّا عَزْمُهُمُ الطَّلاقَ فهُوَ أمْرٌ لَيْسَ مَحْبُوبًا إِلَى اللهِ؛ ولهَذَا قَرَنَهُ بِمَا يُفِيدُ أَوْ يُشِيرُ إِلَى نَوْعٍ مِنَ العُقُوبَةِ، فقالَ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

فائِدَةٌ: المُعَرَّفُ (بأل) يَدُلُّ عَلَى مُلاحَظَةِ أصْلِ الصِّفَةِ، مِثْلُ: الفَضْلِ، العَبَّاسِ. فمَثَلًا: قَوْلُهُ تعَالَى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف:٢٠٠] وفِي آيةٍ أُخْرَى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [فصلت:٣٦] الآيتانِ سَواءٌ فِي اللَّفْظِ وفِي كُلِّ شَيْءٍ، إلَّا فِي التَّعْرِيفِ فِي سَمِيعٍ عَلِيمٍ، فتَكُونُ الآيَةُ الأُولَى لُوحِظَ فِيهَا مُطْلَقُ الصِّفَةِ، والثَّانِيَةُ لُوحِظَ فِيهَا كَمالُ الصِّفَةِ.



القَاعِدَةُ العِشْرُونَ:

القُرْآنُ كُلُّهُ مُحكَمٌ باعْتِبَارٍ، وكُلُّهُ مُتَشَابِهٌ بِاعْتِبَارٍ وبَعْضُهُ مُحْكَمٌ وبَعْضُهُ مُتَشَابِهٌ بِاعْتِبَارٍ ثَالِثٍ

وقدْ وَصَفَهُ اللهُ تَعَالَى بكُلِّ واحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ الأَوْصَافِ الثَّلاثِ، فوَصَفَهُ بأَنَّهُ مُحْكَمٌ فِي عِدَّةِ آياتٍ، وأَنَّهُ: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود:١] ومعْنَى ذلكَ: أَنَّهُ فِي غايَـةِ الإحْكامِ، ونِهايَـةِ الانْتِظَامِ، فأخْبارُهُ كُلُّهَا حَـقٌّ وصِـدْقٌ لَا تَناقُضَ فِيهَا ولَا اخْتِلَافَ، وأَوَامِرُهُ كُلُّهَا خيْرٌ وبَرَكَةٌ وصَلاحٌ، ونَواهِيهِ مُتعَلِّقَةٌ بالشُّرُورِ، والأَضْرَارِ، والأَخْلَاقِ الرَّذِيلَةِ، والأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ، فهذَا إِحْكامُهُ.

ووصَفَـهُ بأَنَّـهُ مُتَشابِـهٌ فِي قَـوْلِهِ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا﴾ [الزمر:٢٣] أيْ: مُتَشابِهًا فِي الحُسْنِ، والصِّدْقِ، والحَقِّ، ووُرُودِهِ بالمَعَانِي النَّافِعَةِ المُزَكِّيَةِ للعُقُولِ، المُطَهِّرَةِ للقُلُوبِ، المُصْلِحَةِ للأَحْوَالِ، فأَلْفَاظُهُ أَحْسَنُ الأَلْفَاظِ، ومَعَانِيهِ أَحْسَنُ المَعَانِي.

ووَصَفَهُ بأَنَّ: ﴿مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞ﴾ [آل عمران:٧] فهُنَا وصَفَهُ بأَنَّ بَعْضَهُ هكَذَا، وبَعْضَهُ هكَذَا، وأَنَّ أَهْلَ العِلْمِ بالكِتَابِ يَرُدُّونَ المُتَشابِهَ مِنْهُ إِلَى المُحْكَمِ، فيَصِيرُ كُلُّهُ مُحْكَمًا، ويَقُولُونَ: ﴿كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران:٧] أيْ: ومَا كَانَ مِنْ عِنْدِهِ فَلا تَنَاقُضَ فيهِ، فَمَا اشْتَبَهَ مِنْهُ فِي مَوْضِعٍ فَسَّرَهُ المَوْضِعُ الآخَرُ المُحْكَمُ، فحَصَلَ العِلْمُ، وزَالَ الإِشْكالُ. ولهَذَا النَّوْعِ أَمْثِلَةٌ:

منْهَا: مَا تَقَدَّمَ مِنَ الإِخْبَارِ بِأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وأَنَّهُ مَا شاءَ كانَ، ومَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وأَنَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، ويُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ، فَإِذَا اشْتَبَهَتْ عَلَى مَنْ ظَنَّ بِهِ خِلافَ الحِكْمَةِ، وأنَّ هِدايَتَهُ وإضْلالَهُ يَكُونُ جُزَافًا لغَيْرِ سَبَبٍ، وَضَّحَتْ هَذَا الإِطْلاقَ الآياتُ الأُخَرُ، الدَّالَّةُ عَلَى أنَّ هِدايَتَهُ لهَا أَسْبابٌ يَفْعلُهَا العَبْدُ ويَتَّصِفُ بِهَا، مِثْلُ قَوْلِهِ: ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ [المائدة:١٦] وأنَّ إضْلالَهُ لعَبْدِهِ لهَا أَسْبَابٌ مِنَ العَبْدِ، وَهُوَ تَوَلِّيهِ للشَّيْطَانِ ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [الأعراف:٣٠] ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف:٥].

وإِذَا اشْتَبَهَتْ عَلَى الجَبْرِيِّ، الَّذِي يَرَى أَنَّ أَفْعَالَ العِبادِ مَجْبُورُونَ عَلَيْهَا، بَيَّنَتْهَا الآياتُ الأُخَرُ الكَثِيرَةُ، الدَّالَّـةُ عَلَى أَنَّ اللهَ لَمْ يُجْبِرِ العِبادَ، وأَنَّ أَعْمالَهُـمْ واقِعَـةٌ باخْتِيَارِهِمْ وقُدْرَتِهِمْ، وأَضافَهَا إِلَيْهِمْ فِي آياتٍ غَيْرِ مُنْحَصِرَةٍ.

كَمَا أَنَّ هَذِهِ الآياتِ الَّتِي أضافَ اللهُ فِيهَا الأَعْمالَ إِلَى العِبادِ -حَسَنَهَا وسَيِّئَهَا- إِذَا اشْتَبَهَتْ عَلَى القَدَرِيَّةِ النُّفَاةِ، وظَنُّوا أَنَّهَا مُنْقَطِعَةٌ عَنْ قَضاءِ اللهِ وقَدَرِهِ، وأَنَّ اللهَ مَا شَاءَهَا مِنْهُمْ، ولَا قَدَّرَهَا، تُلِيَتْ عَلَيْهِ الآياتُ الكَثِيرَةُ الصَّرِيحَةُ بتَناوُلِ قُدْرَةِ اللهِ لكُلِّ شَيْءٍ مِنَ الأَعْيانِ، والأَعْمالِ، والأَوْصَافِ، وأَنَّ اللهَ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، ومِنْ ذَلِكَ أَعْمالُ العِبادِ، وأَنَّ العِبادَ لَا يَشَاؤُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ العالَمِينَ.

وقِيلَ للطَّائِفَتَيْنِ: إِنَّ الآياتِ والنُّصُـوصَ كُلَّهَا حَـقٌّ، ويَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ تَصْدِيقُهَا، والإِيمانُ بِهَا كُلِّهَا، وأَنَّهَا لَا تَتَنَافَى، فهِيَ واقِعَةٌ مِنْهُمْ، وبقُدْرَتِهِمْ وإِرادَتِهِمْ، واللهُ تَعَالَى خَالِقُهُمْ، وخَلَقَ قُدْرَتَهُمْ وإِرَادَتَهُمْ، ومَا أُجْمِلَ فِي بَعْضِ الآياتِ فَسَّرَتْهُ آياتٌ أُخَرُ، ومَا لَمْ يَتَوَضَّحْ فِي مَوْضِعٍ تَوَضَّحَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ، ومَا كَانَ مَعْرُوفًا بَيْنَ النَّاسِ،

وورَدَ فِيهِ القُرْآنُ، أمْرًا، أَوْ نَهْيًا، كالصَّلاةِ، والزَّكَاةِ، والزِّنَى، والظُّلْمِ، ولَمْ يُفَصِّلْهُ، فلَيْسَ مُجْمَلًا؛ لِأَنَّهُ أرْشَدَهُمْ إِلَى مَا كَانُوا يَعْرِفُونَ، وأحَالَهُمْ عَلَى مَا كَانُوا بِهِ مُتَلَبِّسِينَ، فلَيْسَ فِيهِ إِشْكَالٌ بوَجْهٍ. واللهُ أَعْلَمُ.

التعليق

هذِهِ القَاعِدَةُ بَيَّنَ فِيهَا المُؤَلِّفُ أنَّ اللهَ تَعَالَى وَصَفَ القُرْآنَ بِأَنَّهُ مُحْكَمٌ، وبأَنَّهُ مُتَشَابِهٌ، وبأَنَّهُ جامِعٌ بَيْنَهُما، مُحْكَمٌ ومُتَشابِهٌ.

فعَلَى المَعْنَى الأَوَّلِ: مُحْكَمٌ، أيْ: مُتْقَنٌ، فأَخْبارُهُ صِدْقٌ، وأحْكَامُهُ عَدْلٌ؛ لِأَنَّ الخَلَلَ فِي الخَبَرِ يَكُونُ بمُخالَفَةِ الصِّدْقِ، والخَلَلَ فِي الحُكْمِ يَكُونُ بمُخالَفَةِ العَدْلِ؛ ولهَذَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥].

إِذَنْ: كُلُّهُ مُحْكَمٌ مِنْ هَذَا الوَجْهِ، أيْ: مُتْقَنٌ فِي أخْبارِهِ وفِي أحْكامِهِ، ففِي أخْبارِهِ نَقُولُ: كُلُّهَا صِدْقٌ لَيسَ فِيهَا كَذِبٌ، وفِي أحْكامِهِ: كُلُّهَا عَدْلٌ لَيْسَ فِيهَا جَوْرٌ ولَا ظُلْمٌ بوَجْهٍ مِنَ الوُجُوهِ، ونَزِيدُ أيضًا بالنِّسْبَةِ لشَرِيعَةِ الإسْلَامِ المُحَمَّدِيَّةِ أنَّ أحْكامَهَا كُلَّها يُسْرٌ لَيسَ فِيهَا مَشَقَّةٌ، كَما قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي وصْفِ النَّبِيِّ ﷺ: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف:١٥٧].

ووصْفُهُ بِأَنَّهُ مُتَشَابِهٌ، أيْ: يُشْبِهُ بَعْضُهُ بَعْضًا فِي الكَمالِ، والجَوْدَةِ فِي الأُسْلُوبِ، والبَلاغَةِ فِي الصِّدْقِ، والعَدْلِ، وفِي النَّفْعِ، وفِي كُلِّ شَيْءٍ، فبَعْضُهُ يُشْبِهُ بَعْضًا لَا يُخالِفُهُ أبَدًا، ولَا يُناقِضُهُ، فجَمَعَ بَيْنَ الأمْرَيْنِ: الإحْكامِ والتَّشابُهِ.

فمَعْنَى الإحْكامِ هُنَا: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ﴾ [آل عمران:٧] أيْ: واضِحاتٌ جَلِيَّاتٌ، فالإحْكامُ هُنَا بمَعْنَى الإيضاحِ والبَيانِ.

والمُتَشَابِهُ هُوَ: الخَفِيُّ المَعْنَى الَّذِي لَا يَتَبَيَّنُ وجْهُ صَوابِهِ إِلَّا للرَّاسِخِينَ فِي العِلْمِ؛ ولهَذَا قَالَ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران:٧] يعْنِي: وأَمَّا الرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ فيقُولُونَ: آمَنَّا بِهِ ويَعْلَمُونَ مِنْهُ مَا يَخْفَى عَلَى غَيْرِهِمْ، وهُنَا مَحَطُّ النِّزاعِ، ومَحَكُّ الأفكـارِ، ومَوْضِعُ الاخْتِبَارِ؛ فإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ إِذَا رَأَى مِثْلَ هَذِهِ النُّصُوصِ المُتشابِهَةِ الَّتِي ظاهِرُهَا يُخالِفُ بَعْضًا أَخَذَ مِنْهَا سَبَبًا للطَّعْنِ فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ، وقالَ: إِنَّ هَذَا القُرْآنَ يَتَناقَضُ، يَقُولُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١] ثُمَّ يَقُولُ: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ إِذَا كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا، فقدْ مَاثَلَ مَنْ لَهُ سَمْعٌ وبَصَرٌ! إِذَنْ: فِيهِ اشْتِبَاهٌ.

وقَوْلُهُ: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات:٣٦] يُناقِضُ قَوْلَهُ: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء:٤٢] وقَوْلَهُ: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾.

وقَوْلُهُ: ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه:١٠٢] يُناقِضُ قَوْلَهُ: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران:١٠٦].

فمِثْلُ هَذِهِ الآياتِ قَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: كَيْفَ؟ هَذَا تَناقُضٌ! نعَمْ هُمْ قالُوا: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣] وَيَقُولُ فِي الآيَةِ الأُخْرَى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء:٤٢] فالَّذِي حَلَفَ أَنَّهُ لَيْسَ مُشْرِكًا كاتِمٌ، بلْ حالِفٌ عَلَى ذَلِكَ وَهُوَ كاذِبٌ، فهذَا تَناقُضٌ، وقائِلُ هَذَا هُمُ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ، والعِياذُ باللهِ، يَتَّبِعُونَ هَذَا المُتَشابِهَ.

الوَجْهُ الثالِثُ: المُحْكَمُ، تَعْرِيفُهُ: الواضِحُ البَيِّنُ، والمُتَشَابِهُ: الخَفِيُّ الَّذِي لَا يَتَبَيَّنُ إِلَّا للرَّاسِخِينَ فِي العِلْمِ.

فإنْ قُلْتَ: مَا الحِكْمَةُ فِي أنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يَجْعَلُ هذا؟ لماذا لَمْ يَكُنِ القُرْآنُ كُلُّهُ مُحكَمًا ظاهِرَ المَعْنى بيِّنًا؟

قُلْتُ: الحِكْمَةُ فِي ذَلِكَ الامْتِحَانُ والاخْتِبَارُ؛ لِأَنَّ الزَّائِغِينَ يَتَّخِذُونَ مِنْ ذَلِكَ مَطْعَنًا فِي القُرْآنِ؛ لِيُبَرِّرُوا لأَنْفُسِهِمُ الكُفْرَ بِهِ والعياذُ باللهِ. وأمَّا الرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ، فيَتَّخِذُونَ مِنْ هَذا بيَانًا للحِكْمَةِ، حِكْمَةِ اللهِ جَلَّوَعَلَا في جَعْلِ القُرْآنِ عَلى هَذَيْنِ الوَجْهَيْنِ مُحْكَمًا ومُتَشابِهًا؛ حَتَّى يَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بيِّنَةٍ، وَيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بيِّنَةٍ.

وهَذَا كَمَا نَرَاهُ فِي كَلِمَاتِ اللهِ الشَّرْعِيَّةِ يَكُونُ أيضًا فِي كَلِمَاتِ اللهِ الكَوْنِيَّةِ. فمَثلًا: قدْ يَأْتِي رَجُلٌ إِلَى صاحِبِ قَبْرٍ، فيَقُولُ: يَا وَلِيَّ اللهِ، يَا سَيِّدِي! يا مَلْجَئِي! يَا مُسْتَغَاثِي! أَنْقِذْ وَلَدِي مِنَ المَرَضِ، فَإِذَا ذَهَبَ إِلَى البَيْتِ وَوَجَدَ وَلَدَهُ قَدْ بَرِئَ! فيَقَعُ فِي اشْتِبَاهٍ أنَّ الَّذِي أجابَ دَعْوَتَهُ هَذَا الوَلِيُّ صاحِبُ القَبْرِ، لكنْ عِنْدَمَا يُرَدُّ مِثْلُ هَذِهِ الحالِ إِلَى الرَّاسِخِينَ فِي العِلْمِ، يَقُولُونَ: لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ هَذَا مِنْ صاحِبِ القَبْرِ؛ لِأَنَّ صَاحِبَ القَبْرِ لَيْسَ إِلَهًا دُونَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [النحل:٢٠] ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾ [الأعراف:١٩٢] ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الأحقاف:٥].

فيَقُولُ الرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ: نَحْنُ نَعْلَمُ عِلْمَ اليَقِينِ أنَّ هَذَا البُرْءَ لَيْسَ مِنْ أَثَرِ دُعاءِ هَؤُلاءِ، ولكنَّهُ فِتْنَةٌ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ حَصَلَ عِنْدَ دُعاءِ هَؤُلاءِ لَا بِدُعَائِهِمْ.





القَاعِدَةُ الحَادِيَةُ والعِشْرُونَ:

القُرْآنُ يَجْرِي فِي إِرْشَادَاتِهِ مَعَ الزَّمَانِ والأحْوَالِ فِي أَحْكَامِهِ الرَّاجِعَةِ للعُرْفِ والعَوَائِدِ

وهذِهِ قَاعِدَةٌ جَلِيَّةُ المِقْدَارِ، عَظِيمَةُ النَّفْعِ؛ فإِنَّ اللهَ أَمَرَ عِبادَهُ بالمَعْرُوفِ (وهُوَ: مَا عُرِفَ حُسْنُهُ شَرْعًا، وعَقْلًا، وعُرْفًا) ونَهَاهُمْ عَنِ المُنْكَرِ (وهُوَ: مَا ظَهَرَ قُبْحُهُ شَرْعًا، وعَقْلًا، وعُرْفًا) وأمَرَ المُؤْمِنِينَ بالأمْرِ بالمَعْرُوفِ، والنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ، ووصَفَهُمْ بذلكَ.

فَمَا كَانَ مِنَ المَعْرُوفِ لَا يَتَغَيَّرُ فِي الأحْوَالِ والأوْقَاتِ: كالصَّلاةِ، والزَّكَاةِ، والصَّوْمِ، والحَجِّ، وغَيْرِهَا مِنَ الشَّرَائِعِ الرَّاتِبَةِ -فَإِنَّهُ أَمَرَ بِهِ فِي كُلِّ وقْتٍ، والواجِبُ عَلَى الآخِرِينَ نَظِيرُ الوَاجِبِ عَلَى الأوَّلِينَ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ.

ومَا كَانَ مِنَ المُنْكَرِ لَا يَتَغَيَّرُ كذلكَ بتَغَيُّرِ الأوْقَاتِ: كالشِّرْكِ، والقَتْلِ بغَيْرِ حَقٍّ، والزِّنَى، وشُرْبِ الخَمْرِ، ونَحْوِهَا -ثَبَتَتْ فِي كُلِّ زَمَانٍ ومَكانٍ، لَا تَتَغَيَّرُ، ولَا يَخْتَلِفُ حُكْمُهَا.

ومَا كَانَ يَخْتَلِفُ باخْتِلَافِ الأمْكِنَةِ، والأزْمِنَةِ، والأحْوَالِ، هُوَ المُرادُ هُنَا؛ فإِنَّ اللهَ تَعَالَى يَرُدُّهُمْ فِيهِ إِلَى العُرْفِ، والعادَةِ، والمَصْلَحَةِ المُتَعَيِّنَةِ فِي ذَلِكَ الوَقْتِ؛ وذلكَ أَنَّهُ أَمَرَ بالإحْسَانِ إِلَى الوَالِدَيْنِ بالأقْوَالِ والأفْعَالِ، ولَمْ يُعَيِّنْ لِعِبَادِهِ شَيْئًا مَخْصُوصًا مِنَ الإحْسَانِ والبِرِّ؛ لِيَعُمَّ كُلَّ مَا تَجَدَّدَ مِنَ الأوْصَافِ والأحْوَالِ، فقدْ يَكُونُ الإحْسَانُ

إِلَيهِمْ فِي وقتٍ غَيْرَ الإحْسَانِ فِي الوَقْتِ الآخرِ، وفِي حَقِّ شَخصٍ دُونَ حَقِّ الشَّخْصِ الآخَرِ. فالوَاجِبُ الَّذِي أَوْجَبَهُ اللهُ: النَّظَرُ فِي الإحْسَانِ المَعْرُوفِ فِي وَقْتِكَ، ومَكانِكَ، فِي حَقِّ وَالِدَيْكَ.

ومِثْلُ ذَلِكَ مَا أَمَرَ بِهِ مِنَ الإحْسَانِ إِلَى الأقارِبِ، والجِيرانِ، والأصْحَابِ، ونَحْوِهِمْ؛ فإنَّ ذَلِكَ رَاجِعٌ فِي نَوْعِهِ وجِنْسِهِ وأفْرَادِهِ إِلَى مَا يَتعارَفُهُ النَّاسُ إحْسَانًا، وكذلكَ ضِدُّهُ مِنَ العُقُوقِ، والإساءَةِ، يُنْظَرُ فِيهِ إِلَى العُرْفِ.

التعليق

يعْنِي: مَا تَعارَفَ عَلَيْهِ النَّاسُ أنَّ هَذِهِ صِلَتُهُ يَكْفِي؛ لِأَنَّهُ أمَرَ بالصِّلَةِ وأطْلَقَ، فيُرْجَعُ فِيهِ إِلَى مَا سَمَّاهُ النَّاسُ صِلَةً؛ لِأَنَّ المَقْصُودَ بالصِّلَةِ زَوالُ مَا فِي القُلُوبِ وائْتِلَافُهَا، إِذَا كَانَ هَذَا الرَّجُلُ قَدْ وطَّنَ نَفْسَهُ عَلَى أنَّ صاحِبَهُ أَوْ قَرِيبَهُ لَا يَزُورُهُ إِلَّا فِي يَوْمِ العِيدِ أَوْ فِي الأُسْبُوعِ أَوْ مَا أَشْبَهَ ذلكَ، مَا صَارَ ذَلِكَ قَطِيعَةً، فَمَا عُدَّ صِلَةً فهُوَ صِلَةٌ. أَمَّا مَنْ كَانَ لَا يَأْتِيهِمْ أبدًا، ولَا يَأْتِيهِمْ فِي المُناسَبَاتِ، ولَا يَدْرِي عَنْهُمْ، ولَا يَزُورُهُمْ، ولَا يَعْرِفُ إِذَا مَرِضُوا أَوْ مَاتُوا -فهذِهِ قَطِيعَةٌ.

وقَوْلُ الشَّيْخِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «رَاجِعٌ فِي نَوْعِهِ وجِنْسِهِ وأفْرَادِهِ» النَّوْعُ يَخْتَلِفُ، فمَثلًا: أحَدٌ تَصِلُهُ بدَرَاهِمَ، وأحَدٌ تَصِلُهُ بثَوْبٍ، وأحَدٌ تَصِلُهُ بقَلَمٍ، حَسَبَ الأفرادِ. حَسَبَ الجِنْسِ: لَوْ أعطَيْتَ شَخْصًا كَبِيرًا عَظِيمًا غَنِيًّا مِئَةَ رِيَالٍ لَغَضِبَ عَلَيْكَ، ولَوْ أَعْطَيْتَهَا قَرِيبًا فَقِيرًا لَفَرِحَ وسَرَّهُ ذَلِكَ.

أَمَّا مَا دَلَّ الشَّرْعُ عَلَى تَحْرِيمِهِ فهَذَا لَا يَكُونُ صِلَةً، فلَوْ أنَّ النَّاسَ قالُوا: نَحْنُ

تَعارَفْنَا أَنَّ ابْنَةَ العَمِّ تُصافِحُ ابْنَ عَمِّهَا بِيَدِهَا، ولَوْ قالتْ لهُ: هَذَا حَرامٌ، وكَفَّتْ يَدَهَا، لَغَضِبَ.

نَقُولُ: الشَّيْءُ الَّذِي نَصَّ الشَّرْعُ عَلَى تَحْرِيمِهِ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَتَوَاصَلَ النَّاسُ بِهِ أبدًا.

وكذلكَ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء:١٩] ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة:٢٢٨] فرَدَّ اللهُ الزَّوْجَيْنِ فِي عِشْرَتِهِمَا وأداءِ حَقِّ كُلٍّ مِنْهُمَا عَلَى الآخرِ عَلَى المَعْرُوفِ المُعْتَادِ عِنْدَ النَّاسِ فِي قُطْرِكَ، وبَلَدِكَ، وحَالِكَ؛ وذلكَ يَخْتَلِفُ اخْتِلَافًا عَظِيمًا لَا يُمْكِنُ إحْصَاؤُهُ عَدًّا، فدَخَلَ ذَلِكَ كُلُّهُ فِي هَذِهِ النُّصُوصِ المُخْتَصَرَةِ، وهَذَا مِنْ آياتِ القُرْآنِ، وبَرَاهِينِ صِدْقِهِ.

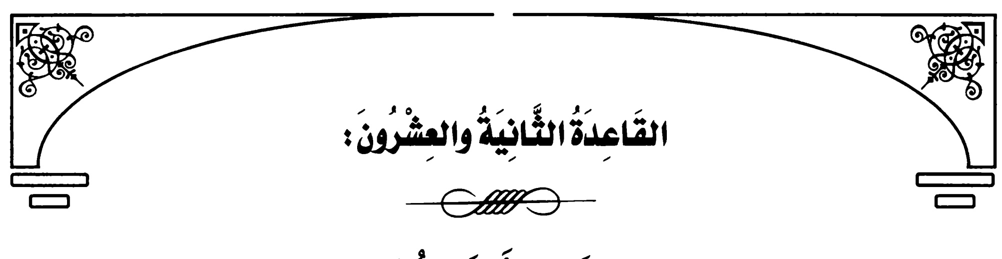
وقالَ تَعَالَى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ [الأعراف:٣١] ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا﴾ [الأعراف:٢٦] فأمَرَ عِبادَهُ بالأكْلِ والشُّرْبِ واللِّبَاسِ، ولَمْ يُعَيِّنْ شَيْئًا مِنَ الطَّعَامِ والشَّرَابِ واللِّبَاسِ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ الأُمُورَ تَخْتَلِفُ باخْتِلَافِ الأحْوَالِ، فيَتَعَلَّقُ بِهَا أمْرُهُ حَيْثُ كانَتْ، لَا يُنْظَرُ إِلَى مَا كَانَ مَوْجُودًا مِنْهَا وقْتَ نُزُولِ القُرْآنِ فقطْ.

وكذلكَ قَوْلُهُ: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال:٦٠] ومِنَ المَعْلُومِ أَنَّ السِّلاحَ والقُوَّةَ المَوْجُودَةَ وقْتَ نُزُولِ القُرْآنِ غَيْرُ نَوْعِ القُوَّةِ المَوْجُودَةِ بَعْدَ ذلكَ، فهذَا النَّصُّ يَتَنَاوَلُ كُلَّ مَا يُسْتَطَاعُ مِنَ القُوَّةِ فِي كُلِّ وقْتٍ بِمَا يُناسِبُهُ ويَلِيقُ بهِ.

وكذلكَ لَمَّا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ [النساء:٢٩]

لَمْ يُعَيِّنْ لَنَا نَوْعًا مِنَ التِّجارَةِ، ولَا جِنْسًا، ولَمْ يُحَدِّدْ لَنَا أَلْفَاظًا يَحْصُلُ بِهَا الرِّضَى، وهَذَا يَدُلُّ عَلَى أنَّ اللهَ أَبَاحَ كُلَّ مَا عُدَّ تِجارَةً مَا لَمْ يَنْهَ عَنْهُ الشَّارِعُ، وأَنَّ كُلَّ مَا حَصَلَ بِهِ الرِّضَى مِنَ الأَقْوَالِ والأفْعَالِ انْعَقَدَتْ بِهِ التِّجارَةُ، فَمَا حَقَّقَ الرِّضَى مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ انْعَقَدَتْ بِهِ الْمُعاوَضَاتُ والتَّبَرُّعَاتُ، وكَمْ فِي القُرْآنِ مِنْ هَذَا النَّوْعِ شَيْءٌ كَثِيرٌ.





القَاعِدَةُ الثَّانِيَةُ والعِشْرُونَ:

فِي مَقَاصِدِ أَمْثِلَةِ القُرْآنِ

اعْلَمْ أَنَّ القُرْآنَ الكَرِيمَ احْتَوَى عَلَى أَعْلَى، وأَكْمَلِ، وأَنْفَعِ المَوَاضِيعِ الَّتِي يَحْتَاجُ الخَلْقُ إِلَيْهَا فِي جَمِيعِ الأَنْوَاعِ، فقَدِ احْتَوَى عَلَى أَحْسَنِ طُرُقِ التَّعْلِيمِ، وإِيصالِ المَعَانِي إِلَى القُلُوبِ بأَيْسَرِ شَيْءٍ وأَوْضَحِهِ.

فمِنْ أَنْوَاعِ تَعالِيمِهِ العَالِيَةِ: ضَرْبُ الأَمْثَالِ، وهَذَا النَّوْعُ يَذْكُرُهُ البارِي فِي الأُمُورِ المُهِمَّةِ؛ كالتَّوْحِيدِ، وحالِ المُوَحِّدِ، والشِّرْكِ، وحالَةِ أَهْلِهِ، والأَعْمالِ العامَّةِ الجَلِيلَةِ، ويُقْصَدُ بِذَلِكَ كُلِّهِ تَوْضِيحُ المَعَانِي النَّافِعَةِ، وتَمْثِيلُهَا بالأُمُورِ المَحْسُوسَةِ؛ لِيَصِيرَ القَلْبُ كَأَنَّهُ يُشاهِدُ مَعانِيَهَا رَأْيَ عَيْنٍ، وهَذَا مِنْ عِنايَةِ البَارِي بعِبَادِهِ، ولُطْفِهِ، فَقَدْ مَثَّلَ اللهُ الوَحْيَ والعِلْمَ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ فِي عِدَّةِ آياتٍ بالغَيْثِ والمَطَرِ النَّازِلِ مِنَ السَّماءِ، وقُلُوبَ النَّاسِ بالأَرَاضِي والأَوْدِيَةِ، وأَنَّ عَمَلَ الوَحْيِ والعِلْمِ فِي القُلُوبِ كعَمَلِ الغَيْثِ والمَطَرِ فِي الأَرَاضِي:

فمِنْهَا أراضٍ طَيِّبَةٌ تَقْبَلُ الماءَ، وتُنْبِتُ الكَلأَ والعُشْبَ الكَثِيرَ، كمَثَلِ القُلُوبِ الفاهِمَةِ، الَّتِي تَفْهَمُ عَنِ اللهِ ورَسُولِهِ وحْيَهُ، وكَلامَهُ، وتَعْقِلُهُ، وتَعْمَلُ بِهِ: عِلْمًا، وتَعْلِيمًا، بحَسَبِ حَالِهَا؛ كالأَرَاضِي بحَسَبِ حالِهَا.

ومِنْهَا أَرَاضٍ تُمْسِكُ الماءَ ولَا تُنْبِتُ الكَلأَ، فيَنْتَفِعُ النَّاسُ بالماءِ الَّذِي تُمْسِكُهُ، فيَشْرَبُونَ ويَسْقُونَ مَوَاشِيَهُمْ وأَرَاضِيَهُمْ؛ كالقُلُوبِ الَّتِي تَحْفَظُ الوَحْيَ مِنَ القُرْآنِ

والسُّنَّةِ، وتُلْقِيهِ إِلَى الأُمَّةِ، ولكنْ لَيْسَ عِنْدَهَا مِنَ الدِّرَايَةِ والمَعْرِفَةِ بمَعانِيهِ مَا عِنْدَ الأَوَّلِينَ، وهَؤُلاءِ عَلَى خَيْرٍ، ولكنَّهُمْ دُونَ أُولَئِكَ.

ومنْهَا أراضٍ لَا تُمْسِكُ ماءً، ولَا تُنْبِتُ كَلأً؛ كمَثَلِ القُلُوبِ الَّتِي لَا تَنْتَفِعُ بالوَحْيِ، لَا عِلْمًا، ولَا حِفْظًا، ولَا عَمَلًا.

ومُنَاسَبَةُ الأَرَاضِي للقُلُوبِ كَمَا تَرَى فِي غَايَةِ الظُّهُورِ...

التعليق

الأَوَّلُونَ بمَنْزِلَةِ الأَطِبَّاءِ، والآخِرُونَ بِمَنْزِلَةِ الصَّيادِلَةِ. ومَعْلُومٌ أَنَّ انْتِفَاعَ النَّاسِ بالأَطِبَّاءِ أَكْثَرُ مِنِ انْتِفَاعِهِمْ بالصَّيادِلَةِ، فحُفَّاظُ الحَدِيثِ ورُوَاةُ الحَدِيثِ الَّذِينَ لَيْسَ عِنْدَهُمْ فِقْهٌ وعِلْمٌ هُمْ بمَنْزِلَةِ هَؤُلاءِ، مِثْلُ الأَرْضِ الَّتِي يُصِيبُهَا المَطَرُ، لكنَّهَا لَا تُنْبِتُ، وإِنَّمَا تَحْفَظُ الماءَ، فمَنْ جَاءَ اسْتَقَى وشَرِبَ وانْتَفَعَ. وأَمَّا أَهْلُ العِلْمِ والفِقْهِ، فإِنَّهُمْ كالأَرَاضِي الخَصْبَةِ الَّتِي تُنْبِتُ، فيَنْتَفِعُ النَّاسُ بهِ.

... وأَمَّا مُناسَبَةُ تَشْبِيهِ الوَحْيِ بالغَيْثِ فكذلكَ؛ لِأَنَّ الغَيْثَ فِيهِ حياةُ الأَرْضِ، والعِبادِ، وأَرْزَاقُهُمُ الحِسِّيَّةُ. والوَحْيُ فِيهِ حَياةُ القُلُوبِ والأَرْوَاحِ، ومادَّةُ أَرْزَاقِهِمُ المَعْنَوِيَّةِ.

وكذلكَ مَثَّلَ اللهُ كَلِمَةَ التَّوْحِيدِ بالشَّجَرَةِ الطَّيِّبَةِ الَّتِي تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بإِذْنِ رَبِّهَا، فكذلكَ شَجَرَةُ التَّوْحِيدِ ثَابِتَةٌ بقَلْبِ صاحِبِهَا، مَعْرِفَةً، وتَصْدِيقًا، وإِيمانًا، وإِرَادَةً لِمُوجِبِهَا، وتُؤْتِي أُكُلَهَا -وَهُوَ مَنافِعُهَا- كُلَّ وقْتٍ، مِنَ النِّيَّاتِ الطَّيِّبَةِ، والأَخْلَاقِ الزَّكِيَّةِ، والأَعْمالِ الصَّالِحَةِ، والهَدْيِ المُسْتَقِيمِ، ونَفْعِ صَاحِبِهَا، وانْتِفاعِ

النَّاسِ بِهِ، وَهِيَ صاعِدَةٌ إِلَى السَّماءِ؛ لإِخْلاصِ صاحِبِهَا، وعِلْمِهِ، ويَقِينِهِ.

ومَثَّلَ اللهُ الشِّرْكَ والمُشْرِكَ بأنَّ مَنِ اتَّخَذَ مَعَ اللهِ إلهًا يَتعزَّزُ بِهِ، ويَزْعُمُ مِنْهُ النَّفْعَ، ودَفْعَ الضَّرَرِ، فِي ضَعْفِهِ ووَهَنِهِ؛ كالعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا، وَهُوَ أَوْهَنُ البُيُوتِ، وأوْهَاهَا، فَما ازْدَادَتْ باتِّخاذِهِ إِلَّا ضَعْفًا إِلَى ضَعْفِهَا!! كذلكَ المُشْرِكُ مَا ازْدَادَ باتِّخاذِهِ وَلِيًّا ونَصِيرًا مِنْ دُونِ اللهِ إِلَّا ضَعْفًا؛ لِأَنَّ قَلْبَهُ انْقَطَعَ عَنِ اللهِ، ومَنِ انْقَطَعَ قَلْبُهُ عَنِ اللهِ حَلَّهُ الضَّعْفُ مِنْ كُلِّ وجْهٍ، وتَعَلُّقُهُ بالمَخْلُوقِ زَادَهُ وَهَنًا إِلَى وَهَنِهِ، فَإِنَّهُ اتَّكَلَ عليْهِ، وظَنَّ منْهُ حُصُولَ المَنافِعِ، فخَابَ ظَنُّهُ وانْقَطَعَ أَمَلُهُ!!

وأمَّا المُؤْمِنُ: فَإِنَّهُ قَوِيَ بِاللهِ بقُوَّةِ إيمانِهِ وتَوْحِيدِهِ، وتَعَلُّقِهِ بِاللهِ وحْدَهُ الَّذِي بِيَدِهِ الأمْرُ، والنَّفْعُ، ودَفْعُ الضَّرَرِ، وَهُوَ مُتَصَرِّفٌ فِي أحْوالِهِ كُلِّهَا؛ كالعَبْدِ الَّذِي عَلَى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ، فِي أقْوالِهِ، وأفْعَالِهِ، مُنْطَلِقَ الإرادَةِ، حُرًّا عَنْ رِقِّ المَخْلُوقِينَ، غَيْرَ مُقَيَّدٍ لَهُمْ بِوَجْهٍ مِنَ الوُجُوهِ، بخِلافِ المُشْرِكِ، فَإِنَّهُ كالعَبْدِ الأصَمِّ الأبْكَمِ، الَّذِي هُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ، أيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بخَيْرٍ؛ لِأَنَّ قَلْبَهُ مُتَقَيِّدٌ للمَخْلُوقِينَ، مُسْتَرَقٌّ لَهُمْ، لَيْسَ لَهُ انْطلاقٌ وتَصَرُّفٌ فِي الخَيْرِ، فمَثَلُهُ أيضًا كالَّذِي خَرَّ مِنَ السَّماءِ فَتَخَطَّفَتْهُ الطُّيُورُ، ومَزَّقَتْهُ كُلَّ مُمَزَّقٍ.

وهَؤُلاءِ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّهُمْ آلِهَةٌ يَنْفَعُونَ ويُدْعَوْنَ، لَوِ اجْتَمَعُوا كُلُّهُمْ عَلَى خَلْقِ أَضْعَفِ المَخْلُوقاتِ -وهُوَ الذُّبابُ- لَمْ يَقْدِرُوا باجْتِماعِهِمْ عَلَى خَلْقِهِ، فكَيْفَ ببَعْضِهِمْ؟! فكَيْفَ بفَرْدٍ مِنْ مِئَاتِ الأُلُوفِ مِنْهُمْ؟! وأَبْلَغُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الذُّبابَ لَوْ يَسْلُبُهُمْ شَيْئًا لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى اسْتِخْلَاصِهِ مِنْهُ ورَدِّهِ، فهَلْ فَوْقَ هَذَا الضَّعْفِ ضَعْفٌ؟ وهلْ أعْظَمُ مِنْ هَذَا الغُرُورِ الَّذِي وقَعَ فِيهِ المُشْرِكُ شَيْءٌ؟

وَهُوَ مَعَ هَذَا الغُرُورِ، وهَذَا الوَهَنِ والضَّعْفِ مُنْقَسِمٌ قَلْبُهُ بَيْنَ عِدَّةِ آلِهَةٍ؛ كالعَبْدِ الَّذِي بَيْنَ الشُّرَكاءِ المُتشاكِسِينَ، لَا يَتَمَكَّنُ مِنْ إِرْضاءِ أَحَدِهِمْ دُونَ الآخَرِ، فهُوَ مَعَهُمْ فِي شَرٍّ دَائِمٍ، وشَقاءٍ مُتَرَاكِمٍ.

فلَوِ اسْتَحْضَرَ المُشْرِكُ بَعْضَ هَذِهِ الأَحْوَالِ الوَخِيمَةِ لَرَبَأَ بنَفْسِهِ عَمَّا هُوَ عَلَيْهِ، ولَعَلِمَ أَنَّهُ قدْ أضاعَ عَقْلَهُ ورَأْيَهُ بعْدَمَا أَضَاعَ دِينَهُ.

وأَمَّا المُوَحِّدُ، فَإِنَّهُ خَالِصٌ لِرَبِّهِ، لَا يَعْبُدُ إِلَّا هُوَ، ولَا يَرْجُو ويَخْشَى إِلَّا هُوَ، وقَدِ اطْمَأَنَّ قَلْبُهُ واسْتَرَاحَ، وعَلِمَ أَنَّهُ عَلَى الدِّينِ الحَقِّ، وأَنَّ عاقِبَتَهُ أَحْمَدُ العَوَاقِبِ، ومَآلَهُ الخَيْرُ والفَلَاحُ، والسَّعَادَةُ الأَبَدِيَّةُ، فهُوَ فِي حَياةٍ طَيِّبَةٍ، ويَطْمَعُ فِي حَياةٍ أَطْيَبَ مِنْهَا.

ومَثَّلَ اللهُ الأَعْمَالَ بالبَساتِينِ، فذَكَرَ العَمَلَ الكامِلَ الخالِصَ لهُ، الَّذِي لَمْ يَعْرِضْ لَهُ مَا يُفْسِدُهُ كَبُسْتَانٍ فِي أَحْسَنِ المَوَاضِعِ وأَعْلاهَا، تَنْتَابُهُ الرِّياحُ النَّافِعَةُ، وقَدْ ضَحَى وبَرَزَ للشَّمْسِ، وفِي خِلالِهِ الأَنْهارُ الجارِيَةُ المُتَدَفِّقَةُ، فإِنْ لَمْ تَكُنْ غَزِيرَةً فإِنَّهَا كافِيَةٌ لهُ، كالطَّلِّ الَّذِي يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ، ومَعَ ذَلِكَ فَأَرْضُهُ أَطْيَبُ الأَرَاضِي وأَزْكاهَا؛ فمَعَ تَوَفُّرِ هَذِهِ الشُّرُوطِ لَا تَسْأَلْ عَمَّا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ زَهاءِ الأَشْجارِ، وطِيبِ الظِّلالِ، ووُفُورِ الثِّمارِ، فصَاحِبُهُ فِي نَعِيمٍ ورَغَدٍ مُتَوَاصِلٍ، وَهُوَ آمِنٌ عَنِ انْقِطَاعِهِ وتَلَفِهِ.

فإِنْ كَانَ هَذَا البُسْتَانُ لإنسانٍ قَدْ كَبِرَ وضَعُفَ عَنِ العَمَلِ، وعِنْدَهُ عائِلَةٌ ضِعافٌ، لَا مُساعَدَةَ مِنْهُمْ ولَا كَفَاءَةَ، وقَدِ اغْتَبَطَ بِهِ حَيْثُ كَانَ مَادَّتَهُ، ومَادَّةَ عَائِلَتِهِ، ثُمَّ إِنَّهُ جاءَتْهُ آفَةٌ وإِعْصَارٌ أَحْرَقَهُ، وأَتْلَفَهُ عَنْ آخِرِهِ، فكَيْفَ تَكُونُ حَسْرَةُ هَذَا المَغْرُورِ؟! وكَيْفَ تَكُونُ مُصِيبَتُهُ؟! وهَذَا هُوَ الَّذِي جاءَ بَعْدَ العَمَلِ بِمَا يُبْطِلُ عَمَلَهُ الصالِحَ مِنَ الشِّرْكِ، أَوِ النِّفاقِ، أَوِ المَعَاصِي المُحْرِقَةِ، فَيَا وَيْحَهُ بَعْدَمَا كَانَ بُسْتَانُهُ

زَاكِيًا زَاهِيًا أَصْبَحَ تالِفًا! قدْ أَيِسَ مِنْ عَوْدِهِ، وبَقِيَ بحَسْرَتِهِ مَعَ عائِلَتِهِ!!

فهذَا مِنْ أحْسَنِ الأمْثَالِ وأنْسَبِهَا، فقَدْ ذَكَرَ اللهُ صِفَةَ بُسْتَانِ مَنْ ثَبَّتَهُ اللهُ عَلَى الإيمانِ والعَمَلِ، وبُسْتَانِ مَنْ أبْطَلَ عَمَلَهُ بِمَا يُنافِيهِ ويُضادُّهُ. ويُؤْخَذُ مِنْ ذلكَ: أنَّ الَّذي لَمْ يُوَفَّقْ للإيمانِ ولَا للعَمَلِ أصْلًا، أنَّهُ لَيْسَ لَهُ بُسْتَانٌ أصْلًا.

ووَجْهُ تَشْبِيهِ الأعْمالِ بالبَساتِينِ: أنَّ البَسَاتِينَ تَمُدُّهَا المياهُ، وطِيبُ المَحَلِّ، وحُسْنُ المَوْقِعِ؛ فكذلِكَ الأعْمالُ، يَمُدُّهَا الوَحْيُ النَّازِلُ لحَياةِ القُلُوبِ الطَّيِّبَةِ، وقَدْ جَمَعَ العامِلُ جَمِيعَ شُرُوطِ قَبُولِ العَمَلِ، مِنَ الاجْتِهَادِ، والإخْلاصِ، والمُتَابَعَةِ، فأثْمَرَ عَمَلُهُ كُلَّ زَوْجٍ بَهِيجٍ.

وقدْ مَثَّلَ اللهُ عَمَلَ الكافِرِ بالسَّرَابِ الَّذي يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً، فيَأْتِيهِ وقَدِ اشْتَدَّ بِهِ الظَّمَأُ، وأنْهَكَهُ الإعْياءُ، فيَجِدُهُ سَرَابًا!! ومَثَّلَهُ بالرَّمادِ الَّذي أُحْرِقَ، فجاءَتْهُ الرِّياحُ فَذَرَتْهُ، فلَمْ تُبْقِ مِنْهُ بَاقِيَةً، وهَذَا مُناسِبٌ لحالِهِ، وبُطلانِ عَمَلِهِ، فإنَّ كُفْرَهُ ومَعاصِيَهُ بمَنْزِلَةِ النَّارِ المُحْرِقَةِ، وعَمَلَهُ بمَنْزِلَةِ الرَّمادِ والسَّرَابِ الَّذي لَا حَقِيقَةَ لهُ، وَهُوَ كَانَ يَعْتَقِدُهُ نافِعًا لهُ، فَإِذَا وَصَلَهُ ولَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا تَقَطَّعَتْ نَفْسُهُ حَسَرَاتٍ، ووَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ.

كَمَا مَثَّلَ نَفقاتِ المُخْلِصِينَ بِذَلِكَ البُسْتَانِ الزَّكِيِّ الزَّاهِي، ومَثَّلَ نَفَقاتِ المُرَائِينَ بحَجَرٍ أمْلَسَ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ تُرابٍ، فأصابَهُ مَطَرٌ شَدِيدٌ تَرَكَهُ صَلْدًا لَا شَيْءَ فِيهِ؛ لِأَنَّ قَلْبَ المُرائِي لَا إيمانَ فِيهِ، ولَا إخْلاصَ، بلْ هُوَ قاسٍ كالحَجَرِ، فنَفَقَتُهُ حَيْثُ لَمْ تَصْدُرْ عَنْ إيمانٍ، بلْ رِياءٍ وسُمْعَةٍ، لَمْ تُؤَثِّرْ فِي قَلْبِهِ حياةً ولَا زَكاةً، كهَذَا المَطَرِ الَّذي لَمْ يُؤَثِّرْ فِي هَذَا الحَجَرِ الأمْلَسِ شَيْئًا.

وهذِهِ الأَمْثَالُ إِذَا طُبِّقَتْ عَلَى مُمَثَّلاتِهَا وضَّحَتْهَا وبَيَّنَتْهَا، وبَيَّنَتْ مَرَاتِبَهَا مِنَ الخَيْرِ، والشَّرِّ، والكمالِ، والنُّقْصَانِ.

ومَثَّلَ اللهُ حالَ المُنَافِقِينَ بحالِ مَنْ هُوَ فِي ظُلْمَةٍ، فاسْتَوْقَدَ نَارًا مِنْ غَيْرِهِ، ثُمَّ لمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ وتبَيَّنَ لَهُ الطَّرِيقُ ذَهَبَ نُورُهُمْ، وانْطَفَأَ ضَوْؤُهُمْ، فبَقَوْا فِي ظُلْمَةٍ عَظِيمَةٍ أعْظَمَ مِنَ الظُّلْمَةِ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا أَوَّلًا!! وهكَذَا المُنافِقُ، اسْتَنَارَ بنُورِ الإيمانِ، فلمَّا تبَيَّنَ لَهُ الهُدَى غَلَبَتْ عَلَيْهِ الشِّقْوَةُ، واسْتَوْلَتْ عَلَيْهِ الحَيْرَةُ، فذَهَبَ عَنْهُ نُورُهُ أَحْوَجَ مَا هُوَ إِلَيْهِ، وبَقِيَ فِي ظُلْمَةٍ مُتَحَيِّرًا، فهُمْ لَا يَرْجِعُونَ؛ لِأَنَّ سُنَّةَ اللهِ فِي عِبادِهِ أَنَّ مَنْ بانَ لَهُ الهُدَى، واتَّضَحَ لَهُ الحَقُّ، ثُمَّ رَجَعَ عَنْهُ أَنَّهُ لَا يُوفِّقُهُ بَعْدَ ذَلِكَ للهِدَايَةِ؛ لِأَنَّهُ رَأَى الحَقَّ فَتَرَكَهُ، وعَرَفَ الضَّلالَ فاتَّبَعَهُ، وهَذَا المَثَلُ يَنْطَبِقُ عَلَى المُنَافِقِينَ، الَّذِينَ تَبَصَّرُوا وعَرَفُوا، ثُمَّ غَلَبَتْ عَلَيْهِمُ الأَغْرَاضُ الضَّارَّةُ، فتَرَكُوا الإيمانَ.

التعليق

قَوْلُهُ: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة:١٧] نَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ النَّارَ فِيهَا حَرَارَةٌ وفِيهَا نُورٌ، فَإِذَا ذَهَبَ النُّورُ حَلَّتِ الظُّلْمَةُ وبَقِيَتِ أيضًا الحَرارَةُ، فصَارُوا -والعياذُ باللهِ- فِي حَرارَةٍ وظُلْمَةٍ. فهَؤُلاءِ لمَّا رَأَوُا الإيمانَ وتَرَكُوهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ، وكما قَالَ تَعالَى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام:١١٠].

ولهَذَا مِنْ أَشَدِّ مَا يَكُونُ أَنَّ الإِنْسَانَ يُبَيَّنُ لَهُ الحَقُّ، ولَوْ فِي مَسْأَلَةٍ جُزْئِيَّةٍ، ثُمَّ يَتْرُكُهُ اتِّبَاعًا لِهَوَى نَفْسِهِ، أَوْ خَوْفًا مِنَ العامَّةِ، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فهَذَا رُبَّما يُحْرَمُ الحَقَّ فِي المُسْتَقْبَلِ ولَا يُبَيَّنُ لهُ، أَوْ يُبَيَّنُ لَهُ ويُصِرُّ عَلَى خِلافِهِ؛ ولهَذَا يَجِبُ عَلَى الإِنْسَانِ إِذَا

عَلِمَ الحقَّ أنْ يُبادِرَ إِلَيْهِ أيًّا كانَ، سَواءً كَانَ ذَلِكَ فِي أُصُولِ الدِّينِ أَمْ فِي فُرُوعِهِ، إنْ صَحَّ أنْ نُقَسِّمَ الدِّينَ إِلَى أُصُولٍ وفُرُوعٍ، بَعْضُ العُلَماءِ -كشَيْخِ الإسْلَامِ- يَقُولُ: الدِّينُ لَا يَنْقَسِمُ إِلَى أُصُولٍ وفُرُوعٍ، والتَّقْسِيمُ إِلَى أُصُولٍ وفُرُوعٍ غَيْرُ مُنْضَبِطٍ، فقَدِ اخْتَلَفُوا فِيهِ[1]. مَا هِيَ الأُصُولُ ومَا هِيَ الفُرُوعُ؟

وعَلَى حَسَبِ تَقْسِيمِهِمْ: الأُصُولُ هِيَ الأُمُورُ العِلْمِيَّةُ، والفُرُوعُ هِيَ الأُمُورُ العَمَلِيَّةُ، الأُصُولُ مَا لَا عُذْرَ فِيهِ بالجَهْلِ، والفُرُوعُ مَا يُعْذَرُ فِيهِ بالجَهْلِ، وهَذَا صَحِيحٌ حَسَبَ مَا قَسَّمُوهُ، ولَيْسَ بصَحِيحٍ حَسَبَ الواقِعِ؛ فَأَرْكَانُ الإسْلَامِ لَا شَكَّ أنَّهَا أُصُولٌ «**بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»[2] وكَمَا قَالَ تَعَالَى فِي كَلِمَةِ الإخْلاصِ: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم:٢٤].

فالصَّحِيحُ أنْ يُقَالَ: إنَّ الدِّينَ لَهُ أرْكانٌ ولَهُ شَرَائِعُ، ولَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: فِي الدِّينِ قُشُورٌ! فَلَيْسَ فِي الدِّينِ شَيْءٌ اسْمُهُ قُشُورٌ. كُلُّ الدِّينِ لُبٌّ، لكنْ بَعْضُهُ مِنْ أرْكانِ الإسْلَامِ، أَوْ أرْكانِ الإيمانِ، وبَعْضُهُ دُونَ ذلكَ.

***

والمِثَالُ الثَّانِي وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:١٩] يَنْطَبِقُ عَلَى المُنَافِقِينَ، الضَّالِّينَ، المُتَحَيِّرِينَ، الَّذِينَ يَسْمَعُونَ القُرْآنَ ولَمْ يَعْرِفُوا المرادَ مِنْهُ،

---

(١) مجموع الفتاوى (٦/ ٥٦-٥٧، ١٣/ ١٢٦).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: «**بني الإسلام على خمس**»، (٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: «**بني الإسلام على خمس**»، رقم (١٦)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

وأعْرَضُوا عنْهُ، وكَرِهُوا سَماعَهُ اتِّباعًا لرُؤَسَائِهِمْ وسَادَتِهِمْ.

ومَثَّلَ اللهُ الحياةَ الدُّنْيَا وزَهْرَتَها، والاغْتِرَارَ بِهَا، بحالَةِ زَهْرَةِ الرَّبِيعِ، تُعْجِبُ النَّاظِرِينَ، وتَغُرُّ الجَاهِلِينَ، ويَظُنُّونَ بَقاءَهَا، ولَا يُؤَمِّلُون زَوالَهَا، فلَهَوْا بِهَا عَمَّا خُلِقُوا لهُ، فأصْبَحَتْ عنْهُمْ زَائِلَةً، وأَضْحَوْا لِنَعِيمِهَا مُفارِقِينَ فِي أَسْرَعِ وقْتٍ، كهَذَا الرَّبِيعِ إِذَا أصْبَحَ بَعْدَ الاخْضِرَارِ هَشِيمًا، وبَعْدَ الحَيَاةِ يَبَسًا رَمِيمًا، وهَذَا الوَصْفُ قَدْ شَاهَدَهُ الخَلْقُ، واعْتَرَفَ بِهِ البَرُّ والفاجِرُ، ولكنْ سُكْرُ الشَّهَوَاتِ، وضَعْفُ دَاعِي الإِيمانِ اقْتَضَى إيثارَ العاجِلِ عَلَى الآجِلِ.

التعليق

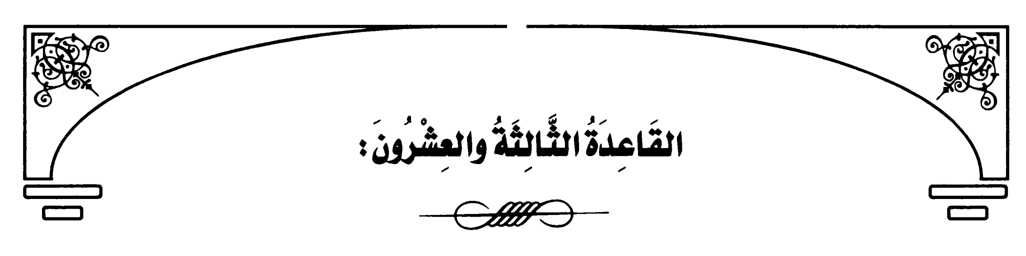
هذِهِ القَاعِدَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ بيانَ القُرْآنِ يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: بَيانٌ مُسْتَقِلٌّ، وبَيانٌ بضَرْبِ الأَمْثَالِ؛ وَهُوَ تَشْبِيهُ المَعْقُولِ بالمَحْسُوسِ لِيَتَّضِحَ ويَتبيَّنَ، فإِنَّ ضَرْبَ الأَمْثَالِ يُقَرِّبُ المَعَانِيَ إِلَى الأذْهانِ، فإِنَّكَ لَوْ ذَهَبْتَ تَصِفُ حالَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثانًا، فِي الذُّلِّ والضَّعْفِ وعَدَمِ وُصُولِ المَقْصُودِ، لَوْ ذَهَبْتَ تَتكَلَّمُ بصَفْحَةٍ كامِلَةٍ مَا كانَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:٤١] هَذَا واضِحٌ جِدًّا، مَعَ أَنَّهُ كَلِماتٌ يَسِيرَةٌ؛ لِأَنَّهُ شَبَّهَ الأُمُورَ المَعْقُولَةَ بالأُمُورِ المَحْسُوسَةِ البَيِّنَةِ.

وكذلِكَ قَوْلُهُ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾ [الرعد:١٤] فالَّذِي يَمُدُّ يَدَيْهِ ويَدْعُو هَذِهِ الأَصْنَامَ كالَّذِي يَبْسُطُ يَدَيْهِ إِلَى الماءِ، ولَوْ بَسَطْتَ يَدَكَ إِلَى الماءِ هَلْ يَصِلُ إِلَى فَمِكَ؟

أَبَـدًا، لَا يَصِـلُ، بلْ ولَا يَسْتَقِـرُّ عَلَى يَدِكَ، فهَكَـذَا أيضًـا الَّذِينَ يَدْعُـونَ مِنْ دُونِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فيُسْتَفَادُ مِنْ هَذِهِ القَاعِدَةِ أنَّ مِنْ طُرُقِ تَعْلِيمِ القُرْآنِ وبَيانِهِ ضَرْبَ الأَمْثَالِ، وَهُوَ تَشْبِيهُ الأشْيَاءِ المَعْقُولَةِ بالأشْيَاءِ المَحْسُوسَةِ؛ لِتَتَبَيَّنَ فِي الذِّهْنِ صُورَتُها، وتَتَّضِحَ بِأَقْرَبِ وَسِيلَةٍ مُمْكِنَةٍ.





القَاعِدَةُ الثَّالِثَةُ والعِشْرُونَ:

إِرْشَادَاتُ القُرْآنِ عَلَى نَوْعَيْنِ

أَحَدُهُمَا: أَنْ يُرْشِدَ أَمْرًا، ونَهْيًا، وخَبَرًا، إِلَى أَمْرٍ مَعْرُوفٍ شَرْعًا، أَوْ مَعْرُوفٍ عُرفًا، كَمَا تَقَدَّمَ.

والنَّوْعُ الثَّانِي: أَنْ يُرْشِدَ إِلَى اسْتِخْرَاجِ الأَشْيَاءِ النَّافِعَةِ مِنْ أُصولٍ مَعْرُوفَةٍ، ويُعْمَلُ الفِكْرُ فِي اسْتِفَادَةِ المَنافِعِ مِنْهَا.

وهذِهِ القَاعِدَةُ شَرِيفَةٌ جَلِيلَةُ القَدْرِ.

أَمَّا النَّوْعُ الأَوَّلُ: فأَكْثَرُ إِرْشَادَاتِ القُرْآنِ فِي الأُمُورِ الخَبَرِيَّةِ، والأُمُورِ الحُكْمِيَّةِ دَاخِلَةٌ فِيهَا.

وأَمَّا النَّوْعُ الثَّانِي -وهُوَ المَقْصُودُ هُنَا- فَإِنَّهُ دَعَا عِبادَهُ فِي آياتٍ كَثِيرَةٍ إِلَى التَّفَكُّرِ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ، ومَا خَلَقَ اللهُ فِيهَا مِنَ العَوَالِمِ، وإِلَى النَّظَرِ فِيهَا، وأَخْبَرَ أَنَّهُ سَخَّرَهَا لِمَصالِحِنَا ومَنَافِعِنَا، وأَنَّهُ أَنْزَلَ الحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ومَنَافِعُ للنَّاسِ ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية:١٣] ونَبَّهَ العُقُولَ عَلَى التَّفَكُّرِ فِيهَا، واسْتِخْرَاجِ أَنْوَاعِ العُلُومِ والفَوَائِدِ مِنْهَا؛ وذلكَ أَنَّنا إِذَا فَكَّرْنَا فِيهَا، ونَظَرْنَا حَالَهَا، وأَوْصافَهَا، وانْتِظَامَهَا، ولأَيِّ شَيْءٍ خُلِقَتْ؟ ولأَيِّ فَائِدَةٍ أُبْقِيَتْ؟ وماذَا فِيهَا مِنَ الآياتِ؟ ومَا احْتَوَتْ عَلَيْهِ مِنَ المَنافِعِ؟ أَفَادَنَا هَذَا الفِكْرُ فِيهَا عِلْمَيْنِ جَلِيلَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّنا نَسْتَدِلُّ بِهَا عَلَى مَا للهِ مِنْ صِفاتِ الكَمالِ والعَظَمَةِ، ومَا لَهُ مِنَ النِّعَمِ

الوَاسِعَةِ، والأيادِي المُتكاثِرَةِ، وعَلَى صِدْقِ مَا أَخْبَرَ بِهِ مِنَ المَعادِ، والجَنَّةِ والنَّارِ، وعَلَى صِدْقِ رُسُلِهِ، وحَقِّيَّةِ مَا جَاؤُوا بِهِ. وهَذَا النَّوْعُ قَدْ أَكْثَرَ مِنْهُ أَهْلُ العِلْمِ، وكُلٌّ ذَكَرَ مَا وَصَلَ إِلَيْهِ عِلْمُهُ؛ فإِنَّ اللهَ أَخْبَرَ أَنَّ الآياتِ إِنَّمَا يَنْتَفِعُ بِهَا أُولُو الألْبابِ، وهَذَا أَجَلُّ العِلْمَيْنِ، وأَعْلاهُمَا، وأَكْمَلُهُمَا.

والعِلْمُ الثَّانِي: أَنَّنَا نَتَفَكَّرُ فِيهَا، ونَسْتَخْرِجُ مِنْهَا المَنَافِعَ المُتَنَوِّعَةَ، فإِنَّ اللهَ سَخَّرَهَا لنَا، وسَلَّطَنَا عَلَى اسْتِخْرَاجِ جَمِيعِ مَا لَنَا فِيهَا مِنَ المَنافِعِ والخَيْرَاتِ الدِّينِيَّةِ والدُّنْيَوِيَّةِ، فسَخَّرَ لَنَا أَرْضَهَا لِنَحْرُثَهَا، ونَزْرَعَهَا، ونَغْرِسَهَا، ونَسْتَخْرِجَ مَعادِنَهَا وبَرَكَتَهَا، وجَعَلَهَا طَوْعَ عُلُومِنَا وأَعْمالِنَا؛ لِنَسْتَخْرِجَ مِنْهَا الصِّناعَاتِ النَّافِعَةَ، فجَمِيعُ فُنُونِ الصِّناعاتِ -عَلَى كَثْرَتِهَا، وتَنَوُّعِهَا، وتَفَوُّقِهَا، لَا سِيَّمَا فِي هَذِهِ الأَوْقاتِ- كُلُّ ذَلِكَ دَاخِلٌ فِي تَسْخِيرِهَا لنَا.

وقَدْ عُرِفَتِ الحاجَةُ، بَلِ الضَّرُورَةُ فِي هَذِهِ الأَوْقَاتِ إِلَى اسْتِنْبَاطِ المَنافِعِ مِنْهَا، وتَرْقِيَةِ الصَّنائِعِ إِلَى مَا لَا حَدَّ لهُ، وقَدْ ظَهَرَ فِي هَذِهِ الأَوْقَاتِ مِنْ مَوادِّهَا وعَنَاصِرِهَا أُمُورٌ فِيهَا فَوائِدُ عَظِيمَةٌ للخَلْقِ، وقَدْ تَقَدَّمَ لَنَا فِي قَاعِدَةِ اللَّازِمِ: أَنَّ مَا لَا تَتِمُّ الأُمُورُ المَطْلُوبَةُ إِلَّا بِهِ فهُوَ مَطْلُوبٌ. وهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ تَعَلُّمَ الصِّناعاتِ والمُخْتَرَعَاتِ الحادِثَةِ مِنَ الأُمُورِ المَطْلُوبَةِ شَرْعًا، كَمَا هِيَ مَطْلُوبَةٌ لازِمَةٌ عَقْلًا، وأَنَّهَا مِنَ الجِهادِ فِي سَبِيلِ اللهِ، ومِنْ عُلُومِ القُرْآنِ؛ فإِنَّ القُرْآنَ نَبَّهَ العِبَادَ عَلَى أَنَّهُ جَعَلَ الحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ومَنَافِعُ للنَّاسِ، وأَنَّهُ سَخَّرَ لَهُمْ مَا فِي الأَرْضِ، فعَلَيْهِمْ أَنْ يَسْعَوْا لِتَحْصِيلِ هَذِهِ المَنافِعِ مِنْ أَقْرَبِ الطُّرُقِ إِلَى تَحْصِيلِهَا، وَهِيَ مَعْرُوفَةٌ بالتَّجارِبِ، وهَذَا مِنْ آياتِ القُرْآنِ، وَهُوَ أَكْبَرُ دَلِيلٌ عَلَى سَعَةِ عِلْمِ اللهِ، وحِكْمَتِهِ ورَحْمَتِهِ بعِبَادِهِ، بأَنْ أَبَاحَ لَهُمْ جَمِيعَ النِّعَمِ، ويَسَّرَ لَهُمُ الوُصُولَ إِلَيْهَا بطُرُقٍ لَا تَزَالُ تَحْدُثُ وَقْتًا بَعْدَ وقْتٍ، وقَدْ أَخْبَرَ فِي عِدَّةِ

آياتٍ أَنَّهُ تَذْكِرَةٌ يَتَذَكَّرُ بِهِ العِبَادُ كُلَّ مَا يَنْفَعُهُمْ فَيَسْلُكُونَهُ، ومَا يَضُرُّهُمْ فيَتْرُكُونَهُ، وأَنَّهُ هِدايَةٌ لِجَمِيعِ المَصالِحِ.

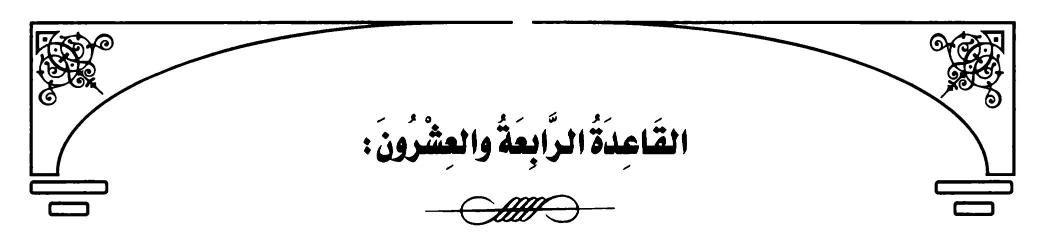
التعليق

خُلاصَةُ هَذِهِ القَاعِدَةِ: أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَرْشَدَ النَّاسَ بهذَا القُرْآنِ العَظِيمِ، وأَنَّ إِرْشَادَهُ يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ:

الأَوَّلُ: أوامِرُ ونَوَاهٍ وأَخْبَارٌ فِيهَا عِظَةٌ وعِبْرَةٌ.

والثَّانِي: إِرْشَادٌ إِلَى أُمُورٍ وَرَاءَ ذَلِكَ لَا تَتَعَلَّقُ بالأَمْرِ والنَّهْيِ، يَسْتَدِلُّونَ بِهَا عَلَى كَمالِ عظَمَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وكَمالِ رَحْمَتِهِ، ويَنْتَفِعُونَ بِهَا أيضًا فِي أُمُورِ دُنْيَاهُمْ، مِثْلُ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس:١٠١] ومِثْلُ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ [آل عمران:١٩١] ومِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد:٢٥].

فَإِنَّهُ إِذَا عَلِمَ الإنْسَانُ أَنَّ فِي الحَدِيدِ بَأْسًا شَدِيدًا، اعْتَمَدَ عَلَيْهِ فِي الأُمُورِ الَّتِي تَحْتَاجُ إِلَى قُوَّةٍ وإِلَى مَتَانَةٍ. وكذلكَ إِذَا عَلِمَ أَنَّ فِيهِ مَنافِعَ أُخْرَى ذَهَبَ يَطْلُبُ هَذِهِ المَنافِعَ، ويُكَيِّفُ هَذَا الحَدِيدَ، فيَصْهَرُهُ ويَصْنَعُهُ عَلَى حَسَبِ المَنْفَعَةِ الَّتِي أرادَهَا، فلَوْ أَنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ شَرَحَ هَذِهِ المَنافِعَ وكَيْفَ الوُصُولَ إليْهَا، لكَانُوا يَحْتَاجُونَ إِلَى مُجَلَّدَاتٍ، كَمَا هُوَ مَوْجُودٌ فِي كُتُبِ هَذَا العِلْمِ، ولكنِ النَّاسُ فِي ذَلِكَ الوَقْتِ لَا يَعْرِفُونَ عَنْ هَذَا شَيْئًا، فَإِذَا قَالَ اللهُ جَلَّوَعَلَا: الحَدِيدُ فِيهِ مَنافِعُ، فمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّنا نُسَخِّرُ عُلُومَنَا وأفْهامَنَا للوُصُولِ إِلَى تِلْكَ المَنافِعِ الَّتِي عَبَّرَ اللهُ عَنْهَا فِي هَذَا الجَمْعِ، الَّذِي هُوَ صِيغَةُ مُنْتَهَى الجُمُوعِ.



القَاعِدَةُ الرَّابِعَةُ والعِشْرُونَ:

القُرْآنُ يُرْشِدُ إِلَى التَّوَسُّطِ والاعْتِدَالِ فِي الأُمُورِ ويَذُمُّ التَّقْصِيرَ والغُلُوَّ ومُجَاوَزَةَ الحَدِّ

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النحل:٩٠] ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ﴾ [الأعراف:٢٩] والآياتُ الآمِرَةُ بالعَدْلِ والنَّاهِيَةُ عَنْ ضِدِّهِ كَثِيرَةٌ، والعَدْلُ فِي كُلِّ الأُمُورِ: لُزُومُ الحَدِّ فِيهَا، وأَنْ لَا يَغْلُوَ ويَتَجَاوَزَ الحَدَّ، كَمَا لَا يُقَصِّرُ ويَدَعُ بَعْضَ الحَقِّ، فَفِي عِبادَةِ اللهِ: أَمَرَ بالتَّمَسُّكِ بِمَا عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ فِي آياتٍ كَثِيرَةٍ، ونَهَى عَنْ مُجاوَزَةِ ذَلِكَ وتَعَدِّي الحُدُودِ فِي آياتٍ كَثِيرَةٍ، وذَمَّ المُقَصِّرِينَ عَنْهُ فِي آياتٍ كَثِيرَةٍ.

فالعِبَادَةُ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا: مَا جَمَعَتِ الإِخْلاصَ للمَعْبُودِ، والمُتابَعَةَ للرَّسُولِ. ومَا فُقِدَ فِيهِ الأَمْرَانِ، أَوْ أَحَدُهُمَا، فَهِيَ مِنَ الأَعْمَالِ اللَّاغِيَةِ.

وفِي حَقِّ الأَنْبِيَاءِ والرُّسُلِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِمْ وَسَلَّمَ: أَمَرَ بالاعْتِدَالِ، وهُوَ: الإِيمانُ بِهِمْ، ومَحَبَّتُهُمُ المُقَدَّمَةُ عَلَى مَحَبَّةِ الخَلْقِ، وتَوْقِيرُهُمْ، واتِّبَاعُهُمْ، ومَعْرِفَةُ أَقْدَارِهِمْ، ومَرَاتِبُهُمُ الَّتِي أَكْرَمَهُمُ اللهُ بِهَا. ونَهَى عَنِ الغُلُوِّ فِيهِمْ فِي آياتٍ كَثِيرَةٍ، وهُوَ: أَنْ يُرْفَعُوا فَوْقَ مَنْزِلَتِهِمُ الَّتِي أَنْزَلَهُمُ اللهُ، ويُجْعَلَ لَهُمْ مِنْ حُقُوقِ اللهِ -الَّتِي لَا يُشارِكُهُ فِيهَا مُشارِكٌ- شيءٌ.

كَمَا نَهَى عَنِ التَّقْصِيرِ فِي حَقِّهِمْ فِي الإِيمانِ بِهِمْ، ومَحَبَّتِهِمْ، وتَرْكِ تَوْقِيرِهِمْ، وعَدَمِ اتِّبَاعِهِمْ، وذَمِّ الغَالِينَ فِيهِمْ -كالنَّصَارَى ونَحْوِهِمْ فِي عِيسَى- فِي آياتٍ كَثِيرَةٍ، كَمَا ذَمَّ

الجَافِينَ لَهُمْ -كاليَهُودِ حَيْثُ قَالُوا فِي عِيسَى مَا قَالُوا- وذمَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَهُم؛ فآمَنَ ببَعْضٍ دُونَ بَعْضٍ، وأخْبَرَ أنَّ هَذَا كُفْرٌ بجَمِيعِهِمْ.

وكذلِكَ يَتعَلَّقُ الأمْرُ فِي حَقِّ العُلَماءِ والأوْلِيَاءِ، يَجِبُ مَحَبَّتُهُمْ، ومَعْرِفَةُ أقْدَارِهِمْ، ولَا يَحِلُّ الغُلُوُّ فِيهِمْ، وإعْطَاؤُهُمْ شَيْئًا مِنْ حقِّ اللهِ وحَقِّ رَسُولِهِ الخاصِّ، ولَا يَحِلُّ جَفَاؤُهُمْ وعَدَاوَتُهُمْ، فمَنْ عَادَى للهِ وَلِيًّا فقَدْ بَارَزَهُ بالحَرْبِ.

وأمَرَ بالتَّوَسُّطِ بالنَّفَقَاتِ، والصَّدَقَاتِ، ونَهَى عَنِ الإمْسَاكِ، والبُخْلِ، والتَّقْتِيرِ، كَمَا نَهَى عَنِ الإسْرَافِ، والتَّبْذِيرِ.

وأمَرَ بالقُوَّةِ والشَّجَاعَةِ بالأقْوَالِ، والأفْعَالِ، ونَهَى عَنِ الجُبْنِ، وذَمَّ الجُبَنَاءَ، وأهْلَ الخَوَرِ وضَعْفِ النُّفُوسِ، كَمَا ذَمَّ المُتَهَوِّرِينَ الَّذِينَ يُلْقُونَ بأنْفُسِهِمْ وأيْدِيهِمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ.

وأمَرَ وحَثَّ عَلَى الصَّبْرِ فِي آياتٍ كَثِيرَةٍ، ونَهَى عَنِ الجَزَعِ والهَلَعِ والسَّخَطِ. كَما نَهَى عَنِ التَّجَبُّرِ، وعَدَمِ الرَّحْمَةِ، والقَساوَةِ، فِي آياتٍ كَثِيرَةٍ.

وأمَرَ بأداءِ حُقُوقِ مَنْ لَهُ حَقٌّ عَلَيْكَ، مِنَ الوَالِدَيْنِ، والأقارِبِ، والأصْحابِ ونَحْوِهِمْ، والإحْسَانِ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وفِعْلًا، وذَمَّ مَنْ قَصَّرَ فِي حَقِّهِمْ، أَوْ أساءَ إليهِمْ، قَوْلًا وفِعْلًا، كَمَا ذَمَّ مَنْ غَلَا فِيهِمْ وفِي غَيْرِهِمْ حَتَّى قَدَّمَ رِضَاهُمْ عَلَى رِضَا اللهِ، وطَاعَتَهُمْ عَلَى طَاعَةِ اللهِ.

وأمَرَ بالاقْتِصَادِ بالأكْلِ، والشُّرْبِ، واللِّبَاسِ، ونَهَى عَنِ السَّرَفِ، والتَّرَفِ، كَمَا نَهَى عَنِ التَّقْصِيرِ الضَّارِّ للقَلْبِ والبَدَنِ.

وبالجُمْلَةِ: فَما أَمَرَ اللهُ بِشَيْءٍ إِلَّا كَانَ وَسَطًا بَيْنَ خُلُقَيْنِ ذَمِيمَيْنِ: تَفْرِيطٍ أَوْ إِفْرَاطٍ.

التعليق

التَّوَسُّطُ مَعْنَاهُ أَنْ تَكُونَ مُوَافِقًا للشَّرْعِ فِي الكَمِّيَّةِ والكَيْفِيَّةِ، والغُلُوُّ أَنْ تَزِيدَ، والتَّفْرِيطُ أَنْ تَنْقُصَ، كُلُّ أُمُورِ الخَيْرِ قَدْ أَمَرَ بِهَا الشَّرْعُ وأَمَرَ بالإِكْثَارِ مِنْهَا، حَتَّى قَالَ الرَّسُولُ ﷺ: «**أَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ**»[1].

لكنْ فِي الأُمُورِ المَحْدُودَةِ، لَوْ قَالَ قَائِلٌ: أَنَا أُرِيدُ أَنْ أُصَلِّيَ فِي النَّهارِ واللَّيْلِ سِتَّ صَلَوَاتٍ، قُلْنَا: هَذَا لَا يَجُوزُ؛ لِأَنَّ هَذَا ظُلْمٌ ومُجَاوَزَةٌ. أَوْ قَالَ: أَنَا أُرِيدُ أَنْ أَجْعَلَ الظُّهْرَ سِتَّ رَكَعَاتٍ. قُلْنَا: هَـذَا لَا يَجُوزُ، وكذلكَ فِي إِنْفاقِ المالِ. لَـوْ زَادَ وأَسْرَفَ، قُلْنَا: لَا يَجُوزُ، ولَوْ نَقَصَ، قُلْنَا: لَا يَجُوزُ أيضًا، ولكنِ الخَيْرُ كُلُّهُ فِي التَّوَسُّطِ.

وخُلاصَةُ هَذِهِ القَاعِدَةِ: أَنَّ القُرْآنَ يَأْمُرُ بالاعْتِدَالِ فِي الأُمُورِ، لا تَزِدْ ولَا تَنْقُصْ، فَمَنْ زَادَ وشَدَّدَ ورَأَى أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ نَعْمَلَ حَتَّى فِي الأُمُورِ المُسْتَحَبَّةِ، وأَنْ لَا نُفَرِّطَ فِي شَيْءٍ؛ نَقُـولُ: إِنَّ هَذَا مِمَّا نَهَى عَنْهُ الشَّرْعُ: ﴿لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة:٧٧].

ولَوْ قَصَّرَ وصَارَ لَا يُبالِي بالأُمُورِ المَشْرُوعَةِ، ويَقُولُ: أَنَا أَكْتَفِي بِمَا يَجِبُ، قُلْنَا: إِنَّهُ فاتَهُ خَيْرٌ كَثِيرٌ، لكنَّهُ لَيْسَ كالأَوَّلِ؛ فالأَوَّلُ أَشَدُّ فِي النَّهْيِ عنْهُ، والثَّانِي فَاتَهُ خَيْرٌ كَثِيرٌ، ولكنْ لَا يُقالُ لهُ: إِنَّكَ أَسَأْتَ؛ ولِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ للرَّجُلِ الَّذِي قَالَ: لَا أَزِيدُ عَلَى هَذَا ولَا أَنْقُصُ: «**دَخَلَ الجَنَّةَ إِنْ صَدَقَ**»[2].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب فضل السجود والحث عليه، رقم (٤٨٨)، من حديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

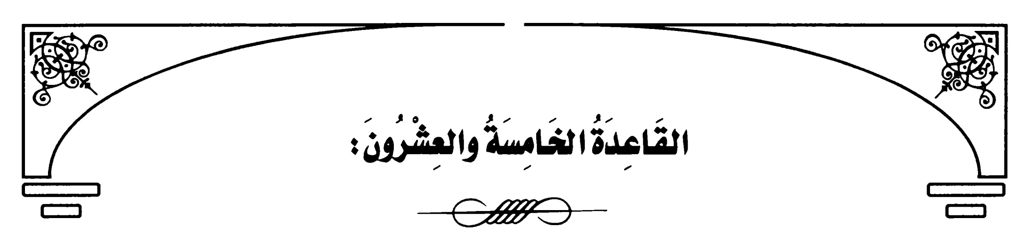
(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب وجوب صوم رمضان (١٨٩١). ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الصلوات التي هي أحد أركان الإسلام، رقم (١١)، من حديث طلحة بن عبيد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فالحاصِلُ: أنَّ هَذَا أمْرٌ يَنْبَغِي أنْ نَتَفَطَّنَ لَهُ أيْضًا، حَتَّى فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ نَكُونُ وَسَطًا بَيْنَ التَّهَاوُنِ والتَّفْرِيطِ، وبَيْنَ الغُلُوِّ والتَّشْدِيدِ، الدَّعْوَةُ إِلَى اللهِ بالحِكْمَةِ، والعَدْلُ مِنَ الحِكْمَةِ.

ومِنَ الحِكْمَةِ مُراعاةُ الحالِ، قَدْ يكُونُ مَثَلًا مِنْ غَيْرِ الحِكْمَةِ أنْ تَدْعُوَ فِي كُلِّ الوَقْتِ؛ لِئَلَّا يَمَلَّ النَّاسُ؛ ولهَذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتعَاهَدُ أصْحابَهُ بالمَوْعِظَةِ، يَتَخَوَّلُهُمْ بالمَوْعِظَةِ، فلِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ، فالإنْسَانُ الحَكِيمُ يَعْرِفُ ذلكَ، رُبَّمَا تَكُونُ فِي مَكانٍ لَا يُناسِبُ أنْ تَقُولَ شَيْئًا، ولكنَّكَ تَقُولُهُ فِي مَكانٍ آخَرَ، أَوْ فِي وقْتٍ آخَرَ فِي نَفْسِ المَكانِ.

والمُهِمُّ أنَّ الإنْسَانَ يَجِبُ أنْ يَكُونَ وَسَطًا فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ، هَذَا مَا يَدْعُو إِلَيْهِ القُرْآنُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النحل:٩٠] تكُونُ عَدْلًا فِي جَمِيعِ الأُمُورِ لَا تُفْرِطُ ولَا تُفَرِّطُ.





القَاعِدَةُ الخَامِسَةُ والعِشْرُونَ:

حُدُودُ اللهِ قَدْ أُمِرَ بِحِفْظِهَا وَنُهِيَ عَنْ تَعدِّيهَا وقُرْبَانِهَا

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:١١٢] وقالَ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة:٢٢٩] ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة:١٨٧].

أَمَّا حُدُودُ اللهِ: فَهِيَ مَا حَدَّهُ لعِبَادِهِ مِنَ الشَّرَائِعِ الظَّاهِرَةِ والبَاطِنَةِ الَّتِي أمَرَهُمْ بفِعْلِهَا، والمُحَرَّماتِ الَّتِي أَمَرَهُمْ بتَرْكِهَا؛ فالحِفْظُ لها: أَدَاءُ الحُقُوقِ اللَّازِمَةِ، وتَرْكُ المُحَرَّماتِ الظَّاهِرَةِ والبَاطِنَةِ. ويَتَوَقَّفُ هَذَا الفِعْلُ وهَذَا التَّرْكُ عَلَى مَعْرِفَةِ الحُدُودِ عَلَى وجْهِهَا؛ لِيَعْرِفَ مَا يَدْخُلُ فِي الوَاجِبَاتِ والحُقُوقِ، فيُؤَدِّيَهَا عَلَى ذَلِكَ الوَجْهِ كَامِلَةً غَيْرَ نَاقِصَةٍ، ومَا يَدْخُلُ فِي المُحَرَّماتِ؛ لِيَتَمَكَّنَ مِنْ تَرْكِهَا؛ ولهَذَا ذَمَّ اللهُ مَنْ لَمْ يَعْرِفْ حُدُودَ مَا أَنْزَلَ عَلَى رَسُولِهِ، وأَثْنَى عَلَى مَنْ عَرَفَ ذلِكَ.

وحيثُ قَالَ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة:٢٢٩] كَانَ المُرَادُ بِهَا مَا أَحَلَّهُ لِعِبادِهِ، ومَا فَصَّلَهُ مِنَ الشَّرَائِعِ، فَإِنَّهُ نَهَى عَنْ مُجاوزَتِهَا، وأمَرَ بمُلازَمَتِهَا، كَمَا أَمَرَ بمُلازَمَةِ مَا أَحَلَّهُ مِنَ الطَّعامِ، والشَّرابِ، واللِّباسِ، والنِّكاحِ، ونَهَى عَنْ تَعَدِّي ذَلِكَ إِلَى مَا حَرَّمَ مِنْهَا مِنَ الخَبَائِثِ، وكَمَا أَمَرَ بمُلَازَمَةِ مَا شَرَعَهُ مِنَ الأَحْكَامِ فِي النِّكاحِ والطَّلَاقِ والعِدَدِ وتَوَابعِ ذلكَ، ونَهَى عَنْ تَعَدِّي ذَلِكَ إِلَى فِعْلِ مَا لَا يَجُوزُ شَرْعًا، وكَمَا أَمَرَ بالمُحافَظَةِ عَلَى مَا فَصَّلَهُ مِنْ أَحْكَامِ المَوَارِيثِ، ولُزُومِ حَدِّهِ، ونَهَى عَنْ تَعَدِّي ذَلِكَ وتَوْرِيثِ مَنْ لَا يَرِثُ، وحِرْمَانِ مَنْ يَرِثُ، وتَبْدِيلِ مَا فَرَضَهُ وفَصَّلَهُ بِغَيْرِهِ.

وحيثُ قَالَ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة:١٨٧] كَانَ المُرادُ بِذَلِكَ المُحَرَّمَاتِ، فإنَّ قَوْلَهُ: ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ نَهْيٌ عَنْ فِعْلِهَا، ونَهْيٌ عَنْ مُقَدِّمَاتِهَا وأسْبَابِهَا المُوَصِّلَةِ إِلَيْهَا والمُوقِعَةِ بِهَا، كَمَا نَهَاهُمْ عَنِ المُحَرَّمَاتِ عَلَى الصائِمِ، وبَيَّنَ لَهُمْ وقْتَ الصِّيَامِ، فقالَ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة:١٨٧] وكَمَا حَرَّمَ عَلَى الأَزْوَاجِ أنْ يَأْخُذُوا مِمَّا آتَوْا أزْوَاجَهُمْ شَيْئًا إِلَّا أنْ يَأْتِينَ بفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ، قَالَ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة:١٨٧] وكَمَا صَرَّحَ بالمُحَرَّماتِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ [الإسراء:٣٢] وقالَ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام:١٥٢] فالخَيْرُ والسَّعَادَةُ والفَلاحُ فِي مَعْرِفَةِ حُدُودِ اللهِ، والمُحافَظَةِ عَلَيْهَا، كَمَا أَنَّ أَصْلَ الشَّرِّ وأسْبابِ العُقُوباتِ الجَهْلُ بحُدُودِ اللهِ، أَوْ تَرْكُ المُحافَظَةِ عَلَيْهَا، أَوِ الجَمْعُ بَيْنَ الشَّرَّيْنِ. واللهُ أَعْلَمُ.

التعليق

الحُدُودُ: مَا حَدَّدَهُ اللهُ لعِبَادِهِ مِنَ المُباحاتِ والمَأْمُورَاتِ والمَنْهِيَّاتِ.

فَأَمَّا المَأْمُورَاتُ، فيَقُولُ اللهُ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ وكذلكَ المُحَلَّلاتُ. وأَمَّا المَنْهِيَّاتُ، فيَقُولُ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ وذلكَ لِأَنَّ الرَّاعِيَ حَوْلَ الحِمَى يُوشِكُ أنْ يَقَعَ فِيهِ، فَإِذَا قَرُبْتَ مِنَ هَذِهِ المُحَرَّماتِ أوْشَكْتَ أنْ تَقعَ، وكُلَّمَا كانَتِ المُحَرَّماتُ تَدْعُو النُّفُوسُ إِلَيْهَا أَكْثَرَ كَانَ النَّهْيُ عَنْ قُرْبانِهَا أَشَدَّ وأَوْكَدَ؛ ولهَذَا حُرِّمَ عَلَى الرَّجُلِ أنْ يَرى المَرْأَةَ الأَجْنَبِيَّةَ مِنْهُ، أَوْ أنْ يُكَلِّمَهَا عَلَى سَبِيلِ التَّمَتُّعِ والتَّلَذُّذِ بصَوْتِهَا؛ لِأَنَّ ذَلِكَ يَجُرُّ إِلَى الزِّنَا، وقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾.

وفِي مَسَائِلِ الرِّبَا حَرَّمَ اللهُ أَشْياءَ لَيْسَ فِيهَا ظُلْمٌ، فإِنَّكَ إِذَا اشْتَرَيْتَ صَاعًا مِنَ

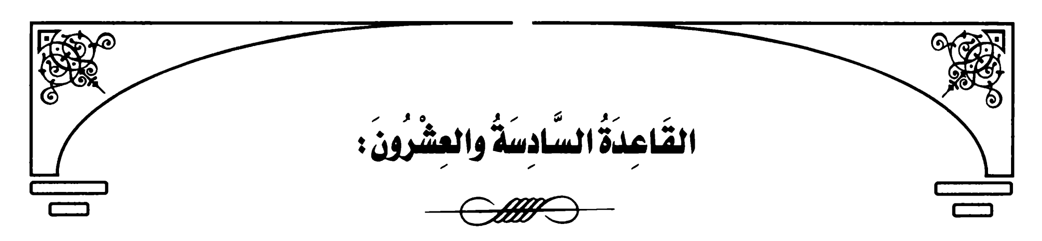
البُرِّ الطَّيِّبِ بصاعَيْنِ مِنَ البُرِّ الرَّدِيءِ يُساوِيَانِ الصَّاعَ فِي القِيمَةِ، فَلَيْسَ ذَلِكَ بظُلْمٍ، وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَى المُكَلَّفِ مِنْ أَنْ يَذْهَبَ فَيَبِيعَ الرَّدِيءَ، ثُمَّ يَقْبِضَ ثَمَنَهُ، ثُمَّ يَشْتَرِيَ الطَّيِّبَ، لكنَّهُ يَجُرُّ إِلَى الرِّبَا الصَّرِيحِ الَّذِي يَتَضَمَّنُ الظُّلْمَ، وَهِيَ أَنْ أُعْطِيَكَ عَشَرَةَ دَرَاهِمَ نَقْدًا بخَمْسَةَ عَشَرَ دِرْهَمًا مُؤَجَّلَةً، وهَذَا هُوَ الرِّبَا.

والحاصِلُ أَنَّ المُحَرَّماتِ يُقالُ فِيهَا: ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ ويُنْهَى عَنِ القُرْبِ إِلَيْهَا بكُلِّ وَسِيلَةٍ «مَا أَسْكَرَ كَثِيرُهُ، فَقَلِيلُهُ حَرَامٌ»[1] والقَلِيلُ لَا يُسْكِرُ؛ لكنَّهُ يَجُرُّ إِلَى شُرْبِ الكَثِيرِ، فإِنَّ النُّفُوسَ تَدْعُو كَثِيرًا إِلَى تَنَاوُلِ هَذَا المُسْكِرِ؛ فلذلكَ حُرِّمَتْ مِنْهُ عَلَى وجْهٍ بَعِيدٍ.

أَمَّا إِذَا كانَتِ الحُدُودُ مِمَّا أُمِرَ بِهِ أَوْ مَا أُحِلَّ، فقَدْ قَالَ اللهُ فِيهَا: ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ والاعْتِدَاءُ فِي الوَاجِبَاتِ أَنْ يَزِيدَ فِيهَا أَوْ يُقَصِّرَ، والاعْتِدَاءُ فِي المُحَلَّلاتِ أَنْ يَنْتَقِلَ مِنْهَا إِلَى المُحَرَّماتِ، فمَثَلًا: نَحْنُ أُمِرْنَا بالأكْلِ والشُّرْبِ، ولكنْ نُهِينَا عَنِ الإِسْرَافِ ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ [الأعراف:٣١] فَلَوْ أَنَّ أَحَدًا قُدِّمَ لَهُ طَعَامٌ شَهِيٌّ لَذِيذٌ، فَأَكَلَ مِنْهُ حَتَّى صارَ لَا يَحْمِلُ بَطْنَهُ إِلَّا مَعَ العَصَا، فهَذَا إِسْرَافٌ مُحَرَّمٌ؛ ولهَذَا قَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ: إِنَّهُ يَحْرُمُ عَلَى الإِنْسَانِ الأكْلُ إِذَا خَافَ تُخْمَةً أَوْ أَذًى. والتُّخْمَةُ: النَّتَنُ، أَيْ: نَتَنُ المَعِدَةِ وتَغَيُّرُهَا؛ لِأَنَّ المَعِدَةَ إِذَا ثَقُلَ عَلَيْهَا الطَّعَامُ ولَمْ تَهْضِمْهُ أَنْتَنَ فِيهَا؛ لِأَنَّ السَّوَائِلَ الَّتِي تُذِيبُهُ وتُذِيبُ خُبْثَهُ تَعْجِزُ عَنْهُ، فيُنْتِنُ فِي هَذَا الوِعَاءِ المَخْتُومِ، وتَجِدُ الإِنْسَانَ إِذَا تَجَشَّأَ يُحِسُّ برَائِحَةٍ كَرِيهَةٍ تَخْرُجُ مِنْهُ.

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الأشربة، باب النهي عن المسكر، رقم (٣٦٨١)، والترمذي: أبواب الأشربة، باب ما أسكر كثيره فقليله حرام، رقم (١٨٦٥)، وابن ماجه: كتاب الأشربة، باب ما أسكر كثيره فقليله حرام، رقم (٣٣٩٣)، من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.



القَاعِدَةُ السَّادِسَةُ والعِشْرُونَ:

الأَصْلُ أَنَّ الآيَاتِ الَّتِي فِيهَا قُيُودٌ لَا تَثْبُتُ أَحْكَامُهَا إِلَّا بِوُجُودِ تِلْكَ القُيُودِ إِلَّا فِي آيَاتٍ يَسِيرَةٍ

وهذِهِ قَاعِدَةٌ لَطِيفَةٌ، فَإِنَّهُ مَتَى رَتَّبَ اللهُ فِي كِتَابِهِ حُكْمًا عَلَى شَيْءٍ، وقَيَّدَهُ بقَيْدٍ، أَوْ شَرَطَ لِذَلِكَ شَرْطًا، تَعَلَّقَ الحُكْمُ بِهِ عَلَى ذَلِكَ الوَصْفِ الَّذِي وَصَفَهُ اللهُ تَعَالَى. وهَذَا فِي القُرْآنِ لَا حَصْرَ لهُ، وإِنَّمَا المَقْصُودُ ذِكْرُ المُسْتَثْنَى مِنْ هَذَا الأَصْلِ الَّذِي يَقُولُ كَثِيرٌ مِنَ المُفَسِّرِينَ إِذَا تَكَلَّمُوا عَلَيْهَا: «هَذَا قَيْدٌ غَيْرُ مُرَادٍ» وفِي هَذِهِ العِبارَةِ نَظَرٌ، فإِنَّ كُلَّ لَفْظَةٍ فِي كِتَابِ اللهِ فإِنَّ اللهَ أَرادَهَا، وفِيهَا فائِدَةٌ قَدْ تَظْهَرُ للمُتَكَلِّمِ، وقَدْ تَخْفَى.

وإِنَّمَا مُرادُهُمْ بقَوْلِهِمْ: «غَيْرُ مُرَادٍ»: ثُبُوتُ الحُكْمِ بِهَا. فاعْلَمْ أَنَّ اللهَ تَعَالَى يَذْكُرُ الأَحْكَامَ الشَّرْعِيَّةَ مِنْ أُصُولٍ وفُرُوعٍ، ويَذْكُرُ أَعْلَى حَالَةٍ يُبْرِزُهَا فِيهَا لعِبادِهِ؛ لِيُظْهِرَ لَهُمْ حُسْنَهَا إِنْ كانَتْ مَأْمُورًا بِهَا، أَوْ قُبْحَهَا إِنْ كانَتْ مَنْهِيًّا عَنْهَا، وعِنْدَ تَأَمُّلِ هَذِهِ الآياتِ -الَّتِي بهَذَا الصَّدَدِ- يَظْهَرُ لكَ مِنْهَا عيَانًا.

فمِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ ﴾ [المؤمنون:١١٧].

ومِنَ المَعْلُومِ أَنَّ مَنْ دَعَا مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَإِنَّهُ كافِرٌ، وأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ بُرْهَانٌ، وإِنَّمَا قَيَّدَهَا اللهُ بهَذَا القَيْدِ؛ بَيَانًا لشَنَاعَةِ الشِّرْكِ والمُشْرِكِ، وأَنَّ الشِّرْكَ قَطْعًا لَيْسَ لَهُ دَلِيلٌ شَرْعِيٌّ ولَا عَقْلِيٌّ، والمُشْرِكُ لَيْسَ بِيَدِهِ مَا يُسَوِّغُ لَهُ شَيْئًا مِنْ ذلكَ.

فَفائِدَةُ هَذَا القَيْدِ: التَّشْنِيعُ البَلِيغُ عَلَى المُشْرِكِينَ بالمُعانَدَةِ، ومُخَالَفَةِ البَرَاهِينِ

الشَّرْعِيَّةِ والعَقْلِيَّةِ، وأَنَّهُ لَيْسَ بأَيْدِيهِمْ إِلَّا أغراضٌ نَفْسِيَّةٌ، ومَقاصِدُ سَيِّئَةٌ، وأَنَّهُمْ لَوِ الْتَفَتُوا أدْنَى الْتِفَاتٍ لَعَرَفُوا أنَّ مَا هُمْ عَلَيْهِ لَا يَسْتَجِيزُهُ مَنْ لَهُ أدْنَى إيمانٍ ولَا مَعْقُولٍ.

التعليق

القَيْدُ الَّذِي قَدْ يُقالُ: «غَيْرُ مُرادٍ» كَقَوْلِهِ فِي الآيَةِ: ﴿لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ فإنَّكَ لَوِ اعْتَبَرْتَ هَذَا قَيْدًا لكانَ مَعْنَى الآيَةِ: ومَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لَهُ بِهِ بُرْهَانٌ فَلا حِسَابَ عَلَيْهِ! وهَلْ هَذَا مَوْجُودٌ؟ لَا، ولكنْ أرادَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنْ يُبَيِّنَ شَنَاعَةَ هَذَا القَوْلِ، وأنَّ حَقِيقَةَ الأَمْرِ أَنَّهُ لَا بُرْهَانَ لِمَنْ دَعَا مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ.

ومِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَرَبَـٰٓئِبُكُمُ ٱلَّـٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّـٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ [النساء:٢٣] مَعَ أنَّ كَوْنَهَا فِي حِجْرِهِ أَوْ فِي غَيْرِ حِجْرِهِ لَيْسَ شَرْطًا لِتَحْرِيمِهَا، فإنَّهَا تَحْرُمُ مُطْلَقًا، ولكنْ ذَكَرَ اللهُ هَذَا القَيْدَ؛ تَشْنِيعًا لهذِهِ الحالَةِ، وأَنَّهُ مِنَ القَبِيحِ إباحَةُ الرَّبِيبَةِ الَّتِي هِيَ فِي حِجْرِ الإنْسَانِ بمَنْزِلَةِ بِنْتِهِ، فذَكَرَ اللهُ المَسْأَلَةَ مُتَجَلِّيَةً بثِيَابِ قُبْحِهَا؛ لِيُنَفِّرَ عَنْهَا ذَوِي الأَلْبَابِ، مَعَ أَنَّ التَّحْرِيمَ لَمْ يُعَلَّقْ بمِثْلِ هَذِهِ الحالَةِ، فالأُنْثَى إمَّا أنْ تَكُونَ مُبَاحَةً مُطْلَقًا، أَوْ مُحَرَّمَةً مُطْلَقًا، سَوَاءً كانَتْ عِنْدَ الإنْسَانِ أَمْ لَا، كحَالَةِ بقِيَّةِ النِّسَاءِ المُحَلَّلاتِ والمُحَرَّماتِ.

التعليق

وهَذَا الَّذِي ذَهَبَ إِلَيْهِ شَيْخُنَا رَحِمَهُ ٱللَّهُ هُوَ الصَّحِيحُ. والدَّلِيلُ أَنَّهُ المُرادُ، وأنَّ اللهَ تَعَالَى ذَكَرَ هَذَا لِبَيَانِ قُبْحِ هَذَا الأَمْرِ، لَا شَرْطًا فِي الحُكْمِ أَنَّهُ قَالَ: ﴿وَرَبَـٰٓئِبُكُمُ ٱلَّـٰتِى

فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ﴾ ولَمْ يَقُلْ: فإنْ لَمْ يَكُنَّ فِي حُجُورِكُمْ، فلَمَّا ذَكَرَ حُكْمَ الحُكْمِ فِي مُخَالَفَةِ أَحَدِ القَيْدَيْنِ عُلِمَ أَنَّهُ لَيْسَ قَيْدًا فِيهِ.

ومِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ﴾ [الأنعام:١٥١] و﴿خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖ﴾ [الإسراء:٣١] مَعَ أَنَّهُ مِنَ المَعْلُومِ النَّهْيُ عَنْ قَتْلِ الأَوْلادِ فِي هَذِهِ الحالَةِ وغَيْرِهَا. فالفَائِدَةُ فِي ذِكْرِ هَذِهِ الحالَةِ: أَنَّهَا حَالَةٌ جَامِعَةٌ للشَّرِّ كُلِّهِ، كَوْنُهُ قَتْلًا بغَيْرِ حَقٍّ، وقَتْلَ مَنْ جُبِلَتِ النُّفُوسُ عَلَى شِدَّةِ الشَّفَقَةِ الَّتِي لَا نَظِيرَ لَهَا عَلَيْهِ، وكَوْنُ ذَلِكَ صَادِرًا عَنِ التَّسَخُّطِ لِقَدَرِ اللهِ، وإساءَةِ الظَّنِّ باللهِ؛ فهُمْ تبَرَّمُوا بالفَقْرِ هَذَا التَّبَرُّمَ، وأَسَاؤُوا ظُنُونَهُمْ بِرَبِّهِمْ؛ حَيْثُ ظَنُّوا أَنَّهُمْ إِنْ أَبْقَوْهُمْ زَادَ فَقْرُهُمْ، واشْتَدَّتْ ضَرُورَتُهُمْ، فصَارَ الأَمْرُ بالعَكْسِ.

وأيضًا: فَإِنَّهُ إذَا كَانَ مَنْهِيًّا عَنْ قَتْلِهِمْ فِي هَذِهِ الحالِ الَّتِي دَفَعَهُمْ إِلَيْهَا خَشْيَةُ الافْتِقَارِ، أَوْ حُدُوثُهُ، فَفِي غَيْرِ هَذِهِ الحالَةِ مِنْ بابٍ أَوْلَى وأَحْرَى.

وأيضًا: فَفِي هَذَا بيَانٌ للحالَةِ المَوْجُودَةِ غالِبًا عِنْدَهُمْ، فالتَّعَرُّضُ لِذِكْرِ الأَسْبَابِ المَوْجُودَةِ الحادِثَةِ يَكُونُ أَجْلَى وأَوْضَحَ لِلمَسَائِلِ.

وأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى فِي الرَّجْعَةِ: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنۡ أَرَادُوٓاْ إِصۡلَٰحٗا﴾ [البقرة:٢٢٨] فمِنَ العُلَمَاءِ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ مِنْ هَذَا النَّوْعِ، وأَنَّهُ يَسْتَحِقُّ رَدَّهَا، سَوَاءً أَرَادَ الإِصْلَاحَ أَوْ لَمْ يُرِدْهُ، فيَكُونُ ذَكَرَ هَذَا القَيْدَ؛ حَثًّا عَلَى لُزُومِ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ مِنْ قَصْدِ الإِصْلَاحِ، وتَحْرِيمًا لِرَدِّهَا عَلَى وَجْهِ المَضَارَّةِ، وإِنْ كَانَ يَمْلِكُ رَدَّها، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ﴾ [البقرة:٢٣١].

ومِنَ العُلَمَاءِ مَنْ جَعَلَ هَذَا القَيْدَ عَلَى الأَصْلِ العَامِّ، وأنَّ الزَّوْجَ لَا يَسْتَحِقُّ رَجْعَةَ زَوْجَتِهِ فِي عِدَّتِهَا إِلَّا إِذَا قَصَدَ الإِصْلَاحَ. فأمَّا إِذَا قَصَدَ ضِدَّ ذلكَ، فلَا حَقَّ لَهُ فِي رَجْعَتِهَا، وهَذَا هُوَ الصَّوَابُ.

ومِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ [البقرة:٢٨٣] مَعَ أَنَّ الرَّهْنَ يَصِحُّ حَضَرًا وسَفَرًا. ففَائِدَةُ هَذَا القَيْدِ أَنَّ اللهَ ذَكَرَ أَعْلَى الحالاتِ، وأَشَدَّ الحاجاتِ للرَّهْنِ، وَهِيَ هَذِهِ الحالَةُ فِي السَّفَرِ، والكاتِبُ مَفْقُودٌ، والرَّهْنُ مَقْبُوضٌ، فَأَحْوَجُ مَا يَحْتَاجُ الإنْسَانُ للرَّهْنِ فِي هَذِهِ الحالَةِ الَّتِي تَعَذَّرَتْ فِيهَا التَّوْثِيقَاتِ إِلَّا بالرَّهْنِ المَقْبُوضِ. وكَمَا قالَهُ النَّاسُ فِي قَيْدِهِ بِالسَّفَرِ، فكَذَلِكَ عَلَى الصَّحِيحِ فِي قَيْدِهِ بالقَبْضِ، وأنَّ قَبْضَهُ لَيْسَ شَرْطًا لِصِحَّتِهِ، وإِنَّمَا ذَلِكَ للاحْتِيَاطِ، وزِيادَةِ الاسْتِيثَاقِ، وكذلكَ فَقْدُ الكاتِبِ.

التعليق

قَوْلُهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لَيسَ شَرْطًا لِصِحَّتِهِ» لَعَلَّهُ يُرِيدُ: «لَيْسَ شَرْطًا للُزُومِهِ» لِأَنَّ قَبْضَ الرَّهْنِ لَيسَ شَرْطًا للصِّحَّةِ، فالرَّهْنُ يَصِحُّ -كَمَا سَبَقَ- وإِنْ لَمْ يُقْبَضْ، لكنَّهُ لَا يَلْزَمُ إِلَّا بالقَبْضِ، فلَوِ اشْتَرَيْتُ مِنْكَ شَيْئًا بدَرَاهِمَ، وقُلْتُ: رَهَنْتُكَ سَيَّارَتِي، فالرَّهْنُ صَحِيحٌ لكنَّهُ لَيْسَ بلازِمٍ، فلَعَلَّ الشَّيْخَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُرِيدُ بِذَلِكَ اللُّزُومَ؛ لِأَنَّ العُلَمَاءَ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ اخْتَلَفُوا فِي لُزُومِهِ، والقَوْلُ الرَّاجِحُ أَنَّهُ يَلْزَمْ وإِنْ لَمْ يُقْبَضْ، وعَمَلُ النَّاسِ اليَوْمَ عَلَى هَذَا.

ومِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ [البقرة:٢٨٢] مَعَ أَنَّ الحَقَّ يَثْبُتُ بالرَّجُلِ والمَرْأَتَيْنِ، ولوْ مَعَ وُجُودِ الرَّجُلَيْنِ، لكِنْ ذَكَرَ اللهُ أكْمَلَ حالَةٍ يَحْصُلُ بِهَا الحِفْظُ للحُقُوقِ، بدَلِيلِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَضَى بالشاهِدِ الوَاحِدِ مَعَ اليَمِينِ[1] والآيَةُ لَيْسَ فِيهَا ذَلِكَ لهذِهِ الحِكْمَةِ، وَهُوَ أَنَّ الآيَةَ أَرْشَدَ اللهُ فِيهَا عِبادَهُ إِلَى أَعْلَى حالَةٍ يَحْفَظُونَ بِهَا حُقُوقَهُمْ؛ لِتَمامِ رَاحَتِهِمْ، وحَسْمِ اخْتِلَافِهِمْ ونِزَاعِهِمْ.

التعليق

الشُّهُودُ فِي الأَمْوَالِ: رَجُلَانِ، أَوْ رُجُلٌ وامْرَأَتَانِ، أَوْ رَجُلٌ ويَمِينُ المُدَّعِي، مِثْلُ أَنْ أَدَّعِيَ عَلَيْكَ بأَنِّي أَطْلُبُكَ مِئَةَ رِيَالٍ، وتُنْكِرُ، وعِنْدِي شاهِدٌ واحِدٌ فقطْ، وحَلَفْتُ مَعَ الشاهِدِ، فَإِنَّهُ يُقْضَى لِي بالحَقِّ، ويَلْزَمُكَ مَا ادَّعَيْتُهُ عَلَيْكَ. والقَوْلُ الرَّاجِحُ أَنَّ اليَمِينَ فِي جَانِبِ المُدَّعَى عَلَيْهِ أقْوَى المُتَداعِيَيْنِ، ولَمَّا أَتَى بالشَّاهِدِ قَوِيَ جَانِبُهُ.

وأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الأعلى:٩] فإنَّهَا مِنْ أَصْلِ القَاعِدَةِ، ويَظُنُّ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّهَا مِنْ هَذَا النَّوْعِ، وأَنَّهُ يَجِبُ التَّذْكِيرُ نَفَعَتِ أَوْ لَمْ تَنْفَعْ، لكِنْ هَذَا غَلَطٌ، فنَفْعُ الذِّكْرَى: إِذَا كَانَ يَحْصُلُ بِهَا الخَيْرُ أَوْ بَعْضُهُ، أَوْ يَزُولُ بِهَا الشَّرُّ كُلُّهُ أَوْ بَعْضُهُ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الأقضية، باب القضاء باليمين والشاهد، رقم (١٧١٢)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فأمَّا إِذَا كَانَ ضَرَرُ التَّذْكِيرِ أَعْظَمَ مِنْ نَفْعِهِ، فَإِنَّهُ مَنْهِيٌّ عَنْهُ فِي هَذِهِ الحالِ، كَمَا نَهَى اللهُ عَنْ سَبِّ آلِهَةِ المُشْرِكِينَ إِذَا كَانَ وَسِيلَةً لِسَبِّ اللهِ، وكَمَا يُنْهَى عَنِ الأَمْرِ بالمَعْرُوفِ إِذَا كَانَ يَتَرَتَّبُ عَلَى ذَلِكَ شَرٌّ أَكْبَرُ، أَوْ فَوَاتُ خَيْرٍ أَكْثَرَ مِنَ الخَيْرِ الَّذِي يُؤْمَرُ بِهِ، وكَذَلِكَ النَّهْيُ عَنِ المُنْكَرِ إِذَا تَرَتَّبَ عَلَيْهِ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ شَرًّا وضَرَرًا. فالتَّذْكِيرُ فِي هَذِهِ الحالِ غَيْرُ مَأْمُورٍ بِهِ، بَلْ مَنْهِيٌّ عَنْهُ، وكُلُّ هَذَا مِنْ تَفْصِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ ﴾ [النحل:١٢٥] فَعُلِمَ أَنَّ هَذَا قَيْدٌ مُرَادٌ، ثُبُوتُ الحُكْمِ بثُبُوتِهِ، وانْتِفَاءُ الحُكْمِ لانْتِفَائِهِ. واللهُ أَعْلَمُ.

التعليق

هذِهِ المَسْأَلَةُ فِيهَا خِلافٌ بَيْنَ العُلَماءِ، هَلْ قَوْلُهُ: ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ قَيْدٌ؟ والمَعْنَى: أَنَّهُ لَا يَجِبُ التَّذْكِيرُ إِلَّا إِذَا نَفعَتِ الذِّكْرَى، فإِنْ لَمْ تَنْفَعْ فَلَا تُذَكِّرْ؛ لِأَنَّهُ لَا فَائِدَةَ مِنْهُ؛ لكَوْنِهِ مَضْيَعَةً للوَقْتِ، أَوْ أَنَّ هَذَا القَيْدَ للنِّداءِ عَلَيْهِمْ بأَنَّ هَؤُلاءِ مَا يَنْفَعُ فِيهِمُ الخَيْرُ، لكنْ يُشْرَعُ أَنْ تُذَكِّرَ عَلَى كُلِّ حالٍ، كَقَوْلِكَ مَثَلًا: عَلِّمْهُ إِنْ كَانَ العِلْمُ يَنْفَعُهُ. هلْ مَعْناهُ: إِنَّكَ لَا تُعَلِّمُهُ إِلَّا إِذَا كَانَ سَيَنْفَعُهُ، أَوِ المَعْنَى: عَلِّمْهُ بكُلِّ حالٍ؟ الثَّانِي؛ إِذْ رَأَى بَعْضُ العُلَماءِ أَنَّهَا مِنْ هَذَا البابِ، وعَلَى القَوْلِ الأَوَّلِ الَّذِي رَجَّحَهُ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ يَكُونُ قَيْدًا مُرَادًا، وأَنَّهُ إِذَا لَمْ تَنْفَعِ الذِّكْرَى لَمْ تَجِبْ.

وفِي هَذَا المَقامِ لَا تَخْلُو الحَالُ مِنْ ثَلاثَةِ أُمُورٍ: إِمَّا أَنْ تَنْفَعَ، أَوْ تَضُرَّ، أَوْ لَا تَنْفَعُ ولَا تَضُرُّ. إِنْ نَفَعَتْ وَجَبَ التَّذْكِيرُ، وإِنْ ضَرَّتْ فَلَا تَذْكِيرَ، بَلْ يُنْهَى عَنِ التَّذْكِيرِ، وإِنْ لَمْ تَضُرَّ ولَمْ تَنْفَعْ فإِنَّهَا لَا تَجِبُ ولَا يُنْهَى عَنْهَا.

لكنْ هَلِ الأَوْلَى أَنْ يُذَكِّرَ؛ إِظْهَارًا للحَقِّ وبَيَانًا لهُ، ولَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ إِلَى الحَقِّ

فِيمَا بَعْدُ؟ هَذَا هُوَ الظاهِرُ، إِذَا لَمْ يَكُنْ مَضَرَّةٌ، فَإِنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يُذَكِّرَ، أَمَّا إِذَا نَفَعَتْ فَإِنَّهُ يَجِبُ أَنْ يُذَكِّرَ.

ولَمْ يَتَرَجَّحْ عِنْدِي أَحَدُ هَذَيْنِ القَوْلَيْنِ؛ لأَنَّنا إِذَا نَظَرْنَا إِلَى وُجُوبِ التَّذْكِيرِ وإِعْلانِ الشَّرْعِ وبَيانِه، قُلْنَا: إِنَّ الآيَةَ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ (ذَكِّرْ) إِنْ كَانَ هَؤُلاءِ يَنْفَعُ فِيهِمُ الذِّكْرَى، ويَكُونُ المَقْصُودُ بِهِ النِّدَاءَ عَلَى عِنادِهِمْ وعَلَى اسْتِكْبارِهِمْ وعَدَمِ رُجُوعِهِمْ للحَقِّ.

وعَلَى كُلِّ حَالٍ: هَذَا مَوْضِعُ خِلافٍ بَيْنَ العُلَماءِ، وشَيْخُنَا رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُرَجِّحُ أَنَّهُ قَيْدٌ، وأَنَّ الذِّكْرَى لا تَجِبُ إِلَّا إِذَا نَفَعَتْ.

ومِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [البقرة:٦١] مَعَ أَنَّهُ لَا يَقَعُ قَتْلُهُمْ إِلَّا بغَيْرِ حَقٍّ؛ فهَذَا نَظِيرُ مَا ذَكَرَهُ فِي الشِّرْكِ، وأَنَّ هَذَا تَشْنِيعٌ لهِذِهِ الحالَةِ الَّتِي لَا شُبْهَةَ لصَاحِبِهَا، بلْ صاحِبُهَا أعْظَمُ النَّاسِ جُرْمًا، وأَشَدُّهُمْ إِسَاءَةً.

وأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام:١٥١] فليستْ مِنْ هَذَا النَّوْعِ، وإِنَّمَا هِيَ مِنَ النَّوْعِ الأَوَّلِ الَّذِي هُوَ الأَصْلُ، والحَقُّ الَّذِي قَيَّدَهَا اللهُ بِهِ جاءَ مُفَسَّرًا فِي قَوْلِهِ ﷺ: **«النَّفْسُ بالنَّفْسِ، والزَّانِي المُحْصَنُ، والتَّارِكُ لِدِينِهِ المُفارِقُ للجَماعَةِ»**[1].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الديات، باب قول الله تعالى: ﴿ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ ﴾، رقم (٦٨٧٨)، ومسلم: كتاب القسامة، باب ما يباح به دم المسلم، رقم (١٦٧٦)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

ومِنْهَا قَـوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ﴾ [المائدة:٦] مَعَ أَنَّ فَقْدَ الماءِ لَيْسَ مِنْ شَرْطِهِ وُجُودُ السَّفَرِ، فَإِنَّهُ إِذَا فُقِدَ جَازَ التَّيمُّمُ حَضَرًا وسَفَرًا، لكنْ ذِكْرُ السَّفَرِ بَيانٌ للحالَةِ الغالِبَةِ المَوْجُودَةِ الَّتِي يُفْقَدُ فِيهَا الماءُ، أَمَّا الحَضَرُ فَإِنَّهُ يَنْدُرُ فِيهِ عَدَمُ الماءِ جِدًّا، ومِنْ هَذَا السَّبَبِ ظَنَّ بَعْضُ العُلَماءِ أَنَّ السَّفَرَ وحْدَهُ مُبِيحٌ لِلتَّيمُّمِ، وإنْ كَانَ الماءُ مَوْجُودًا!! وهَذَا فِي غايَةِ الضَّعْفِ. وهَدْيُ الرَّسُولِ وأَصْحابِهِ والمُسْلِمِينَ مُخالِفٌ لِهَذَا القَوْلِ.

التعليق

وكَـذَلِكَ قَـوْلُه: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً﴾ فإنَّ المَرِيضَ لا يُشْتَرَطُ لِجَوَازِ تَيمُّمِهِ فُقْدانُ الماءِ، بلْ يَتيمَّمُ وإنْ كَانَ عَلَى حَوْضِ الماءِ؛ لِأَنَّهُ مَرِيضٌ، لكنْ قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً﴾ هَذَا فِي السَّفَرِ، وأَمَّا المَرِيضُ فيَجُوزُ أَنْ يَتيمَّمَ سَواءً وَجَدَ الماءَ أَمْ لَمْ يَجِدْ.

ومِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ [النساء:١٠١] مَعَ أَنَّ الخَوْفَ لَيْسَ بشَرْطٍ لصِحَّةِ القَصْرِ ومَشْرُوعِيَّتِهِ بالاتِّفاقِ، ولـمَّا أُورِدَ هَذَا عَلَى النَّبيِّ ﷺ قَالَ فِي جَوابِهِ: «**صَدَقَةٌ تَصَدَّقَ اللهُ بِهَا عَلَيْكُمْ، فَاقْبَلُوا صَدَقَتَهُ**»[1] يعْنِي: وصَدَقَةُ اللهِ وإحْسانُهُ فِي كُلِّ زَمَانٍ ومَكَانٍ، لَا تُقَيَّدُ بخَوْفٍ ولَا غَيْرِهِ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة المسافرين وقصرها، رقم (٦٨٦)، من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

ومِنَ العُلَماءِ مَنْ قَالَ: إنَّ هَذَا القَيْدَ مِنَ القِسْمِ الأوَّلِ، وأنَّ القَصْرَ التَّامَّ -وهُوَ قَصْرُ العَدَدِ، وقَصْرُ الأرْكانِ والهَيْئَاتِ- شَرْطُهُ اجْتِماعُ السَّفَرِ والخَوْفِ كَما فِي الآيَةِ، فإنْ وُجِدَ الخَوْفُ وحْدَهُ لَمْ يُقْصَرْ عَدَدُ الصَّلاةِ، وإنَّما تُقْصَرُ هَيْئَاتُها وصِفَاتُها، وإنْ وُجِدَ السَّفَرُ وحْدَهُ لَمْ تُقْصَرْ هَيْئَاتُها وشُرُوطُها وإنَّما يُقْصَرُ عَدَدُها، ولا يُنافِي هَذَا كَلامَ النَّبِيِّ ﷺ فإنَّهُمْ إنَّما سَأَلُوهُ عَنْ قَصْرِ العَدَدِ، فَأَجَابَهُمْ بأنَّ الرُّخْصَةَ فِيهِ عامَّةٌ فِي كُلِّ الأحْوَالِ. وهَذَا تَقْرِيرٌ مَلِيحٌ مُوَافِقٌ للآيَةِ، غَيْرُ مُخالِفٍ لِحَدِيثِ الرَّسُولِ، فيَتَعَيَّنُ الأخْذُ بهِ.

التعليق

ومِنَ الأمْثِلَةِ أيضًا قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗ ﴾ [آل عمران:١٣٠] فإنَّ قَوْلَهُ: ﴿أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗ﴾ لَيْسَ قَيْدًا، ولكنَّهُ بَيانٌ لِأَشْنَعِ الحالاتِ فِي الرِّبَا، وَهِيَ أنْ يَأْكُلَهُ الإنْسَانُ أضْعَافًا مُضاعَفَةً، كَما يَفْعَلُ أهْلُ الجاهِلِيَّةِ إِذَا حَلَّ الدَّيْنُ، قَالَ: إمَّا أنْ تُوفِيَ، وإمَّا أنْ تُرْبِيَ؛ فَإِنْ أَوْفَاهُ فَقَدِ اسْتَوْفَى حَقَّهُ، وإنْ لَمْ يُوفِ قَالَ للَّذِي عَلَيْهِ مِئَةٌ فقطِ: الَّذِي عَلَيْكَ مِئَةٌ وعِشْرُونَ. فَإِذَا جَاءَ الأجَلُ الثَّانِي ولَمْ يُوفِ، قَالَ: يَجِبُ أنْ نَجْعَلَ المِئَةَ وعِشْرِينَ مِئَةً وأرْبَعِينَ، أَوْ مِئَةً وخَمْسِينَ، وهَذَا أَشْنَعُ مَا يَكُونُ.

لَا يُقالُ: إنَّ قَوْلَهُ: ﴿لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗ﴾ يَدُلُّ عَلَى جَوازِ الرِّبَا مَرَّةً واحِدَةً، وإنْ كَانَ بَعْضُ النَّاسِ قَدْ قَالَ بهِ، لكنَّهُ أَخْطَأَ؛ لأنَّنا نَقُولُ: إذَا كُنْتَ تُرِيدُ ذلكَ، فلماذَا تَمْنَعُ الزِّيادَةَ ثَانِيَةً مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَأْكُلْهُ أضْعَافًا مُضاعَفَةً، وإنَّما أَكَلَهُ ضِعْفًا واحِدًا؟

مثلًا: أعْطَيْتُكَ مِئَةَ دِرْهَم بِمِئَةٍ وعِشْرِينَ إِلَى سَنَةٍ، قَالَ بَعْضُ الناسِ: إنَّ هَذَا جائِزٌ؛ لِأَنَّ اللهَ قَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾ فالعَقْدُ الأوَّلُ الَّذِي فِيهِ الرِّبَا لَيْسَ حَرَامًا. وبِناءً عَلَى قَوْلِهِ فإِنَّ مُعامَلَةَ البُنُوكِ تُعْتبَرُ غَيْرَ رِبَوِيَّةٍ إِلَّا إِذَا كَرَّرُوا الزِّيادَةَ. قَالَ: فَإِنْ قَالَ عِنْدَ رَأْسِ الحَوْلِ أَوْ عِنْدَ تمَامِ الأجَلِ: زِدْتُكَ، صَارَ رِبًا.

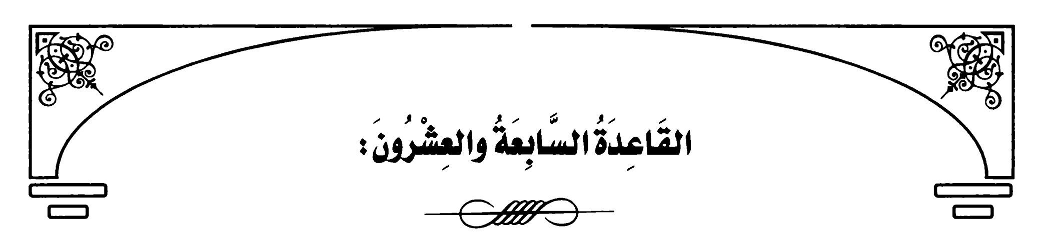
فنَقُولُ لهُ: إِنَّكَ لَمْ تَأْخُذْ بالآيَةِ؛ لِأَنَّ اللهَ يَقُول: ﴿أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾ وأنْتَ الآنَ قُلْتَ: إنَّ أوَّلَ ضِعْفٍ يَكُونُ حَرَامًا، فإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ أنْ تَأْخُذَ بالآيَةِ، فقُلْ: إنَّ أوَّلَ ضِعْفٍ لَيْسَ بحَرَامٍ أيْضًا، وإِلَّا فَقَدْ خَالَفْتَ قَاعِدَتَكَ. لكنِ الأمْرُ كَمَا قُلْنَا: إنَّ هَذَا القَيْدَ لِبيَانِ أشْنَعِ الأحْوَالِ أَوْ أشْنَعِ المُعامَلاتِ الَّتِي يَكُونُ فِيهَا الرِّبَا.

ومِنْ هَذَا قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ [النور:٣٣] هلِ المُرادُ: فإنِ امْتَنَعْنَ عَنِ البغاءِ لغَيْرِ التَّحصُّنِ فأكْرِهُوهُنَّ؟ لا، لَيْسَ الحُكْمُ كذلكَ، وإنْ كَانَ ظاهِرَ الآيَةِ هُوَ هَذَا. لكنْ نَقُولُ: إنَّ الآيَةَ ذَكَرَتْ أَشْنَعَ مَا يَكُونُ؛ لِأَنَّ إكْرَاهَ الإنْسَانِ أَمَتَهُ عَلَى البغَاءِ وَهِيَ تُرِيدُ التَّحصُّنَ هُوَ أشْنَعُ مَا يَكُونُ؛ لِأَنَّهَا صارَتْ أَطْهَرَ مِنْهُ وأنْقَى مِنْهُ ثَوْبًا. فالحاصِلُ أنَّ مِثْلَ هَذِهِ الآياتِ أَوْ هَذِهِ القُيُودِ يَنْبَغِي التَّفطُّنُ لَهَا.

وخُلاصَةُ هَذِهِ القَاعِدَةِ: أنَّ الأصْلَ فِي القُيُودِ والشُّرُوطِ أَنَّهَا مُعْتبَرَةٌ، وأنَّ الحُكْمَ فِي مَفْهُومِ المُخالَفَةِ ثابتٌ، إِلَّا فِي مَسائِلَ قَلِيلَةٍ دَلَّ الدَّلِيلُ عَلَى أنَّ هَذَا القَيْدَ أَوِ الشَّرْطَ لَيْسَ مَفْهُومُ المُخالَفَةِ فِيهِ مُخالِفًا لِحُكْمِ المَنْطُوقِ، وإنَّمَا ذُكِرَتْ هَذِهِ القُيُودُ: إمَّا لِبيَانِ الوَاقِعِ، وإمَّا لِبيَانِ الغالِبِ، وإمَّا لِذِكْرِ الحالِ الَّتِي هِيَ أعْلَى مَا يَكُونُ فِي الشَّنَاعَةِ، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

ثُمَّ هَلْ يَصِحُّ أنْ نُعَبِّرَ ونَقُولَ: هِيَ غَيْرُ مُرادَةٍ؟ يَقُولُ شَيْخُنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ رَحِمَهُ اللَّهُ: لَا، إنَّ هَذَا غَلَطٌ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعالَى لَا يَذْكُرُ فِي كَلامِهِ شَيْئًا إلَّا كَانَ مُرادًا، لكنْ لَيْسَ المُرَادُ بِهِ إثْباتَ نَقِيضِ الحُكْمِ فِي المُخالِفِ، وإنَّما يُرادُ بِهِ مَسائِلُ، أَوِ التَّنْبِيهُ عَلَى حالاتٍ تَتبَيَّنُ بالتَّأَمُّلِ، ولَا نَقُولُ: مُخَالَفَةٌ، بَلْ نَقُولُ: إنَّ المُخالَفَةَ فِي هَذَا الحُكْمِ لَا تُخالِفُ المَنْطُوقَ.





القَاعِدَةُ السَّابِعَةُ والعِشْرُونَ:

المُحْتَرَزَاتُ فِي القُرْآنِ تَقَعُ فِي كُلِّ المَوَاضِعِ فِي أَشَدِّ الحَاجَةِ إِلَيْهَا

وهذِهِ القَاعِدَةُ جَلِيلَةُ النَّفْعِ، عَظِيمَةُ الوَقْعِ؛ وذلكَ أنَّ كُلَّ مَوْضِعٍ يَسُوقُ اللهُ فِيهِ حُكْمًا مِنَ الأحْكَامِ، أَوْ خَبرًا مِنَ الأخْبَارِ، فيَتَشَوَّفُ الذِّهْنُ فِيهِ إِلَى شَيْءٍ آخَرَ إِلَّا وَجَدْتَ اللهَ قَدْ قَرَنَ بِهِ ذَلِكَ الأَمْرَ الَّذِي يَعْلَقُ فِي الأذْهانِ، فيُبَيِّنُهُ أَحْسَنَ بيانٍ، وهَذَا أَعْلَى أَنْوَاعِ التَّعْلِيمِ الَّذِي لَا يُبْقِي إِشْكَالًا إِلَّا أَزَالَهُ، ولَا احْتِمالًا إِلَّا وضَّحَهُ، وهَذَا يَدُلُّ عَلَى سَعَةِ عِلْمِ اللهِ وحِكْمَتِهِ، وذلكَ فِي القُرْآنِ كَثِيرٌ جِدًّا.

ولْنَذْكُرْ بَعْضَ أَمْثِلَةٍ تُوَضِّحُ هَذِهِ القَاعِدَةِ، وتُحَسِّنُ للدَّاخِلِ الدُّخُولَ إِلَيْهَا:

فمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ [النمل:٩١] لَمَّا خَصَّهَا بالذِّكْرِ رُبَّمَا وَقَعَ فِي بَعْضِ الأذْهانِ تَخْصِيصُ رُبُوبِيَّتِهِ بِهَا، أَزَالَ هَذَا الوَهْمَ بقَوْلِهِ: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَىۡءٍ﴾ [النمل:٩١].

ومِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرۡيَةٍ مِّمَّا يَعۡبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [هود:١٠٩] لَمَّا كَانَ قَدْ يَقَعُ فِي الذِّهْنِ أَنَّهُمْ عَلَى حُجَّةٍ وبُرْهَانٍ، فَأَبانَ بقَوْلِهِ: ﴿مَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبۡلُ﴾ [هود:١٠٩] أَنَّهُمْ ضُلَّالٌ اقْتَدَوْا بِمِثْلِهِمْ، ثُمَّ لَمَّا كَانَ قَدْ يَتَوَهَّمُ المُتَوَهِّمُ أَنَّهُمْ فِي طُمَأْنِينَةٍ مِنْ قَوْلِهِمْ، وعَلَى يَقِينٍ مِنْ مَذْهَبِهِمْ، ولرُبَّمَا تَوَهَّمَ أيضًا أَنَّ الأَلْيَقَ أَنْ لَا تُبْسَطَ لَهُمُ الدُّنْيَا -احْتَرَزَ مِنْ ذَلِكَ بقَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ غَيۡرَ مَنقُوصٍ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَفِى شَكٍّ مِّنۡهُ مُرِيبٍ﴾ [هود:١٠٩-١١٠].

ولمَّا قَالَ تَعالَى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء:٩٥] رُبَّما يَظُنُّ الظَّانُّ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَوُونَ مَعَ المُجاهِدِينَ ولَوْ كَانُوا مَعْذُورِينَ، أَزَالَ هَذَا الوَهْمَ بقَوْلِهِ: ﴿غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ﴾ [النساء:٩٥].

التعليق

ورَدَ فِي نُسْخَةٍ للكِتَابِ قَوْلُ المُؤَلِّفِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «رُبَّما يَظُنُّ الظَّانُّ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَوُونَ مَعَ القاعِدِينَ» والصَّوَابُ: مَعَ المُجاهِدِينَ بَدَلَ مَعَ القاعِدِينَ.

وكَذَٰلِكَ لَمَّا قَالَ تَعالَى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ﴾ [الحديد:١٠] رُبَّما تَوَهَّمَ أَحَدٌ أَنَّ المَفْضُولِينَ لَيْسَ لَهُمْ عِنْدَ اللهِ مَقامٌ ولَا مَرْتَبَةٌ، فأَزَالَ هَذَا الوَهْمَ بقَوْلِهِ: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد:١٠] ثُمَّ لَمَّا كَانَ رُبَّما يُتَوَهَّمُ أَنَّ هَذَا الأَجْرَ يُسْتَحَقُّ بمُجَرَّدِ العَمَلِ المَذْكُورِ، ولَوْ خَلَا مِنَ الإِخْلاصِ -أَزَالَ هَذَا الوَهْمَ بقَوْلِهِ: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد:١٠].

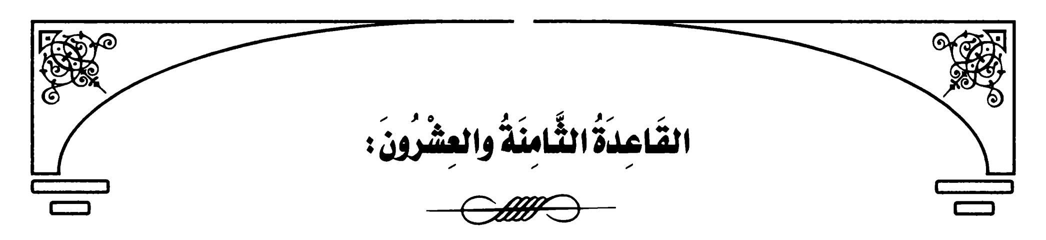
ومِنْهَا قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل:٤٨] رُبَّما وَقَعَ فِي الذِّهْنِ أَنَّهُمْ يُفْسِدُونَ وقَدْ يُصْلِحُونَ -أَزَالَ هَذَا بقَوْلِهِ: ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [النمل:٤٨] أي: لَا خَيْرَ فِيهِمْ أَصْلًا، مَعَ شَرِّهِمُ العَظِيمِ.

ومِنْهَا: أَنَّهُ قَالَ فِي عِدَّةِ مَوَاضِعَ: ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ [النمل:٨٠، والروم:٥٢] رُبَّما يَتَوَهَّمُ أَحَدٌ أَنَّهُمْ وإِنْ لَمْ يَسْمَعُوا، فإِنَّهُمْ يَفْهَمُونَ الإِشَارَةَ -أزالَ هَذَا الاحْتِمَالَ بقَوْلِهِ: ﴿إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾ [النمل:٨٠] فهذِهِ حالَةٌ لَا تَقْبَلُ سَماعًا ولَا رُؤْيَةً لِتَحْصُلَ الإِشَارَةُ، وهَذَا نِهايَةُ الإِعْرَاضِ.

ومِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص:٥٦] رُبَّمَا تَوَهَّمَ أَحَدٌ أَنَّ هِدَايَتَهُ تَقَعُ جُزَافًا مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ، أَزَالَ هَذَا بِقَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص:٥٦] أَيْ: بِمَنْ يَصْلُحُ للهِدَايَةِ لِزَكَائِهِ وخَيْرِهِ، مِمَّنْ لَيْسَ كذلكَ، فأبانَ أَنَّ هِدَايَتَهُ تابِعَةٌ لِحِكْمَتِهِ الَّتِي هِيَ وضْعُ الأَشْيَاءِ مَوَاضِعَهَا.

ومَنْ كَانَ حَسَنَ الفَهْمِ رَأَى مِنْ هَذَا النَّوْعِ شَيْئًا كثيرًا.





القَاعِدَةُ الثَّامِنَةُ والعِشْرُونَ:

فِي ذِكْرِ الأَوْصَافِ الجَامِعَةِ الَّتِي وَصَفَ اللهُ بِهَا المُؤْمِنَ

لَمَّا كَانَ الإيمانُ أَصْلَ الخَيْرِ كُلِّهِ والفَلاحِ، وبِفَقْدِهِ يُفْقَدُ كُلُّ خَيْرٍ دِينِيٍّ ودُنْيَوِيٍّ وأُخْرَوِيٍّ، أَكْثَرَ اللهُ مِنْ ذِكْرِهِ فِي القُرْآنِ جِدًّا: أَمْرًا بِهِ، ونَهْيًا عَنْ ضِدِّهِ، وتَرْغِيبًا فِيهِ، وبَيَانَ أَوْصَافِ أَهْلِهِ، ومَا لَهُمْ مِنَ الجَزَاءِ الدُّنْيَوِيِّ والأُخْرَوِيِّ. فأَمَّا إِذَا كَانَ المَقَامُ مَقَامَ خِطَابٍ للمُؤْمِنِينَ بالأَمْرِ والنَّهْيِ، أَوْ مَقَامَ إِثْبَاتِ الأَحْكَامِ الدُّنْيَوِيَّةِ بوَصْفِ الإيمانِ، فإِنَّهَا تَتَنَاوَلُ كُلَّ مُؤْمِنٍ، سَوَاءً كَانَ مُتَمِّمًا لِوَاجِبَاتِ الإيمانِ وأَحْكَامِهِ، أَوْ ناقصًا فِي شَيْءٍ مِنْهَا. وأَمَّا إِذَا كَانَ المَقَامُ مَقَامَ مَدْحٍ وثَنَاءٍ، وبيَانِ الجَزَاءِ الكامِلِ للمُؤْمِنِ، فإِنَّما المُرَادُ بِذَلِكَ المُؤْمِنُ حقًّا، الجامِعُ لِمَعَانِي الإيمانِ، وهَذَا هُوَ المُرَادُ بَيانُهُ هُنَا،...

التعليق

هذِهِ القَاعِدَةُ مُفِيدَةٌ، وَهِيَ أَنَّ الخِطابَ بالإيمانِ يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: خِطابٌ يُرادُ بِهِ الإيمانُ الكامِلُ، وخِطابٌ يُرادُ بِهِ مُطْلَقُ الإيمانِ؛ فالأَمْرُ والنَّهْيُ والأَحْكَامُ المُعَلَّقَةُ بالإيمانِ تَشْمَلُ المُؤْمِنَ الكامِلَ وغَيْرَ الكامِلِ، كُلُّ مُؤْمِنٍ -وإِنْ كَانَ فاسِقًا- يُؤْمَرُ بالصَّلاةِ، ويُؤْمَرُ بالخَيْرِ، ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

وأَمَّا إِذَا كَانَ السِّياقُ سِيَاقَ مَدْحٍ وثَنَاءٍ، فالمُرَادُ بِهِ الإيمانُ الكامِلُ، فَلا يَدْخُلُ فِيهِ فاسِقٌ، فمَثَلًا: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ

﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:١٩] المُرَادُ بِذَلِكَ أَهْلُ الإيمانِ الكامِلِ. وقَوْلُهُ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال:٢] المُرَادُ: أَهْلُ الإيمانِ الكامِلِ، وهَكَذَا.

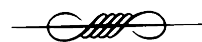
... فنَقُولُ: وَصَفَ اللهُ المُؤْمِنَ فِي كِتابِهِ باعْتِرَافِهِ وتَصْدِيقِهِ بجَمِيعِ عَقَائِدِ الدِّينِ، وبإِرَادَةِ مَا يُحِبُّهُ اللهُ ويَرْضَاهُ، وبالعَمَلِ بِمَا يُحِبُّهُ اللهُ ويَرْضاهُ، وبتَرْكِ جَمِيعِ المَعَاصِي، وبالمُبَادَرَةِ بالتَّوْبَةِ مِمَّا صَدَرَ مِنْهُ مِنْهَا، وبأَنَّ إيمانَهُمْ أَثَّرَ فِي أَخْلاقِهِمْ، وأَقْوالِهِمْ، وأَفْعَالِهِمُ الآثَارَ الطَّيِّبَةَ، فَوَصَفَ المُؤْمِنِينَ بالإيمانِ بالأُصُولِ الجامِعَةِ، وَهُوَ الإيمانُ باللهِ، ومَلائِكَتِهِ، وكُتُبِهِ، ورُسُلِهِ، واليَوْمِ الآخِرِ، والقَدَرِ خَيْرِهِ وشَرِّهِ، وأَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بكُلِّ مَا أُوتِيَهُ الرُّسُلُ كُلُّهُمْ، ويُؤْمِنُونَ بالغَيْبِ، ووصَفَهُمْ بالسَّمْعِ والطَّاعَةِ، والانْقِيادِ ظاهِرًا وباطِنًا، ووصَفَهُمْ بأَنَّهُمْ ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال:٢-٤] ووَصَفَهُمْ بأَنَّ جُلُودَهُمْ تَقْشَعِرُّ، وعُيُونَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ، وقُلُوبَهُمْ تَلِينُ وتَطْمَئِنُّ لآياتِ اللهِ وذِكْرِهِ، وبأَنَّهُمْ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ فِي الغَيْبِ والشَّهادَةِ، وأَنَّهُمْ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ، ووصَفَهُمْ بالخُشُوعِ فِي أَحْوالِهِمْ عُمُومًا، وفِي الصَّلاةِ خُصُوصًا، وأَنَّهُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ، ولِلزَّكاةِ فاعِلُونَ، ولِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ، إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ، وأَنَّهُمْ بشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ، ولأَمَانَاتِهِمْ وعَهْدِهِمْ مُرَاعُونَ، ووَصَفَهُمْ باليَقِينِ الكامِلِ الَّذِي لَا رَيْبَ فِيهِ، وبالجِهَادِ بأَمْوَالِهِمْ وأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ، ووصَفَهُمْ بالإِخْلاصِ لِرَبِّهِمْ فِي كُلِّ

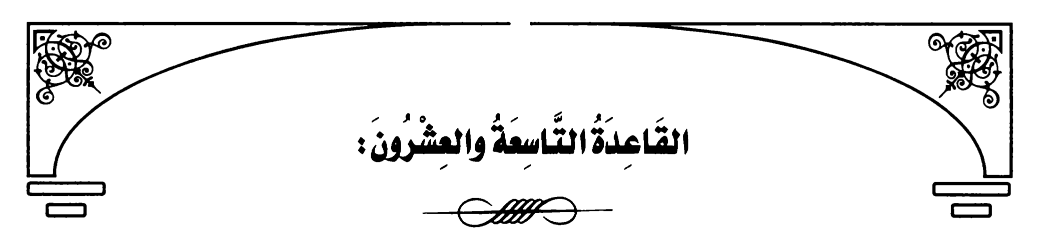
مَا يَأْتُونَ ويَذَرُونَ، ووصَفَهُمْ بمَحَبَّةِ المُؤْمِنِينَ، والدُّعَاءِ لإخْوَانِهِمْ مِنَ المُؤْمِنِينَ السَّابِقِينَ واللَّاحِقِينَ، وأَنَّهُمْ مُجْتَهِدُونَ فِي إِزالَةِ الغِلِّ مِنْ قُلُوبِهِمْ عَلَى المُؤْمِنِينَ، وبأَنَّهُمْ يَتَوَلَّوْنَ اللهَ ورَسُولَهُ وعِبادَهُ المُؤْمِنِينَ، ويَتَبَرَّؤُونَ مِنْ مُوَالاةِ جَمِيعِ أَعْدَاءِ الدِّينِ، وبأَنَّهُمْ يَأْمُرُونَ بالمَعْرُوفِ، ويَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ، ويُطِيعُونَ اللهَ ورَسُولَهُ فِي كُلِّ أَحْوَالِهِمْ -فجَمَعَ اللهُ لَهُمْ بَيْنَ العقائِدِ الحَقَّةِ، واليَقِينِ الكَامِلِ، والإنابَةِ التَّامَّةِ الَّتِي آثارُهَا الانْقِيَادُ لِفِعْلِ المأموراتِ، وتَرْكِ المَنْهِيَّاتِ، والوُقُوفُ عَلَى الحُدُودِ الشَّرْعِيَّاتِ.

فهذِهِ الأَوْصَافُ الجَلِيلَةُ، وَهِيَ وَصْفُ المُؤْمِنِ المُطْلَقِ الَّذِي سَلِمَ مِنَ العِقَابِ، واسْتَحَقَّ الثَّوَابَ، ونالَ كُلَّ خَيْرٍ رُتِّبَ عَلَى الإيمانِ، فإِنَّ اللهَ رَتَّبَ عَلَى الإيمانِ فِي كِتابِهِ مِنَ الفَوَائِدِ والثَّمَرَاتِ مَا لَا يَقِلُّ عَنْ مِئَةِ فائِدَةٍ، كُلُّ واحِدَةٍ مِنْهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا ومَا فِيهَا، رَتَّبَ عَلَى الإيمانِ نَيْلَ رِضَاهُ، الَّذِي هُوَ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ شيءٍ، ورَتَّبَ عَلَيْهِ دُخُولَ الجَنَّةِ، والنَّجاةَ مِنَ النَّارِ، والسَّلامَةَ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ، ومِنْ صُعُوباتِ القِيَامَةِ وتَعَسُّرِ أَحْوَالِهَا، والبُشْرَى الكامِلَةَ فِي الحياةِ الدُّنْيَا، وفِي الآخِرَةِ، والثَّباتَ فِي الدُّنْيَا عَلَى الإيمانِ والطاعاتِ، وعِنْدَ المَوْتِ وفِي القَبْرِ عَلَى الإيمانِ والتَّوْحِيدِ، والجَوَابِ النَّافِعِ السَّدِيدِ، ورتَّبَ عَلَيْهِ الحياةَ الطَّيِّبَةَ فِي الدُّنْيَا، والرِّزْقَ، والحَسَنَةَ، وتَيْسِيرَ العَبْدَ لليُسْرَى، وتَجْنِيبَهُ للعُسْرَى، وطُمَأْنِينَةَ القُلُوبِ، ورَاحَةَ النُّفُوسِ، والقَنَاعَةَ التَّامَّةَ، وصَلاحَ الأَحْوَالِ، وصَلاحَ الذُّرِّيَّةِ، وجَعْلَهُمْ قُرَّةَ عَيْنٍ للمُؤْمِنِ، والصَّبْرَ عِنْدَ المِحَنِ والمَصَائِبِ، وحَمْلَ اللهِ عَنْهُمُ الأَثْقالَ، ومُدَافَعَةَ اللهِ عَنْهُمْ جَمِيعَ الشُّرُورِ، والنَّصْرَ عَلَى الأَعْدَاءِ، ورَفْعَ المُؤَاخَذَةِ عَلَى النَّاسِي والجاهِلِ والمُخْطِئِ مِنْهُمْ، وأَنَّ اللهَ لَمْ يَضَعْ عَلَيْهِمُ الآصارَ، بَلْ أَزَالَهَا، ولَمْ يُحَمِّلْهُمْ مَا لَا طاقَةَ لَهُمْ فِيهِ، ومَغْفِرَةَ الذُّنُوبِ بإيمانِهِمْ، والتَّوْفِيقَ للتَّوْبَةِ.

فالإيمانُ أَكْبَرُ وسِيلَةٍ للقُرْبِ مِنَ اللهِ، والقُرْبِ مِنْ رَحْمَتِهِ، ونَيْلِ ثَوَابِهِ، وأكْبَرُ وَسِيلَةٍ لِمَغْفِرَةِ الذُّنُوبِ، وإِزَالَةِ الشَّدَائِدِ أَوْ تَخْفِيفِهَا.

وثَمَرَاتُ الإيمانِ عَلَى وجْهِ التَّفْصِيلِ كَثِيرَةٌ، وبالجُمْلَةِ خَيْرَاتُ الدُّنْيَا والآخِرَةِ مُرَتَّبَةٌ عَلَى الإيمانِ، كَمَا أَنَّ الشُّرُورَ مُرَتَّبَةٌ عَلَى فَقْدِهِ. واللهُ أَعْلَمُ.





القَاعِدَةُ التَّاسِعَةُ والعِشْرُونَ:

فِي الفَوَائِدِ الَّتِي يَجْتَنِيهَا العَبْدُ فِي مَعْرِفَتِهِ وفَهْمِهِ لِأَجْنَاسِ عُلُومِ القُرْآنِ

وهذِهِ القَاعِدَةُ تَكَادُ أَنْ تَكُونَ هِيَ المَقْصُودَ الأَعْظَمَ فِي عِلْمِ التَّفْسِيرِ؛ وذلكَ أَنَّ القُرْآنَ مُشْتَمِلٌ عَلَى عُلُومٍ مُتَنَوِّعَةٍ، وأَصْنَافٍ جَلِيلَةٍ مِنَ العُلُومِ، فعَلَى العَبْدِ أَنْ يَعْرِفَ المَقْصُودَ مِنْ كُلِّ نَوْعٍ مِنْهَا، ويَعْمَلَ عَلَى هذَا، ويَتَّبِعَ الآياتِ الوَارِدَةَ فِيهِ، فيُحَصِّلَ المُرَادَ مِنهَا عِلْمًا، وتَصْدِيقًا، وحَالًا، وعَمَلًا.

فأَجَلُّ عُلُومِ القُرْآنِ عَلَى الإطْلاقِ: عِلْمُ التَّوْحِيدِ، ومَا للهِ مِنْ صِفاتِ الكَمالِ، فَإِذَا مَرَّتْ عَلَيْهِ الآياتُ فِي تَوْحِيدِ اللهِ وأَسْمائِهِ وصِفَاتِهِ أَقْبَلَ عَلَيْهَا، فَإِذَا فَهِمَهَا وفَهِمَ المُرَادَ بِهَا أَثْبَتَهَا للهِ عَلَى وجْهٍ لَا يُماثِلُهُ فِيهِ أَحَدٌ، وعَرَفَ أَنَّهُ كَما لَيْسَ للهِ مَثِيلٌ فِي ذاتِهِ، فَلَيْسَ لَهُ مَثِيلٌ فِي صِفاتِهِ، وامْتَلَأَ قَلْبُهُ مِنْ مَعْرِفَةِ رَبِّهِ وحُبِّهِ بحَسَبِ عِلْمِهِ بكَمالِ اللهِ وعَظَمَتِهِ؛ فإِنَّ القُلُوبَ مَجْبُولَةٌ عَلَى مَحَبَّةِ الكَمالِ، فكَيْفَ بمَنْ لَهُ كُلُّ الكَمالِ، ومِنْهُ جَمِيعُ النِّعَمِ الجِزَالِ، ويَعْرِفُ أَنَّ أَصْلَ الأُصُولِ هُوَ الإيمانُ باللهِ، وأَنَّ هَذَا الأَصْلَ يَقْوَى ويَكْمُلُ بحَسَبِ مَعْرِفَةِ العَبْدِ برَبِّهِ، وفَهْمِهِ لِمَعانِي صِفَاتِهِ ونُعُوتِهِ، وامْتلاءِ القَلْبِ مِنْ مَعْرِفَتِهَا ومَحَبَّتِهَا، وأَيضًا يَعْرِفُ أَنَّهُ بتَكْمِيلِهِ هَذَا العِلْمَ تَكْمُلُ عُلُومُهُ وأَعْمالُهُ؛ فإِنَّ هَذَا هُوَ أَصْلُ العِلْمِ، وأَصْلُ التَّعَبُّدِ.

التعليق

هذَا أَعْلَى أَنْوَاعِ العُلُومِ، العِلْمُ بِاللهِ وبأَسْمائِهِ وصِفَاتِهِ، وبِمَا لَهُ مِنْ صِفاتِ الكَمالِ

والجَلالِ والإِحْسَانِ؛ لِأَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ تَدُورُ صِفَاتُهُ عَلَى الكَمالِ المُطْلَقِ والجَلالِ والعَظَمَةِ والإِحْسَانِ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ صِفاتُ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ، ومَا جُبِلُوا عَلَيْهِ مِنْ مَكارِمِ الأَخْلَاقِ، ومَحَاسِنِ الأَعْمالِ، وَهُوَ النَّوْعُ الثَّانِي.

ومِنْ **عُلُومِ القُرْآنِ**: صِفاتُ الرُّسُلِ، وأَحْوَالُهُمْ، ومَا جَرَى لَهُمْ وعَلَيْهِمْ مَعَ مَنْ وافَقَهُمْ وخَالَفَهُمْ، ومَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الأَوْصَافِ الرَّاقِيَةِ، فَإِذَا مَرَّتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الآياتُ عَرَفَ بِهَا أَوْصافَهُمْ، وازْدَادَتْ مَعْرِفَتُهُ بِهِمْ ومَحَبَّتُهُمْ، وعَرَفَ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الأَخْلَاقِ والأَعْمالِ، خُصُوصًا إِمَامَهُمْ وسَيِّدَهُمْ مُحَمَّدًا ﷺ فيَقْتَدِي بأَخْلاقِهِمْ وأَعْمالِهِمْ بحَسَبِ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ، ويَفْهَمُ أَنَّ الإِيمانَ بِهِمْ تَمامُهُ وكَمالُهُ مَعْرِفَتُهُ التَّامَّةُ بأَحْوَالِهِمْ، ومَحَبَّتُهُمْ، واتِّبَاعُهُمْ، وفِي القُرْآنِ مِنْ نُعُوتِهِمُ الشَّيْءُ الكَثِيرُ الَّذِي يَحْصُلُ بِهِ تَمامُ الكِفايَةِ، ويَسْتَفِيدُ أيضًا الاقْتِدَاءَ بتَعْلِيماتِهِمُ العالِيَةِ، وإِرْشَادَاتِهِمْ للخَلْقِ، وحُسْنِ خِطابِهِمْ، ولُطْفِ جَوابِهِمْ، وتَمامِ صَبْرِهِمْ، فَلَيْسَ القَصْدُ مِنْ قَصَصِهِمْ أَنْ تَكُونَ سَمَرًا، وإِنَّمَا القَصْدُ أَنْ تَكُونَ عِبَرًا.

التعليق

قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف:١١١] والعِبْرَةُ فِي قَصَصِ الرُّسُلِ مِنْ وَجْهَيْنِ:

الوَجْهُ الأَوَّلُ: مِنْ جِهَةِ أَخْلاقِهِمْ وصَبْرِهِمْ ومُعانَاتِهِمْ لأَحْوَالِ الخَلْقِ، وكَيْفَ يَدْعُونَ النَّاسَ ويَتَحَمَّلُونَ فِي الدَّعْوَةِ مَا لَا يَتَحَمَّلُهُ إِلَّا مَنْ كَانَ مِثْلَهُمْ.

والوَجْهُ الثَّانِي: العِبْرَةُ بِمَا جَرَى مِنْ أَقْوَامِهِمْ، وأَنَّهُمْ لَمْ يَتَقَبَّلُوا دَعْوَتَهُمْ لأَوَّلِ

وهْلَةٍ، بَلْ نَابَذُوهُمْ، وعَانَدُوهُمْ، بَلْ وقَاتَلُوهُمْ. فهَذَا نُوحٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أوَّلُ رَسُولٍ أَرْسَلَهُ اللهُ عَلَى الأرْضِ، لَبِثَ فِي قَوْمِهِ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عامًا، وقَدْ قَالَ اللهُ عنْهُ: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا﴾ [نوح:٧].

فالحاصِلُ أنْ نَعْتَبِرَ مِنْ وجْهَيْنِ: مِنْ جِهَةِ حالِ الرُّسُلِ، ومِنْ جِهَةِ حالِ المُرْسَلِ إِلَيْهِمْ. فَإِذَا دَعَوْنَا النَّاسَ لِيُؤْمِنُوا فإنَّنَا لا نُرِيدُ مِنْهُمْ أنْ يَقْبَلُوا مِنَّا مِنْ أوَّلِ لَحْظَةٍ، بَلْ لا بُدَّ أنْ نُعانِيَ مِنْهُمْ حَتَّى يَقْبَلُوا الحَقَّ، ولَا نَيْأَسَ أَوْ نَسْتَحْسِرَ، أَوْ نَقُولَ: هَؤُلاءِ لَمْ يَهْتَدُوا؛ ولهَذَا لَمَّا قالتِ الطَّائِفَةُ الثالِثَةُ مِنْ أهْلِ القَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ حَاضِرَةَ البَحْرِ: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف:١٦٤].

ومِنْ عُلُومِ القُرْآنِ: عِلْمُ أَهْلِ السَّعادَةِ والخَيْرِ، وأَهْلِ الشَّقَاوَةِ والشَّرِّ، وفِي مَعْرِفَتِهِ لَهُمْ ولأَوْصَافِهِمْ ونُعُوتِهِمْ فَوَائِدُ: التَّرْغِيبُ فِي الاقْتِدَاءِ بالأخْيارِ، والتَّرْهِيبُ مِنْ أحْوَالِ الأشْرَارِ، والفُرْقَانُ بَيْنَ هَؤُلاءِ وهَؤُلاءِ، وبَيانُ الصِّفاتِ والطُّرُقِ الَّتِي وَصَلَ بِهَا هَؤُلاءِ إِلَى دَارِ النَّعِيمِ، وأُولَئِكَ إِلَى دَارِ الجَحِيمِ، ومَحَبَّةُ هَؤُلاءِ الأتْقِيَاءِ مِنَ الإيمانِ، كَمَا أنَّ بُغْضَ أُولَئِكَ مِنَ الإيمانِ، وكُلَّما كَانَ العَبْدُ أعْرَفَ لِأَحْوالِهِمْ تَمَكَّنَ مِنْ هَذِهِ المَقَاصِدِ.

ومِنْ عُلُومِ القُرْآنِ: عِلْمُ الجَزَاءِ فِي الدُّنْيَا، والبَرْزَخِ، والآخِرَةِ، عَلَى أعْمالِ الخَيْرِ، وأعْمالِ الشَّرِّ، وفِي ذَلِكَ مَقَاصِدُ جَلِيلَةٌ: الإيمانُ بكَمالِ عَدْلِ اللهِ، وسَعَةِ فَضْلِهِ،

والإيمانُ باليَوْمِ الآخِرِ؛ فإنَّ تَمامَ الإيمانِ بِذَلِكَ يَتوَقَّفُ عَلَى مَعْرِفَةِ مَا يَكُونُ فِيهِ، والتَّرْغِيبُ والتَّرْهِيبُ بالرَّغْبَةِ فِي الأَعْمَالِ الَّتِي رَتَّبَ اللهُ عَلَيْهَا الجَزَاءَ الجَزِيلَ، والرَّهْبَةِ مِنْ ضِدِّهَا.

ومِنْ عُلُومِ القُرْآنِ: الأمْرُ والنَّهْـيُ، وفِي ذَلِكَ مَقاصِـدُ جَلِيلَةٌ: مَعْرِفَةُ حُدُودِ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ، فإنَّ المُكَلَّفِينَ مُكَلَّفُونَ بمَعْرِفَةِ مَا أُمِرُوا بِهِ، ومَا نُهُوا عنْهُ، وبالعَمَلِ بذلكَ، والعِلْمُ سابِقٌ للعَمَلِ، وطَرِيقُ ذلكَ: إِذَا مَرَّ عَلَيْهِ نَصٌّ فِيهِ أَمْرٌ بشَيْءٍ عَرَفَهُ، وفَهِمَ مَا يَدْخُلُ فِيهِ، ومَا لَا يَدْخُلُ، وحَاسَبَ نَفْسَهُ: هَلْ هُوَ قائِمٌ بِذَلِكَ كُلِّهِ، أَوْ بَعْضِهِ، أَوْ تَارِكُهُ؟ فإنْ كَانَ قائِمًا بِهِ فَلْيَحْمَدِ اللهَ، ويَسْأَلْهُ الثَّبَاتَ والزِّيادَةَ مِنَ الخَيْرِ، وإنْ كَانَ مُقَصِّرًا فِيهِ فلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مُطالَبٌ بهِ، ومَلْزُومٌ بهِ، فَلْيَسْتَعِنِ اللهَ عَلَى فِعْلِهِ، ولْيُجَاهِدْ نَفْسَهُ عَلَى ذلكَ، وكَذَلِكَ فِي النَّهْيِ؛ لِيَعْرِفَ مَا يُرادُ مِنْهُ، ومَا يَدْخُلُ فِي ذَلِكَ الَّذِي نَهى اللهُ عَنْهُ، ثُمَّ لْيَنْظُرْ إِلَى نَفْسِهِ، فإنْ كَانَ قَدْ تَرَكَ ذَلِكَ، فَلْيَحْمَدِ اللهَ عَلَى ذَلِكَ، ويَسْأَلْهُ أنْ يُثَبِّتَهُ عَلَى تَرْكِ المَناهِي، كَمَا يَسْأَلُهُ الثَّباتَ عَلَى فِعْلِ الطَّاعاتِ، ولْيَجْعَلِ الدَّاعِيَ لَهُ عَلَى التَّرْكِ امْتِثَالَ طَاعَةِ اللهِ، لِيَكُنْ تَرْكُهُ عِبادَةً، كَمَا كَانَ فِعْلُهُ عِبادَةً.

وإنْ كَانَ غَيْرَ تَارِكٍ لَهُ فَلْيَتُبْ إِلَى اللهِ مِنْهُ تَوْبَـةً جازِمَةً، ولْيُبَادِرْ ولَا تَمْنَعْهُ الشَّهَوَاتُ الدَّنِيَّةُ عَنْ مُجانَبَةِ مَا تَدْعُو إِلَيْهِ النَّفْسُ الأَمَّارَةُ بالسُّوءِ، فمَنْ كَانَ عِنْدَ هَذِهِ المَطالِبِ وغَيْرِهَا، عَامِلًا عَلَى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ، فَإِنَّهُ ماشٍ عَلَى الصِّراطِ المُسْتَقِيم، والطَّرِيقَةِ المُثْلَى فِـيمَا عَلَيْهِ مِنَ الاسْتِرْشَادِ بكِتَابِ اللهِ، وحَصَـلَ لَهُ بِذَلِكَ عِلْمٌ غَزِيرٌ، وخَيْرٌ كَثِيرٌ.

التعليق

خُلاصَةُ هَذِهِ القَاعِدَةِ:

بَيَّنَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَنَّ عُلُومَ القُرْآنِ مُتَعَدِّدَةٌ مُتَنَوِّعَةٌ، فِيهِ كُلُّ العُلُومِ؛ فِيهِ العِلْمُ باللهِ جَلَّ وَعَلَا، وأسْمائِهِ وصِفَاتِهِ، وهَذَا أعْلَاهَا وأَجَلُّهَا، والعِلْمُ بِرُسُلِهِ، والعِلْمُ باليَوْمِ الآخِرِ، والعِلْمُ بأحْكامِ اللهِ الشَّرْعِيَّةِ، وكَذَلِكَ الكَوْنِيَّةِ، والعِلْمُ بالجَزَاءِ، والعِلْمُ بِما فِي الكَوْنِ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى كَمالِ حِكْمَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وعَظَمَتِهِ وقُدْرَتِهِ ورَحْمَتِهِ، وسَعَةِ عِلْمِهِ، والعِلْمُ بأوْصَافِ الخَيْرِ والشَّرِّ؛ لأجْلِ أنْ نَتَّصِفَ بِما اتَّصَفَ بِهِ أهْلُ الخَيْرِ، ونَبْتَعِدَ عَمَّا اتَّصَفَ بِهِ أهْلُ الشَّرِّ.





القَاعِدَةُ الثَّلاثونَ:

أَرْكَانُ الإِيمَانِ بالأَسْمَاءِ الحُسْنَى ثَلاثَةٌ: إِيمانُنَا بالاسْمِ وبِمَا دَلَّ عَلَيْهِ مِنَ المَعْنَى وبِمَا تَعَلَّقَ بِهِ مِنَ الآثَارِ

وهذِهِ القَاعِدَةُ العَظِيمةُ خاصَّةٌ بِأَسْمَاءِ الرَّبِّ، وفِي القُرْآنِ مِنَ الأَسْمَاءِ الحُسْنَى مَا يُنيِّفُ عَنْ ثَمانِينَ اسْمًا، كُرِّرَتْ فِي آياتٍ مُتَعَدِّدَةٍ بحَسَبِ مَا يُناسِبُ المَقامَ، كَمَا تَقَدَّمَ بَعْضُ الإشَارَةِ إِلَى المُناسَبَةِ بِهَا.

وهذِهِ القَاعِدَةُ تَنْفَعُكَ فِي كُلِّ اسْمٍ مِنْ أَسْمائِهِ الحُسْنَى المُتعَلِّقَةِ بالخَلْقِ، والأَمْرِ، والثَّوَابِ، والعِقَابِ؛ فعَلَيْكَ أَنْ تُؤْمِنَ بِأَنَّهُ عَلِيمٌ وذُو عِلْمٍ عَظِيمٍ مُحِيطٍ بكُلِّ شَيْءٍ، قَدِيرٌ ذُو قُدْرَةٍ وقُوَّةٍ عَظِيمَةٍ، ويَقْدِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، ورَحِيمٌ ذُو رَحْمَةٍ عَظِيمَةٍ، ورَحْمَتُهُ وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ.

والثَّلاثَةُ مُتلازِمَةٌ؛ فالاسْمُ دَلَّ عَلَى الوَصْفِ، وذلكَ دَلَّ عَلَى المُتعَلَّقِ. فمَنْ نَفَى واحِدًا مِنْ هَذِهِ الأُمُورِ الثَّلاثَةِ فَإِنَّهُ لَمْ يَتِمَّ إيمانُهُ بأَسْماءِ الرَّبِّ وصِفَاتِهِ، الَّذي هُوَ أَصْلُ التَّوْحِيدِ، ولْنكْتَفِ بهَذَا الأُنْموذَجِ؛ لِيَعْرِفَ أَنَّ الأَسْماءَ كُلَّهَا عَلَى هَذَا النَّمطِ.

التعليق

خُلاصَةُ هَذِهِ القَاعِدَةِ:

أَنَّ هَذِهِ الشُّرُوطَ الثَّلاثَةَ فِيمَا إِذَا كَانَ الاسْمُ مُتَعَدِّيًا؛ مِثْلُ: السَّمِيعِ، والعَلِيمِ،

والخَلَّاقِ، ومَا أشْبَهَ ذَلِكَ. أمَّا إِذَا كَانَ لازِمًا، فَإِنَّهُ يُؤْمِنُ بالاسْمِ والصِّفَةِ فَقَطْ؛ فمَثلًا: الحَيُّ، تُؤمِنُ بهَذَا الاسْمِ اسْمًا مِنْ أسْمَاءِ اللهِ، وتُؤْمِنُ بِأَنَّهُ ذُو حَيَاةٍ، وهذِهِ هِيَ الصِّفَةُ، لكنْ لَيْسَ لَهَا أصْلٌ تَتَعَلَّقُ بهِ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الصِّفَةَ اللَّازِمَةَ لَا تَتَعَدَّى مَوْصُوفَهَا، والَّذِي أَنْكَرَ دَلالَةَ الاسْمِ عَلَى الصِّفَةِ هُمُ المُعْتَزِلَةُ، قالُوا: نُؤْمِنُ بالاسْمِ بدُونِ أنْ يَكُونَ لَهُ صِفَةٌ، فهُوَ سَمِيعٌ بِلَا سَمْعٍ، وبَصِيرٌ بِلَا بَصَرٍ! ويَدَّعُونَ أنَّ اللهَ سَمِيعٌ بذَاتِهِ لَا بصِفَةٍ هِيَ السَّمْعُ، عَلِيمٌ بذَاتِهِ لَا بِصِفَةٍ هِيَ العِلْمُ.





القَاعِدَةُ الحَادِيَةُ والثَّلاثون:

رُبُوبِيَّةُ اللهِ فِي القُرْآنِ عَلَى نَوْعَيْنِ: عَامَّةٍ وخَاصَّةٍ

كَثُرَ فِي القُـرْآنِ ذِكْـرُ رُبُوبِيَّةِ الرَّبِّ لِعِبَادِهِ، ومُتَعَلَّقاتِهَا، ولَوَازِمِـهَا، وَهِيَ عَلَى نَوْعَيْنِ:

رُبُوبِيَّةٌ عَامَّةٌ: تَدْخُلُ فِيهَا المَخْلُوقَاتُ كُلُّهَا؛ بَرُّهَا وَفَاجِرُهَا، بَلْ مُكَلَّفُوهَا وغَيْرُ المُكَلَّفِينَ، حَتَّى الجَمادَاتُ، وهيَ: أَنَّهُ تَعَالَى المُنْفَرِدُ بخَلْقِـهَا، ورِزْقِـهَا، وتَدْبِيرِهَا، وإِعْطائِهَا مَا تَحْتَاجُهُ، أَوْ تَضْطَرُّ إِلَيْهِ فِي بَقائِهَا، وحُصُولِ مَنافِعِهَا ومَقاصِدِهَا، فهذِهِ التَّرْبِيَةُ لَا يَخْرُجُ عَنْهَا أحَدٌ.

والنَّوْعُ الثَّانِي: فِي تَرْبِيَتِهِ لِأَصْفِيَائِهِ وأَوْلِيَائِهِ، فَيُرَبِّيهِمْ بالإِيمانِ الكامِلِ، ويُوَفِّقُهُمْ لِتكْمِيلِهِ، ويُكَمِّلُهُمْ بالأَخْلَاقِ الجَمِيلَةِ، ويَدْفَعُ عَنْهُمُ الأَخْلَاقَ الرَّذِيلَةَ، ويُيَسِّرُهُمْ للْيُسْرَى، ويُجَنِّبُهُمُ العُسْرَى.

وحَقِيقَتُهَا: التَّوْفِيقُ لكُلِّ خَيْرٍ، والحِفْظُ مِنْ كُلِّ شَرٍّ، وإِنالَةُ المَحْبُوباتِ العاجِلَةِ والآجِلَةِ، وصَرْفُ المَكْرُوهاتِ العاجِلَةِ والآجِلَةِ.

فحيثُ أُطْلِقَتْ رُبُوبِيَّتُهُ تَعَالَى فإِنَّ المُرَادَ بِهَا المَعْنَى الأَوَّلُ، مِثْلُ قَوْلِهِ: ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢] ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام:١٦٤] ونَحْوُ ذلكَ. وحَيْثُ قُيِّدَتْ بِمَا يُحِبُّهُ ويَرْضَاهُ، أَوْ وَقَعَ السُّؤَالُ بِهَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ وأَتْباعِهِمْ، فإِنَّما المُرَادُ بِهَا النَّوْعُ الثَّانِي، وَهُوَ مُتَضَمِّنٌ للنَّوْعِ الأَوَّلِ؛ ولهذَا تَجِدُ أَسْئِلَةَ الأَنْبِيَاءِ وأَتْباعِهِمْ فِي القُرْآنِ بلَفْظِ

الرُّبُوبِيَّةِ غالبًا؛ فإنَّ مَطالِبَهُمْ كُلَّهَا دَاخِلَةٌ تَحْتَ رُبُوبِيَّتِهِ الخَاصَّةِ؛ لِيَلْحَظَ العَبْدُ هَذَا المَعْنَى النافِعَ.

ونَظِيرُ هَذَا المَعْنَى الجَلِيلِ: أنَّ اللهَ أخبَرَ فِي عِدَّةِ آياتٍ أنَّ الخَلْقَ كُلَّهُمْ عِبادُهُ وعَبِيدُهُ ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣] فكُلُّهُمْ مَمَالِيكُهُ ولَيْسَ لَهُمْ مِنَ المُلْكِ والأمْرِ شَيْءٌ.

ويُخْبِرُ فِي بَعْضِ الآياتِ أنَّ عِبادَهُ بَعْضُ خَلْقِهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:٦٣] ثُمَّ ذَكَرَ صِفَاتِهِمُ الجَلِيلَةَ. ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر:٣٦] وفِي قِراءَةٍ: ﴿عِبَادَهُۥ﴾ ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء:١] ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة:٢٣] فالمرادُ بِهَذَا النَّوْعِ مَنْ قَامُوا بعُبُودِيَّةِ اللهِ، وأخْلَصُوا لَهُ الدِّينَ عَلَى اخْتِلَافِ طَبَقَاتِهِمْ.

فالعُبُودِيَّةُ الأُولَى: يَدْخُلُ فِيهَا البَرُّ والفاجِرُ، والعُبُودِيَّةُ الثانِيَةُ: صِفَةُ الأبْرارِ. ولكِنِ الفَرْقُ بَيْنَ الرُّبُوبِيَّةِ والعُبُودِيَّةِ: أنَّ الرُّبُوبِيَّةَ وصْفُ الرَّبِّ وفِعْلُهُ، والعُبُودِيَّةَ وصْفُ العَبِيدِ وفِعْلُهُمْ.

التعليق

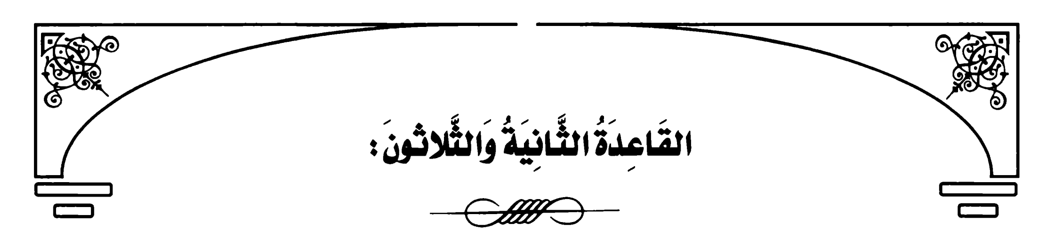
أَفادَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي هَذِهِ القَاعِدَةِ أنَّ الرُّبُوبِيَّةَ عَلَى نَوْعَيْنِ: والعُبُودِيَّةَ عَلَى نَوْعَيْنِ. الرُّبُوبِيَّةُ: عامَّةٌ وخاصَّةٌ. والعُبُودِيَّةُ: عَامَّةٌ وخَاصَّةٌ. والعُبُودِيَّةُ تَتَعَلَّقُ بالعَبْدِ، والرُّبُوبِيَّةُ تَتَعَلَّقُ بالرَّبِّ.

فالعُبُودِيَّةُ المُتَعَلِّقَةُ بالرُّبُوبِيَّةِ هِيَ العامَّةُ، الَّتِي مَعْنَاهَا المُلْكُ والتَّدْبِيرُ والخَلْقُ. والعُبُودِيَّةُ المُتَعَلِّقَةُ بالعَبْدِ مَعْنَاهَا: طَاعَةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، هَذِهِ خَاصَّةٌ بِمَنْ أطاعَ. وقَدِ اجْتَمَعَ

الصِّنْفَانِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف:١٢١-١٢٢] (رَبِّ العَالَمِينَ) هَذِهِ عَامَّةٌ ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ هَذِهِ خاصَّةٌ. ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:٦٣] هَذِهِ خاصَّةٌ. ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣] عَامَّةٌ. «**يَا عِبَادِي! كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ**»[1] عامَّةٌ. ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر:٤٢] خاصَّةٌ؛ لِأَنَّ الشَّيْطَانَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ [النحل:٩٩-١٠٠]. ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص:٨٢-٨٣] خَاصَّةٌ.



(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم. رقم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



القَاعِدَةُ الثَّانِيَةُ وَالثَّلاثون:

إِذَا أَمَرَ اللهُ بِشَيْءٍ كَانَ ناهِيًا عَنْ ضِدِّهِ وإذَا نَهَى عَنْ شَيْءٍ كَانَ آمِرًا بضِدِّهِ وإذَا أَثْنَى عَلَى نَفْسِهِ أَوْ عَلَى أَوْلِيَائِهِ وأَصْفِيَائِهِ بنَفْيِ شَيْءٍ مِنَ النَّقَائِصِ كَانَ ذَلِكَ إِثْبَاتًا للكَمَالِ

وذَلِكَ لِأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ امْتِثَالُ الأمْرِ عَلَى وجْهِ الكَمَالِ إِلَّا بتَرْكِ ضِدِّهِ؛ فحَيْثُ أَمَرَ بالتَّوْحِيدِ، والصَّلاةِ، والزَّكَاةِ، والصَّوْمِ، والحَجِّ، وبِرِّ الوَالِدَيْنِ، وصِلَةِ الأَرْحَامِ، والعَدْلِ، كَانَ نَهْيًا عَنِ الشِّرْكِ، وعَنْ تَرْكِ الصَّلاةِ، وتَرْكِ الزَّكَاةِ، وتَرْكِ الصَّوْمِ، وتَرْكِ الحَجِّ، وعَنِ العُقُوقِ والقَطِيعَةِ.

وحَيْثُ نَهَى عَنِ الشِّرْكِ، وإضَاعَةِ الصَّلاةِ، إِلَى آخِرِ المَذْكُوراتِ، كَانَ آمِرًا بالتَّوْحِيدِ، وفِعْلِ الصَّلاةِ، إِلَى آخِرِهَا.

وحَيْثُ أمَرَ بالصَّبْرِ، والشُّكْرِ، وإقْبالِ القَلْبِ عَلَى اللهِ: إِنَابَةً، ومَحَبَّةً، وخَوْفًا، ورَجَاءً -كَانَ نَهْيًا عَنِ الجَزَعِ، والسَّخَطِ، وكُفْرَانِ النِّعَمِ، وإعْرَاضِ القَلْبِ عَنِ اللهِ فِي تَعَلُّقِ هَذِهِ الأُمُورِ بغَيْرِهِ.

وحَيْثُ نَهَى عَنِ الجَزَعِ، وكُفْرَانِ النِّعَم، وغَفْلَةِ القَلْبِ -كَانَ آمِرًا بالصَّبْرِ... إِلَى آخِرِ المَذْكُورَاتِ، وهَذَا ضَرْبُ مَثَلٍ، وإِلَّا فكُلُّ الأوَامِرِ والنَّوَاهِي عَلَى هَذَا النَّمَطِ.

وكَذَلِكَ المَدْحُ لَا يَكُونُ إِلَّا بإِثْبَاتِ الكَمالاتِ؛ فحَيْثُ أَثْنَى عَلَى نَفْسِهِ، وذَكَرَ تَنَزُّهَهُ عَنِ النَّقَائِصِ والعُيُوبِ: كالنَّوْمِ، والسِّنَةِ، واللُّغُوبِ، والمَوْتِ، وخَفاءِ شَيْءٍ فِي

العالَمِ مِنَ الأعْيانِ والصِّفاتِ والأعْمالِ وغَيْرِهَا، والظُّلْمِ؛ فَلِتَضَمُّنِ ذَلِكَ الثَّناءَ عَلَيْهِ بكَمالِ حَياتِهِ، وكَمالِ قَيُّومِيَّتِهِ، وقُدْرَتِهِ، وسَعَةِ عِلْمِهِ، وكَمالِ عَدْلِهِ؛ لِأَنَّ العَدَمَ المَحْضَ لَا كَمالَ فِيهِ حَتَّى يُنْفَى تَكْمِيلًا للكَمالِ.

وكَذَلِكَ إِذَا نَفَى اللهُ عَنْ كِتابِهِ الرَّيْبَ، والاخْتِلَافَ، والشَّكَّ، والإِخْبَارَ بخِلافِ الوَاقِعِ -كَانَ ذَلِكَ لكَمالِ دَلالَتِهِ عَلَى اليَقِينِ فِي جَمِيعِ المَطالِبِ، واشْتِمالِهِ عَلَى الإِحْكامِ، والانْتِظَامِ التَّامِّ، والصِّدْقِ الكامِلِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ صِفَاتِ كِتابِهِ.

وكَذَلِكَ إِذَا نَفَى عَنْ رَسُولِهِ الكَذِبَ، والتَّقَوُّلَ، والجُنُونَ، والسِّحْرَ، والشِّعْرَ، والغَلَطَ، ونَحْوَهَا -كَانَ ذَلِكَ لأَجْلِ إِثْباتِ كَمالِ صِدْقِهِ، وأَنَّهُ لَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى، إِنْ هُوَ إِلَى وَحْيٌ يُوحَى، ولكَمالِ عَقْلِهِ، ولِزَوَالِ كُلِّ مَا يَقْدَحُ فِي كَمالِ نُبُوَّتِهِ ورِسَالَتِهِ.

فتَفَطَّنْ لِهَذِهِ القَاعِدَةِ فِي كُلِّ مَا يَمُرُّ عَلَيْكَ مِنَ الآياتِ القُرْآنِيَّةِ فِي هَذِهِ الأُمُورِ وغَيْرِهَا تَنَلْ خَيْرًا كَثِيرًا. واللهُ أَعْلَمُ.

التعليق

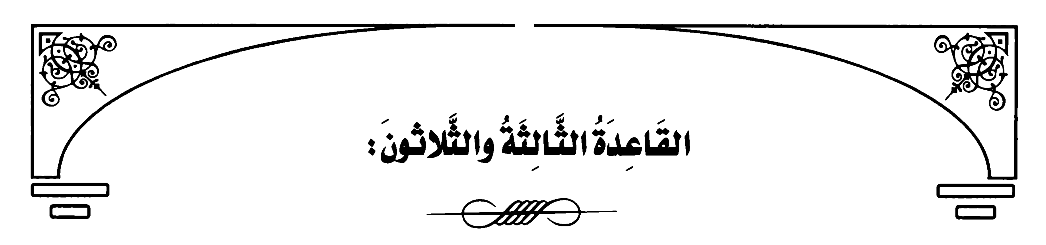
المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقُولُ فِي هَذِهِ القَاعِدَةِ: إِنَّ اللهَ إِذَا أَمَرَ بالشَّيْءِ كَانَ نَهْيًا عَنْ تَرْكِ الشَّيْءِ الَّذِي عَبَّرَ عَنْهُ بضِدِّهِ، وإِذَا نَهَى عَنْ شَيْءٍ كَانَ أَمْرًا بضِدِّ ذَلِكَ الشَّيْءِ. وهَذِهِ القَاعِدَةُ لَيْسَتْ عَلَى العُمُومِ عِنْدَ التَّتَبُّعِ؛ فإِنَّ تَرْكَ المُسْتَحَبَّاتِ المَنْدُوبَاتِ لَا يَسْتَلْزِمُ وُقُوعَ الإِنْسَانِ فِي النَّهْيِ؛ ولِهَذَا لَا نَقُولُ: إِنَّ تَرْكَ المُسْتَحَبِّ مَكْرُوهٌ؛ فالمَكْرُوهُ شَيْءٌ، وتَرْكُ المُسْتَحَبِّ شَيْءٌ آخَرُ.

نَعَمْ، إِذَا كَانَ الأَمْرُ واجِبًا كَانَ تَرْكُهُ حَرَامًا. وأَمَّا إِذَا كَانَ الشَّيْءُ مُسْتَحَبًّا فَإِنَّهُ لَا يَلْزَمُ مِنْ تَرْكِهِ أَنْ يَقَعَ الإِنْسَانُ فِي النَّهْيِ، وهَذَا شَيْءٌ ذَكَرَهُ أَهْلُ العِلْمِ فِي الأُصُولِ.

أَمَّا إِذَا كَانَ النَّفْيُ مِنْ بَابِ المَدْحِ والتَّمَدُّحِ بالشَّيْءِ فَإِنَّهُ إِثْباتٌ لِضِدِّهِ، فَهُوَ يَدُلُّ عَلَى اتِّصالِهِ بكَمالِ ضِدِّهِ، فَإِذَا نَفَى اللهُ عَزَّوَجَلَّ عَنْ نَفْسِهِ النَّوْمَ؛ فلِكَمالِ حياتِهِ وقَيُّومِيَّتِهِ، وإذَا نَفَى عَنْ نَفْسِهِ التَّعَبَ والإِعْياءَ؛ فلِكَمالِ قُدْرَتِهِ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق:٣٨] يعْنِي: مِنْ تَعَبٍ وإِعْياءٍ؛ وذلكَ لكَمالِ قُدْرَتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وقُوَّتِهِ، وعلى هَذَا فَقِسْ.

وإنَّما قُلْنَا بذلكَ؛ لِأَنَّ النَّفْيَ المَحْضَ عَدَمٌ مَحْضٌ، والعَدَمُ المَحْضُ لَيْسَ بشَيْءٍ، فَضْلًا عَنْ أنْ يَكُونَ مَدْحًا؛ ولهَذَا نَقُولُ: مَا مِنْ صِفَةٍ نَفاهَا اللهُ عَنْ نَفْسِهِ إلَّا وَهِيَ تَتَضَمَّنُ ثُبُوتَ مُقابِلٍ لهَذَا النَّفْيِ، وإلَّا لَوْ كانَتْ نَفْيًا مَحْضًا لَمْ تكُنْ كَمالًا.





القَاعِدَةُ الثَّالِثَةُ والثَّلاثون:

المَرَضُ فِي القُرْآنِ -مَرَضُ القُلُوبِ- نَوْعَانِ: مَرَضُ شُبُهَاتٍ وشُكُوكٍ، ومَرَضُ شَهَوَاتِ المُحَرَّمَاتِ

والطَّـرِيقُ إِلَى تَمْيِيزِ هَذَا مِنْ هَذَا -مَعَ كَثْرَةِ وُرُودِهِمَا فِي القُرْآنِ- يُدْرَكُ مِنَ السِّيَاقِ، فإِنْ كَانَ السِّيَاقُ فِي ذمِّ المُنَافِقِينَ والمُخالِفِينَ فِي شَيْءٍ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ، كَانَ هَذَا مَرَضَ الشُّكُوكِ والشُّبُهاتِ، وإِنْ كَانَ السِّيَاقُ فِي ذِكْرِ المَعَاصِي والمَيْلِ إِلَيْهَا كَانَ مَرَضَ شَهْوَةٍ.

وَوَجْهُ انْحِصَارِ المَرَضِ فِي هذَيْنِ النَّوْعَيْنِ: أَنَّ مَرَضَ القَلْبِ خِلافُ صِحَّتِهِ، وصِحَّةُ القَلْبِ الكامِلَةُ بشَيْئَيْنِ: كَمالُ عِلْمِهِ ومَعْرِفَتِهِ ويَقِينِهِ، وكَمالُ إِرادَتِهِ مَا يُحِبُّهُ اللهُ ويَرْضَاهُ؛ فالقَلْبُ الصَّحِيحُ هُوَ الَّذِي عَرَفَ الحَقَّ واتَّبَعَهُ، وعَرَفَ الباطِلَ وتَرَكَهُ، فإِنْ كَانَ عِلْمُهُ شَكًّا، وعِنْدَهُ شُبُهَاتٌ تُعارِضُ مَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ مِنْ أُصُولِ الدِّينِ وفُرُوعِهِ كَانَ عِلْمُهُ مُنْحَرِفًا، وكَانَ مَرَضُ قَلْبِهِ قُوَّةً وضَعْفًا بحَسَبِ هَذِهِ الشُّكُوكِ والشُّبُهاتِ، وإِنْ كانَتْ إِرَادَتُهُ ومَحَبَّتُهُ مَائِلَةً لشَيْءٍ مِنْ مَعاصِي اللهِ كَانَ ذَلِكَ انْحِرَافًا فِي إِرَادَتِهِ ومَرَضًا. وقَدْ يَجْتَمِعُ الأمْرَانِ، فيَكُونُ القَلْبُ مُنْحَرِفًا فِي عِلْمِهِ، وفِي إِرادَتِهِ.

فمِنَ النَّوْعِ الأَوَّلِ: قَوْلُهُ تَعالَى عَنِ المُنَافِقِينَ: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ وَهِيَ الشُّكُوكُ والشُّبُهَاتُ المُعارِضَةُ لرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة:١٠] عُقُوبَةً عَلَى ذَلِكَ المَرَضِ النَّاتِجِ عَنْ أَسْبابٍ مُتَعَدِّدَةٍ كُلِّهَا مِنْهُمْ، وهُمْ فِيهَا غَيْرُ مَعْذُورِينَ.

ونَظِيرُ هَذَا قَوْلُهُ: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة:١٢٥] وكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج:٥٣] فإنَّ مَرِيضَ القَلْبِ بالشُّكُوكِ، وضَعْفِ العِلْمِ أَقَلُّ شَيْءٍ يُرِيبُهُ، ويُؤَثِّرُ فِيهِ، ويَفْتَتِنُ بِهِ.

ومِنَ الثَّانِي: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب:٣٢] أيْ: مَرَضُ شَهْوَةٍ وإرَادَةٍ للفُجُورِ، أَقَلُّ شَيْءٍ مِنْ أَسْبَابِ الافْتِتَانِ يُوقِعُهُ فِي الفِتْنَةِ طَمَعًا أَوْ فِعْلًا، فكُلُّ مَنْ أَرَادَ شَيْئًا مِنْ مَعَاصِي اللهِ فَقَلْبُهُ مَرِيضٌ مَرَضَ شَهْوَةٍ، ولوْ كَانَ صَحِيحًا لاتَّصَفَ بِصِفَاتِ الأَذْكِيَاءِ، الأَبْرِيَاءِ، الأَتْقِيَاءِ، المَوْصُوفِينَ بقَوْلِهِ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ [الحجرات:٧-٨] فمَنْ كَانَ قَلْبُهُ عَلَى هَذَا الوَصْفِ الَّذِي ذَكَرَهُ اللهُ فَلْيَحْمَدْهُ عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ الَّتِي لَا يُقاوِمُها شَيْءٌ مِنَ النِّعَمِ، ولْيَسْأَلِ اللهَ الثَّبَاتَ عَلَى ذَلِكَ، والزِّيادَةَ مِنْ فَضْلِ اللهِ ورَحْمَتِهِ.

التعليق

خُلاصَةُ هَذِهِ القَاعِدَةِ:

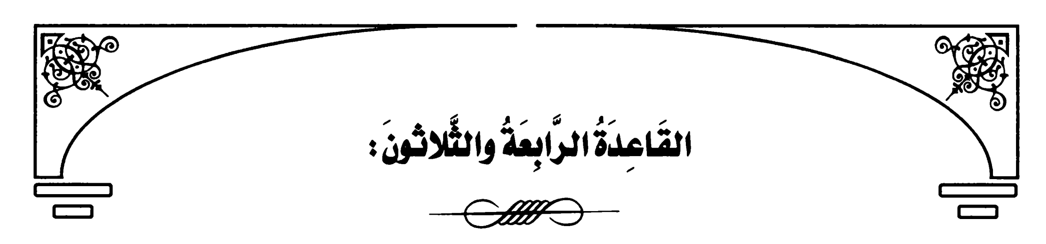
أَنَّ مَرَضَ القُلُوبِ يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: مَرَضُ شُبْهَةٍ، وَهُوَ نَقْصٌ فِي العِلْمِ، ومَرَضُ شَهْوَةٍ، وَهُوَ نَقْصٌ فِي الإرَادَةِ، فَإِذَا اعْتَلَّتْ إرَادَةُ الإنْسَانِ بمَعْنَى صارتْ إرَادَتُهُ بغَيْرِ مَا يُرْضِي اللهَ ورَسُولَهُ، فذلكَ مَرَضُ الشَّهْوَةِ. وإذَا اعْتَلَّ القَلْبُ بالجَهْلِ صارَ مَرَضُهُ مَرَضَ شُبْهَةٍ؛ لِأَنَّهُ اشْتَبَهَ عَلَيْهِ الحَقُّ، فصارَ مَرِيضًا بذلكَ.

وصِحَّةُ القَلْبِ وسَلامَتُهُ أَنْ يَمُنَّ اللهُ عَلَى الإنْسَانِ فَيَجْتَمِعَ فِي قَلْبِهِ كَمالُ العِلْمِ

وكَمالُ الإرَادَةِ. فَإِذَا اجْتَمَعَ فِي القَلْبِ كَمالُ العِلْمِ وكمالُ الإرَادَةِ، فهَذَا هُوَ القَلْبُ الصَّحِيحُ السَّلِيمُ. وفَتِّشْ نَفْسَكَ! فَتِّشْ قَلْبَكَ! عَالِجْهُ! أَعْتَقِدُ أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ يُطَهِّرُ بَدَنَهُ كُلَّ يَوْمٍ بالصَّابونِ، وأَسْنانَهُ بالفُرْشَاةِ؛ لِئَلَّا يَكُونَ فِيهَا وَسَخٌ ودَرَنٌ، لكنِ القَلْبُ المِسْكِينُ مَتْرُوكٌ يَشْتَبِهُ عَلَيْهِ الحَقُّ، ويَلْتَبِسُ عَلَيْهِ الباطِلُ، فلا يُهِمُّهُ ذلكَ.

ولهذَا يَجِبُ عَلَيْنَا أنْ نُطَهِّرَ قُلُوبَنَا، ونَنْظُرَ فِيهَا كُلَّ يَوْمٍ، نَضَعُهَا فِي المُخْتَبَرِ والتَّمْحِيصِ؛ حَتَّى نَنْظُرَ أَصَحِيحَةٌ هِيَ أمْ مَرِيضَةٌ؟ ولَعَلَّكَ تَقُولُ: كَيْفَ يَكُونُ هَذَا القُرْآنُ سَبَبًا لزِيادَةِ الإيمانِ فِي قَوْمٍ، وسَبَبًا لزِيادَةِ الرِّجْسِ فِي قَوْمٍ آخَرِينَ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة:١٢٤-١٢٥]؟ لِأَنَّ المُؤْمِنِينَ إِذَا نَزَلَتِ الآيَةُ صَدَّقُوا بِهَا، والتَّصْدِيقُ زِيادَةٌ فِي الإيمانِ، وأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلوبِهِمْ مَرَضٌ فَإِذَا نَزَلَتِ الآيَةُ اسْتَكْبَرُوا عنْهَا، وشَكُّوا فِيهَا وكَذَّبُوا، فازْدَادُوا بِذَلِكَ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ، والعياذُ باللهِ، ومَاتُوا وهُمْ كَافِرُونَ.





القَاعِدَةُ الرَّابِعَةُ والثَّلاثون:

دَلَّ القُرْآنُ فِي عِدَّةِ آياتٍ أَنَّ مَنْ تَرَكَ مَا يَنْفَعُهُ مَعَ الإِمْكَانِ ابْتُلِيَ بالاشْتِغَالِ بِمَا يَضُرُّهُ، وحُرِّمَ الأمْرُ الأَوَّلُ

وذلكَ أَنَّهُ وَرَدَ فِي عِدَّةِ آياتٍ أَنَّ المُشْرِكِينَ لَمَّا زَهِدُوا فِي عِبادَةِ الرَّحْمَنِ ابْتُلُوا بعِبَادَةِ الأَوْثَانِ، ولَمَّا اسْتكْبَرُوا عَنِ الانْقِيَادِ للرُّسُلِ بزَعْمِهِمْ أَنَّهُمْ بَشَرٌ ابتُلُوا بالانْقِيَادِ لِكُلِّ مارِجِ العَقْلِ والدِّينِ،...

التعليق

هذَا واضِحٌ، لَمَّا عَدَلُوا عَنْ عِبادَةِ اللهِ عَبَدُوا اللاتَ والعُزَّى، ولَمَّا لَمْ يَنْقَادُوا لاتِّبَاعِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ اتَّبَعُوا أَبَا جَهْلٍ وأَشْبَاهَهُ. قَالَ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ:

هَرَبُوا مِنَ الرِّقِّ الَّذِي خُلِقُوا لَهُ ... فَبُلُوا بِرِقِّ النَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ[1]

فكَانُوا عِبادًا للشَّياطِينِ ولأَنْفُسِهِمُ الأَمَّارَةِ بالسُّوءِ.



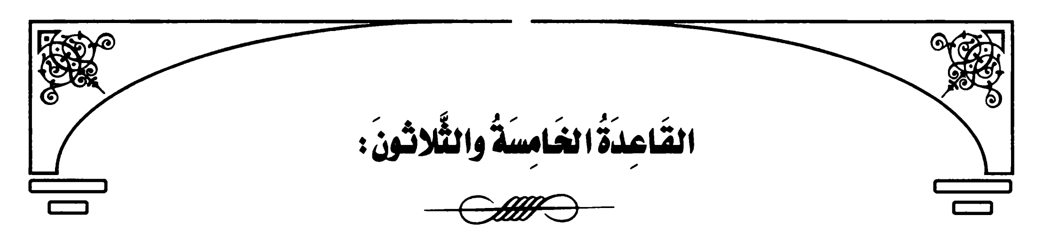
... ولَمَّا عُرِضَ عَلَيْهِمُ الإيمانُ أَوَّلَ مَرَّةٍ، فَعَرَفُوهُ ثُمَّ تَرَكُوهُ؛ قَلَبَ اللهُ قُلُوبَهُمْ، وطَبَعَ عَلَيْهَا وختَمَ، فَلَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يَرَوُا العَذَابَ الأَلِيمَ، ولَمَّا بَيَّنَ لَهُمُ الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ، وزَاغُوا عَنْهُ اخْتِيَارًا ورِضًا بطَرِيقِ الغَيِّ عَلَى طَرِيقِ الهُدَى عُوقِبُوا بأنْ

(١) نونية ابن القيم (ص:٣٠٨).

أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ، وجَعَلَهُمْ حائِرِينَ فِي طَرِيقِهِمْ، ولَمَّا أَهَانُوا آياتِ اللهِ ورُسُلَهُ أَهَانَهُمُ اللهُ بالعذابِ المُهِينِ، ولَمَّا اسْتكْبَرُوا عَنِ الانْقِيَادِ للحَقِّ أَذَلَّهُمُ فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ، ولَمَّا مَنَعُوا مَساجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وأَخْرَبُوهَا مَا كَانَ لَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة:٧٥-٧٧].

والآياتُ فِي هَذَا المَعْنَى كَثِيرَةٌ جِدًّا، يُخْبِرُ فِيهَا أَنَّ العَبْدَ كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ بصَدَدِ أَنْ يَهْتَدِيَ، وأَنْ يَسْلُكَ الطَّرِيقَ المُسْتَقِيمَةَ، ثُمَّ إِذَا تَرَكَهَا بَعْدَ أَنْ عَرَفَهَا، وزَهِدَ فِيهَا بَعْدَ أَنْ سَلَكَهَا، أَنَّهُ يُعاقَبُ، ويَصِيرُ الاهْتِدَاءُ غَيْرَ مُمْكِنٍ فِي حَقِّهِ، جَزاءً عَلَى فِعْلِهِ؛ كَقَوْلِهِ عَنِ اليَهُودِ: ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ [البقرة:١٠١-١٠٢] فإِنَّهُمْ تَرَكُوا أَجَلَّ الكُتُبِ وأَنْفَعَهَا، وأَصْدَقَهَا، فابْتُلُوا باتِّبَاعِ أَرْذَلِهَا، وأَكْذَبِهَا، وأَضَرِّهَا، والمُحارِبُونَ للهِ ورَسُولِهِ تَرَكُوا إِنْفاقَ أَمْوالِهِمْ فِي طاعَةِ الرَّحْمَنِ، وأَنْفَقُوهَا فِي طاعَةِ الشَّيْطَانِ!!





القَاعِدَةُ الخَامِسَةُ والثَّلاثُونَ:

فِي القُرْآنِ عِدَّةُ آياتٍ فِيهَا الحَثُّ عَلَى أَعْلَى المَصْلَحتَيْنِ وَتَقْدِيمِ أَهْوَنِ المَفْسَدَتَيْنِ وَمَنْعِ مَا كَانَتْ مَفْسَدَتُهُ أَرْجَحَ مِنْ مَصْلَحَتِهِ

وهذِهِ قَاعِدَةٌ جَلِيلَةٌ نَبَّهَ اللهُ عَلَيْهَا فِي آياتٍ كَثِيرَةٍ.

فمِنَ الأوَّلِ: المُفاضَلَةُ بَيْنَ الأعْمالِ، وتَقْدِيمُ الأعْلَى مِنْهَا، كَقَوْلِهِ: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ﴾ الآيَةَ [الحديد:١٠] وكَقَوْلِهِ: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:١٩] وكَقَوْلِهِ: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النساء:٩٥].

ومِنَ الثَّانِي قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة:٢١٧] بَيَّنَ تعالَى أنَّ مَا نَقِمَهُ الكُفَّارُ عَلَى المُسْلِمِينَ مِنْ قِتَالٍ فِي الشَّهْرِ الحَرَامِ أَنَّهُ وإنْ كَانَ مَفْسَدَةً، فمَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الصَّدِّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ، والكُفْرِ باللهِ، وبالمَسْجِدِ الحَرَامِ، وإخْرَاجِ أهْلِهِ مِنْهُ أكْبَرُ عِنْدَ اللهِ مِنَ القَتْلِ.

وقَوْلُهُ: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾ الآياتِ [الفتح:٢٥] فكَفَّهُمُ اللهُ عَنِ القِتَالِ فِي المَسْجِدِ الحرام، مَعَ وُجُودِ المُقْتَضِي مِنَ الكُفَّارِ، خَوْفُ المَفْسَدَةِ المُتَرَتِّبَةِ عَلَى ذَلِكَ مِنْ إصابَةِ المُؤْمِنِينَ والمُؤْمِناتِ مِنْ مَعَرَّةِ الجَيْشِ ومَضَرَّتِهِ. وكَذَلِكَ جَمِيعُ مَا جَرَى فِي الحُدَيْبِيَةِ مِنْ هَذَا البابِ، مِنَ الْتِزَامِ تِلْكَ الشُّرُوطِ

الَّتِي ظاهِرُهَا ضَرَرٌ عَلَى المُسْلِمِينَ، ولكنْ صَارَتْ هِيَ عَيْنَ المَصْلَحَةِ لَهُمْ.

ومِنْ هذَا: أمْرُهُ بكفِّ الأَيْدِي قَبْلَ أنْ يُهاجِرَ الرَّسُولُ إِلَى المَدِينَةِ؛ لِأَنَّ الأمْرَ بالقِتَالِ فِي ذَلِكَ الوَقْتِ أعْظَمُ ضَرَرًا مِنَ الصَّبْرِ والإخْلادِ إِلَى السَّكِينَةِ. ولَعَلَّ مِنْ هَذَا مَفْهُومُ قَوْلِهِ: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الأعلى:٩] يعْنِي: فإنْ ضَرَّتْ فتَرْكُ التَّذْكِيرِ المُوجِبِ للضَّرَرِ الكَثِيرِ هُوَ المُتعَيَّنُ، والآياتُ فِي هَذَا النَّوْعِ كَثِيرَةٌ جِدًّا.

ومِنَ الثَّالِثِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة:٢١٩] هَذَا كالتَّعْلِيلِ العامِّ: أنَّ كُلَّ مَا كانَتْ مَضَرَّتُهُ وإثْمُهُ أكْبَرَ مِنْ نَفْعِهِ، فإنَّ اللهَ مِنْ حِكْمَتِهِ لَا بُدَّ أنْ يَمْنَعَ مِنْهُ عِبادَهُ ويُحَرِّمَهُ عليهِمْ، وهَذَا الأَصْلُ العَظِيمُ كَمَا أَنَّهُ ثابتٌ شَرْعًا فَإِنَّهُ هُوَ المَعْقُولُ بَيْنَ النَّاسِ المَفْطُورِينَ عَلَى اسْتِحْسَانِهِ والعَمَلِ بِهِ فِي الأُمُورِ الدِّينِيَّةِ والدُّنْيَوِيَّةِ. واللهُ أَعْلَمُ.

التعليق

والقَاعِدَةُ الثَّانِيَةُ: «دَفْعُ المَفْسَدَةِ مُقَدَّمٌ عَلَى جَلْبِ المَصْلَحَةِ» لِأَنَّ سَبَّ آلِهَتِهِمْ لَا شَكَّ أَنَّهُ مَصْلَحَةٌ، لكنْ سَبُّ اللهِ أعْظَمُ جُرْمًا.

وهُنَاكَ قَاعِدَةٌ ثالِثَةٌ، وهِيَ: «أنَّ الدِّينَ الإسْلَامِيَّ جَاءَ بتَحْصِيلِ المَصالِحِ، وتَقْلِيلِ المَفَاسِدِ مَا أمْكَنَ» هَذِهِ القَاعِدَةُ الَّتِي سَارَ عَلَيْهَا هَذَا الدِّينُ، ويَدُلُّ عَلَى هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩] فالدِّينُ الإسْلَامِيُّ جَاءَ بتَحْصِيلِ المَصالِحِ، وتَقْلِيلِ المَفَاسِدِ بقَدْرِ الإمْكَانِ.

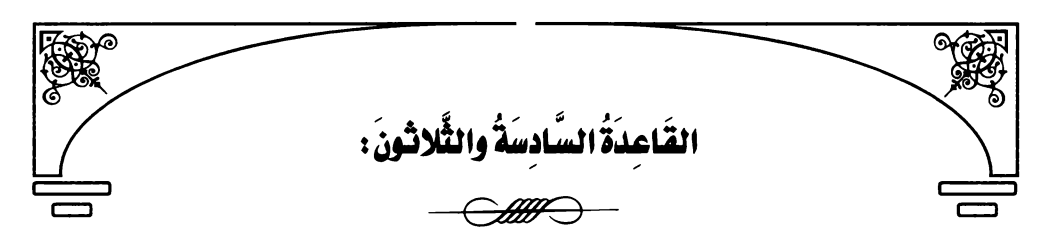
وهَذَا يَجْمَعُ القَوَاعِدَ الثَّلَاثَةَ؛ لِأَنَّ المَصالِحَ المُرْسَلَةَ الصَّحِيحُ أنَّهَا لَيْسَتْ ثابِتَةً، وأنَّ المَصْلَحَةَ إنْ شَهِدَ الشَّرْعُ لهَا فَهِيَ داخِلَةٌ فِي المَصالِحِ الشَّرْعِيَّةِ، وإنْ لَمْ يَشْهَدْ

لَهَا الشَّرْعُ، أَوْ شَهِدَ بِقُبْحِهَا فَهِيَ لَيْسَتْ مَصْلَحَةً وإنْ ظَنَّ صاحِبُهَا أَنَّهَا مَصْلَحَةٌ، فلَا نُثْبِتُ دَلِيلًا يُسَمَّى (المَصالِحَ المُرْسَلَةَ) لِأَنَّ إثْباتَها دَلِيلًا يَجْعَلُ كُلَّ إنْسانٍ يَقُولُ: هَذَا مِنَ المَصالِحِ المُرْسَلَةِ! كَمَا قِيلَ فِي تَحْلِيلِ رِبَا البُنُوكِ: إنَّهُ مِنَ المَصالِحِ المُرْسَلَةِ.

فائِدَةٌ: رَجُلٌ يَفْعَلُ مُنْكَرًا، لَوْ نَهَيْتَهُ عَنْهُ لانْتَقَلَ إِلَى مُنْكَرٍ أَنْكَرَ! فَدَعْهُ يَبْقَى عَلَى مُنْكَرِهِ فَإِنَّهُ أَهْوَنُ، كَمَا ذُكِرَ أَنَّ شَيْخَ الإِسْلَامِ حِينَ اسْتَوْلَى التَّتَارُ عَلَى الشَّامِ مَرَّ بطائِفَةٍ مِنَ الجُنْدِ يَشْرَبُونَ الخَمْرَ، ويَعْبَثُونَ باللَّهْوِ، ولَمْ يَقُلْ لَهُمْ شَيْئًا! وكَانَ مَعَهُ صاحِبٌ لهُ، فقالَ لهُ: لِمَاذَا لَمْ تَنْهَ هَؤُلاءِ عَنِ المُنْكَرِ؟ قَالَ: لأَنِّي لَوْ نَهَيْتُهُمْ عَنْ ذَلِكَ لَتَرَكُوهُ وذَهَبُوا يَعِيثُونَ فَسَادًا فِي أَرَاضِي وأَمْوَالِ المُسْلِمِينَ، وبَقَاؤُهُمْ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ المُنْكَرِ أَهْوَنُ مِنَ الاعْتِدَاءِ عَلَى المُسْلِمِينَ، وعَلَى حُرُماتِهِمْ [1].



(١) انظر: إعلام الموقعين (٣/ ١٣).



القَاعِدَةُ السَّادِسَةُ والثَّلاثونَ:

طَرِيقَةُ القُرْآنِ إِبَاحَةُ الاقْتِصَاصِ مِنَ المُعْتَدِي، وَمُقَابَلَتُهُ بِمِثْلِ عُدْوَانِهِ، والنَّهْيُ عَنْ ظُلْمِهِ، والنَّدْبُ إِلَى العَفْوِ والإِحْسَانِ

التعليق

هذِهِ ثَلاثُ حالاتٍ: اقْتِصَاصٌ جائِزٌ، ظُلْمٌ ممْنُوعٌ، عَفْوٌ وإِحْسانٌ مَطْلُوبٌ. لكنْ هَذَا الأَخِيرُ يجِبُ أنْ يُقَيَّدَ بمَا إِذَا كَانَ فِيهِ إِصْلاحٌ؛ لِأَنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

أَمَّا لَوْ جاءَنَا رَجُلٌ مُجْرِمٌ قَدْ فَعَلَ جَرِيمَتَهُ، وقُلْنَا لهُ: عَفَوْنَا عَنْكَ! فقالَ: اللهُ يُعافِيكُمْ، ثُمَّ أَخَذَ العَصَا وذَهَبَ يَضْرِبُ النَّاسَ، فهَلْ فِي عَفْوِنَا هَذَا إِصْلاحٌ؟ الجَوَابُ: لَا؛ ولهَذَا يجِبُ فِي هَذِهِ المَسائِلِ أنْ يَنْظُرَ الإنْسَانُ إِلَى الأُمُورِ بعَيْنِ العَقْلِ، لَا بعَيْنِ العاطِفَةِ.

يَأْتِي رَجُلٌ مُتَهَوِّرٌ -مثلًا- ويَدْهِسُ ابْنًا لكَ أَوْ أَخًا، فيَجِيءُ النَّاسُ الَّذِينَ عُقُولُهُمْ فِي عُيُونِهِمْ فقطْ، يَصِيحُونَ عَلَيْكَ: ارْحَمْ هَذَا الرَّجُلَ! أَعْتِقْهُ! لَهُ أَوْلادٌ، لَهُ كذَا، لَهُ كذَا! ويَأْتُونَ بِمَا يُرَقِّقُ النَّفْسَ للعَفْوِ عَنْ هَذَا الرَّجُلِ، لكنْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ لَوْ عفَوْنَا عَنْهُ الآنَ لَأَتَانَا بِبَلِيَّةٍ أُخْرَى فِي آخِرِ النَّهارِ، فهَذَا لَيْسَ أهْلًا للعَفْوِ؛ فكُلُّ النُّصُوصِ الَّتِي تحُثُّ عَلَى العَفْوِ يَجِبُ أنْ تَكُونَ مُقَيَّدَةً بقَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى:٤٠] لِأَنَّهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ مَعَ العَفْوِ إِصْلاحٌ كَانَ ظَالِمًا، والظُّلْمُ مَمْنُوعٌ.

وهَذَا فِي آياتٍ كَثِيرَةٍ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾ [النحل:١٢٦] ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الشورى:٤٠] فذَكَرَ المَراتِبَ الثَّلاثَ؛ ولَمَّا كَانَ القِتَالُ فِي المَسْجِدِ الحَرَامِ مُحَرَّمًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِن قَـٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَـٰتُ قِصَاصٌ﴾ [البقرة:١٩١-١٩٤] وَهُوَ كُلُّ مَا حَرَّمَهُ اللهُ، وأَمَرَ باحْتِرَامِهِ، فَمَنِ انْتَهَكَهُ فَقَدْ أباحَ اللهُ الاقْتِصَاصَ مِنْهُ بقَدْرِ مَا اعْتَدَى بِهِ لَا أَكْثَرَ.

وقَوْلُهُ: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [البقرة:١٩٤] ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ﴾ الآيَةَ [البقرة:١٧٨] ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ الآيَةَ [المائدة:٤٥] ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ [الإسراء:٣٣] ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ [النساء:١٤٨] والآياتُ فِي هَذَا المَعْنَى كَثِيرَةٌ. واللهُ أَعْلَمُ.

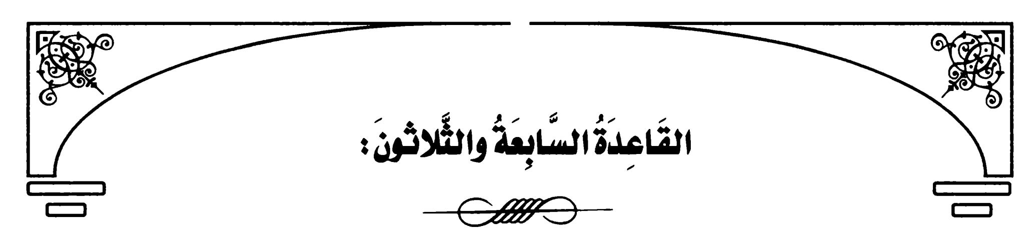
التعليق

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا﴾ هُوَ سُلْطَانٌ شَرْعِيٌّ طَبْعًا، ورُبَّمَا كَوْنِيٌّ أيضًا؛ بأَنْ يُيَسِّرَ اللهُ العُثُورَ عَلَى هَذَا القاتِلِ، فيُقْتَلُ؛ ولهَذَا يَقُولُ

العامَّةُ: «القَاتِلُ مَقْتُولٌ ولَوْ بَعْدَ حِينٍ» لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾.

ويَدُلُّ عَلَى هَذَا -أَنَّهُ شامِلٌ للسُّلْطَانِ الكَوْنِيِّ والشَّرْعِيِّ- قَوْلُهُ: ﴿فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ﴾ يعْنِي: كأَنَّ الأمْرَ مَفْرُوغٌ مِنْهُ، وأنَّ هَذَا القاتِلَ لَا بُدَّ أنْ يُقْتَلَ، لكنْ لَا يُسْرِفُ الوَلِيُّ فِي قَتْلِه، ولَا يَتَجَاوَزُ ويَتَعَدَّى.





القَاعِدَةُ السَّابِعَةُ والثَّلاثون:

اعْتَبَرَ اللهُ القَصْدَ والإِرَادَةَ فِي تَرَتُّبِ الأَحْكَامِ عَلَى أَعْمَالِ العِبَادِ

وهَذَا الأَصْلُ العَظِيمُ صرَّحَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ فِي قَوْلِهِ: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ»(١) والمَقْصُودُ هُنَا أَنَّهُ وَرَدَ آياتٌ كَثِيرَةٌ جِدًّا فِي هَذَا الأَصْلِ.

فَمِنْهَا: وَهُوَ أَعْظَمُهَا أَنَّهُ رَتَّبَ حُصُولَ الأَجْرِ العَظِيمِ عَلَى الأَعْمَالِ بِإِرَادَةِ وَجْهِهِ، لَمَّا ذَكَرَ الصَّدَقَةَ، والمَعْرُوفَ، والإِصْلَاحَ بَيْنَ النَّاسِ قَالَ: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:١١٤]...

التعليق

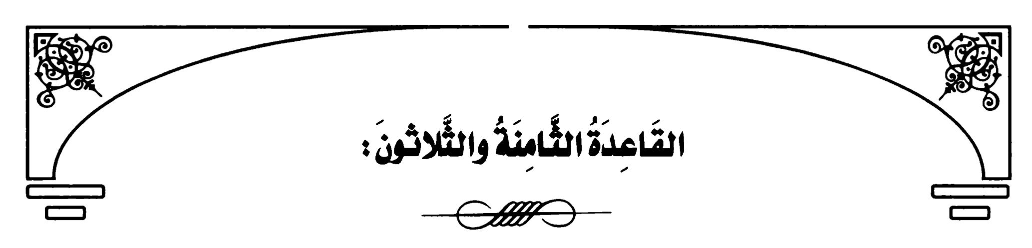
الأَمْرُ بِهَذِهِ الأَشْيَاءُ خَيْرٌ، مِنَ المَعْرُوفِ، والصَّدَقَةِ، والإِصْلَاحِ بَيْنَ النَّاسِ. لكنْ ثَوَابُ الآخِرَةِ لَا يَأْتِي إِلَّا بالنِّيَّةِ الخالِصَةِ: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾. أَمَّا مَنْ يَفْعَلُهُ رِياءً وسُمْعَةً، والعياذُ باللهِ، فَإِنَّهُ وإِنْ تَرَتَّبَ عَلَى فِعْلِهِ الخَيْرُ، وحَصَلَ الإِصْلَاحُ، والصَّدَقَةُ والمَعْرُوفُ، فَإِنَّهُ لَا يُؤْتَى عَلَيْهِ أَجْرًا عَظِيمًا.



(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ رقم (١)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات»، رقم (١٩٠٧)، من حديث عمر ابن الخطاب رضي الله عنه

... وقالَ: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٦٥] وفِي مُقابِلِهِ قَالَ: ﴿رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ [النساء:٣٨]. ووَصَفَ اللهُ نَبِيَّهُ وخِيارَ خَلْقِهِ مِنَ الصَّحابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بأنَّهُمْ ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ [الفتح:٢٩] وقالَ تَعالَى فِي الرَّجْعَةِ: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًا﴾ [البقرة:٢٢٨] ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة:٢٢٥] وقالَ تَعالَى: ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾ [النساء:١٢] ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ [النساء:٤] و﴿لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ [النساء:٢٩] وقالَ تَعالَى: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾ [البقرة:٢٢٠] وفِي دُعاءِ المُؤْمِنِينَ: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة:٢٨٦] قَالَ اللهُ: قَدْ فَعَلْتُ. ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب:٥].

وذَكَرَ اللهُ قَتْلَ الخَطَأِ، ورَتَّبَ عَلَيْهِ الدِّيَةَ والكَفَّارَةَ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٩٣] وقالَ فِي الصَّيْدِ: ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ الآيَةَ [المائدة:٩٥] وقالَ: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ [البقرة:٢٣٥] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الآياتِ الدَّالَّةِ عَلَى أنَّ أعْمالَ الأبْدانِ، وأقْوالَ اللِّسانِ؛ صِحَّتُها وفَسادُها، وتَرَتُّبُ أَجْرِهَا أَوْ وِزْرِهَا، بحَسَبِ مَا قَامَ بالقَلْبِ.



القَاعِدَةُ الثَّامِنَةُ والثَّلاثون:

قَدْ دلَّتْ آياتٌ كَثِيرَةٌ عَلَى جَبْرِ خَاطِرِ المُنْكَسِرِ قَلْبُهُ ومَنْ تَشَوَّفَتْ نَفْسُهُ لِأَمْرٍ مِنَ الأُمُورِ إِيجَابًا أَوِ اسْتِحْبَابًا

وهذِهِ قَاعِدَةٌ لَطِيفَةٌ، اعْتبَرَهَا البارِي، وأرْشَدَ عِبادَهُ إِلَيْهَا فِي عِدَّةِ آياتٍ:

مِنْهَا: المُطَلَّقَةُ، فَإِنَّهُ لَمَّا كانَتْ فِي الغالِبِ مُنْكَسِرَةَ القَلْبِ، حَزِينَةً عَلَى فِرَاقِ بَعْلِهَا -أَمَرَ اللهُ بِمُتْعَتِهَا عَلَى المُوسِعِ قَدَرُهُ، وعَلَى المُقْتِرِ قَدَرُهُ، مَتاعًا بالمَعْرُوفِ.

وكَذَلِكَ مَنْ مَاتَ زَوْجُهَا عَنْهَا، فإنَّ مِنْ تَمَامِ جَبْرِ خَاطِرِهَا أَنْ تَمْكُثَ عِنْدَ أَهْلِهِ سَنَةً كامِلَةً، وصِيَّةً ومُتْعَةً مُرَغَّبًا فِيهَا. وكَذَلِكَ أَوْجَبَ اللهُ للزَّوْجَةِ عَلَى الزَّوْجِ النَّفَقَةَ والكِسْوَةَ فِي مُدَّةِ العِدَّةِ إِذَا كانَتْ رَجْعِيَّةً، أَوْ كانَتْ حامِلًا مُطَلَّقًا.

وقالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُولُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [النساء:٨].

ويَدْخُلُ الوَاجِبُ والمُسْتَحَبُّ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٤١].

التعليق

وذلكَ لِأَنَّ يَوْمَ الحَصادِ يَحْضُرُهُ الفُقَرَاءُ فِي الغالِبِ، فكانَ إِعْطَاؤُهُمْ مُناسِبًا جِدًّا؛ لأَنَّكَ أَنْتَ تَحْصُدُ الزَّرْعَ، وتُكَدِّسُهُ، وتَدَّخِرُهُ، فيَنْبَغِي أَنْ لَا تُحْرِمَ هَؤُلاءِ الفُقَرَاءَ مِنْهُ.

وكَذَلِكَ إخْبارُهُ عَنْ عُقُوبَةِ أصْحابِ الجَنَّةِ الَّذِينَ أقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ، وتَوَاصَوْا أنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا اليَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ.

وقالَ تَعَالَى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء:٢٣-٢٤].

التعليق

قَوْلُهُ: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ﴾ لِأَنَّهُ إِذَا بَلَغَتِ الأُمُّ والأبُ الكِبَرَ ضَعُفَتْ نُفُوسُهُمَا ورَقَّتْ، واحْتَاجَا إِلَى مَنْ يَرْحَمُهُمَا، هَذَا مِنْ وجْهٍ.

ومِنْ وجهٍ آخَرَ: إِذَا بَلَغَا الكِبَرَ، فإنَّ الإنْسَانَ يَمَلُّ مِنْهُمَا ويَتْعَبُ، ويَحْتَاجُ أنْ يُوصَى بِهِمَا خَيْرًا فِي مِثْلِ هَذِهِ الحالِ.

إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الإسراء:٢٣-٢٦].

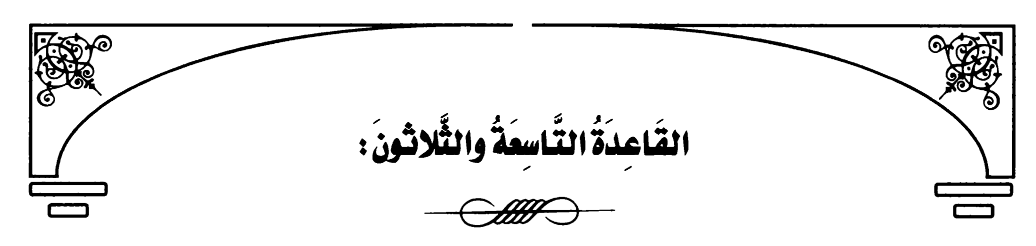
وقدْ ذَكَرَ اللهُ جَبْرَهُ لِقُلُوبِ أَنْبِيَائِهِ وأصْفِيَائِهِ أوْقاتَ الشِّدَّاتِ، وإجَابَتَهُ لِأَدْعِيَتِهِمْ أوْقَاتَ الحاجاتِ والضَّرُورَاتِ، وأمَرَ عِبادَهُ بانْتِظَارِ الفَرَجِ عِنْدَ الأزماتِ، فهَذَا أصْلٌ قَدِ اعْتَبَرَهُ اللهُ وأرْشَدَ إليْهِ، فيَنْبَغِي للعَبْدِ أنْ يَكُونَ عَلَى بالِهِ فِي وقْتِ المُناسباتِ، ويَعْتَبِرُهُ عِنْدَ وُجُودِ سَبَبِهِ.

التعليق

هذَا مِنَ الآدابِ العالِيَةِ، والخِصَالِ الحَمِيدَةِ، أَنَّهُ عِنْدَمَا تَجِدُ الإنْسَانَ مُنْكَسِرَ

القَلْبِ إمَّا لِفَوَاتِ محْبُوبٍ أَوْ غَيْرِ ذلكَ -فيَنْبَغِي أنْ تُدْخِلَ عَلَيْهِ الفَرَحَ والسُّرُورَ، وتُهَوِّنَ عَلَيْهِ المُصِيبَةَ بتَذْكِيرِهِ بِمَا هُوَ أعْظَمُ، فَإِذَا تَلِفَ لَهُ مالٌ، تَقُولُ: إنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ تَلِفَتْ لَهُمْ أَمْوَالُهُمْ كُلُّهَا، وإذَا أُصِيبَ بمَرَضٍ فِي عَيْنِهِ، تَقُولُ: إنَّ بَعْضَ النَّاسِ قَدْ يُصابُ بالعَمَى، وهكَذَا؛ حَتَّى تُخَفِّفَ عَلَيْهِ الأُمُورَ، ومِنْ ذَلِكَ تَعْزِيَةُ المُصابِ.





القَاعِدَةُ التَّاسِعَةُ والثَّلاثُونَ:

فِي طَرِيقَةِ القُرْآنِ فِي أَحْوَالِ السِّيَاسَةِ الدَّاخِلِيَّةِ والخَارِجِيَّةِ

طَرِيقَةُ القُرْآنِ فِي هَذَا أعْلَى طَرِيقَةٍ، وأقْرَبُ إِلَى حُصُولِ جَمِيعِ المَصالِحِ الكُلِّيَّةِ، وإِلَى دَفْعِ المَفاسِدِ، ولوْ لَمْ يَكُنْ فِي القُرْآنِ مِنْ هَذَا النَّوْعِ إلَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران:١٥٩] وإخْبارُهُ عَنِ المُؤْمِنِينَ أنَّ أَمْرَهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ؛ فالأمْرُ مُفْرَدٌ مُضافٌ إِلَى المُؤْمِنِينَ، وفِي الآيَةِ الأُولَى قَدْ دَخَلَتْ عَلَيْهِ (أل) المُفِيدَةُ للعُمُومِ والاسْتِغْرَاقِ، يَعْنِي: أنَّ جَمِيعَ أُمورِ المُؤْمِنِينَ، وشُؤُونَهُمْ، واسْتِجْلَابَ مَصالِحِهِمْ، واسْتِدْفَاعَ مَضارِّهِمْ، مُعَلَّقٌ بالشُّورَى، والتَّرَاوُدِ عَلَى تَعْيِينِ الأمْرِ الَّذِي يَجْرُونَ عَلَيْهِ.

وقَدِ اتَّفَقَ العُقَلاءُ أنَّ الطَّرِيقَ الوَحِيدَ للصَّلاحِ الدِّينِيِّ والدُّنْيَوِيِّ هُوَ طَرِيقُ الشُّورَى، فالمُسْلِمُونَ قَدْ أرْشَدَهُمُ اللهُ إِلَى أنْ يَهْتَدُوا إِلَى مَصالِحِهِمْ، وكَيْفِيَّةِ الوُصُولِ إِلَيْهَا بإِعْمَالِ أفْكارِهِمْ مُجْتَمِعَةً، فَإِذَا تَعَيَّنَتِ المَصْلَحَةُ فِي طَرِيقٍ سَلَكُوهُ، وإِذَا تَعَيَّنَتِ المَضَرَّةُ فِي طَرِيقٍ تَرَكُوهُ، وإِذَا كَانَ فِي ذَلِكَ مَصلَحَةٌ ومَضَرَّةٌ نَظَرُوا أَيُّهَا أقْوَى، وأدْلَى، وأحْسَنَ عاقِبَةً، وإِذَا رَأَوْا أمْرًا مِنَ الأُمورِ هُوَ المَصْلَحَةَ، ولكنْ لَيْسَتْ أسْبَابُهُ عَتِيدَةً عِنْدَهُمْ، ولَا لَهُمْ قُدْرَةٌ عَلَيْهَا -نَظَرُوا بأيِّ شَيْءٍ تُدْرَكُ تِلْكَ الأسْبَابُ، وبأيِّ حالَةٍ تُنَالُ عَلَى وجْهٍ لَا يَضُرُّ.

وإِذَا رَأَوْا مَصَالِحَهُمْ تَتَوَقَّفُ عَلَى الاسْتِعْدَادِ بالفُنُونِ الحَدِيثَةِ، والاخْتِرَاعَاتِ

الباهِرَةِ -سَعَوْا لذلكَ بحَسَبِ اقْتِدَارِهِمْ، وَلَمْ يَمْلِكْهُمُ اليَأْسُ والاتِّكَالُ عَلَى غَيْرِهِمُ المُلْقِي إِلَى التَّهْلُكَةِ.

وإذَا عَرَفُوا -وقَدْ عَرَفُوا- أَنَّ السَّعْيَ لاتِّفاقِ الكَلِمَةِ، وتَوْحِيدِ الأُمَّةِ، هُوَ الطَّرِيقُ الأَقْوَمُ للقُوَّةِ المَعْنَوِيَّةِ -جَدُّوا فِي هَذَا واجْتَهَدُوا. وإذَا رَأَوُا المَصْلَحَةَ فِي المُقاوَمَةِ والمُهاجَمَةِ، أَوْ فِي المُسالَمَةِ والمُدافَعَةِ بحَسَبِ الإمْكَانِ، سَلَكُوا مَا تَعَيَّنَتْ مَصْلَحَتُهُ، فَيُقْدِمُونَ فِي مَوْضِعِ الإِقْدَامِ، ويُحْجِمُونَ فِي مَوْضِعِ الإحْجَامِ.

وبالجُمْلَةِ: لَا يَدَعُونَ مَصْلَحَةً دَاخِلِيَّةً ولَا خَارِجِيَّةً، دَقِيقَةً ولَا جَلِيلَةً -إِلَّا تَشَاوَرُوا فِيهَا، وفِي طَرِيقِ تَحْصِيلِهَا وتَنْمِيَتِهَا، ودَفْعِ مَا يُضادُّهَا ويَنْقُصُهَا. فهَذَا النِّظَامُ العَجِيبُ الَّذِي أَرْشَدَ إِلَيْهِ القُرْآنُ هُوَ النِّظامُ الَّذِي يَصْلُحُ فِي كُلِّ زَمَانٍ ومَكانٍ، وفِي كُلِّ أُمَّةٍ ضَعِيفَةٍ أَوْ قَوِيَّةٍ.

ومِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال:٦٠] فهَذِهِ الآيَةُ نَصٌّ صَرِيحٌ بوُجُوبِ الاسْتِعْدَادِ للأَعْدَاءِ بِمَا اسْتَطَاعَهُ المُسْلِمُونَ مِنْ قُوَّةٍ عَقْلِيَّةٍ، ومَعْنَوِيَّةٍ، ومَادِّيَّةٍ، مِمَّا لا يُمْكِنُ حَصْرُ أفْرَادِهِ، وفِي كُلِّ وقْتٍ يَتَعَيَّنُ سُلُوكُ مَا يُلائِمُ ذَلِكَ الوَقْتِ ويُناسِبُهُ.

ومِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ [النساء:٧١] ونَحْوُهَا مِنَ الآياتِ الَّتِي أَرْشَدَ اللهُ فِيهَا إِلَى التَّحَرُّزِ مِنَ الأَعْدَاءِ، فكُلُّ طَرِيقٍ وسَبَبٍ يُتَحَرَّزُ بِهِ مِنَ الأَعْدَاءِ فَإِنَّهُ دَاخِلٌ فِي هذَا، ولِكُلِّ وقْتٍ لَبُوسُهُ.

ومِنْ عَجِيبِ مَا نَبَّهَ عَلَيْهِ القُرْآنُ مِنَ النِّظَامِ الوَحِيدِ: أَنَّ اللهَ عاتَبَ المُؤْمِنِينَ بقَوْلِهِ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ

أَعْقَـٰبِكُمْ﴾ [آل عمران:١٤٤] فأَرْشَدَ عِبادَهُ إِلَى أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونُوا بحالَةٍ مِنْ جَرَيَانِ الأُمُورِ عَلَى طَرِيقِهَا، لَا يُزَعْزِهُمْ عَنْهَا فَقْدُ رَئِيسٍ وإِنْ عَظُمَ، ومَا ذَاكَ إِلَّا بأَنْ يَسْتَعِدُّوا لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْ أُمُورِهِمُ الدِّينِيَّةِ والدُّنْيَوِيَّةِ بِعِدَّةِ أُناسٍ إِذَا فُقِدَ أَحَدُهُمْ قَامَ بِهِ غَيْرُهُ، وأَنْ تَكُونَ الأُمَّةُ مُتَوَحِّدَةً فِي إِرَادَتِهَا، وعَزْمِهَا، ومَقاصِدِهَا، وجَمِيعِ شُؤُونِهَا، قَصْدُهُمْ جَمِيعًا أَنْ تَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا، وأَنْ تَقُومَ جَمِيعُ الأُمُورِ بحَسَبِ قُدْرَتِهِمْ.

وقالَ تَعالَى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦] أَي: اتَّقُوا غَضَبَهُ وعِقَابَهُ بالقِيامِ بِمَا أَمَرَ بِهِ مِنْ كُلِّ مَا فِيهِ الخَيْرُ والصَّلاحُ لَكُمْ جَماعَةً ومُنْفَرِدِينَ، فكُلُّ مَصْلَحَةٍ أَمَرَ اللهُ بِهَا وَهِيَ مُتَوَقِّفَةٌ فِي حُصُولِهَا أَوْ فِي كَمالِهَا عَلَى أَمْرٍ مِنَ الأُمُورِ السَّابِقَةِ أَوِ اللاحِقَةِ، فَإِنَّهُ يَجِبُ تَحْصِيلُهَا بحَسَبِ الاسْتِطَاعَةِ، فلَا يُكَلِّفُهُمُ اللهُ مَا لَا يُطِيقُونَ.

وكَذَلِكَ كُلُّ مَفْسَدَةٍ ومَضَرَّةٍ لَا يُمْكِنُ اجْتِنَابُهَا إِلَّا بسُلُوكِ بَعْضِ الطُّرُقِ السَّابِقَةِ أَوِ اللَّاحِقَةِ، فإِنَّهَا داخِلَةٌ فِي تَقْوَى اللهِ تَعالَى؛ وذلكَ أَنَّ لازِمَ الحَقِّ حَقٌّ، والوَسائِلُ لَهَا أَحْكَامُ المَقاصِدِ.

التعليق

أَشَارَ شَيْخُنَا رَحِمَهُ ٱللَّهُ إِلَى شَيْئَيْنِ:

الأَوَّلُ: الشُّورَى، بأَنْ تَجْتَمِعَ الأُمَّةُ، وتَتَشَاوَرَ فِي أُمُورِهَا الدَّاخِلِيَّةِ والخَارِجِيَّةِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا صَدَرَ الأَمْرُ مِنَ الشُّورَى لَمْ يَكُنْ رَأْيًا واحِدًا، بَلْ عِدَّةَ آرَاءٍ. ومِنَ المَعْلُومِ أَنَّ تَعَدُّدَ الآراءِ أَقْرَبُ إِلَى الصَّوابِ مِنَ الرَّأْيِ الواحِدِ؛ فإِنَّ الإِنْسَانَ أَحْيانًا إِذَا كَرَّرَ النَّظَرَ فِي الأَمْرِ يَتَبَيَّنُ لَهُ خَطَأُ الرَّأْيِ الأَوَّلِ الَّذِي كَانَ عِنْدَهُ لأَوَّلِ مَرَّةٍ.

أَحْيَانًا يُنَفِّذُ شَيْئًا، ثُمَّ يَقُولُ: لَيْتَنِي لَمْ أُنَفِّذْ، لَيْتَنِي بَقِيتُ أَتَرَوَّى فِي الأَمْرِ وأَنْظُرُ،

حَتَّى يَكُونَ الحُكْمُ عَلَى يَقِينٍ وتُؤَدَةٍ.

هَذَا وَهُوَ إنْسَانٌ واحِدٌ يَجِدُ مِنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ كُلَّمَا كَرَّرَ الأمْرَ ونَظَرَ فِيهِ، كَانَ إِلَى الصَّوَابِ أقْرَبَ، فكَيْفَ إِذَا كَانُوا جَماعَةً؟! ولكِنِ المُشْكِلُ فِي زَمَنِنَا هَذَا هُوَ أَنَّكَ لَا تَكادُ تَجِدُ شَخْصًا حَسَنَ النِّيَّةِ، مُخْلِصًا، وهذِهِ هِيَ البَلِيَّةُ. لَا تَكَادُ تَجِدُ إنْسانًا يَتكَلَّمُ فِي أُمُورِ السِّياسَةِ الدَّاخِلِيَّةِ والخَارِجِيَّةِ، وَهُوَ يَقْصِدُ مَصْلَحَةَ الأُمَّةِ، وهَذَا هُوَ الَّذِي يَجْعَلُ الإنْسَانَ يَتحَيَّرُ أحْيانًا، ويَقُولُ: ماذَا تَنْفَعُ الشُّورَى، وكُلُّ واحِدٍ مِنْ هَؤُلاءِ المُتَشَاوِرِينَ لَا يَسْعَى إِلَّا لِمَصْلَحَةٍ خاصَّةٍ؟!

ولِهَذَا تَأَمَّلْ قَوْلَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى:٣٨] يعْنِي: يَنْظُرُونَ إِلَى هَذَا الأمْرِ والَّذِي هُوَ أمْرُ الجَمِيعِ، ولَيْسَ أمْرًا خاصًّا؛ فهَذَا هُوَ الَّذِي يُوجِبُ أنْ يَقُولَ القائِلُ: كَيْفَ يُمْكِنُ أنْ نَحْصُلَ عَلَى الشُّورَى؟ وأَيْنَ مَنْ نَثِقُ بدِينِهِ وأَمانَتِهِ ونُصْحِهِ؟ هَذَا قَلِيلٌ، لَوْ وَجَدْنَا شَخْصًا جَيِّدًا فِي الرَّأْيِ والتَّدْبِيرِ، قَدْ يَكُونُ خائِنًا مِنْ حَيْثُ الأمانَةُ. ولَوْ وَجَدْنَا أَمِينًا مُخْلِصًا، فقدْ يَكُونُ ضَعِيفًا مِنْ جِهَةِ الرَّأْيِ والتَّفْكِيرِ. فأمْرُ الشُّورَى لَا شَكَّ أَنَّهُ خيْرٌ، ولكنْ مُشْكِلَتُهُ أَنَّكَ لَا تَكادُ تَجِدُ مَنْ هُوَ أهْلٌ للشُّورَى.

الأَمْرُ الثَّانِي مِمَّا أشارَ إلَيْهِ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ: أَنَّهُ يَنبَغِي للنَّاسِ أنْ يَعْتَزُّوا بِأَنْفُسِهِمْ لَا بقُوَّادِهِمْ، وأنْ يَعْتَقِدَ كُلُّ واحِدٍ مِنْهُمْ أَنَّهُ نَفْسُ ذَلِكَ القائِدِ؛ لأَنَّهُمْ إِذَا جعَلُوا القِيادَةَ لوَاحِدٍ، حَقِيقَةً، وظاهِرًا، وتَصرُّفًا، فإنَّهَا تَهُونُ نُفُوسُهُمْ إِذَا فُقِدَ ذَلِكَ الواحِدُ، وقَدْ أرْشَدَ اللهُ إِلَى ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ [آل عمران:١٤٤] هَلْ إِذَا ماتَ مُحَمَّدٌ ﷺ ما يَبْقَى

لَكُمْ بَقِيَّةٌ عَلَى الإِسْلَامِ؟! هَذَا لَيْسَ بصَحِيحٍ.

وهكَذَا يَنْبَغِي لَنَا أَنْ لَا نُرَكِّزَ عَلَى الرَّئِيسِ الواحِدِ، بَلْ نَعْتَقِدُ أَنَّنَا كُلَّنَا قائِمٌ مَقام هَذَا الرَّجُلِ؛ حَتَّى لَا نَفْقِدَهُ إِذَا فُقِدَ، وأَنْ نَجعَلَ العَمَلَ سائِرًا عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ، وهذانِ الأَمْرَانِ مُهِمَّانِ؛ ولهَذَا يُذْكَرُ عَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ إِذَا رَأَى قائدًا قَدْ رَكِبَهُ النَّاسُ وأُعْجِبُوا بهِ، فَإِنَّهُ يَعْزِلُهُ.

وإِنَّمَا يَعزِلُهُ لِسَبَبَيْنِ:

السَّبَبُ الأَوَّلُ: أنْ لَا يَتَّكِلَ النَّاسُ عَلَيْهِ.

والسَّبَبُ الثَّانِي: طَرْدًا لإعْجَابِهِ بنَفْسِهِ، وارْتِفَاعِهِ، وتَعالِيهِ، وتَكَبُّرِهِ؛ فهذِهِ أَيْضًا مُهِمَّةٌ جِدًّا؛ ولهَذَا نَسْمَعُ عَنْ بَعْضِ الخُطَبَاءِ مِنْ رُؤَسَاءِ العَرَبِ الَّذِينَ مَلَكُوا القُلُوبَ فِي وَقْتِهِمْ، يَقُول: أَنَا لَسْتُ فُلانًا، ويُسَمِّي نَفْسَهُ، ولَكِنَّكُمْ كُلُّكُم فُلانٌ، فانْظُرْ كَيْفَ يَكُونُ التَّأْثِيرُ والتَّوْجِيهُ! كُلُّكُمْ فُلانٌ! يعْنِي: أَنَّهُ إِذَا كانَتِ السِّياسَةُ قَدْ أَعْجَبَتْكُمْ، وأَنَا مَحَلُّ إِعْجابِكُمْ فلَا يَجِبُ أَنْ تَجْعَلُونِي وكأَنِّي أَتَصَرَّفُ لِشَخْصِي أَنَا، ولكنِ اجْعَلُوا أَنْفسَكُمْ، كُلَّكُمْ، أَنْتُمْ ذَلِكَ الرَّجُلَ، والآيَةُ الكَرِيمَةُ الَّتِي ذَكَرَهَا الشَّيْخُ تُشِيرُ إِلَى هذَا.

ومِنَ المُهِمِّ أيضًا إعْدَادُ القُوَّةِ للأعْداءِ، وتَأَمَّلْ قَوْلَهُ تَعالَى: ﴿مِّن قُوَّةٍ﴾ تَجِدُ أَنَّهَا نَكِرَةٌ فِي سِياقِ الإِثْبَاتِ ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال:٦٠] لكنَّهَا لَا تَتَعَيَّنُ بقُوَّةٍ مُعَيَّنَةٍ، فَإِذَا كَانَ أَعْداؤُنَا يُحارِبُونَنَا بالسِّلاحِ، فإِعْدادُ القُوَّةِ يَكُونُ بالسِّلاحِ. وإِذَا كَانُوا يُحَارِبُونَنَا بالأَفكارِ، فَإِعْدَادُ القُوَّةِ يَكُونُ بالأَفْكارِ، وأَنْ نَدْرُسَ أَفْكارَهُمْ هَذِهِ؛ لِنَرُدَّ عَلَيْهَا؛ لِأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ نَعْرِفَ الباطِلَ حَتَّى نَقْرَأَهُ ونَتَعَلَّمَهُ؛

ولهَذَا قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ: «إِنَّكَ تَأْتِي قَـوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ»[1] أيْ: فَادْرُسْ أحْوَالَهُمْ.

لَوْ أَرَدْتَ أنْ تَرُدَّ عَلَى صاحِبِ الباطِلِ، وأنْتَ لَا تَعرِفُ باطِلَهُ، هَلْ يُمْكِنُ أنْ تَرُدَّ عَلَيْهِ؟ أبدًا، بَلِ اعْرِفْ بَاطِلَهُ لِتَرُدَّ عليْهِ، وهذِهِ طَرِيقَةُ العُلَماءِ، كَيْفَ فَنَّدَ شَيْخُ الإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ أقْوالَ الفَلاسِفَةِ والمَناطِقَةِ والمُتكلِّمِينَ؟ لِأَنَّهُ رَحِمَهُ اللَّهُ دَرَسَ هَذِهِ الأشْيَاءَ وعَرَفَهَا.

فتبَيَّنَ أنَّ قَوْلَهُ تَعالَى: ﴿مِّن قُوَّةٍ﴾ نكِرَةٌ، لَا تَتَعَيَّنُ بقُوَّةٍ مُعَيَّنَةٍ؛ فأيُّ سِلَاحٍ يَغْزُونَنَا بِهِ فإنَّنا نُعِدُّ لَهُمْ مَا نَسْتَطِيعُ مِنْ هَذِهِ القُوَّةِ. وعَلَى هذَا، فَإِذَا غَزَوْنَا بالأخْلَاقِ، أَوْ بالأفْكَارِ، أَوْ بالسِّلَاحِ، يَجِبُ أنْ نَسْتَعِدَّ لَهُمْ بكُلِّ هَذِهِ الأُمُورِ الثَّلاثَةِ؛ حَتَّى يُمْكِنَ أنْ نُقابِلَهُمْ.

وهَلْ يُشْتَرَطُ المِثْلُ مِنَ السِّلاحِ؟ يُشْتَرَطُ أكْثَرُ، فإنْ لَمْ نَسْتَطِعْ فلَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إلَّا وُسْعَهَا. لكنْ قَوْلُهُ: ﴿مَا ٱسْتَطَعْتُم﴾ يَدُلُّ عَلَى أنَّهُ يَكُونُ بقَدْرِ المُسْتَطَاعِ مِنْ قُوَّةٍ، وأعْدَاؤُنَا الآنَ سَبَقُونا بمَرَاحِلَ، لكنْ ألَا يُمْكِنُ أنْ نَتعَلَّمَ؟ ألَا يُمْكِنُ أنْ نَشْتَرِيَ مِنهُمْ مَا اسْتَطَعْنَا؟ وإنْ كَانُوا هُمْ فِي الحَقِيقَةِ يُخادِعُونَ! فَيَبِيعُونَ عَلَيْنَا التالِفَ فِي الخَزَائِنِ! وفِي نَفْسِ الوَقْتِ يُسَبِّبُونَ المَشاكِلَ بَيْنَنَا؛ لِأَنَّ هَذَا السِّلاحَ مَا يَنْفُذُ إلَّا إذَا وَقَعَتْ مَشاكِلُ بيْنَنَا، فَيُسَوِّقُونَهُ عَلَيْنَا؛ وهُمْ خُبَثَاءُ، لَا يُرِيدُونَ السِّلْمَ أبدًا، ولوْ نَطَحُوا لَطَحَنُوا العالَمَ، ولكنَّهُمْ أذْكِياءُ، قَالُـوا: لَمَّا تَقدَّمْنا هَذَا التَّقَدُّمَ الباهِرَ فِي الصِّنَاعَةِ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد في الفقراء حيث كانوا، رقم (١٤٩٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، رقم (١٩)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

والسِّلاحِ وغَيْرِهِمَا، نَأْتِي بالسِّلاحِ الَّذِي كُنَّا أَعْدَدْنَاهُ أَوَّلًا، ونَتَخَلَّصُ مِنْهُ، فنُعْطِيهِ هَؤُلاءِ المَساكِينَ، ونَعْمَلُ لَهُمْ مَشاكِلَ، ونَجْعَلُهُمْ يَتَقَاتَلُونَ.

أَمَّا نَحْنُ المُسْلِمِينَ فلَوْ طَبَّقْنَا الإِسْلَامَ بمَحاسِنِهِ وتَشْرِيعَاتِهِ السَّامِيَةِ، وبَذَلْنَا الوَاجِبَ فِي سَبِيلِ الدَّعْوَةِ إليْهِ -فإِنَّ مُعْظَمَ شُعُوبِهِمْ سَيَأْتُونَ إِلَيْنَا ويَدعُونَ ضَلالاتِهِمْ؛ لِأَنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلَامُ.

ومِنَ الآياتِ الجامِعَةِ فِي السِّيَاسَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ الآيَةَ [النساء:٥٨] والآيَةُ الَّتِي بَعْدَهَا؛ فالأَماناتُ يَدْخُلُ فِيهَا أَشْياءُ كَثِيرَةٌ، مِنْ أَجَلِّهَا الوِلاياتُ الكَبِيرَةُ، والصَّغِيرَةُ، والمُتَوَسِّطَةُ، الدِّينِيَّةُ والدُّنْيَوِيَّةُ، فَقَدْ أَمَرَ اللهُ أَنْ تُؤَدَّى إِلَى أَهْلِهَا بأَنْ يُجْعَلَ فِيهَا الأَكْفاءُ لها، وكُلُّ وِلايَةٍ لَهَا أَكْفاءٌ مَخْصُوصُونَ، فهَذَا الطَّرِيقُ الَّذِي أَمَرَ اللهُ بِهِ فِي الوِلاياتِ مِنْ أَصْلَحِ الطُّرُقِ لِصَلَاحِ جَمِيعِ الأَحْوَالِ، فإِنَّ صَلاحَ الأُمُورِ بصَلَاحِ المُتَوَلِّينَ والرُّؤَسَاءِ فِيهَا، والمُدَبِّرِينَ لَهَا، والعَامِلِينَ لَهَا،...

التعليق

وهَذَا أيضًا مِنَ السِّيَاسَةِ المُوَجَّهَةِ لِعَمَلٍ مُعَيَّنٍ، أنْ يَخْتَصُّوا به، فلَوْ أَنَّنَا أَرَدْنَا أنْ نُوَلِّيَ شَخْصًا مِنْ مُتَخَرِّجِي كُلِّيَّةِ الشَّرِيعَةِ لِيَكُونَ قائِمًا بتَدْرِيسِ كُلِّيَّةِ الهَنْدَسَةِ لَمْ يَصْلُحْ، لَا بُدَّ أنْ يَكُونَ حَسَبَ الاخْتِصَاصِ، فيَجِبُ أنْ تُؤَدَّى الأماناتُ إِلَى أَهْلِهَا الَّذِينَ يُمْكِنُ أنْ يَقُومُوا بِهَا، ويُؤَدُّوا الأمانَةَ فِيهَا، ولكُلِّ مَقامٍ مَقالٌ، ولَا نَجْعَلُ عالِمَ الفِقْهِ يُدَرِّسُ النَّحْوَ، أَوِ العالِمَ بالنَّحْوِ يُدَرِّسُ الفِقْهَ! لَا يُمْكِنُ، هَذِهِ تُعْتَبَرُ خِيانَةً.

هَذِهِ هِيَ السِّيَاسَةُ، هَذِهِ مِنْ أَعْظَمِ السِّياساتِ، لَوْ أَنَّ وُلاةَ الأُمُورِ لاحَظُوهَا، وجَعَلُوا كُلَّ إنسانٍ لَهُ اخْتِصَاصٌ بعَمَلٍ أَنْ يَشْغَلَ عَمَلَهُ، فَلَيْسَ مِنَ الحِكْمَةِ أَنْ يَأْتِيَ خِرِّيجُ كُلِّيَّةِ الشَّرِيعَةِ الَّذِي أَنْفَقَتْ عَلَيْهِ الحُكُومَةُ مَا أَنْفَقَتْ مِنَ الأَمْوَالِ، ثُمَّ يَعْمَلُ عَمَلًا كِتَابِيًّا! هَذَا ضَياعٌ للوَقْتِ، وضَياعٌ للمالِ، وضَياعٌ للرِّجالِ وللأعْمالِ.

العَمَلُ الكِتَابِيُّ كُلُّ أحَدٍ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَعْمَلَ فِيهِ، وإِذَا طَبَّقْنَا هَذِهِ الحالَةَ عَلَى الآيَةِ وَجَدْنَا أَنَّهَا تَضْيِيعٌ للأَمانَةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ لكِنْ مَا الَّذِي يَجْعَلُ المُتخَرِّجَ مِنْ كُلِّيَّةِ الشَّرِيعَةِ كاتِبَ آلَةٍ، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ؟ ويَفْرَحُ بِذَلِكَ أيضًا! لِأَنَّهُ رُبَّمَا اجْتَازَ اخْتِبَارَهُ بالغِشِّ، وإِذَا صَارَ بالغِشِّ لَا يَكُونُ عِنْدَهُ حَصِيلَةٌ. وإِنْ وَقَفَ يُدَرِّسُ الطَّلَبَةَ ارْتَبَكَ أَمَامَهُمْ، واحْتَارَ وهُمْ يُلْقُونَ عَلَيْهِ سُؤَالًا صَغِيرًا؛ ولهَذَا يَنْفِرُ بَعْضُ المُتخَرِّجِينَ مِنْ عَمَلِ التَّدْرِيسِ، والسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُمْ مُخْفِقُونَ؛ فلِذَلِكَ لَا يُرِيدُونَ أَنْ يُعَلِّمُوا. واللهُ أَعْلَمُ.

ويَجِبُ تَوْلِيَةُ الأمْثَلِ فالأمْثَلِ ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص:٢٦] فصَلاحُ المُتَوَلِّينَ للوِلاياتِ الكُبْرَى والصُّغْرَى عُنْوَانُ صَلاحِ الأُمَّةِ، وضِدُّهُ بضِدِّهِ، ثُمَّ أرْشَدَهُمْ إِلَى الحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ بالعَدْلِ، الَّذِي مَا قامَتِ السَّماوَاتُ والأَرْضُ إِلَّا بهِ،...

التعليق

قَوْلُهُ: «يَجِبُ تَوْلِيَةُ الأَمْثَلِ فالأَمْثَلِ» ذَكَرَ الفُقَهاءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ عَشَرَةَ شُرُوطٍ للقَاضِي، لَوْ فَتَّشْتَ فِي وَقْتِنا الحاضِرِ عَمَّنْ تَنطَبِقُ عَلَيْهِ مَا وَجَدْتَ أَحَدًا، لكِنْ قَالَ

حَبْرُ زَمانِهِ، شَيْخُ الإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إِنَّهُ يُوَلَّى الأَمْثَلُ فالأَمْثَلُ، حَتَّى إِنَّهُ يُوَلَّى أَعْدَلُ الفَاسِقِينَ إِذَا لَمْ نَجِدْ عَدْلًا، نُوَلِّيهِ ولَوْ كَانَ فاسِقًا، ولَا نَدَعُ الأُمُورَ تَذْهَبُ بِدُونِ وِلَايَةٍ[1]. فيُنْظَرُ الأَمْثَلُ فالأَمْثَلُ، ومَنْ كَانَ أَمْثَلَ فِي القِيامِ بهَذَا العَمَلِ ووُلِّيَ مَنْ هُوَ دُونَهُ، كَانَ ذَلِكَ خِيانَةً.

... فالعَدْلُ قِوَامُ الأُمُورِ ورُوحُهَا، وبفَقْدِهِ تَفْسُدُ الأُمُورُ، والحُكْمُ بالعَدْلِ مِنْ لازِمِهِ مَعْرِفَةُ العَدْلِ فِي كُلِّ أمْرٍ مِنَ الأمورِ، فَإِذَا كَانَ المُتَوَلُّونَ للوِلاياتِ هُمُ الكُمَّلَ مِنَ الرِّجالِ، والأكْفَاءَ للأعْمالِ، وجَرَتْ تَدَابِيرُهُمْ وأفْعالُهُمْ عَلَى العَدْلِ والسَّدَادِ، مُتَجَنِّبِينَ للظُّلْمِ والفَسادِ، تَرَقَّتِ الأُمَّةُ وصَلَحَتْ أَحْوالُها، وتَمامُ ذَلِكَ فِي الآيَةِ الأُخْرَى الَّتِي أمَرَ اللهُ فِيهَا بطَاعَةِ وُلاةِ الأُمُورِ، فهَلْ يُوجَدُ أكْمَلُ وأعْلَى مِنْ هَذِهِ السِّيَاسَةِ الحَكِيمَةِ الَّتِي عَواقِبُها أَحْمَدُ العَوَاقِبِ؟

التعليق

طاعَةُ وُلاةِ الأُمُورِ تَبَعٌ لطَاعَةِ اللهِ ورَسُولِهِ، كَما يُشِيرُ إِلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ [النساء:٥٩] ولَمْ يَقُلْ: «وأَطِيعُوا أُولِي الأَمْرِ» بَلْ قَالَ: ﴿وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ وهَذَا يَدُلُّ عَلَى أنَّ طاعَةَ وُلاةِ الأُمُورِ تابِعَةٌ لطاعَةِ اللهِ ورَسُولِهِ.

وعلَيْهِ، فَإِذَا أَمَرَ وُلاةُ الأُمُورِ بأَمْرٍ فِيهِ مَعْصِيَةٌ للهِ ورَسُولِهِ، فإِنَّهُمْ لَا يُطاعُونَ، وإِذَا أَمَرُوا بأمْرٍ فِيهِ طاعَةُ اللهِ ورَسُولِهِ، فإِنَّهُمْ يُطاعُونَ مِنْ وَجْهَيْنِ:

---

(١) الفتاوى الكبرى (٥/ ٥٥٦).

أَوَّلًا: أَنَّ هَذَا مِنْ طاعَةِ اللهِ ورَسُولِهِ.

والثَّاني: أَنَّهُ مِنْ طَاعَةِ وُلاةِ الأُمورِ.

وإِذَا أَمَرُوا بأَمْرٍ لَيْسَ فِيهِ طاعَةٌ ولَا مَعْصِيَةٌ، وجَبَتْ طَاعَتُهُمْ، وهذِهِ هِيَ النُّقْطَةُ الَّتِي يَجِبُ أَنْ نُرَكِّزَ عَلَيْهَا، وإِلَّا لَوْ قُلْنَا: إِنَّهُمْ لا يُطاعُونَ إِلَّا فِيمَا هُوَ طَاعَةٌ للهِ ورَسُولِهِ لكَانُوا كغَيْرِهِمْ مِنَ النَّاسِ، حَتَّى الواحِدُ مِنَ النَّاسِ لَوْ أَمَرَكَ بطاعَةِ اللهِ كَانَ أَمْرُهُ مُطَاعًا، لَا لِأَمْرِهِ، ولكنْ لِأَنَّهُ طاعَةٌ للهِ جَلَّ وَعَلَا.

ولهَذَا يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نُطِيعَ وُلاةَ الأُمُورِ فِيمَا نَظَّمُوهُ لِمَصْلَحَةِ الأُمَّةِ، وإِنْ لَمْ يَكُنْ طاعَةً للهِ والرَّسُولِ فِي ذَاتِهِ، إِلَّا إِذَا كَانَ مَعْصِيَةً. وأَمَّا قَوْلُ بَعْضِ الجُهَّالِ: نَحْنُ مَا نُطِيعُهُمْ إِلَّا إِذَا كَانَ هَذَا مِمَّا أَمَرَ اللهُ بِهِ، فهَذَا مُصادَمَةٌ للنَّصِّ، مُصادَمَةٌ لِدَلالَتِهِ، ومُصَادَمَةٌ لَهُ أيضًا، واللهُ أَمَرَ بطاعَةِ وُلاةِ الأُمُورِ إِلَّا فِي المَعْصِيَةِ.

وظاهِرُ قَوْلِهِ: ﴿وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ﴾ أَنَّهُ مَا دَامَتْ إِمْرَتُهُمْ باقِيَةً، فلَهُمُ الطَّاعَةُ، ولَا يُشْتَرَطُ فِي ذَلِكَ أَنْ يَكُونُوا عُدُولًا، بَلْ حَتَّى لَوْ رَأَيْنَا مِنْ بَعْضِهِمْ مَا هُوَ مَعْصِيَةٌ، فَإِنَّهُ يَجِبُ طَاعَتُهُ، مَا نَقُولُ: واللهِ مَا نُطِيعُهُ إِلَّا إِذَا أَطَاعَ اللهَ! بَلْ أَطِعْهُ، وإِنْ ضَرَبَ ظَهْرَكَ، وأَخَذَ مَالَكَ، مَا لَمْ يَأْمُرْ بمَعْصِيَةِ اللهِ.

ولهَذَا تَجِدُ هَؤُلاءِ الَّذِينَ نَعْتَبِرُهُمْ سُفَهَاءَ، خَرَجُوا عَلَى وُلاةِ الأمْرِ لِمُجَرَّدِ أَنَّهُمْ رَأَوْهُمْ فَسَقَةً! فماذَا حَصَلَ؟

حَصَلَ مِنَ الشَّرِّ والفَسادِ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ هَؤُلاءِ الوُلاةِ، اقْرَأِ التَّارِيخَ -مِنْ حِينِ حَصَلَ الاخْتِلَافُ عَلَى الأئِمَّةِ إِلَى يَوْمِنَا هذَا- تَجِدِ الشُّرُورَ والفَسَادَ كُلَّهُ فِي الخُرُوجِ عَلَى وُلاةِ الأُمُورِ. ماذَا حَصَلَ مِنْ قَتْلِ عُثْمانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؟ ومِنْ قَتْلِ عَلِيٍّ

ابْنِ أَبِي طالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؟ ومِنْ قَتْلِ مَنْ قُتِلَ مِنْ بَقِيَّةِ الخُلَفاءِ؟ حَصَلَ الشَّرُّ والفَسَادُ حَتَّى أُولَئِكَ السُّفَهاءُ الَّذِينَ خَرَجُوا عَلَى وُلاتِهِمْ، واسْتَحَلُّوا كَرَاسِيَهُمْ، وسَمَّوْهَا ثَوْرَةً ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، ماذَا حَصَلَ مِنْهُمْ؟ هَلْ أَصْلَحُوا الوَضْعَ؟ أبدًا، بَلْ إنَّ المُتَأَمِّلَ يَجِدُ أَنَّ الوَضْعَ الَّذِي كَانَ فِي السابِقِ خَيْرٌ مِمَّا هُوَ عَلَيْهِ الآنَ، كُلُّ ذَلِكَ بسَبَبِ الخُرُوجِ عَنْ طاعَةِ اللهِ ورَسُولِهِ.

فلَوْ أنَّ هَؤُلاءِ أَطَاعُوا اللهَ ورَسُولَهُ فِي الصَّبْرِ عَلَى وُلاةِ الأُمُورِ، وطَاعَتِهِمْ فِي غَيْرِ مَعْصِيَةِ اللهِ -لرَأَوْا خَيْرًا كَثِيرًا، حَتَّى لَوْ رَأَيْتَهُمْ يَعْصُونَ اللهَ فِي أُمُورٍ فَأَطِعْهُمْ، فطَاعَتُكَ إِيَّاهُمْ خَيْرٌ لكَ، وإِثْمُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وإنْ قَالُوا: لَا تَتَكَلَّمْ، فلَا تَتَكَلَّمْ، وانْصَحْهُمْ فِيمَا بَيْنَكَ وبَيْنَهُمْ إنْ تَمَكَّنْتَ، وإِلَّا فَأَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ.

يُذْكَرُ أنَّ بَعْضَ الخُلفاءِ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ سَمِعَ كَلامًا مِنْ بَعْضِ النَّاسِ، قَالَ: لِمَ لَا يَكُونُ هَذَا الخَلِيفَةُ مِثْلَ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ، مِثْلَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، مِثْلَ كذَا، مِثْلَ كذَا؟ فجَمَعَ النَّاسَ والوُجَهاءَ، وقالَ لَهُمْ: أَنْتُمْ تُرِيدُونَ أنْ أَكُونَ لَكُمْ مِثْلَ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: كُونُوا مِثْلَ النَّاسِ زَمَنَ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ أَكُنْ لَكُمْ مِثْلَ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ! فخَصَمَهُمْ.

وهَذَا مِنْ حِكْمَةِ اللهِ، كَمَا تكُونُونَ يُوَلَّى عَلَيْكُمْ. ولَيْسَ مِنَ الحِكْمَةِ أنْ يَأْتِيَ واحِدٌ مِثْلُ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ لِقَوْمٍ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ وصْفِ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ مِثْلَمَا بَيْنَ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ.

جَاءَ رَجُلٌ مِنَ الخَوارِجِ إِلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، وقالَ: يَا عَلِيُّ! لِمَ رَاحَ النَّاسُ عنْكَ، ولَمْ يُقْبِلُوا عَلَيْكَ ويَلْتَفُّوا حَوْلَكَ، كَمَا الْتَفُّوا حَوْلَ أَبِي بَكْرٍ وعُمَرَ؟ قَالَ: لِأَنَّ

رِجالَ أَبِي بَكْرٍ وعُمَرَ أَنَا وأَمْثَالِي، ورِجَالِي أَنْتَ وأَمْثَالُكَ. فَخَصَمَهُ.

فالوُلاةُ الآنَ، عليْكَ أنْ تَسْأَلَ اللهَ لَهُمُ العافِيَةَ فِيمَا حَصَلَ لَهُمْ مِنَ المُخالفاتِ، ولكنْ لَا تُثِرِ النَّاسَ عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّهُ لا يُفِيدُ أَبَدًا، بَلْ مَا يَزِيدُ الأَمْرَ إِلَّا شِدَّةً. قَالَ ابْنُ القَيِّمِ وغَيْرُهُ: يُولَّى عَلَى النَّاسِ مَنْ كَانَ مِثْلَهُمْ، ولَوْ رَجَعْنَا إِلَى هَؤُلاءِ الَّذِينَ يُرِيدُونَ مِنْ حُكَّامِهِمْ أَنْ يَكُونُوا مِثْلَ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ لَوَجَدْنَا عِنْدَهُمْ مِنَ البَغْيِ والحِقْدِ الشَّيْءَ الكَثِيرَ! بَلْ إِنَّ هَؤُلاءِ لَوْ تَأَمَّلْتَ أَحْوَالَهُمْ لَوَجَدْتَ غايَةَ مَا عِنْدَهُمْ أَنْ يَنَالُوا المَنْصِبَ فقطْ! ولَا تَجِدُ مِنْهُمُ التَّقْوَى الحَقِيقِيَّةَ، والإنابَةَ، والرُّجُوعَ للهِ عَزَّوَجَلَّ، بَلْ هُمْ مُتَساهِلُونَ فِي كَثِيرٍ مِنْ هَذِهِ الأَشْيَاءِ، ويُرِيدُونَ أَنْ يَصِلُوا إِلَى المَنَاصِبِ فقطْ.

وهَذَا أَمْرٌ مَشْهُورٌ عَمَّنِ اشْتُهِرَ بمَحَبَّةِ الخُرُوجِ عَلَى الأَئِمَّةِ، وأَنَّ الغالِبَ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ الوُصُولَ إِلَى الثَّرَاءِ، وهَذَا هُوَ الواقِعُ، ولَا حَاجَةَ بِنَا إِلَى أَنْ نَضَعَ النُّقَطَ عَلَى الحُرُوفِ، ونَقُولَ: مِثْلَ كذَا وكذَا؛ فهَذَا أَمْرٌ مَعْلُومٌ. كَانُوا فِي الأَوَّلِ إِذَا قَامُوا عَلَى مَنْ قَامُوا عَلَيْهِ يُرِيدُونَ أَنْ يُمَكِّنُوا حُكْمَ اللهِ فِي الأَرْضِ، فصَارُوا شِبْهَ الأَوَّلِ.

فالسِّيَاسَةُ الشَّرْعِيَّةُ هِيَ أَنْ نَمْشِيَ عَلَى مَا فِي كِتَابِ اللهِ وسُنَّةِ رَسُولِهِ؛ اسْمَعْ وأَطِعْ وإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ، ومَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ مَا يَكْرَهُ فَلْيَصْبِرْ إِنْ لَمْ يَأْمُرْ بِمَعْصِيَةٍ، لَوْ قَالَ للنَّاسِ: تَعَالَوْا؛ اضْرِبُوا عَلَى العُودِ، غَنُّوا، وارْقُصُوا، قُلْنَا لهُ: لَا سَمْعَ ولَا طاعَةَ. أَوْ قَالَ: اظْلِمُوا النَّاسَ، وكُلُوا أَمْوَالَهُمْ، واضْرِبُوا أَبْشَارَهُمْ؛ مَا أَطَعْنَاهُمْ فِي ذلكَ؛ لِأَنَّ هَذَا مَعْصِيَةٌ للهِ عَزَّوَجَلَّ. أَنَا لَا أَقُولُ: اسْكُتْ! أَنَا أَقُولُ: انْصَحْهُمْ، ونَاصِحْهُمْ، لكنْ لَا تَخْرُجْ عَلَيْهِمْ.

ومِنَ الآياتِ المُتعلِّقَةِ بالسِّياسَةِ الشَّرْعِيَّةِ: جَمِيعُ مَا شَرَعَهُ اللهُ مِنَ الحُدُودِ عَلَى الجَرَائِمِ، والعُقوباتِ عَلَى المُتجَرِّئِينَ عَلَى حُقُوقِهِ وحُقُوقِ عِبادِهِ، وَهِيَ فِي غَايَةِ العَدالَةِ والحُسْنِ، ورَدْعِ المُجْرِمِينَ، والنَّكالِ والتَّخْوِيفِ لأَهْلِ الشَّرِّ والفَسادِ، وفِيهَا صِيانَةٌ لِدِمَاءِ الخَلْقِ وأمْوَالِهِمْ وأعْرَاضِهِمْ.

والآياتُ الَّتِي فِيهَا الأمْرُ بالمَعْرُوفِ والنَّهْيُ عَنِ المُنْكَرِ، والتَّكَلُّمُ بالحَقِّ مَعَ مَنْ كانَ، وفِي أيِّ حالٍ مِنَ الأحْوَالِ، وكَذلِكَ مَا فِيهِ مِنَ النَّهْيِ عَنِ الظُّلْمِ فِيهِ إرْشَادٌ للحُرِّيَّةِ النَّافِعَةِ، الَّتِي مَعْنَاهَا التَّكَلُّمُ بالحَقِّ، وفِي الأُمُورِ الَّتِي لَا مَحْذُورَ فِيهَا، كَمَا أنَّ الحُدُودَ والعُقوباتِ، والنَّهْيَ عَنِ الكَلامِ القَبِيحِ، والفِعْلِ القَبِيحِ، فِيهَا رَدُّ الحُرِّيَّةِ الباطِلَةِ، فإنَّ مِيزَانَ الحُرِّيَّةِ الصَّحِيحَةِ النَّافِعَةِ: هُوَ مَا أَرْشَدَ إلَيْهِ القُرْآنُ.

وأمَّا إطْلاقُ عِنانِ الجَهْلِ والظُّلْمِ، والأقْوَالِ الضَّارَّةِ للمُجْتَمَعِ، والمُحَلِّلَةِ للأخْلاقِ -فإنَّهَا مِنْ أكْبَرِ أسْبابِ الشَّرِّ والفَسَادِ، وانْحِلَالِ الأُمُورِ، والفَوْضَوِيَّةِ المَحْضَةِ؛ فنَتَائِجُ الحُرِّيَّةِ الصَّحِيحَةِ أحْسَنُ النَّتائِجِ، ونَتَائِجُ الحُرِّيَّةِ الفَاسِدَةِ أَقْبَحُ النَّتائِجِ؛ فالشَّارِعُ فَتَحَ البابَ للأُولَى، وأغْلَقَهُ عَنِ الثَّانِيَةِ؛ تَحْصِيلًا للمَصالِحِ، ودَفْعًا للمَضَارِّ والمَفَاسِدِ. واللهُ أَعْلَمُ.

التعليق

هذَا صَحِيحٌ؛ فإنَّ الحُرِّيَّةَ المُطْلَقَةَ لشَخْصٍ مَا تكُونُ عَلَى حِسَابِ حُرِّيَّةِ غَيْرِهِ. لَوْ أَطْلَقْنَا لشَخْصٍ الحُرِّيَّةَ لقَالَ: أنَا أُرِيدُ أنْ أَتمَتَّعَ بأمْوَالِ النَّاسِ، ومَساكِنِهِمْ، ومَرَاكِبِهِمْ، وحَتَّى زَوْجَاتِهِمْ أيضًا! سَيَكُونُ عَلَى حِسَابِ الآخَرِينَ. ولكنْ نَقُولُ: لكَ حُرِّيَّةٌ فِيمَا تَمْلِكُ فقطْ، وللآخَرِينَ حُرِّيَّةٌ فِيمَا يَمْلِكُونَ؛ فالحُرِّيَّةُ الكامِلَةُ هِيَ المَبْنِيَّةُ

عَلَى كِتَابِ اللهِ وسُنَّةِ رَسُولِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. ولَا أحَدَ أَحْكَمُ مِنَ اللهِ، ولَا أَعْدَلُ مِنْهُ. وقَدْ عَدَلَ عَزَّوَجَلَّ فِي الحُرِّيَّةِ الَّتِي مَنَحَهَا لعِبَادِهِ، فجَعَلَ لكُلِّ إنسانٍ حُرِّيَّةً لَا يَعْتَدِي بِهَا عَلَى حُرِّيَّةِ الآخَرِينَ. وهَذَا أيضًا مِنَ السِّيَاسَةِ، فالحُرِّيَّةُ الظَّالِمَةُ، الجَائِرَةُ، هِيَ الَّتِي تَمْنَعُ مِنَ التَّكَلُّمِ بالخَيْرِ، والتَّحْذِيرِ مِنَ الشَّرِّ.

والحُرِّيَّةُ الحَقَّةُ هِيَ الَّتِي تُطْلِقُ لكُلِّ إنسانٍ القَوْلَ والعَمَلَ فِيمَا هُوَ مِنْ حَقِّهِ، هَذِهِ حُرِّيَّةٌ صَحِيحَةٌ، نَافِعَةٌ، ولكُلِّ مَقامٍ مَقالٌ، يعْنِي: حَتَّى وإنْ مَلَكْنَا أنْ نَتَكَلَّمَ، وأنْ نَفْعَلَ، وكَانَ المَقامُ يُقْتَضِي أنْ لَا نَقُولَ، وأنْ لَا نَفْعَلَ، فإنَّنَا لَا نَقُولُ، ولَا نَفْعَلُ، ولَا حَرَجَ فِي ذلكَ.

والسِّيَاسَةُ أصْلًا مَأْخُوذَةٌ مِنْ سَاسَ الشَّيْءَ يَسُوسُهُ، والسَّائِسُ فِي الأصْلِ: هُوَ المُتَوَلِّي للحَيَوَانِ، فسَائِسُ الحَيَوَانِ هُوَ الَّذِي يَقُومُ بمَصَالِحِهِ، فالسِّيَاسَةُ الشَّرْعِيَّةُ هِيَ المَبْنِيَّةُ عَلَى الشَّرْعِ، والسِّيَاسَةُ الوَضْعِيَّةُ هِيَ المَبْنِيَّةُ عَلَى القانُونِ الوَضْعِيِّ. يَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ: إنَّ السِّيَاسَةَ غَيْرُ الدِّينِ، وإنَّ الدِّينَ شَيْءٌ والسِّيَاسَةَ شَيْءٌ آخَرُ! فنَقُولُ لَهُمْ: كَذَبْتُمْ! فالسِّيَاسَةُ الشَّرْعِيَّةُ هِيَ السِّيَاسَةُ الحَقَّةُ، وقَدْ جَاءَ بِهَا الإسْلَامُ، ومَنْ أَرَادَ المَزِيدَ مِنْ ذلكَ فَلْيَرْجِعْ إِلَى كِتَابِ (السِّيَاسَةُ الشَّرْعِيَّةُ فِي إِصْلَاحِ الرَّاعِي والرَّعِيَّةِ) لِشَيْخِ الإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ، وإِلَى كِتَابِ (الطُّرُقُ الحُكْمِيَّةُ) لتِلْمِيذِهِ ابْنِ القَيِّمِ، وقَدْ ذَكَرَ الرَّجُلَانِ رَحِمَهُمَا اللَّهُ مِنَ السِّيَاسَةِ الشَّرْعِيَّةِ مَا تَقُومُ بِهِ مَصالِحُ العِبادِ والبِلَادِ.





القَاعِدَةُ الأَرْبَعُونَ:

فِي دَلالَةِ القُرْآنِ عَلَى أُصُولِ الطِّبِّ

أُصُولُ الطِّبِّ ثَلاثَةٌ: حِفْظُ الصِّحَّةِ باسْتِعْمالِ الأُمُورِ النَّافِعَةِ، والحِمْيَةُ عَنِ الأُمُورِ الضَّارَّةِ، ودَفْعُ مَا عَرَضَ للبَدَنِ مِنَ المُؤْذِيَاتِ. ومَسائِلُ الطِّبِّ كُلُّهَا تَدُورُ عَلَى هَذِهِ القَوَاعِدِ، وقَدْ نَبَّهَ القُرْآنُ عَلَيْهَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى فِي حِفْظِ الصِّحَّةِ ودَفْعِ المُؤْذِي: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ [الأعراف:٣١] فأَمَرَ بالأَكْلِ والشُّرْبِ اللَّذَيْنِ لَا تَسْتَقِيمُ الأَبْدَانُ إِلَّا بِهِمَا، وأَطْلَقَ ذَلِكَ؛ لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّ المَأْكُولَ والمَشْرُوبَ بحَسَبِ مَا يُلائِمُ الإِنْسَانَ ويَنْفَعُهُ فِي كُلِّ وقْتٍ وحالٍ، ونَهَى عَنِ الإِسْرَافِ فِي ذلكَ: إِمَّا زِيادَةً فِي كَثْرَةِ المَأْكُولاتِ والمَشْرُوبَاتِ، وإِمَّا بالتَّخْلِيطِ. وهَذَا حِمْيَةٌ عَنْ كُلِّ مَا يُؤْذِي الإِنْسَانَ، فإِذَا كَانَ القُوتُ الضَّرُورِيُّ مِنَ الطَّعَامِ والشَّرَابِ إِذَا صارَ بحالَةٍ يَتَأَذَّى مِنْهُ البَدَنُ ويَتَضَرَّرُ مُنِعَ مِنْهُ، فكَيْفَ بغَيْرِهِ؟!

وكَذَلِكَ أَبَاحَ اللهُ للمَرِيضِ التَّيَمُّمَ إِذَا كَانَ اسْتِعْمالُ الماءِ يَضُرُّهُ؛ حِمْيَةً لَهُ عَنِ المَضَرَّاتِ كُلِّهَا، وأَباحَ للمُحْرِمِ الَّذِي بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ أَنْ يَحْلِقَهُ وَيَفْدِيَ، وهَذَا مِنْ بابِ الاسْتِفْرَاغِ، وإِزَالَةِ مَا يُؤْذِي البَدَنَ، فكَيْفَ بِمَا ضَرَرُهُ أَكْثَرُ مِنْ هذَا؟ ونَهَى عَنِ الإِلْقَاءِ باليَدِ إِلَى التَّهْلُكَةِ، فيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ اسْتِعْمالُ كُلِّ مَا يَتَضَرَّرُ بِهِ الإِنْسَانُ مِنَ الأَغْذِيَةِ والأَدْوِيَةِ، ودَفْعُ مَا يَضُرُّ بمُدافَعَةِ الَّذِي لَمْ يَقَعْ والتَّحَرُّزِ عَنْهُ، وبمُعالَجَةِ الحادِثِ بالطَّرِيقَةِ الطِّبِّيَّةِ النَّافِعَةِ.

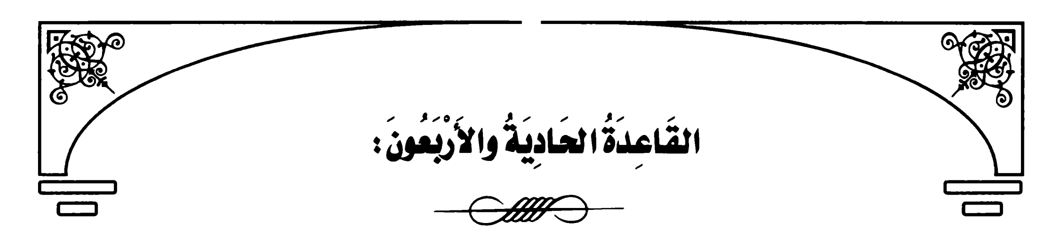
وكَذَلِكَ مَا ذَكَرَهُ اللهُ فِي كِتابِهِ مِنَ الأعْمالِ كُلِّهَا؛ كالجِهَادِ، والصَّلاةِ، والصَّوْمِ، والحَجِّ، وبَقِيَّةِ الأعْمالِ، والإحْسَانِ إِلَى الخَلْقِ، فإنَّهَا وإنْ كَانَ المَقْصُودُ الأعْظَمُ مِنْهَا نَيْلَ رِضَى اللهِ، وقُرْبِهِ، وثَوَابِهِ، والإحْسَانَ إِلَى عَبِيدِهِ، فإنَّ فِيهَا صِحَّةً لِلأَبْدَانِ، وتَمْرِينًا لَهَا، ورِياضَةً، ورَاحَةً للنَّفْسِ، وفَرَحًا للقَلْبِ، وأَسْرَارًا خاصَّةً تَحْفَظُ الصِّحَّةَ، وتُنَمِّيهَا، وتُزِيلُ عَنْهَا المُؤْذِيَاتِ.

وبالجُمْلَةِ، فإنَّ جَمِيعَ الشَّرَائِعِ تَرْجِعُ إِلَى صَلاحِ القُلُوبِ، والأَرْوَاحِ، والأَخْلَاقِ، والأَبْدَانِ، والأَمْوَالِ، والدُّنْيَا والآخِرَةِ. واللهُ أَعْلَمُ.

التعليق

هذِهِ أيضًا قَاعِدَةٌ نافِعَةٌ، خُلاصَتُهَا: أنَّ القُرْآنَ أَرْشَدَ إِلَى أُصُولِ الطِّبِّ الثَّلاثَةِ، وَهِيَ التَّقَيُّدُ بِمَا يَحْفَظُ الصِّحَّةَ والبَدَنَ، والحِمْيَةُ عَمَّا يَضُرُّهُ، وإزَالَةُ مَا يُؤْذِيهِ، ذَكَرَهَا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كُلَّهَا فِي القُرْآنِ: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ هَذَا اسْتِعْمَالُ مَا يَحْفَظُ الصِّحَّةَ ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ هَذَا الحِمْيَةُ عَمَّا يَضُرُّ، أَمَّا دَفْعُ مَا كَانَ ضَارًّا فذَكَرَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ لَهُ فِدْيَةَ الأَذَى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ﴾ [البقرة:١٩٦] يعْنِي: فَلْيَحْلِقْهُ، ففِي هَذَا إِزَالَةُ المُؤْذِي. وإذَا تَمَّ للبَدَنِ حِفْظُ الصِّحَّةِ، وحِمَايَتُهُ مِمَّا يَضُرُّهُ أَوْ يُؤْذِيهِ، ورَفْعُ مَا أَضَرَّ بِهِ وآذَاهُ -تَمَّتْ صِحَّتُهُ.





القَاعِدَةُ الحَادِيَةُ والأَرْبَعُونَ:

يُرْشِدُ اللهُ عِبادَهُ فِي كِتَابِهِ مِنْ جِهَةِ العَمَلِ إِلَى قَصْرِ نَظَرِهِمْ إِلَى الحالَةِ الحَاضِرَةِ الَّتِي هُمْ فِيهَا ومِنْ جِهَةِ التَّرْغِيبِ فِيهِ والتَّرْهِيبِ مِنْ ضِدِّهِ إِلَى مَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا مِنَ المَصَالِحِ ومِنْ جِهَةِ النِّعَمِ: إِلَى النَّظَرِ إِلَى ضِدِّهَا

وهذِهِ القَاعِدَةُ الجَلِيلَةُ دَلَّ عَلَيْهَا القُرْآنُ فِي آياتٍ عَدِيدَةٍ، وَهِيَ مِنْ أَعْظَمِ مَا يَدُلُّ عَلَى حِكْمَةِ اللهِ، ومِنْ أَعْظَمِ مَا يُرَقِّي العامِلِينَ إِلَى خَيْرٍ دِينِيٍّ ودُنْيَوِيٍّ، فإِنَّ العامِلَ إِذَا كَانَ مُشْتَغِلًا بعَمَلِهِ الَّذِي هُوَ وظِيفَةُ وَقْتِهِ، فإِنْ قَصَرَ فِكْرَهُ وظاهِرَهُ وباطِنَهُ عَلَيْهِ نَجَحَ وتَمَّ بحَسَبِ حالِهِ، وإِنْ نَظَرَ وتَشَوَّقَتْ نَفْسُهُ إِلَى أَعْمالٍ أُخْرَى لَمْ يَحِنْ وَقْتُهَا بَعْدُ فَتَرَتْ عَزِيمَتُهُ، وانْحَلَّتْ هِمَّتُهُ، وصارَ نَظَرُهُ إِلَى الأَعْمالِ الأُخْرَى يَنْقُصُ مِنْ إِتْقَانِ عَمَلِهِ الحاضِرِ وجَمْعِ الهِمَّةِ عليْهِ.

ثُمَّ إِذَا جاءَتْ وَظِيفَةُ العَمَلِ الآخَرِ جاءَهُ وقَدْ ضَعُفَتْ هِمَّتُهُ، وقَلَّ نَشَاطُهُ، ورُبَّما كَانَ الثَّانِي مُتَوَقِّفًا عَلَى الأَوَّلِ فِي حُصُولِهِ أَوْ تَكْمِيلِهِ، فيُفَوِّتُ الأَوَّلَ والثَّانِيَ، بخِلافِ مَنْ جَمَعَ قَلْبَهُ وقَالَبَهُ، وصارَ أَكْبَرُ هَمِّهِ القِيامَ بعَمَلِهِ الَّذِي هُوَ وَظِيفَةُ وَقْتِهِ، فَإِنَّهُ إِذَا جَاءَ العَمَلُ الثَّانِي فَإِذَا هُوَ قَدِ اسْتَعَدَّ لَهُ بقُوَّةٍ ونَشاطٍ، وتَلَقَّاهُ بشَوْقٍ، وصَارَ قِيامُهُ بالأَوَّلِ مَعُونَةً عَلَى قِيامِهِ بالثَّانِي، ومِنْ هَذَا قَوْلُهُ تَعالَى مُصَرِّحًا بهَذَا المَعْنَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء:٧٧] فانْظُرْ كَيْفَ حالُهُمُ الأُولَى وأُمْنِيَّتُهُمْ وهُمْ

مَأْمُورُونَ بكَفِّ الأَيْدِي، فلَمَّا جاءَ العَمَلُ الثَّانِي ضَعُفُوا كُلَّ الضَّعْفِ عنْهُ.

ونَظِيرُ هَذَا مَا عَاتَبَ اللهُ بِهِ أَهْلَ أُحُدٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [آل عمران:١٤٣] وقَدْ كَشَفَ هَذَا المَعْنَى كُلَّ الكَشْفِ قَوْلُهُ تعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النساء:٦٦] لِأَنَّ فِيهِ تكْمِيلًا للعَمَلِ الأَوَّلِ، وتَثْبِيتًا مِنَ اللهِ، وتَمَرُّنًا عَلَى العَمَلِ الثَّانِي.

ونَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٧٥ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ۝٧٦ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة:٧٥-٧٧] فاللهُ أَرْشَدَ العِبَادَ أَنْ يَكُونُوا أَبْنَاءَ وَقْتِهِمْ، وأَنْ يَقُومُوا بالعَمَلِ الحاضِرِ، ووَظِيفَتِهِ، ثُمَّ إِذَا جَاءَ العَمَلُ الآخَرُ صار وَظِيفَةَ ذَلِكَ الوَقْتِ، واجْتَمَعَتْ تلكَ الهِمَّةُ والعَزِيمَةُ عليْهِ، وصارَ القِيامُ بالعَمَلِ الأَوَّلِ مُعِينًا عَلَى الثَّانِي، وهَذَا المَعْنَى فِي القُرْآنِ كَثِيرٌ.

التعليق

الشِّقُّ الأَوَّلُ مِنْ هَذِهِ المَسْأَلَةِ: أَنَّ الإِنْسَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَعْتَنِيَ بالعَمَلِ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ؛ لِأَنَّ العَمَلَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْكَ هُوَ وَظِيفَةُ وَقْتِكَ. بَعْضُ النَّاسِ يُفَرِّطُ فِيهِ مِنْ وَجْهَيْنِ:

الوَجْهُ الأَوَّلُ: أَنْ يَتَسَاهَلَ ويَتَهَاوَنَ، ويَقُولَ: هَذِهِ مَسْأَلَةٌ بَسِيطَةٌ، هَذَا عَمَلٌ قَلِيلٌ، فيَضِيعُ عَلَيْهِ الوَقْتُ، فَإِذَا حَصَرَهُ الوَقْتُ عَجَزَ، وإِذَا عَجَزَ عَنْهُ انْتَقَلَ هَذَا العَمَلُ

مِنْ وَظِيفَتِهِ الزَّمَنِيَّةِ إِلَى وَظِيفَةِ العَمَلِ الثَّانِي، فضَاقَ عَلَيْهِ، وعَجزَ عَنِ القِيَامِ بِهِمَا. وعَلَى هَذَا قَوْلُ صاحِبِ الحِكْمَةِ: «لَا تُؤَخِّرْ عَمَلَ اليَوْمِ إِلَى الغَدِ» ومَا أَكْثَرَ مَا يَظُنُّ الظَّانُّ أَنَّ هَذَا العَمَلَ يَسِيرٌ وأَنَّهُ سَيَخْلُصُ مِنْهُ، ثُمَّ يَتَمادَى بِهِ الأَمْرُ فيَعْجِزُ! وإِذَا قَابَلَ الإِنْسَانُ هَذَا العَمَلَ، وقَامَ بِهِ بِهِمَّةٍ ونَشَاطٍ، وبَدَأَ بِهِ فَوْرًا، ولَمْ يَتَوَانَ فِيهِ -أَدْرَكَهُ عَلَى سُهُولَةٍ، وأَتْقَنَهُ وأَجَادَهُ.

وهذِهِ تَقَعُ فِي الأَعْمَالِ اليَوْمِيَّةِ، تَقُولُ: هَذَا يَسِيرٌ، أَكْتُبُ هَذَا إِنْ شَاءَ اللهُ بَعْدَ قَلِيلٍ، فيَمْضِي الوَقْتُ ولَمْ تَكْتُبْهُ! لكنْ إِذَا عَمِلْتَ اسْتَرَحْتَ، وجَرِّبْ تَجِدْ، وانْتَهِزِ الفُرْصَةَ، كَمَا قِيلَ: «انْتَهِزِ الفُرْصَةَ؛ إِنَّ الفُرْصَةَ تَكُونُ إِنْ لَمْ تَنْتَهِزْهَا غُصَّةً».

الشِّقُّ الثَّانِي الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ: أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَهُونُ عَلَيْهِ الأَمْرُ، يَقُولُ: هَذَا العَمَلُ خَفِيفٌ وأَنَا أُرِيدُ عَمَلًا أَشَدَّ! ويَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ: دَعُونَا نَقْرَأُ لَيْلًا ونَهَارًا، وهَذَا غَيْرُ صَحِيحٍ، هَذَا مَا يَنْبَغِي، بَلْ هَوِّنْ عَلَى نَفْسِكَ؛ لأَنَّكَ بِذَلِكَ تُرْهِقُ نَفْسَكَ، ولَا تُتْقِنُ العَمَلَ، لكنْ إِذَا جَاءَ العَمَلُ يَسِيرًا، تَحَمَّلَتْهُ النَّفْسُ وأَتْقَنَتْهُ، وانْتَقَلَتْ إِلَى العَمَلِ الثَّانِي وَهِيَ قَدْ أَجَادَتِ العَمَلَ الأَوَّلَ، فتَلَقَّتْهُ بانْشِرَاحٍ ونَشَاطٍ.

فهذانِ وجْهانِ فِي هَذِهِ المَسْأَلَةِ. مِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَهَاوَنُ بالعَمَلِ، ويَقُولُ: هَذَا عَمَلٌ قَلِيلٌ، أُؤَخِّرُهُ! فيَضِيعُ عَلَيْهِ وَقْتُهُ. ومِنَ النَّاسِ مَنْ يَسْتَقِلُّ هَذَا العَمَلَ ويُرِيدُ عَمَلًا أَكْثَرَ، فَإِذَا ابْتُلِيَ بِهِ عَجزَ عنْهُ! ولهَذَا قَالَ فِي الآيَةِ الَّتِي ذَكَرَهَا الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [النساء:٧٧] كذلكَ الآيَةُ الثَّانِيَةُ: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا

أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَـٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾ [النساء:٦٦].

وانْظُرْ إِلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، حِينَما قَالَ: «وَاللهِ لَأَقُومَنَّ اللَّيْلَ مَا عِشْتُ، ولَأَصُومَنَّ النَّهارَ مَا عِشْتُ» فدعَاهُ الرَّسُولُ ﷺ وسَأَلَهُ: «أَهُوَ الَّذِي قَالَ كذَا؟» قَالَ: نَعَمْ! فَبَدَأَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُحاطِطُهُ، ويُنازِلُهُ، حَتَّى وَصَلَ إِلَى أَنْ يَصُومَ يَوْمًا ويَدَعُ يَوْمًا[1]. فماذَا كانَتْ حَالُ عَبْدِ اللهِ فِي آخِرِ عُمُرِهِ؟

شَقَّ عَلَيْهِ ذلكَ، فكانَ يَصُومُ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا سَرْدًا، ويُفْطِرُ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا، وقَالَ: لَيْتَنِي قَبِلْتُ رُخْصَةَ النَّبِيِّ ﷺ!

وكَذَلِكَ قِراءَةُ كُتُبِ العِلْمِ؛ يُقالُ: إِنَّ الشَّيْخَ عَبْدَ اللهِ أَبَا بَطِينَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى- وكَانَ يُلَقَّبُ (مُفْتِيَ الدِّيارِ النَّجْدِيَّةِ) وكَانَ عالِمًا جَيِّدًا فِي الفِقْهِ، يَقُولُ: إِنَّنِي مَا قَرَأْتُ إِلَّا (الرَّوْضُ المُرْبِعُ فِي شَرْحِ زَادِ المُسْتَقْنِعِ) وَهُوَ شرحٌ مُخْتَصَرٌ، لكنَّهُ كَانَ يُكَرِّرُهُ، ويَتَأَمَّلُ فِيهِ، ويَأْخُذُ بمَنْطُوقِهِ، ومَفْهُومِهِ، وإِشَارَتِهِ، ومعَ ذَلِكَ صَارَ عالِمًا بَحْرًا فِي الفِقْهِ!

وأَمَّا أَنْ يَكُونَ الشَّخْصُ يَقْفِزُ مِنْ غُصْنٍ إِلَى غُصْنٍ، مِنْ هَذَا الكِتَابِ إِلَى ذاكَ الكِتَابِ! يَوْمًا يُطالِعُ فِي هذَا، ويَوْمًا يُطالِعُ فِي هذَا! يَذْهَبُ عَلَيْهِ الوَقْتُ. أَحْيانًا يَأْتِي الإِنْسَانُ يُرِيدُ أَنْ يُطالِعَ حُكْمَ مَسْأَلَةٍ مُعَيَّنَةٍ، فَإِذَا فَتَحَ الكِتَابَ إِذَا هُوَ كالبَحْرِ، وإِذَا السَّمَكُ أَمامَهُ، وقَدْ كَانَ يُرِيدُ حُوتًا مُعَيَّنًا، فَجَعَلَتِ الأَسْماكُ تَتَزَارَقُ أَمامَهُ، فصارَ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب حق الجسم في الصوم، رقم (١٩٧٥)، ومسلم: كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به، رقم (١١٥٩)، من حديث ابن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

يَأْخُذُ هذِهِ، ويَأْخُذُ هذِهِ، ويَضِيعُ عَلَيْهِ الوَقْتُ، ولَمْ يُراجِعِ المَسْأَلَةَ الَّتِي كَانَ يَطْلُبُهَا! فعَلَى الإنْسَانِ مَا دَامَ أَنَّهُ يُرِيدُ مَسْأَلَةً مُعَيَّنَةً أنْ يَبْدَأَ أَوَّلَ مَا يَبْدَأُ بِهَا، وإِذَا حَصَلَ عِنْدَهُ فَضْلُ وَقْتٍ، فَلْيَرْجِعْ إِلَى المسائِلِ الأُخْرَى. لكنْ فِي بَعْضِ الأحْيَانِ، مَعَ شَغَفِ الإنْسَانِ بالعِلْمِ، يَقُولُ: هَذِهِ مَسْأَلَةٌ جَيِّدَةٌ، أَقْرَأُهَا، وهكَذَا يَذْهَبُ عَلَيْهِ الوَقْتُ.

ثُمَّ شَيْءٌ آخَرُ أيضًا: أَحْيَانًا تَمُرُّ عَلَيْهِ مَسْأَلَةٌ نادِرَةُ الوُجُودِ، ولوْ طَلَبَهَا فِي مَحَلِّهَا مَا وَجدَهَا، ثُمَّ فِي تِلْكَ الساعَةِ يَقُولُ: حَفِظْتُ هَذِهِ المَسْأَلَةَ ولنْ أَنْسَاهَا أبَدًا، ولكنَّهُ لَمْ يُقَيِّدْهَا! ثُمَّ مَا هِيَ إِلَّا أَيَّامٌ قَلِيلَةٌ حَتَّى يَنْسَاهَا، ويُحاوِلُ أنْ يَجِدَهَا فلَا يَجِدُهَا، وهذِهِ مَسْأَلَةٌ أيضًا يَنْبَغِي لطالِبِ العِلْمِ أنْ يُلاحِظَهَا.

إِذَا مَرَّتْ عليْكَ مَسْأَلَةٌ مُهِمَّةٌ، إِمَّا قَاعِدَةٌ مَا تَكَادُ تَجِدُهَا فِي الكُتُبِ، أَوْ مَسْأَلَةٌ -فَاحْفَظْهَا وقَيِّدْهَا عِنْدَكَ، ولَا تَقُلِ: الآنَ اسْتَقَرَّتْ فِي ذِهْنِي، ولنْ أنْسَاهَا. فَإِذَا قَيَّدْتَهَا تَرْجِعُ لهَا؛ فاجْعَلْ عِنْدَكَ دَفْتَرًا، ولابْنِ القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كِتابٌ سَمَّاهُ (بدَائِعُ الفَوائِدِ) لَمْ يُؤَلِّفْهُ تَأْلِيفًا مُنَسَّقًا، كَانَ كُلَّمَا طَرَأَ عَلَى ذِهْنِهِ مَسْأَلَةٌ كَتَبَهَا، وابْنُ الجَوْزِيِّ لَهُ كِتابٌ اسْمُهُ (صَيْدُ الخَاطِرِ) يُقَيِّدُ فِيهِ مَا يَرِدُ فِي خَاطِرِهِ، فهذِهِ أيضًا يَنْبَغِي للإنْسَانِ أنْ يُلاحِظَهَا، فيَجْعَلُ عِنْدَهُ كِتابًا يُقَيِّدُ فِيهِ كُلَّ المَسائِلِ النَّادِرَةِ الَّتِي إِذَا طَلَبَهَا الإنْسَانُ تَعِبَ فِي وُجُودِهَا، يُقَيِّدُهَا ولوْ بالخُلَاصَةِ.

وأَمَّا الأُمُورُ المُتَأَخِّرَةُ، فإِنَّ اللهَ يُرْشِدُ العَامِلِينَ إِلَى مُلاحَظَتِهَا؛ لِتَقْوَى هِمَمُهُمْ عَلَى العَمَلِ المُثْمِرِ للمَصالِحِ والخَيْرَاتِ، وهَذَا كالتَّرْغِيبِ المُتَنَوِّعِ مِنَ اللهِ عَلَى أَعْمَالِ الخَيْرِ، والتَّرْهِيبِ مِنْ أَفْعَالِ الشَّرِّ بذِكْرِ عُقُوبَاتِهَا وثَمَرَاتِهَا الذَّمِيمَةِ، فاعْرِفِ الفَرْقَ

بَيْنَ النَّظَرِ إِلَى العَمَلِ الآخَرِ الَّذِي لَمْ يَجِئْ وَقْتُهُ، وبَيْنَ النَّظَرِ إِلَى ثَوَابِ العَمَلِ الحَاضِرِ الَّذِي كُلَّمَا فَتَرَتْ هِمَّةُ صاحِبِهِ وتَأَمَّلَ مَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنَ الخَيْرَاتِ اسْتَجَدَّ نَشاطُهُ، وقَوِيَ عَلَيْهِ، وهَانَتْ عَلَيْهِ مَشَقَّتُهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء:١٠٤].

التعليق

هذِهِ الآيَةُ أَيْضًا اجْعَلْهَا عَلَى بالِكَ! كُلُّ عَدُوٍّ لكَ إِذَا كُنْتَ تُعانِي منهُ فَإِنَّهُ يُعانِي مِنْكَ مِثْلَمَا تُعانِي منْهُ، سَوَاءً كَانَ ذَلِكَ عَدُوًّا بالسِّلاحِ، أَوْ بالأفْكارِ، أَوْ بأيِّ شَيْءٍ. لكنِ الفَرْقُ بَيْنَ المُسْلِمِينَ وأعْدائِهِمْ: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ هَذَا يُخَفِّفُ عنَّا كَثِيرًا؛ إِذَا كَانُوا يَأْلَمُونَ كَمَا نَأْلَمُ، فهَذَا مِنْ بابِ التَّأَسِّي والتَّسَلِّي، والثَّانِي إِذَا كُنَّا نَرْجُو مِنَ اللهِ مَا لَا يَرْجُونَ، فهَذَا مِنْ بابِ التَّرَقِّي، نَحْنُ أَرْقَى مِنْهُمْ، كَمَا قَالَ المُؤْمِنُونَ لأَبِي سُفْيَانَ: «لَا سَوَاءَ؛ قَتْلَانَا فِي الجَنَّةِ، وقَتْلَاكُمْ فِي النَّارِ»(١).

وأَمَّا إِرْشادُهُ مِنْ جِهَةِ النِّعَمِ الَّتِي عَلَى العَبْدِ مِنَ اللهِ بالنَّظَرِ إِلَى ضِدِّهَا؛ لِيَعْرِفَ قَدْرَهَا، ويَزْدَادَ شُكْرُهُ للهِ، ففِي القُرْآنِ مِنْهُ كَثِيرٌ، يُذَكِّرُ عِبادَهُ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِمْ بالدِّينِ والإِسْلَامِ، ومَا تَرَتَّبَ عَلَى ذَلِكَ مِنَ النِّعَمِ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا﴾ [آل عمران:١٦٤] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران:١٦٤] ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم

---

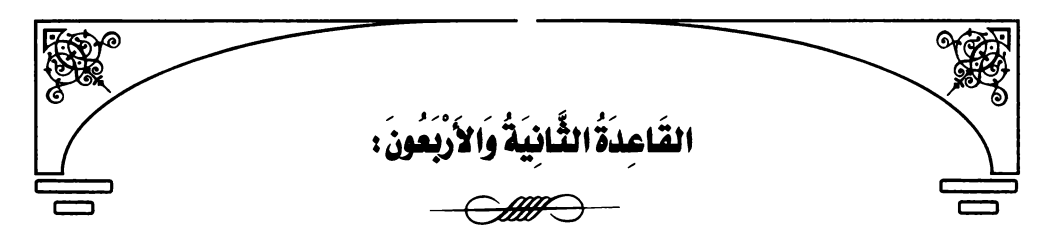
(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٨٧)، والطبراني في الكبير (١٠/ ٣٠١ رقم ١٠٧٣١)، والحاكم في المستدرك (٣١٦٣)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران:١٠٣] أيْ: إِلَى الزِّيادَةِ لشُكْرِ نِعمِ اللهِ.

وقَوْلُهُ: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال:٢٦] وقَـوْلُهُ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ إِلَى آخِرِ الآيـاتِ [القصص:٧١] حَيْثُ يُذَكِّرُهُمْ أنْ يَنْظُرُوا إِلَى ضِدِّ ما هُمْ فِيهِ مِنَ النِّعَمِ والخَيْرِ؛ لِيَعْرِفُوا قَدْرَ مَا هُمْ فِيهِ، وهَذَا الَّذِي أرْشَدَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ حَيْثُ قَالَ: «انْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلُ مِنْكُمْ، ولا تَنْظُـرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُـمْ؛ فَإِنَّهُ أَجْدَرُ أَنْ لَا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ»[1]. وقَوْلُهُ تَعالَى: ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:٦٩] وقَوْلُهُ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ إِلَى آخِرِهَا [الضحى:٦-٨].



(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب لينظر إلى من هو أسفل منه...، حديث رقم (٦٤٩٠)، ومسلم: كتاب الزهد والرقاق، رقم (٢٩٦٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



القَاعِدَةُ الثَّانِيَةُ وَالأَرْبَعُونَ:

فِي أَنَّ اللهَ قَدْ مَيَّزَ فِي كِتَابِهِ بَيْنَ حَقِّهِ الخَاصِّ وحَقِّ رَسُولِهِ الخَاصِّ، والحَقِّ المُشْتَرَكِ

الحُقُوقُ ثَلاثَةٌ: حَقٌّ للهِ وحْدَهُ لَا يَكُونُ لِغَيْرِهِ، وَهُوَ عِبادَتُهُ وحْدَهُ لَا شَرِيكَ لهُ بجَمِيعِ أَنْوَاعِ العِبادَاتِ. وحَقٌّ لِرَسُولِهِ ﷺ خاصٌّ، وهُوَ: التَّعْزِيرُ، والتَّوْقِيرُ، والقِيامُ بحَقِّهِ اللَّائِقِ، والاقْتِدَاءُ بهِ. وحَقٌّ مُشْتَرَكٌ، وهُوَ: الإيمانُ باللهِ ورَسُولِهِ، وطاعَةُ اللهِ ورَسُولِهِ، ومَحَبَّةُ اللهِ ورَسُولِهِ، وقَدْ ذَكَرَ اللهُ الحُقُوقَ الثَّلاثَةَ فِي آياتٍ كَثِيرَةٍ مِنَ القُرْآنِ.

فأمَّا حَقُّهُ، فكُلُّ آيةٍ فِيهَا الأمْرُ بعِبادَتِهِ، وإخْلاصِ العَمَلِ لهُ، والتَّرْغِيبِ فِي ذلكَ، وهَذَا شَيْءٌ لَا يُحْصَى، وقَدْ جَمَعَ اللهُ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الفتح:٩] فهَذَا مُشْتَرَكٌ ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح:٩] فهَذَا خَاصٌّ بالرَّسُولِ ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح:٩] فهَذَا حَقٌّ للهِ وحْدَهُ.

وقَوْلُهُ: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ فِي آياتٍ كَثِيرَةٍ [النساء:٥٩، المائدة:٩٢، النور:٥٤، محمد:٣٣، التغابن:١٢]. وكذلكَ: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء:١٣٦] وكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة:٦٢] وقالَ تَعَالَى: ﴿سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ [التوبة:٥٩] فهَذَا مُشْتَرَكٌ ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ [التوبة:٥٩] هَذَا مُخْتَصٌّ باللهِ تَعَالَى.

ولكنْ يَنبَغِي أنْ يَعرِفَ العَبْدُ أنَّ الحَقَّ المُشْتَرَكَ لَيس مَعْنَاهُ أنَّ مَا للهِ مِنْهُ يَثْبُتُ نَظِيرُهُ مِنْ كُلِّ وجْهٍ لرَسُولِهِ؛ بَلِ المَحبَّةُ والإيمانُ باللهِ، والطاعَةُ للهِ، لَا بُدَّ أنْ يَصْحَبَهَا التَّعَبُّدُ، والتَّعْظِيمُ للهِ، والخُضُوعُ. وأمَّا المُتعَلِّقُ بالرَّسُولِ مِنْ ذلكَ فإِنَّهُ حُبٌّ فِي اللهِ، وطاعَةٌ لأجْلِ أنَّ مَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ فَقَدْ أطاعَ اللهَ، بَلْ حَقُّ الرَّسُولِ عَلَى أُمَّتِهِ مِنْ حَقِّ اللهِ تَعَالَى، فيَقُومُ المُؤْمِنُ بِهِ امْتِثَالًا لأمْرِ اللهِ، وعُبُودِيَّةً لهُ، وقِيَامًا بحَقِّ رَسُولِهِ، وطَاعَةً لهُ.

وإنَّما قِيلَ لهُ: «حَقُّ الرَّسُولِ» لِتَعَلُّقِهِ بالرَّسُولِ، وإلَّا فجَمِيعُ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ وحثَّ عَلَيْهِ مِنَ القِيَامِ بحُقُوقِ رَسُولِهِ، وحُقُوقِ الوَالِدَيْنِ، والأقَارِبِ وغَيْرِهِمْ، كُلُّهُ حَقٌّ للهِ تَعَالَى، فَيَقُومُ بِهِ العَبْدُ امْتِثَالًا لأمْرِ اللهِ، وتَعَبُّدًا لهُ، وقِيَامًا بحَقِّ ذِي الحَقِّ، وإحْسانًا إليْهِ؛ إلَّا الرَّسُولَ، فإنَّ الإحْسَانَ مِنْهُ كُلَّهُ إلَى أُمَّتِهِ، فما وَصَلَ إِلَيْهِمْ خيْرٌ إلَّا عَلَى يَدَيْهِ ﷺ تَسْلِيمًا.

التعليق

خُلاصَةُ هَذِهِ القَاعِدَةِ: أنَّ الحُقُوقَ تَنْقَسِمُ إِلَى ثَلاثَةِ أقْسَامٍ: حَقٌّ للهِ عَزَّوَجَلَّ، وحَقٌّ للرَّسُولِ ﷺ وحَقٌّ مُشْتَرَكٌ. وهُنَاكَ أيضًا حَقٌّ رابعٌ، لَا للهِ، ولَا للرَّسُولِ، ولكنَّهُ لذَوِي الحُقُوقِ؛ كحَقِّ الوَالِدَيْنِ والأقارِبِ ومَا أشْبَهَ ذَلِكَ. ولكنْ كَلامُ المُؤَلِّفِ الأخِيرُ يَدُلُّنَا عَلَى أنَّ كُلَّ شَيْءٍ أَمَرَ اللهُ بِهِ، سَوَاءً مِمَّا يَخْتَصُّ بِهِ أَوْ مِمَّا يَكُونُ لِخَلْقِهِ- فهو بالمَعْنَى العامِّ مِنْ حُقُوقِ اللهِ؛ لأَنِّي حِينَمَا أَبَرُّ بوَالِدَيَّ فإِنِّي أَقُومُ بِذَلِكَ تَعَبُّدًا للهِ، وامْتِثَالًا لأمْرِ اللهِ.

كذلكَ حَقُّ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لَوْلَا أنَّ اللهَ أكْرَمَهُ بالرِّسالَةِ، وأوْجَبَ عَلَيْنَا

تَصْدِيقَهُ واتِّبَاعَهُ لكانَ هُوَ رَجُلًا مِنْ قُرَيْشٍ. ولكنْ مِنْ أَجْلِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى صَارَ بِهذِهِ المَكانَةِ؛ فالإيمانُ بِاللهِ وبِرَسُولِهِ لَا يَسْتَوِيَانِ، وإنِ اتَّفَقَا فِي أَصْلِهِمَا، لكنَّهُمَا يَخْتَلِفَانِ؛ الإيمانُ بِاللهِ إيمانٌ بِاللهِ لِذَاتِهِ؛ لِأَنَّهُ الرَّبُّ، والإيمانُ بالرَّسُولِ ﷺ إيمانٌ بِهِ؛ لِأَنَّ اللهَ أَرْسَلَهُ وأَمَرَنَا بالإيمانِ بِهِ، فهُمَا وإنِ اتَّفَقَا فِي الأَصْلِ، لكنَّهُمَا يَخْتَلِفَانِ.

ومِنْ سَفَهِ بَعْضِ النَّاسِ أَنَّهُمْ يَجْعَلُونَ حَقَّ اللهِ مُتَأَخِّرًا عَنْ حَقِّ الرَّسُولِ ﷺ! ويُقَدِّمُونَ حَقَّ الرَّسُولِ ﷺ عَلَى حَقِّ اللهِ! ومَا عَلِمُوا أَنَّ تَعْظِيمَ الرَّسُولِ مِنْ تَعْظِيمِ اللهِ، ولَيْسَ تَعْظِيمُ اللهِ مِنْ تَعْظِيمِ الرَّسُولِ؛ بَلِ الأَمْرُ بالعَكْسِ، تَعْظِيمُ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ تَعْظِيمِ اللهِ؛ ولهَذَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠].

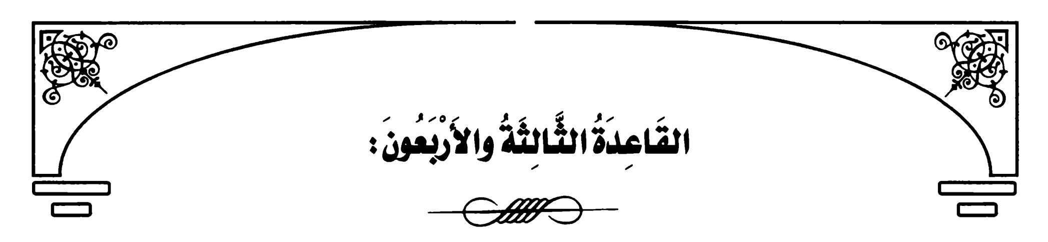
إذًا: هَذِهِ القَاعِدَةُ مِنْ قَوَاعِدِ التَّفْسِيرِ، وَهِيَ أَنَّنَا إِذَا تَأَمَّلْنَا القُرْآنَ وَجَدْنَا أَنَّ الحُقُوقَ الَّتِي أَثْبَتَهَا اللهُ تَنْقَسِمُ إِلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَام: حَقٌّ للهِ، وحَقٌّ للرَّسُولِ، وحَقٌّ مُشْتَرَكٌ بَيْنَهُمَا، وحقٌّ رابعٌ لِذَوِي الحُقُوقِ. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ [النساء:٣٦] إِلَى آخِرِهِ. فقَوْلُهُ: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ هَذَا يَتَضَمَّنُ حَقَّ اللهِ وحَقَّ الرَّسُولِ؛ لِأَنَّهَا لَا تَكُونُ عِبادَةٌ إِلَّا باتِّبَاعِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. أَمَّا ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ إِلَى آخِرِهِ، فهَذَا مِنْ حُقُوقِ ذَوِي الحُقُوقِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ﴾ [الفتح:٩] كَيْفَ عَرَفْنَا أَنَّ بَعْضَهَا للهِ، وبَعْضَهَا للرَّسُولِ، وبَعْضَهَا مُشْتَرَكٌ؟ لِأَنَّ ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ واضِحٌ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نُؤْمِنَ بِاللهِ ورَسُولِهِ، والاشْتِرَاكُ بَيْنَهُمَا ظاهِرٌ.

﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ التَّعْزِيرُ والنُّصْرَةُ والتَّوْقِيرُ والاحْتِرَامُ للرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ التَّسْبِيحُ للهِ؛ إذْ إنَّنا نَعْلَمُ بالضَّرُورَةِ مِنَ الدِّينِ أَنَّهُ لَا يَصِحُّ أنْ نَقُولَ: سُبْحَانَ النَّبِيِّ! أبدًا! بَلْ نَقُولُ: سُبْحَانَ اللهِ! فصارَ الدَّلِيلُ عَلَى أنَّ هَذِهِ الحُقُوقَ مِنْهَا مُخْتَصٌّ ومِنْهَا مُشْتَرَكٌ، إمَّا مِنْ نَفْسِ الآيَةِ، وإمَّا مِنْ أَدِلَّةٍ أُخْرَى.





القَاعِدَةُ الثَّالِثَةُ والأَرْبَعُونَ:

يَأْمُرُ اللهُ بالتَّثَبُّتِ وعَدَم العَجَلَةِ فِي الأُمُورِ الَّتِي يُخْشَى مِنْ عَوَاقِبِهَا ويَأْمُرُ وَيَحُثُّ عَلَى المُبَادَرَةِ إِلَى أُمُورِ الخَيْرِ الَّتِي يُخْشَى فَوَاتُهَا

وهذِهِ القَاعِدَةُ فِي القُرْآنِ كَثِيرٌ، قَالَ تَعالَى فِي القِسْمِ الأَوَّلِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ﴾ [النساء:٩٤] وفِي قِرَاءَةٍ: ﴿فتَثَبَّتُوا﴾. وقالَ تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾ [الحجرات:٦] وقَدْ عَاتَبَ اللهُ المُتَسَرِّعِينَ إِلَى إذاعَةِ الأَخْبَارِ الَّتِي يُخْشَى مِنْ إذاعَتِهَا، فقالَ تَعالَى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ الآيَةَ [النساء:٨٣] وقالَ تَعالَى: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ﴾ [يونس:٣٩].

ومِنْ هَذَا البابِ: الأَمْرُ بالمُشاوَرَةِ فِي الأُمُورِ، وأَخْذِ الحَذَرِ، وأَلَّا يَقُولَ الإِنْسَانُ مَا لَا يَعْلَمُ، وفِي هَذَا آياتٌ كَثِيرَةٌ.

وأَمَّا القِسْمُ الثَّانِي، فَقَوْلُهُ: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ الآياتِ [آل عمران:١٣٣] ﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [البقرة:١٤٨] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون:٦١] ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ [الواقعة:١٠] أي: السَّابِقُونَ فِي الدُّنْيَا إِلَى الخَيْرَاتِ هُمُ السَّابِقُونَ فِي الآخِرَةِ إِلَى الجَنَّاتِ والكَرَاماتِ، والآياتُ كَثِيرَةٌ فِي هَذَا المَعْنَى.

وهَذَا الَّذِي أَرْشَدَ اللهُ عِبادَهُ إِلَيْهِ هُوَ الكَمالُ، أنْ يَكُونُوا حَازِمِينَ، لَا يُفَوِّتُونَ فُرَصَ الخَيْرَاتِ، وأَنْ يَكُونُوا مُتَثَبِّتِينَ؛ خَشْيَةَ وُقُوعِ المَكْرُوهاتِ والمَضَرَّاتِ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:٥٠].

التعليق

هذِهِ القَاعِدَةُ قَاعِدَةٌ مُهِمَّةٌ جِدًّا، فالأُمُورُ ثَلاثَةُ أقْسَامٍ: مَا عُلِمَتْ مَضَرَّتُهُ، فالإِقْدَامُ إِلَيْهِ لَا يَجُوزُ، لَا بالمُسَارَعَةِ ولَا بالتَّأَنِّي. ومَا عُلِمَتْ مَنْفَعَتُهُ، فالمُبادَرَةُ إِلَيْهِ هِيَ الأَكْمَلُ، وُجُوبًا أَوْ تَطَوُّعًا، حَسَبَ مَا تَقْتَضِيهِ الحالُ، لكنْ هُنَا، قَدْ يَكُونُ الشَّيْءُ مَنْفَعَةً فِي ذاتِهِ، ولكنْ يَتَرَدَّدُ الإنْسَانُ بَيْنَ كَوْنِ غَيْرِهِ أَنْفعَ مِنْهُ، أَوْ هُوَ أَنْفعُ مِنْ غَيْرِهِ، وحينئذٍ يَجِبُ التَّثَبُّتُ والتَّرَوِّي.

وخَيْرٌ فِي ذاتِهِ، لكنْ يَتَرَدَّدُ الإنْسَانُ بَيْنَ كَوْنِ غَيْرِهِ أَنْفعَ، أَوْ هُوَ أَنْفَعُ، فحينئذٍ يَتَثَبَّتُ؛ لِأَنَّ الإِنْسَانَ لَا يَدْرِي أخَيْرٌ هُوَ أَمْ غَيْرُ خَيْرٍ؟ لَا باعْتِبَارِ ذَاتِهِ، ولكنْ باعْتِبَارِ غَيْرِهِ. إذًا: هَذَا يَدْخُلُ فِي القِسْمِ الثَّانِي، وَهُوَ المَشْكُوكُ فِيهِ الَّذِي يَجِبُ أَنْ نَتَثَبَّتَ فِيهِ.

فهُنَا ثَلاثَةُ أقْسام: قِسْمٌ عُلِمَ مَضَرَّتُهُ، فلَا نُقْدِمُ عَلَيْهِ، لَا مُبادَرَةً ولَا تَأَنِّيًا. وقِسْمٌ آخَرُ عُلِمَتْ مَنْفَعَتُهُ، فنُقْدِمُ عَلَيْهِ. وقِسْمٌ ثالِثٌ يَتَرَدَّدُ فِيهِ الإنْسَانُ، ويَحْتَاجُ إِلَى تَثَبُّتٍ، فنَتَثَبَّتُ فِيهِ قَبْلَ أنْ نُقْدِمَ عَلَيْهِ. ويَدْخُلُ فِي ذَلِكَ مَا أُشْكِلَ عَلَيْنَا بِذاتِهِ، ومَا أُشْكِلَ عَلَيْنَا بمُقَارَنَتِهِ مَعَ غَيْرِهِ، هَلْ هُوَ أَنْفعُ أَمْ غَيْرُهُ أنفعُ؟ ولهَذَا يَقُولُ الشَّاعِرُ:

قَدْ يُدْرِكُ المُتَأَنِّي بَعْضَ حاجَتِهِ ... وَقَدْ يَكُونُ مَعَ المُسْتَعْجِلِ الزَّلَلُ

وَرُبَّمَا فَاتَ قَوْمًا جُلُّ أَمْرِهِمُ ... مَعَ التَّأَنِّي وَكَانَ الرَّأْيُ لَوْ عَجِلُوا[1]

---

(١) الأبيات للقطامي في ديوانه (ص:٣).

فهُنَا ذكَرَ الحالَيْنِ: فالبَيْتُ الأوَّلُ يُشِيرُ إِلَى التَّأَنِّي فِي الأُمُورِ، والثَّانِي، مَثَلًا إِذَا عَنَّ لكَ أنْ تَقُومَ بطَاعَةِ اللهِ فهُنَا لَا تَتَأَخَّرْ، إِذَا كَانَ الحالُ تَتَطَلَّبُ إزالَةَ مانِعٍ مِنْ مَوانِعِ الصَّلاةِ -مَثَلًا- فلا تَتَأَخَّرْ؛ ولهَذَا كَانَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِذَا أَصَابَتْهُ نَجَاسَةٌ يُبادِرُ بِإِزَالَتِهَا، أَوْ بالأمْرِ بإِزَالَتِهَا؛ بالَ عَلَيْهِ صَبِيٌّ فِي حِجْرِهِ، فدَعَا بماءٍ فأَتْبَعَهُ إِيَّاهُ[1] ولمْ يَقُلْ: أَنْتَظِرُ حَتَّى أَصِلَ إِلَى البيْتِ. وبَالَ أَعْرَابِيٌّ فِي طائِفَةِ المَسْجِدِ، فأمَرَ بدَلْوٍ بِهِ ماءٌ فأُرِيقَ عليْهِ[2].

والتَّأْخِيرُ قَدْ يُسَبِّبُ للإِنْسَانِ إحْرَاجًا، انْظُرْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ حِينَمَا أُقِيمَتِ الصَّلاةُ ذَاتَ مَرَّةٍ وحَضَرَ، ولَمَّا تَقَدَّمَ لِيُكَبِّرَ، أَوْ كَبَّرَ، ذَكَرَ أَنَّهُ لَمْ يَغْتَسِلْ، فقالَ: «مَكَانَكُمْ» ثُمَّ ذَهَبَ واغْتَسَلَ، وجاءَ وصَلَّى بِهِمْ، بَعْدَ أنْ أُقِيمَتِ الصَّلاةُ[3]!

انْظُرِ التَّأْخِيرَ كَيْفَ يُسَبِّبُ! والنَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَجْرِي عَلَيْهِ مِثْلُ هَذِهِ الأُمُورِ؛ لأَجْلِ أنْ يَسُنَّ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لعِبَادِهِ مِثْلَ هَذِهِ الأَحْوَالِ.

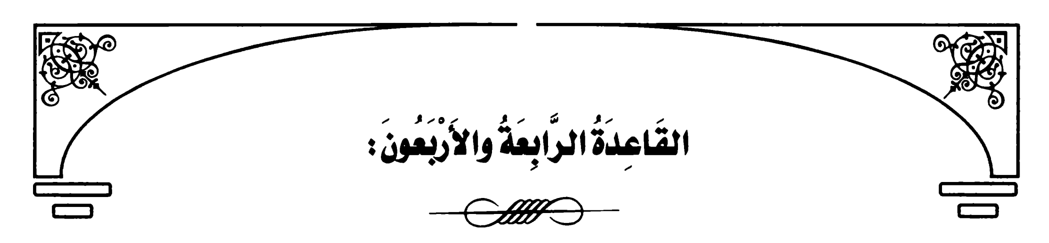


---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب بول الصبيان، رقم (٢٢٢)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب حكم بول الطفل الرضيع وكيفية غسله، رقم (٢٨٦)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب ترك النبي ﷺ والناس الأعرابي حتى فرغ من بوله في المسجد، رقم (٢١٩)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب وجوب غسل البول وغيره من النجاسات إذا حصلت في المسجد، رقم (٢٨٤، ٢٨٥)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الغسل، باب إذا ذكر في المسجد أنه جنب، يخرج كما هو، ولا يتيمم، رقم (٢٧٥)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب متى يقوم الناس للصلاة، رقم (٦٠٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



القَاعِدَةُ الرَّابِعَةُ والأَرْبَعُونَ:

عِنْدَ مَيَلَانِ النَّفْسِ أَوْ خَوْفِ مَيَلَانِهَا إِلَى مَا لَا يَنْبَغِي يُذَكِّرُهَا اللهُ مَا يَفُوتُهَا مِنَ الخَيْرِ ومَا يَحْصُلُ لَهَا مِنَ الضَّرَرِ

وهَذَا فِي القُرْآنِ كَثِيرٌ، وَهُوَ مِنْ أَنْفَعِ الأَشْيَاءِ فِي حُصُولِ الاسْتِقَامَةِ؛ لِأَنَّ الأَمْرَ والنَّهْيَ المُجَرَّدَ لَا يَكْفِي أَكْثَرَ الخَلْقِ فِي كَفِّهِمْ عَمَّا لَا يَنْبَغِي حَتَّى يُقْرَنَ بِذَلِكَ مَا يَفُوتُ مِنَ المَحْبُوبَاتِ الَّتِي تَزِيدُ أَضْعافًا مُضاعَفَةً عَلَى المَحْبُوبِ الَّذِي يَكْرَهُهُ اللهُ، وتَمِيلُ إِلَيْهِ النَّفْسُ، ومَا يَحْصُلُ مِنَ المَكْرُوهِ المُرَتَّبِ عليْهِ، كذلكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال:٢٨] فهُنَا لَمَّا ذَكَرَ فِتْنَةَ الأَمْوَالِ والأَوْلادِ الَّتِي مَالَتْ بأَكْثَرِ الخَلْقِ عَنِ الاسْتِقَامَةِ قَالَ مُذَكِّرًا لَهُمْ مَا يَفُوتُهُمْ إِنِ افْتُتِنُوا، ومَا يَحْصُلُ لَهُمْ إِنْ سَلِمُوا مِنَ الفِتْنَةِ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال:٢٨].

وقالَ تَعالَى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ [النساء:١٠٩] وقالَ تَعَالَى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى:٢٠] وقالَ تَعَالَى: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء:٢٠٥-٢٠٧] والآيَاتُ فِي هَذَا المَعْنَى الجَلِيلِ كَثِيرَةٌ جِدًّا. فَإِذَا بانَ للنَّاظِرِ أَصْلُهَا وقاعِدَتُهَا سَهُلَ عَلَيْهِ تَنْزِيلُ كُلِّ مَا يَرِدُ مِنْهَا عَلَى الأَصْلِ المُتَقَرِّرِ. واللهُ أَعْلَمُ.

التعليق

يُفِيدُ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي هَذِهِ القَاعِدَةِ: أنَّ الأوَامِرَ والنَّوَاهِيَ فِي حَدِّ ذَاتِهَا قَدْ لَا تَكْفِي فِي اسْتِقَامَةِ العَبْدِ، لكنْ إِذَا ذُكِرَ لَهُ مَا فِي تَنْفِيذِ الأَمْرِ مِنْ فائِدَةٍ نَشِطَ؛ لِأَنَّ النُّفُوسَ مجْبُولَةٌ عَلَى حُبِّ مَا يُلائِمُهَا.

وإِذَا ذُكِرَ لَهُ فِي النَّهْيِ مَا يَقْتَضِي العُقُوبَةَ، فَإِنَّهُ يَحْذَرُ؛ لِأَنَّ النُّفُوسَ مجْبُولَةٌ عَلَى النُّفُورِ مِمَّا لَا يُلائِمُهَا. وهَذَا واضِحٌ حَتَّى فِي أَوَامِرِكَ أَنْتَ لِوَلَدِكَ؛ لَوْ قُلْتَ لوَلَدِكَ: افْعَلْ كذَا! قَدْ يَتَوَانَى. لكنْ إِذَا أَعْطَيْتَهُ جائِزَةً، أَوْ قُلْتَ: لكَ جَائِزَةٌ؛ فَإِنَّهُ يُقْدِمُ.

فاللهُ عَزَّوَجَلَّ أحيانًا، إِذَا ذَكَرَ حَالًا مِنَ الأَحْوَالِ الَّتِي تَمِيلُ إِلَيْهَا النُّفُوسُ، ورُبَّمَا تَنْسَى مَا يَجِبُ عَلَيْهَا مِنْ حَقِّ اللهِ -ذَكَّرَهَا، فهُنَا قَالَ: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ يعْنِي: يَفْتَتِنُ بِهَا الإنْسَانُ، ويَنْشَغِلُ بِهَا عَنْ طاعَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. ولَمَّا كَانَ هَذَا سَبَبًا لِمَيْلِ الإنْسَانِ إِلَى أمْوالِهِ وأَوْلادِهِ، قَالَ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ فلَا تُقَدِّمُوا هَؤُلاءِ الأَوْلادَ والأَمْوَالَ عَلَى مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الأَجْرِ.

وكَذَلِكَ الآياتُ الَّتِي ذَكَرَهَا المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ولْنَفْرِضْ أَنَّكُمْ نَجَحْتُمْ فِي ذلكَ، لكنْ ﴿فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ وهذِهِ الآيَةُ تَنْفَعُ فِي الدُّنْيَا وفِي الدِّينِ أيضًا؛ فنَقُولُ لِمَنْ جَادَلَ بالباطِلِ: لِنفْرِضْ أَنَّكَ لِبيَانِكَ وفَصَاحَتِكَ غَلَبْتَ صَاحِبَ الحَقِّ، ولكنْ هَلْ تَغْلِبُ اللهَ يَوْمَ القِيَامَةِ؟ لَا.

وكَذَلِكَ أيضًا مَنْ دَافَعَ عَنْ باطِلٍ، وتَوَكَّلَ عَنْ إنْسانٍ فِي قَضِيَّةٍ مَالِيَّةٍ يُدافِعُ عَنْهُ بباطِلٍ، فنَقُولُ: لِنفْرِضْ أَنَّكَ نَجَحْتَ، وخَاصَمْتَ خَصْمَكَ، لكنْ مَنْ يُجادِلُ

اللهَ يَوْمَ القِيَامَةِ؟ وهذِهِ آيةٌ عَظِيمَةٌ يَنْبَغِي للإِنْسَانِ أنْ يَتَذَكَّرَهَا، كُلَّما هَمَّتْ نَفْسُهُ أَنْ يَقُومَ بمُخالَفَةٍ للهِ جَلَّوَعَلَا.

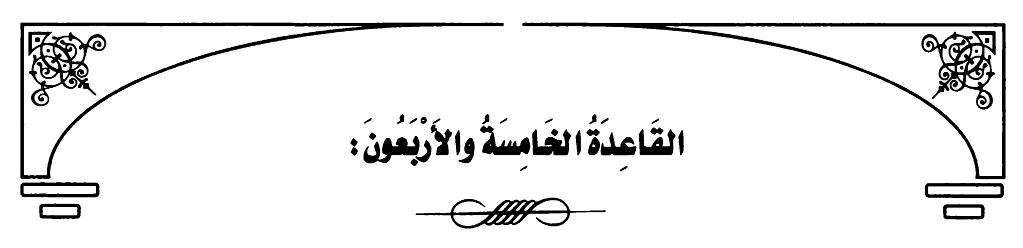
وكَذَلِكَ أيضًا الآيَةُ الثَّالِثَةُ، وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ وهذِهِ الآيَةُ أيضًا: ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ مُقَيَّدَةٌ بآياتٍ أُخْرَى، وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء:١٨].

إذًا: لَا يَحْصُلُ لَهُ كُلُّ مَا يُرِيدُ، بَلْ هُمْ مُقِرُّونَ بمَشِيئَةِ اللهِ؛ ولهَذَا نَجِدُ نَاسًا يَسْعَوْنَ للدُّنْيَا، وهُمْ لَا يُرِيدُونَ إلَّا الدُّنْيَا، ولَا يَنالُونَ مِنْهَا شيئًا؛ ولهَذَا يُضْرَبُ المَثَلُ بفَقِيرِ النَّصَارَى، إِذَا أَفْلَسَ أحَدٌ فِي شَيْءٍ مِنَ الأَشْيَاءِ، قِيلَ لهُ: أَنْتَ مِثْلُ فَقِيرِ النَّصارَى، لَا حَصَّلَ دِينًا ولَا دُنْيَا!

ومَعْلُومٌ أنَّ النَّصَارَى وغَيْرَهُمْ مِنَ الكُفَّارِ يَسْعَوْنَ للدُّنْيَا لَا للآخِرَةِ. ومَعَ ذَلِكَ قَدْ يُصابُونَ بالفَقْرِ المُدْقِعِ، وبالهَلاكِ، وبالأمْرَاضِ، وبكُلِّ شَيْءٍ مَكْتُوبٍ فِي هَذِهِ الآيَةِ: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ يَقِينًا.

لَوْ نَظَرْنَا إِلَى الآيَةِ هَذِهِ نَفْسِهَا لكانَتْ دَلالَتُهَا يَقِينًا؛ لِأَنَّهَا جُمْلَةٌ شَرْطِيَّةٌ خَبَرِيَّةٌ، والخَبَرُ لَا يُخْلَفُ، لكنَّهَا مُقَيَّدَةٌ بقَوْلِهِ: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء:١٨].





القَاعِدَةُ الخَامِسَةُ والأَرْبَعُونَ:

حَثُّ البَارِي فِي كِتَابِهِ عَلَى الصَّلَاحِ والإِصْلَاحِ

هذِهِ القَاعِدَةُ مِنْ أَعَمِّ القَوَاعِدِ؛ فإِنَّ القُرْآنَ يَكَادُ أنْ يَكُونَ كُلُّهُ دَاخِلًا تَحْتَهَا، ...

التعليق

الأفْصَحُ أنْ يُقَالَ: يَكادُ يَكُونُ كذَا؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ [النور:٤٠] وقالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة:٧١] لَا أنْ يَفْعَلُوا.

قَالَ ابْنُ مالِكٍ:

وَكَوْنُهُ بِدُونِ أَنْ بَعْدَ عَسَى ... نَزْرٌ وَكَادَ الأَمْرُ فِيهِ عُكِسَا[1]



... فإِنَّ اللهَ أَمَرَ بالصَّلاحِ فِي آياتٍ مُتَعَدِّدَةٍ والإصْلَاحِ، وأَثْنَى عَلَى الصَّالِحِينَ والمُصْلِحِينَ فِي آياتٍ أُخَرَ.

والصَّلاحُ: أنْ تَكُونَ الأُمُورُ كُلُّهَا مُسْتَقِيمَةً مُعْتَدِلَةً، مَقْصُودًا بِهَا غَايَاتُهَا الحَمِيدَةُ، فأَمَرَ اللهُ بالأعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وأَثْنَى عَلَى الصَّالِحِينَ؛ لِأَنَّ أعْمَالَ الخَيْرِ تُصْلِحُ القُلُوبَ والإيمانَ، وتُصْلِحُ الدِّينَ والدُّنْيا والآخِرَةَ، وضِدُّهَا فَسادُ هَذِهِ الأَشْيَاءِ.

---

(١) ألفية ابن مالك (ص:٢٠).

وكَذَلِكَ فِي آياتٍ مُتَعَدِّدَةٍ فِيهَا الثَّنَاءُ عَلَى المُصْلِحِينَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ، والمُصْلِحِينَ بَيْنَ النَّاسِ، والتَّصَالُحِ فِيمَا بَيْنَ المُتَنَازِعِينَ، وأَخْبَرَ عَلَى وجْهِ العُمُومِ أَنَّ الصُّلْحَ خيْرٌ؛ فإصْلاحُ الأُمُورِ الفاسِدَةِ: السَّعْيُ فِي إِزَالَةِ مَا تَحْتَوِي عَلَيْهِ مِنَ الشُّرُورِ والضَّرَرِ العامِّ والخاصِّ.

ومِنْ أَهَمِّ أَنْوَاعِ الإِصْلَاحِ: السَّعْيُ فِي إِصْلاحِ أَحْوَالِ المُسْلِمِينَ، فِي إِصْلاحِ دِينِهِمْ ودُنْيَاهُمْ، كَمَا قَالَ شُعَيْبٌ: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ [هود:٨٨] فكُلُّ ساعٍ فِي مَصْلَحَةٍ دِينِيَّـةٍ أَوْ دُنْيَوِيَّـةٍ للمُسْلِمِينَ، فَإِنَّهُ مُصْلِحٌ، واللهُ يَهْدِيهِ ويُرْشِدُهُ ويُسَدِّدُهُ، وكُلُّ سَاعٍ بضِدِّ ذَلِكَ فهُوَ مُفْسِدٌ، واللهُ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ المُفْسِدِينَ.

التعليق

مِنَ الآياتِ فِي الثَّناءِ عَلَى المُصْلِحِينَ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف:١٧٠] وقالَ تَعالَى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود:١١٧].

ففِي الآيَةِ الأُولَى بَيَّنَ اللهُ جَزاءَهُمْ، وفِي الآيَةِ الثانِيَةِ بَيَّنَ اللهُ تَعالَى مَا ارْتَفَعَ عَنْهُمْ مِنَ العَذَابِ بسَبَبِ الإِصْلَاحِ. وانْتَبِهْ لِهَذَا الشَّرْطِ: ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ ولَمْ يَقُلْ: وأَهْلُهَا صالِحُونَ!

إِذًا: فالصَّلَاحُ فِي الأُمَّةِ بدُونِ إِصْلاحٍ لَا يَضْمَنُ ارْتِفَاعَ الهَلاكِ عَنْهُمْ، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونُوا مُصْلِحِينَ، آمِرِينَ بالمَعْرُوفِ، نَاهِينَ عَنِ المُنْكَرِ، مَعَ صَلاحِ أَنْفُسِهِمْ.

أَمَّا الإِصْلَاحُ بَيْنَ الناسِ فكَقَوْلِهِ: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [النساء:١١٤] وكَذَلِكَ قَوْلِهِ: ﴿فَلَا جُنَاحَ

عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًاۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء:١٢٨] وقالَ تَعالَى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات:٩].

ومِنْ أَهَمِّ مَا يَكُونُ أيضًا: السَّعْيُ فِي الصُّلْحِ بَيْنَ المُتَنازِعِينَ، كَما أَمَرَ اللهُ بِذَلِكَ فِي الدِّمَاءِ، والأَمْوَالِ، والحُقُوقِ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ، والوَاجِبُ أَنْ يُصْلَحَ بالعَدْلِ، ويُسْلَكَ كُلُّ طَرِيقٍ تُوصِلُ إِلَى المُلائَمَةِ بَيْنَ المُتَنازِعَيْنِ، فإِنَّ آثارَ الصُّلْحِ بَرَكَةٌ وخَيْرٌ وصَلاحٌ، حَتَّى إِنَّ اللهَ تَعالَى أَمَرَ المُسْلِمِينَ إِذَا جَنَحَ الكُفَّارُ الحَرْبِيُّونَ إِلَى المُسالَمَةِ والمُصالَحَةِ أَنْ يُوافِقُوهُمْ عَلَى ذَلِكَ، مُتَوَكِّلِينَ عَلَى اللهِ.

وأَمْثِلَةُ هَذِهِ القَاعِدَةِ لا تَنْحَصِرُ، وحَقِيقَتُهَا: السَّعْيُ فِي الكَمالِ المُمْكِنِ حَسَبَ القُدْرَةِ بتَحْصِيلِ المَصالِحِ أَوْ تَكْمِيلِهَا، أَوْ إِزَالَةِ المَفَاسِدِ والمَضَارِّ أَوْ تَقْلِيلِهَا، الكُلِّيَّةِ والجُزْئِيَّةِ، المُتَعَدِّيَةِ والقَاصِرَةِ. واللهُ أَعْلَمُ.

التعليق

إِذَا جَنَحَ الكُفَّارُ إِلَى المُسالَمَةِ، فقَدْ قَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الأنفال:٦١] وهَذَا فِي حالِ ضَعْفِ المُسْلِمِينَ. وأَمَّا فِي حالِ القُدْرَةِ والقُوَّةِ، فإِنَّ الوَاجِبَ مُقاتَلَةُ الكُفَّارِ ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة:٢٩] أَوْ يُسْلِمُوا، فإِنْ أَسْلَمُوا فذاكَ، وإِلَّا بَدَلُهُ الجِزْيَةُ، فإِنْ أَبَوْا وَجَبَ عَلَيْنَا قِتالُهُمْ إِصْلَاحًا لَهُمْ؛ لِأَنَّ غَيْرَهُمْ إِذَا رَآهُمْ قَدْ قُوتِلُوا مِنْ أَجْلِ كُفْرِهِمْ، رُبَّمَا يُسْلِمُونَ، فيَكُونُ فِي ذَلِكَ خَيْرٌ.

ونحنُ إِذَا قَاتَلْنَاهُمْ، لَا نَقُولُ لَهُمُ: ادْخُلُوا فِي دِينِنَا؛ لِأَنَّهُ دِينُنَا، ولكنْ نَقُولُ: ادْخُلُوا فِي دِينِنَا؛ لِأَنَّهُ دِينُنَا ودِينُكُمْ، ووَاجِبٌ عَلَيْكُمْ أَنْ يَكُونَ هَذَا دِينكُمْ؛ لِأَنَّهُ دِينُ اللهِ، وأَنْتُمْ عِبادُ اللهِ، فكانَ هَذَا الدِّينُ واجِبًا عَلَيْنَا وعليْكُمْ، لكنْ أَنْتُمْ خَرَجْتُمْ منْهُ، فنُرِيدُ أَنْ نَرُدَّكُمْ إِلَيْهِ؛ ولهَذَا قَالَ شُعَيْبٌ: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ﴾ [الأعراف:٨٩].

فالإنْسَانُ يَجِبُ أَنْ يُبيِّنَ لهَؤُلاءِ الكُفَّارِ أَنَّنَا لَا نُقاتِلُهُمْ تَعَصُّبًا لِدِينٍ نَحْنُ عَلَيْهِ فِي مُقابِلِ دِينِهِمُ الَّذِي هُمْ عليْهِ، لكنَّنَا نُقَاتِلُهُمْ؛ لِيَدْخُلُوا فِي دِينٍ هُوَ لَنَا ولَهُمْ، مَفْرُوضٌ عَلَيْنَا وعليْهِمْ؛ لِأَنَّهُ دِينُ اللهِ الَّذِي خَلَقَهُمْ، وأَمَرَنَا بقِتَالِهِمْ حَتَّى يَدْخُلُوا فِي دِينِ اللهِ، أَوْ يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وهُمْ صَاغِرُونَ.

والإنْسَانُ الحُرُّ لَا يَرْضَى لنَفْسِهِ أَنْ يُعْطِيَ الجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُوَ صاغِرٌ، فيَكُونُ فِي هَذَا عَذَابٌ نَفْسِيٌّ يُوجِبُ لَهُمْ فِي النِّهايَةِ أَنْ يُسْلِمُوا.

الخُلاصَةُ: أَنَّ هَذِهِ القَاعِدَةَ فِيهَا إِشَارَةٌ إِلَى فائِدَةِ الصُّلْحِ، وإِلَى فائِدَةِ الإِصْلَاحِ، وأَنَّ الإِنْسَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ صالِحًا لنَفْسِهِ، ساعِيًا فِي إِصْلاحِ غَيْرِهِ؛ هَذَا أَوَّلًا. وثانيًا: عَلَيْهِ أَنْ يُصْلحَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ مَا اسْتَطَاعَ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا، وهَذَا خِلافُ طَرِيقِ النَّمامِ -والعياذُ باللهِ- الَّذِي يَسْعَى بَيْنَ النَّاسِ فِي الإِفْسادِ والفُرْقَةِ، ورُبَّمَا يَخْلُقُ أَشْيَاءَ لَمْ يَكُنْ لَهَا أَصْلٌ، رُبَّمَا يَأْتِي إِلَى شَخْصٍ ويَقُولُ: قَالَ فِيكَ فلانٌ: كذَا، وقالَ فِيكَ فُلانٌ: كذَا، وَهُوَ لَمْ يَقُلْ! لكنْ لِيُفَرِّقَ بَيْنَهُمْ.

وأَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ مَا يَسْلُكُهُ بَعْضُ النَّاسِ الظَّلَمَةِ -والعياذُ باللهِ- الَّذِينَ هُمْ فِي الحَقِيقَةِ مِنْ أَعْدَاءِ الإِسْلَامِ؛ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَشُونَ بَيْنَ العُلَمَاءِ بَعْضِهِمْ مَعَ بَعْضٍ،

ويأْتُونَ إِلَى فُلانٍ يقُولُونَ: أَرَأَيْتَ فُلانًا ماذَا قالَ! قَالَ هَذَا الكَلامَ المُنْكَرَ. ورُبَّمَا يَقُولُ: قَالَ فِيكَ كذَا وكذَا، وَهُوَ لَمْ يَقُلْ.

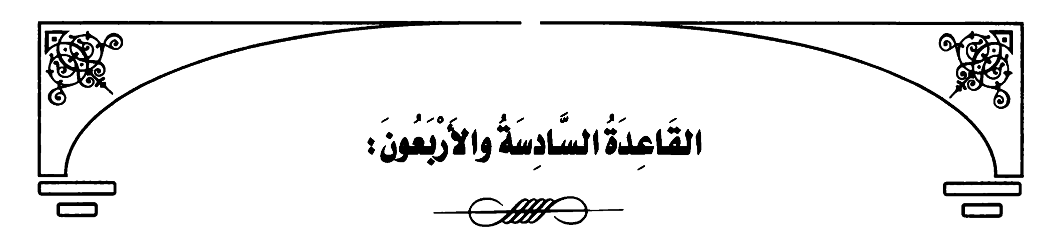
كُلُّ هَذِهِ الأُمورِ الَّتِي هِيَ إفْسادٌ ولَيْسَتْ إصْلاحًا. وهَؤُلاءِ الَّذِينَ يَشُونَ بَيْنَ أَهْلِ العِلْمِ، ويُوقِعُونَ بَيْنَهُمُ العَدَاوَةَ والبَغْضَاءَ، والأخْذَ والرَّدَّ فِي أُمُورٍ يَسَعُ المُسْلِمِينَ الخِلافُ فِيهَا؛ لِكَوْنِهَا أُمُورًا اجْتِهَادِيَّةً، مَبْنِيَّةً عَلَى الاجْتِهَادِ، هَؤُلاءِ فِي الحَقِيقَةِ مِنْ أعْداءِ المُسْلِمِينَ، هُمْ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُصْلِحُونَ، وهُمْ مُفْسِدُونَ؛ لِأَنَّ إضْعافَ جانِبِ حَمَلَةِ الشَّرْعِ هُوَ إضْعافٌ لِجَانِبِ الشَّرْعِ، فَإِذَا أَضْعَفْنَا حَمَلَةَ الشَّرْعِ، وجَعَلْنَاهُمْ خُصَماءَ فِيمَا بَيْنَهُمْ، فمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّنا أَضْعَفْنَا الشَّرْعَ كُلَّهُ، وصارَ النَّاسُ لَا يَثِقُونَ بأَحَدٍ، كُلَّما أَرَادَ أَحَدٌ أَنْ يَحْتَجَّ بقَوْلِ عالِمٍ مِنْ عُلَماءِ المُسْلِمِينَ قالُوا: لكِنِ انْظُرْ مَاذَا قالَ، تَكَلَّمَ فِيهِ فُلانٌ، وانْظُرْ ماذَا أَحْدَثَ، وانْظُرْ رَدَّ فُلانٍ عَلَيْهِ، وهَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ أَمْرٌ مُنْكَرٌ، وأَنَّ هَذَا مِنْ وَحْيِ الشَّيْطَانِ لهَؤُلاءِ الأغْرَارِ، الَّذِينَ نَعْتَبِرُهُمْ صِغارَ العُقُولِ، وسُفَهَاءَ الأَحْلامِ.

فالواجِبُ عَلَى المُسْلِمِينَ إِذَا رَأَوْا تَصَدُّعًا بَيْنَهُمْ، ولَا سِيَّمَا بَيْنَ عُلَمائِهِمْ، أَنْ يَقُومُوا بالإصْلَاحِ، ورأْبِ الصَّدْعِ، وجَمْعِ الكَلِمَةِ؛ حَتَّى يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الأنبياء:٩٢].

وأَنْتُمْ أَيُّهَا الشَّبابُ، عليْكُمْ إِذَا رَأَيْتُمْ مِثْلَ هَؤُلاءِ المُفْسِدِينَ أَنْ تُحَذِّرُوا النَّاسَ مِنْهُمْ، ومِنْ طَرِيقِهِمْ، وتُبَيِّنُوا أَنَّ هَؤُلاءِ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ ضَرَرًا، لَيْسَ عَلَى الشَّخْصِ الَّذِي يُهاجِمُونَهُ فحَسْبُ، ولكِنْ عَلَى المُسْلِمِينَ وعَلَى الإسْلَامِ، أَمَّا هُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَعْيُهُمْ، وهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا. والعياذُ باللهِ.

فالواجِبُ عَلَيْنَا أنْ نُصْلِحَ مَا اسْتَطَعْنَا. ومَعَ ذلكَ فَإِنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا أنْ نَقُولَ كَلِمَةَ الحَقِّ، ويُمْكِنُ إظْهارَ كَلِمَةِ الحَقِّ بأنْ يَقُولَ الإنْسَانُ الحَقَّ بدُونِ أنْ يَتعَرَّضَ للطَّعْنِ فِي شَخْصٍ مُعَيَّنٍ. فلَا يَلْزَمُ أنْ نَطْعَنَ فِي شَخْصٍ، بَلْ إذَا قَالَ الإنْسَانُ الحَقَّ، وبَيَّنَهُ بأَدِلَّتِهِ النَّقْلِيَّةِ والعَقْلِيَّةِ، عَرَفَ النَّاسُ فَسادَ ضِدِّهِ، وبَقِيَتِ الأُمُورُ لَيْسَ فِيهَا تَحَزُّبٌ، ولَيْسَ فِيهَا تَكَتُّلٌ، ولَيْسَ فِيهَا: «أَنْتَ مَعَ فُلانٍ، وأَنَا مَعَ فُلانٍ» كَمَا هُوَ حَادِثٌ فِي بَعْضِ البُلْدَانِ. نَسْأَلُ اللهَ السَّلامَةَ والعَافِيَةَ.





القَاعِدَةُ السَّادِسَةُ والأَرْبَعُونَ:

مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ فِي كِتَابِهِ إِمَّا أَنْ يُوَجَّهَ إِلَى مَنْ لَمْ يَدْخُلْ فِيهِ فهَذَا أَمْرٌ لَهُ بالدُّخُولِ فِيهِ وَإِمَّا أَنْ يُوَجَّهَ لِمَنْ دَخَلَ فِيهِ فهَذَا أَمْرُهُ بِهِ لِيُصَحِّحَ مَا وُجِدَ مِنْهُ، وَيَسْعَى فِي تَكْمِيلِ مَا لَمْ يُوجَدْ مِنْهُ

التعليق

هذِهِ القَاعِدَةُ مُهِمَّةٌ: إِذَا وُجِّهَ الخِطابُ بشَيْءٍ إِلَى شَخْصٍ لَمْ يَتَّصِفْ بِهِ، فَهُوَ أَمْرٌ بِفِعْلِهِ وإيجادِهِ، مِثْلُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة:٢١] فَلَيْسَ كُلُّ النَّاسِ عَابِدِينَ للهِ، فيَكُونُ الخِطابُ هُنَا مُوَجَّهًا حَتَّى إِلَى الكُفَّارِ، فيَكُونُ أَمْرًا بفِعْلِ هَذَا الشَّيْءِ.

أَمَّا إِذَا وُجِّهَ الأَمْرُ إِلَى مَنْ تَلَبَّسَ بِهِ واتَّصَفَ بِهِ، فهُوَ أَمْرٌ بتَحْقِيقِهِ، وتَكْمِيلِ مَا نَقَصَ منْهُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُ﴾ [النساء:١٣٦] ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ. وهذِهِ القَاعِدَةُ مُهِمَّةٌ؛ لِأَنَّهُ أحْيانًا يَرِدُ عَلَى الإنْسَانِ: كَيْفَ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ﴾ وَهُوَ يَأْتِي بشَعائِرِ الإِسْلَامِ كُلِّهَا؟ فيَكُونُ أَمْرًا بإِتْمَامِ مَا نَقَصَ مِنْهُ، وإِكْمالِ مَا كَانَ مَوْجُودًا منهُ.



وهذِهِ القَاعِدَةُ مُطَّرِدَةٌ فِي جَمِيعِ الأَوَامِرِ القُرْآنِيَّةِ، أُصُولِهَا وفُرُوعِهَا، فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا﴾ [النساء:٤٧] مِنَ القِسْمِ الأَوَّلِ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ﴾ [النساء:١٣٦] مِنَ الثَّانِي والثَّالِثِ، فَإِنَّهُ أَمَرَهُمْ بِمَا يُصَحِّحُ ويُكَمِّلُ إيمانَهُمْ مِنَ الأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ والبَاطِنَةِ، وكَمَالِ الإِخْلاصِ فِيهَا، والنَّهْيِ عَمَّا يُفْسِدُهَا ويَنْقُصُهَا.

وكَذَلِكَ أَمْرُهُ للمُؤْمِنِينَ أَنْ يُقِيمُوا الصَّلاةَ، ويُؤْتُوا الزَّكَاةَ، ويَصُومُوا رَمَضَانَ، أَمْرٌ بتكْمِيلِ ذلكَ، والقِيامِ بكُلِّ شَرْطٍ ومُكَمِّلٍ لذلِكَ العَمَلِ، والنَّهْيِ عَنْ كُلِّ مُفْسِدٍ ومُنْقِصٍ لذلكَ العَمَلِ، وكَذَلِكَ أَمْرُهُ لَهُمْ بالتَّوَكُّلِ والإنابَةِ ونَحْوِهَا مِنْ أَعْمالِ القُلُوبِ هُوَ أَمْرٌ بتَحْقِيقِ ذلكَ، وإيجادِ مَا لَمْ يُوجَدْ مِنْهُ.

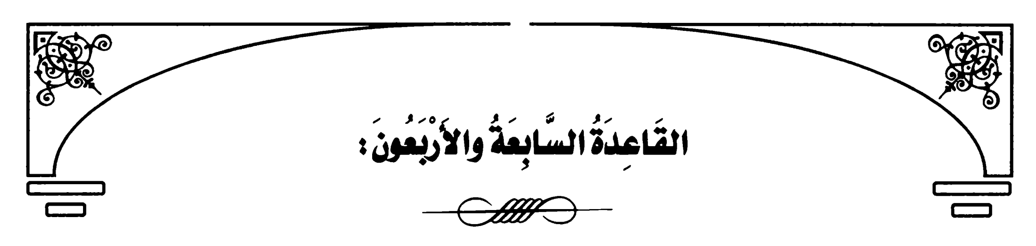
وبهذِهِ القَاعِدَةِ نَفْهَمُ جوابَ الإيرادِ الَّذِي يُورَدُ عَلَى طَلَبِ المُؤْمِنِينَ مِنْ رَبِّهِمُ الهِدايَةَ إِلَى الصِّرَاطِ المُسْتَقِيمِ، واللهُ قَدْ هَدَاهُمْ للإسْلامِ، جَوابُهُ مَا تَضَمَّنَتْهُ هَذِهِ القَاعِدَةُ، ولَا يُقالُ: هَذَا تَحْصِيلٌ للحاصِلِ!! فافْهَمْ هَذَا الأَصْلَ الجَلِيلَ النَّافِعَ الَّذِي يَفْتَحُ لكَ مِنْ أَبْوَابِ العِلْمِ كُنوزًا، وَهُوَ فِي غَايَةِ اليُسْرِ والوُضُوحِ.

التعليق

المُؤْمِنُ يَقُولُ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦] أَنْتَ قَدْ هُدِيتَ، ولكنْ بَقِيَ عَلَيْكَ تَكْمِيلٌ، فمَا أَنَا فَاعِلُهُ يَحْتَاجُ إِلَى تَكْمِيلٍ وتَحْسِينٍ وإكْمالٍ فِيمَا نَقَصَ مِنِّي، فأَنْتَ مثلًا تُصَلِّي الصَّلَوَاتِ، لكنْ هَلْ تَأْتِي بالرَّوَاتِبِ كُلِّهَا؟ قَدْ لَا تَأْتِي بِهَا، تُصَلِّي الصَّلَوَاتِ، لكنْ هَلِ الصَّلَوَاتُ كامِلَةٌ؟ قَدْ تَنْصَرِفُ مِنْ صَلاتِكَ ولَمْ يُكْتَبْ لكَ مِنْهَا إِلَّا العُشْرُ مَثلًا؟

فهذِهِ القَاعِدَةُ -كما قَالَ شَيْخُنَا رَحِمَهُ ٱللَّهُ- قَاعِدَةٌ مُهِمَّةٌ جِدًّا، يَزُولُ بِهَا إشْكالٌ كَثِيرٌ، ويَسْتَحْضِرُ الإنْسَانُ بِهَا كَيْفَ يَدْعُو اللهَ جَلَّ وَعَلَا، إِذَا قَالَ: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة:٦].





القَاعِدَةُ السَّابِعَةُ والأَرْبَعُونَ:

إِذَا كَانَ سِياقُ الآياتِ فِي أُمُورٍ خَاصَّةٍ وَأَرادَ اللهُ أَنْ يَحْكُمَ عَلَيْهَا، وذَلِكَ الحُكْمُ لَا يَخْتَصُّ بِهَا بَلْ يَشْمَلُهَا ويَشْمَلُ غَيْرَهَا - جَاءَ اللهُ بِالحُكْمِ العَامِّ

وهذِهِ القَاعِدَةُ مِنْ أَسْرَارِ القُرْآنِ وبَدَائِعِهِ، وأَكْبَرُ دَلِيلٍ عَلَى إِحْكامِهِ وانْتِظَامِهِ العَجِيبِ، وأَمْثِلَةُ هَذِهِ القَاعِدَةِ كَثِيرَةٌ، مِنْهَا: لَمَّا ذَكَرَ اللهُ المُنَافِقِينَ وذَمَّهُمْ واسْتَثْنَى مِنْهُمُ التَّائِبِينَ، فَقَالَ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء:١٤٦] فلَمَّا أَرادَ اللهُ أَنْ يَحْكُمَ لَهُمْ بالأَجْرِ لَمْ يَقُلْ: وسَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا، بَلْ قَالَ: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:١٤٦] لِيَشْمَلَهُمْ وغَيْرَهُمْ مِنْ كُلِّ مُؤْمِنٍ؛ ولِئَلَّا يُظَنَّ اخْتِصَاصُ الحُكْمِ بِهِمْ.

ولَمَّا قَالَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [النساء:١٥٠] إِلَى قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء:١٥١] لَمْ يَقُلْ: «وأَعْتَدْنَا لَهُمْ» للحِكْمَةِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا، ومِثْلُهُ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا﴾ [الأنعام:٦٤] أَيْ: هَذِهِ الحالَةِ الَّتِي وَقَعَ السِّيَاقُ لِأَجْلِهَا ﴿وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾ [الأنعام:٦٤].

التعليق

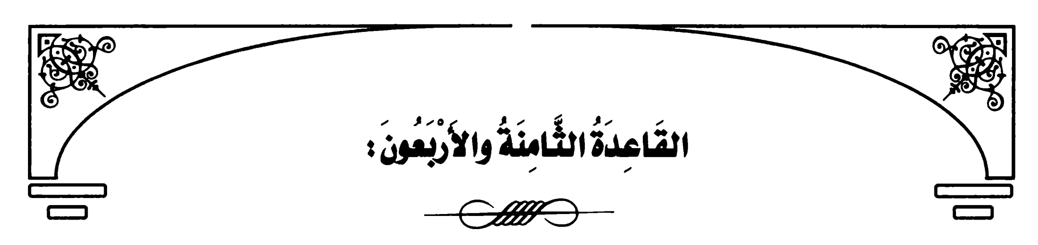
وهذِهِ أيضًا تَقَعُ كَثِيرًا فِي مَقامِ الإظْهارِ فِي مَوْضِعِ الإضْمَارِ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى أَحْيَانًا يُظْهِرُ فِي مَوْضِعِ الضَّمِيرِ لِيُفِيدَ الحُكْمَ بالعُمُومِ، فالآياتُ الَّتِي ذَكَرَ المُؤَلِّفُ

واضِحَةٌ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الشعراء:٢٢٧] ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَٱعْتَصَمُوا بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قَالَ: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لَوْ قَالَ: وسَوْفَ يُؤْتِيهِمْ لَتوَهَّمَ مُتوَهِّمٌ أَنَّ هَذَا الأَجْرَ العَظِيمَ لِهَؤُلاءِ فقطْ! ولكنَّهُ قَالَ: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فأظْهَرَ فِي مَوْضِعِ الإِضْمارِ، وفَائِدَتُهُ أَنَّ الحُكْمَ عامٌّ لَهُمْ ولغَيْرِهِمْ.

وهُناكَ فائِدَةٌ أُخْرَى: أنَّ هَذَا الأَجْرَ ثَبَتَ مِنْ أَجْلِ الإيمانِ، فكُـلُّ مُؤْمِنٍ وإِنْ لَمْ يَسْبِقْ لَهُ نِفاقٌ، فإنَّ اللهَ تَعَالَى يُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا.

والمُهِمُّ أَنَّ هَذِهِ القَاعِدَةَ -كَما قَالَ الشَّيْخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ- قَاعِدَةٌ مُهِمَّةٌ جِدًّا، وَهِيَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى يَحْكُمُ بحُكْمٍ عامٍّ، يَشْمَلُ مَا سِيقَ مِنْ أَجْلِهِ، ومَا لَمْ يُذْكَرْ، وهَذَا مِنْ بَدائِعِ القُرْآنِ، وَجَمْعِهِ، وأَنَّهُ مِنْ جَوامِعِ الكَلِمِ.





القَاعِدَةُ الثَّامِنَةُ والأَرْبَعُون:

مَتَى عَلَّقَ اللهُ عِلْمَهُ بِالأُمُورِ بَعْدَ وُجُودِهَا كَانَ المُرَادُ بِذَلِكَ العِلْمَ الَّذِي يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ الجَزَاءُ

وذلكَ أَنَّهُ تَقَرَّرَ فِي الكِتَابِ والسُّنَّةِ والإِجْماعِ أَنَّ اللهَ بكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، وأَنَّ عِلْمَهُ مُحِيطٌ بالعالَمِ العُلْوِيِّ والسُّفْلِيِّ، والظَّوَاهِرِ والبَوَاطِنِ، والجَلِيَّاتِ والخَفِيَّاتِ، والماضِي والمُسْتَقْبَلِ، وقَدْ عَلِمَ مَا العِبَادُ عَامِلُونَ قَبْلَ أَنْ يَعْمَلُوا الأَعْمَالَ، وقَدْ وَرَدَ عِدَّةُ آياتٍ يُخْبِرُ بِهَا أَنَّهُ شَرَعَ كَذَا، أَوْ قَدَّرَ كَذَا؛ لِيَعْلَمَ كذَا.

فَوَجْهُ هذَا: أَنَّ هَذَا العِلْمُ الَّذِي يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ الجَزَاءُ. وأَمَّا عِلْمُهُ بأَعْمالِ العِبادِ، ومَا هُمْ عَامِلُونَ قَبْلَ أَنْ يَعْمَلُوا، فذلِكَ عِلْمٌ لَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ الجَزَاءُ؛ لِأَنَّهُ إِنَّما يُجازَى عَلَى مَا وُجِدَ مِنَ الأَعْمالِ. وعَلَى هَذَا الأَصْلِ نَزِّلْ مَا يَرِدُ عَلَيْكَ مِنَ الآياتِ، كَقَوْلِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ [المائدة:٩٤] وقَوْلِهِ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة:١٤٣] وقَوْلِهِ تعَالَى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ [الحديد:٢٥] ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [العنكبوت:١١] وقَوْلِهِ: ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا﴾ [الكهف:١٢] ومَا أَشْبَهَ هَذِهِ الآياتِ كُلِّهَا عَلَى هَذَا الأَصْلِ.

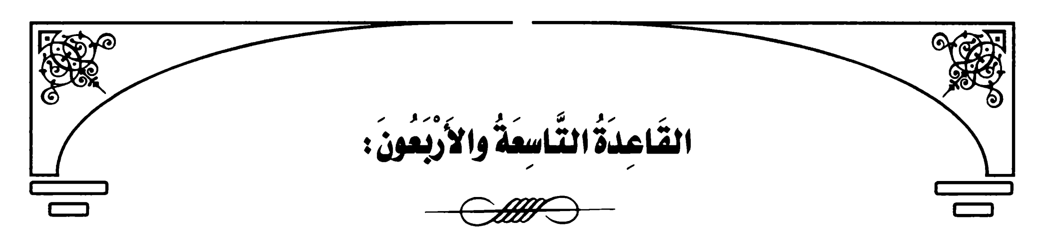
التعليق

نَحْنُ نَعْلَمُ عِلْمَ اليَقِينِ أَنَّ اللهَ بكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، فِي المُسْتَقْبَلِ، وفِي الماضِي، وفِي الحاضِرِ. وهَذَا لَا إِشْكَالَ فِيهِ، ولكنْ تَرِدُ آياتٌ تُوجِبُ إِشْكَالًا، مِثْلُ قَوْلِهِ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [محمد:٣١] أَلَيْسَ اللهُ قَدْ عَلِمَ ذَلِكَ مِنْ قَبْلُ؟ بَلَى، ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ [المائدة:٩٤] أَلَيْسَ اللهُ قَدْ عَلِمَ ذَلِكَ مِنْ قَبْلُ؟ بَلَى. وأَمْثَالُ ذَلِكَ كَثِيرٌ.

وهَذَا يُوجِبُ الإِشْكَالَ عَلَى الإِنْسَانِ، فأَرادَ الشَّيْخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَنْ يُبَيِّنَ الجَوَابَ، فقالَ: إِنَّ العِلْمَ عِلْمَانِ: عِلْمٌ لَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ الجَزَاءُ، وعِلْمٌ يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ الجَزَاءُ؛ فعِلْمُ اللهِ تَعَالَى بأَنَّ هَذَا الشَّيْءَ سَيَكُونُ، لَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ الجَزَاءُ. وكَيْفَ يَتَرَتَّبُ الجَزَاءُ عَلَى مَنْ لَمْ يُؤْمَرْ ولَمْ يُنْهَ؟! وأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ فهَذَا عِلْمٌ بِمَا يَكُونُ لِيُجَازِيَ عَلَيْهِ، وهَذَا واضِحٌ.

وأَمَّا قَوْلُ بَعْضِ أَهْلِ العِلْمِ: إِلَّا لِنَعْلَمَ عِلْمَ ظُهُورٍ، فهذِهِ العِبارَةُ عَلَى إِطْلَاقِهَا فِيهَا نَظَرٌ؛ لِأَنَّ عِلْمَ اللهِ بالشَّيْءِ قَبْلَ وُقُوعِهِ عِلْمٌ بِهِ ظاهِرًا وباطِنًا. لكنْ إِنْ أَرادُوا بعِلْمِ الظُّهُورِ أَنَّ تَعَلُّقَ عِلْمِ اللهِ تَعَالَى بهَذَا الشَّيْءِ قَبْلَ وُقُوعِهِ تَعَلُّقٌ بأَنَّ الشَّيْءَ سَيُوجَدُ، وتَعَلُّقَهُ بِهِ بَعْدَ الوُجُودِ تَعَلُّقٌ بِأَنَّهُ وُجِدَ، يَعْنِي: عِلْمُ اللهِ السَّابِقُ عَلَى الوُقُوعِ عِلْمٌ بِأَنَّهُ سَيُوجَدُ، وعِلْمُ اللهِ بَعْدَ الوُقُوعِ عِلْمٌ بِأَنَّهُ وُجِدَ، هَذَا صَحِيحٌ.

وهَذَا أَيضًا فَرْقٌ ثانٍ، بأَنَّ اللهَ إِذَا عَلَّقَ العِلْمَ بمَوْجُودٍ، فَهُوَ عِلْمٌ بِأَنَّهُ وُجِدَ، وإِذَا تَعَلَّقَ عِلْمُهُ بِمَا سَيُوجَدُ فهُوَ عِلْمٌ بِأَنَّهُ سَيُوجَدُ، لَا بِأَنَّهُ وُجِدَ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ عِلْمٌ بِأَنَّهُ وُجِدَ، صَارَ عَلَى خِلافِ المَوْجُودِ.



القَاعِدَةُ التَّاسِعَةُ والأَرْبَعُونَ:

إِذَا مَنَعَ اللهُ عِبَادَهُ المُؤْمِنِينَ شَيْئًا تَتَعَلَّقُ بِهِ إِرَادَتُهُمْ فَتَحَ لَهُمْ بَابًا أَنْفَعَ لَهُمْ مِنْهُ وأَسْهَلَ وأَوْلَى

وهَذَا مِنْ لُطْفِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النساء:٣٢] فنهاهُمْ عَنِ التَّمَنِّي الَّذِي لَيْسَ بنافِعٍ، وفتَحَ لَهُمْ أَبْوابَ الفَضْلِ والإِحْسَانِ، وأمَرَهُمْ أَنْ يَسْأَلُوهُ بلِسَانِ المَقالِ وبِلسَانِ الحالِ؛ ولمَّا سَأَلَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ رُؤْيَةَ رَبِّهِ حِينَ سَمِعَ كَلامَهُ ومَنَعَهُ اللهُ مِنْهَا، سَلَّاهُ بِمَا أَعْطَاهُ مِنَ الخَيْرِ العَظِيمِ، قَالَ: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف:١٤٤] وقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة:١٠٦] وقَوْلِهِ: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [النساء:١٣٠] وفِي هَذَا المَعْنَى آياتٌ كَثِيرَةٌ.

التعليق

وهَذَا أمْرٌ يَعرِفُ الإِنْسَانُ بِهِ لُطْفَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وإِحْسَانَهُ إِلَى خَلْقِهِ؛ أَنَّهُ إِذَا مَنَعَهُمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَحَ لَهُمْ أَبْوابًا خَيْرًا مِنْـهُ، فهُنَا قَـالَ: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، يعْنِي: مِنَ العِلْمِ، والمالِ، والجَاهِ، والرِّئاسَةِ وغَيْرِ ذلكَ، فَلا تَتَمَنَّ أَنْ يَكُونَ لكَ مَا أَعْطَى اللهُ أَخاكَ؛ ولهَذَا قَالَ: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ﴾

ولَمْ يَقُلْ: ولَا تَتَمَنَّوْا مِثْلَ مَا فضَّلَ اللهُ؛ إذْ إنَّ الإنْسَانَ يَجُوزُ أنْ يَتَمَنَّى مِثْلَ مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَ عِبادِهِ.

يَجُوزُ أنْ تَتَمَنَّى مِثْلَ عِلْمِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ -مَثَلًا- يُقالُ: إنَّ رَجُلًا كَانَ يَطُوفُ بالبَيْتِ، ويَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ فِقْهًا كفِقْهِ شَيْخِ الإسْلَامِ، ونَحْوًا كنَحْوِ ابْنِ هِشَامٍ! هَذَا جائِزٌ، لكنْ لَوْ قُلْتَ: اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي فِقْهَ شَيْخِ الإسْلَامِ، يعْنِي: اجْعَلْهُ لِي دُونَهُ، هَذَا لَا يَجُوزُ.

إذًا: أَقُولُ: أَسْأَلُ اللهَ مِنْ فَضْلِهِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ أنْ تُعْطِيَنِي مِثْلَ مَا أَعْطَيْتَ هَذَا الرَّجُلَ، كقَوْلِنَا: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ، وعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ» فهَذَا مِنْ أَلْطَفِ القَوَاعِدِ، كَمَا قَالَ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى.

كذلكَ أيضًا: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ رُبَّمَا يَنْدَمُ الإنْسَانُ عَلَى نَسْخِ اللهِ تَعَالَى بَعْضَ الأحْكَامِ، أَوْ بَعْضَ الآياتِ، أَوْ يَنْدَمُ عَلَى تَنْسِيَتِهِ إيَّاهَا، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأعلى:٦-٧]. إِذَا نَدِمَ الإنْسَانُ، نَقُولُ: لَا تَنْدَمْ يَا أَخِي! إنَّ اللهَ إِذَا نَسخَ آيَةً، أَوْ أَنْسَاهَا، أَتَى بخَيْرٍ مِنْهَا، أَوْ مِثْلِهَا. وبَدَأَ بالخَيْرِيَّةِ أوَّلًا، فقالَ: ﴿بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾.

والفائِدَةُ مِنَ النَّسْخِ إِذَا كانَتِ الآيَةُ النَّاسِخَةُ مِثْلَ الأُولَى اخْتِبَارُ العَبْدِ، هَلْ يَكُونُ قابِلًا رَاضِيًا أَوْ لَا؟ وانْظُرْ إِلَى نَسْخِ القِبْلَةِ مِنْ بَيْتِ المَقْدِسِ إِلَى الكَعْبَةِ! العَمَلُ واحِدٌ، والاتِّجاهُ واحِدٌ، أَنْتَ لَا يُهِمُّكَ أَنْ تَتَّجِهَ إِلَى المَشْرِقِ أَوْ إِلَى المَغْرِبِ، أَوْ إِلَى الشِّمالِ أَوْ إِلَى الجَنُوبِ، لكِنِ الفائِدَةُ هِيَ امْتِحانُ النَّاسِ؛ ولهَذَا قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة:١٤٣] فإنَّ بَعْضَ النَّاسِ إِذَا رَأَى النَّسْخَ -والعياذُ باللهِ- ارْتَدَّ! وقالَ: كَيْفَ

يُبَدِّلُ الشَّرْعُ؟! فالحاصِلُ، أنِّي أَقُولُ: إنَّ اللهَ تَعَالَى إِذَا مَنَعَ العِبادَ شَيْئًا فتحَ لَهُمْ أَبْوَابًا كَثِيرَةً مِثْلَهُ، أَوْ خيْرًا مِنْهُ.

وعَلَى هَذَا نَقُولُ: مَنْ تَرَكَ شَيْئًا للهِ عَوَّضَهُ اللهُ خَيْرًا منْهُ. أيضًا، فِي قِصَّةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، لَـمَّا كَلَّمَهُ اللهُ اشْتَاقَ إِلَى رَبِّهِ أنْ يَراهُ؛ لِأَنَّ رُؤْيَةَ المُتكلِّمِ لَيْسَتْ كَسَماعِ كَلامِهِ؛ ولهَذَا كَانَ الصَّحَابَةُ -رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ- إِذَا خَاطَبَهُمُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، اسْتَقْبَلُوهُ بوُجُوهِهِمْ حتَّى يرَوْهَ، لَوْ حَدَّثَكَ أَحَدٌ بحَدِيثٍ مِنْ وَرَاءِ الجِدَارِ، تَسْتَمِعُ لقَوْلِهِ لكنْ لَيْسَ كَمَا إِذَا رَأَيْتَهُ، أنْتَ الآنَ تَسْمَعُ فِي المُسَجِّلِ كَلامَ الرَّجُلِ بنَفْسِكَ، لكنْ لَيْسَ كحُضُورِكَ عِنْدَهُ وَهُوَ يُلْقِي الكَلامَ، فبَيْنَهُمَا فَرْقٌ عَظِيمٌ؛ فمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَـمَّا سَمِعَ كَلامَ اللهِ اشْتَاقَ لِرُؤْيَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فقالَ: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ﴾ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ هَذَا مُسْتَحِيلٌ؛ لِأَنَّ نَقْصَ الإنْسَانِ فِي الدُّنْيَا لا يُمْكِنُهُ أنْ يَتَحَمَّلَ رُؤْيَةَ اللهِ تعالَى.

ثُمَّ ضَرَبَ اللهُ لَهُ مَثَلًا، فَقَالَ: ﴿ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِي﴾ فتجَلَّى اللهُ سُبْحَانَهُ للجَبَلِ، فانْدَكَّ الجَبَلُ! جبَلٌ أَصَمُّ، حجَرٌ صُلْبٌ، لَـمَّا تَجَلَّى اللهُ لَهُ جَعَلَهُ دكًّا، وصارَ تُرابًا! لَـمَّا رَأَى مُوسَى هَذَا الأَمْرَ خَرَّ صَعِقًا، فلَمَّا أَفَاقَ قَالَ: ﴿سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ فَما سَأَلْتُكَ الرُّؤْيَةَ عَنْ شَكٍّ، ولكنْ عَنْ شَوْقٍ، ثُمَّ قَالَ اللهُ لهُ: ﴿إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ﴾ ولَا تَطْلُبْ مَا لَمْ تُؤْتَ ﴿فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ هُنَا عُوِّضَ عَنِ الرُّؤْيَةِ، أَوْ سُلِّيَ عَنِ الرُّؤْيَةِ بقَوْلِهِ: ﴿إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾.

وهَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾ [النساء:١٠٤] يَعْنِي: لَا تَهِنُوا وتَضْعُفُوا فِي طَلَبِ الكُفَّارِ؛ لِأَنَّ هَذَا الَّذِي يُصِيبُكُمْ يُصِيبُهُمْ، هُمْ مِثْلُكُمْ بَشَرٌ، لكنِ الفَارِقُ: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء:١٠٤] وهَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ يُسَلِّي المَرْءَ، ويُوجِبُ لَهُ النَّشَاطَ فِي تَنْفِيذِ الأمْرِ.





القَاعِدَةُ الخَمْسُونَ:

آيَاتُ الرَّسُولِ هِيَ الَّتِي يُبْدِيهَا البَارِي وَيَبْتَدِيهَا
وأَمَّا مَا أَبْدَاهُ المُكَذِّبُونَ لَهُ وَاقْتَرَحُوهُ
فَلَيْسَتْ آياتٍ وإِنَّمَا هِيَ تَعَنُّتَاتٌ وَتَعْجِيزَاتٌ

وبهذَا يُعْرَفُ الفَرْقُ بَيْنَهَا وبَيْنَ الآياتِ، وَهِيَ البَرَاهِينُ والأدِلَّةُ عَلَى صِدْقِ الرَّسُولِ وغَيْرِهِ مِنَ الرُّسُلِ، وعَلَى صِدْقِ كُلِّ خَبَرٍ أَخْبَرَ اللهُ بِهِ، وأَنَّهَا الأدِلَّةُ والبَرَاهِينُ الَّتِي يَلْزَمُ مِنْ فَهْمِهَا عَلَى وجْهِهَا صِدْقُ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ ويَقِينُهُ.

وبِهذَا المَعْنَى مَا أَرْسَلَ اللهُ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا أَعْطَاهُ مِنَ الآياتِ مَا عَلَى مِثْلِهِ آمَنَ البَشَرُ. وأَمَّا مَا آتَى اللهُ مُحَمَّدًا ﷺ مِنَ الآياتِ، فَهِيَ لَا تُحَدُّ ولَا تُعَدُّ مِنْ كَثْرَتِهَا وقُوَّتِهَا ووُضُوحِهَا وللهِ الحَمْدُ، فلَمْ يَبْقَ لأحَدٍ مِنَ النَّاسِ بَعْدَهَا عُذْرٌ، فعُلِمَ بِذَلِكَ أنَّ اقْتِرَاحَ المُكَذِّبِينَ لآياتٍ يُعَيِّنُونَهَا لَيْسَتْ مِنْ هَذَا القَبِيلِ، وإِنَّمَا مَقْصُودُهُمْ بهذَا أَنَّهُمْ وَطَّنُوا أَنْفُسَهُمْ عَلَى دِينِهِمُ الباطِلِ، وعَدَمِ اتِّبَاعِ النَّبِيِّ ﷺ فلَمَّا دَعَاهُمْ إِلَى الإيمانِ، وأَرَاهُمْ شَواهِدَ الآياتِ أَرَادُوا أَنْ يُبَرِّرُوا مَا هُمْ عَلَيْهِ عِنْدَ الأغْمارِ والسُّفهاءِ بقَوْلِهِمْ: ائْتِنَا بالآيَةِ الفُلانِيَّةِ، والآيَةِ الفُلانِيَّةِ، إنْ كُنْتَ صادِقًا، وإنْ لَمْ تَأْتِ بِذَلِكَ فَلَا نُصَدِّقُكَ!! فهذِهِ طَرِيقَةٌ لَا يَرْتَضِيهَا أَدْنَى مُنْصِفٍ؛ ولِهَذَا يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ لَوْ أَجَابَهُمْ إِلَى مَا طَلَبُوا لَمْ يُؤْمِنُوا؛ لأَنَّهُمْ وَطَّنُوا أَنْفُسَهُمْ عَلَى الرِّضَى بِدِينِهِمْ، وعَرَفُوا الحَقَّ ورَفَضُوهُ. وأيضًا، فهَذَا مِنْ جَهْلِهِمْ فِي الحالِ والمآلِ.

أمَّا الحالُ: فإنَّ هَذِهِ الآياتِ الَّتِي تُقْتَرَحُ وتُعَيَّنُ جَرَتِ العادَةُ أنَّ المُقْتَرِحِينَ لَهَا لَمْ يَكُنْ قَصْدُهُمُ الحقَّ، فَإِذَا جاءَتْ وَلَمْ يُؤْمِنُوا عُوجِلُوا بالعُقُوبَةِ الحاضِرَةِ.

وأمَّا المآلُ: فإنَّهُمْ جزَمُوا جَزْمًا لا تَرَدُّدَ فِيهِ أنَّهَا إِذَا جاءَتْ آمَنُوا وصَدَّقُوا، وهَذَا قَلْبٌ للحقائقِ، وإخبارٌ بغَيْرِ الَّذِي فِي قُلُوبِهِمْ، فلَوْ جاءَتْهُمْ لَمْ يُؤْمِنُوا إلَّا أنْ يَشَاءَ اللهُ تعالَى.

وهَذَا النَّوْعُ ذَكَرَهُ اللهُ فِي كِتابِهِ عَنِ المُكَذِّبِينَ فِي آياتٍ كَثِيرَةٍ جِدًّا؛ كَقَوْلِهِمْ: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ الآياتِ [الإسراء:٩٠].

التعليق

﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء:٩٠-٩٤] إِلَى آخِرِهِ؛ فَبَيَّنَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أَنَّهُمْ لَمْ يُؤْمِنُوا ولَوْ جاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ [يونس:٩٦-٩٧].

وبهذَا نَعْرِفُ مُرادَ المُؤَلِّفِ فِي الكِتابِ، مِنْ أَوَّلِ القَاعِدَةِ؛ حَيْثُ قَالَ: إنَّ آياتِ الرَّسُولِ هِيَ الَّتِي يُبْدِيهَا البَارِي ويَبْتَدِيهَا. وأمَّا مَا أَبْدَاهُ المُكَذِّبُونَ واقْتَرَحُوهُ، فلَيْسَتْ بآيَةٍ مُرادَةٍ، وأنَّ عَدَمَ وُجُودِهَا لا يَدُلُّ عَلَى عَدَمِ آياتِ الأَنْبِياءِ، وإلَّا لَوِ اقْتَرَحُوا آيَةً،

وجاءَ بِهَا الرَّسُولُ، لقُلْنَا: إنَّهَا آيَةٌ. لكنْ مُرادُهُ أنَّ الآياتِ الَّتِي اقْتَرَحُوهَا إذَا لَمْ تَأْتِ لَا تَدُلُّ عَلَى أنَّ الرَّسُولَ لَيْسَ بحَقٍّ.

أمَّا لَوِ اقْتَرَحُوا آيَةً، وجاءَ بِهَا، فإنَّهَا لَا شَكَّ آيَةٌ، فكَلامُ المُؤَلِّفِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُرِيدُ بِهِ الأمْرَ المُخالِفَ. فالآياتُ الَّتِي جَاءَتْ بِهَا الرُّسُلُ ابْتِدَاءً، واضِحٌ أنَّهَا آياتٌ. والآياتُ الَّتِي اقْتُرِحَتْ عليهِمْ، تَخَلُّفُهَا لَا يَعْنِي أنَّهُمْ غَيْرُ صادِقِينَ، لكنْ إذَا وُجِدَتْ فَهِيَ دَلِيلٌ عَلَى صِدْقِهِمْ أيضًا. فمَثَلًا: اقْتَرَحَ قَوْمُ صالِحٍ عَلَى صَالِحٍ آيَةً، فجاءَ بالنَّاقَةِ. واقْتَرَحُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ آيَةً، فأَرَاهُمُ انْشِقَاقَ القَمَرِ.

... وقَوْلُهُ: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا﴾ [الأنعام:١١١] إلَى آخِرِهَا.

وأيضًا إذَا تَدَبَّرْتَ الاقْتِرَاحاتِ الَّتِي عَيَّنُوهَا لَمْ تَجِدْهَا فِي الحَقِيقَةِ مِنْ جِنْسِ البَرَاهِينِ، وإنَّمَا هِيَ لَوْ فُرِضَ الإتيانُ تَكُونُ شَبِيهَةً بآياتِ الاضْطِرَارِ الَّتِي لَا يَنْفَعُ الإيمانُ مَعَهَا، ويَصِيرُ شَهادَةً، وإنَّمَا الإيمانُ النافِعُ هُوَ الإيمانُ بالغَيْبِ،...

التعليق

هذَا وجْهٌ مُهِمٌّ جِدًّا، لَوْ جاءَتِ الآياتُ الَّتِي اقْتَرَحُوهَا صارَ إيمانُهُمْ لَيْسَ إيمانًا بالغَيْبِ، بَلْ هُوَ إيمانٌ بالمُشاهَدَةِ والوَاقِعِ. حينئذٍ، لَا يَنْفَعُهُمْ؛ ولهذَا فالغالِبُ أنَّهُ إذَا أَتَتِ الرُّسُلُ بالآياتِ المُقْتَرَحَةِ ولَمْ يُؤْمِنِ المُقْتَرِحُونَ، الغالِبُ أنَّهُمْ يُهْلَكُونَ، وأنَّ العَذابَ يَكُونُ مُقارِنًا لهَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء:٥٩].

فالحاصِلُ: أنَّ الآياتِ المُقْتَرَحَةَ إِذَا جَاءَتْ مُوافِقَةً لِطِبْقِ مَا اقْتَرَحُوهُ، صارَ هَذَا الإيمانُ بالرَّسُولِ إيمانًا بالمُشاهَدَةِ؛ لِأَنَّ هَذَا مِثْلُ الأمارَةِ الَّتِي يَجْعَلُهَا الإنْسَانُ لشَخْصٍ، كأنْ أَقُولَ: إِذَا وَجَدْتَ السَّيَّارَةَ عِنْدَ البابِ فأنَا فِي البَيْتِ، فَإِذَا جاءَ ووجَدَ السَّيَّارَةَ عِنْدَ البابِ، عَلِمَ أَنِّي فِي البَيْتِ. هَذَا إيمانُ مُشاهَدَةٍ لَا غَيْبٍ.

... فكَما أَنَّهُ المُنْفَرِدُ بالحُكْمِ بَيْنَ العِبادِ فِي أَدْيَانِهِمْ وحُقُوقِهِمْ، وأَنَّهُ لَا حُكْمَ إِلَّا حُكْمُهُ، وأنَّ مَنْ قَالَ: «يَنْبَغِي أَوْ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الحُكْمُ كذَا وكذَا» فهُوَ مُتجَرِّئٌ عَلَى اللهِ، مُتَوَثِّبٌ عَلَى حُرُماتِ اللهِ وأحْكامِهِ -فكَذَلِكَ بَراهِينُ أحْكامِهِ لَا يَتوَلَّاهَا إِلَّا هُوَ، فمَنِ اقْتَرَحَ شَيْئًا مِنْ عِنْدِهِ فقَدِ ادَّعَى مُشارَكَةَ اللهِ فِي حُكْمِهِ ومُنازَعَتِهِ فِي الطُّرُقِ الَّتِي يَهْدِي ويُرْشِدُ بِهَا عِبادَهُ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام:٩٣].

التعليق

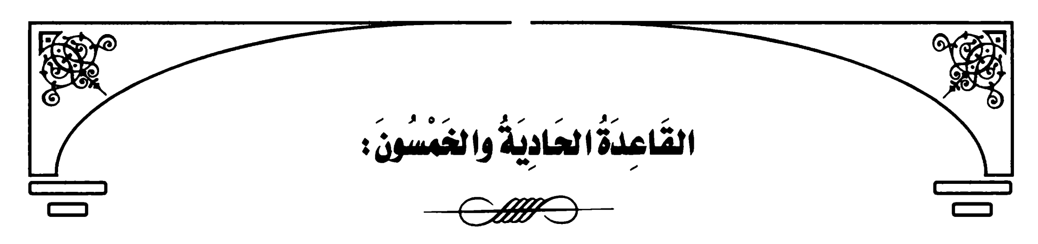
هذَا أيضًا مُهِمٌّ جِدًّا، أنَّ الإنْسَانَ إِذَا اقْتَرَحَ سَبِيلًا غَيْرَ سَبِيلِ اللهِ، أَوْ حُكْمًا غَيْرَ حُكْمِ اللهِ، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ مُنازِعٌ للهِ تَعالَى فِي حُكْمِهِ، وفِي طَرِيقِ هِدايَتِهِ لِخَلْقِهِ، لَوْ قَالَ مَثَلًا: يَنْبَغِي أَنْ يُوزَّعَ الصَّوْمُ عَلَى كُلِّ شَهْرٍ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ، ويَكُونُ سِتَّةً وثَلاثِينَ يَوْمًا، بَعْدَ أَنْ كَانَ ثَلاثِينَ يَوْمًا، ولَوْ كَانَ هَكَذَا لكانَ أَيْسَرَ عَلَى النَّاسِ وأسْهَلَ وأكْثَرَ!

نَقُولُ: إِذَا قُلْتَ ذَلِكَ فقدْ نَازَعْتَ اللهَ تَعَالَى فِي شَرْعِهِ، وظَلَمْتَ نَفْسَكَ؛ فإِنَّ اللهَ تَعَالَى أَحْكَمُ وأعْلَمُ بِمَا يُصْلِحُ عِبادَهُ مِنْ ذَلِكَ الَّذِي يَقْتَرِحُ آيَةً عَلَى الرُّسُلِ؛ ائْتُوا بكذَا

وكذَا، ويَقُولُ: إنَّ هَذِهِ الآياتِ الَّتِي أَتَيْتُمْ بِهَا لَا تَكْفِي فِي إقامَةِ البُرْهَانِ عَلَى أَنَّكُمْ رُسُلٌ، فكانَ يَنْبَغِي أنْ تَأْتُوا بالآياتِ الفُلانِيَّةِ الَّتِي اقْتَرَحْنَاهَا! وهَذَا فِيهِ جَراءَةٌ عَلَى اللهِ جَلَّوَعَلَا.

والحاصِلُ: أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا أنْ نُؤْمِنَ بالآياتِ الَّتِي جاءَتْ بِهَا الرُّسُلُ، سَوَاءً كانَتْ مُوافِقَةً لِمَا اقْتُرِحَ عليْهِمْ، أَمْ جاءَتِ ابْتِداءً لَمْ تُقْتَرَحْ. ونَقُولُ: إنَّ الآيَةَ حَقِيقَةً هِيَ الَّتِي جاءَتِ ابْتِدَاءً. أَمَّا مَا جاءَتْ جَوَابًا لاقْتِرَاحٍ فَهِيَ فِي الحَقِيقَةِ -كَما قَالَ الشَّيْخُ- كالإيمانِ بالشَّهادَةِ، ولَيْسَتْ كالإيمانِ بالغَيْبِ.





القَاعِدَةُ الحَادِيَةُ والخَمْسُونَ:

كُلُّ مَا وَرَدَ فِي القُرْآنِ الأَمْرُ بالدُّعَاءِ، والنَّهْيُ عَنْ دُعَاءِ غَيْرِ اللهِ، والثَّنَاءُ عَلَى الدَّاعِينَ، تَنَاوَلَ دُعَاءَ المَسْأَلَةِ وَدُعَاءَ العِبَادَةِ

وهذِهِ قَاعِدَةٌ نافِعَةٌ؛ فإنَّ أكْثَرَ النَّاسِ إنَّمَا يَتبادَرُ لَهُمْ مِنْ لَفْظِ الدُّعَاءِ والدَّعْوَةِ دُعاءُ المَسْأَلَةِ فقطْ، ولَا يَظُنُّونَ دُخُولَ جَمِيعِ العِبادَاتِ فِي الدُّعَاءِ، ويَدُلُّ عَلَى عُمُومِ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠] أيْ: أَسْتَجِبْ طَلَبَكُمْ، وأَتَقَبَّلْ عَمَلَكُمْ،...

التعليق

أفَادَنَا المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي هَذِهِ القَاعِدَةِ أنَّ الدُّعَاءَ سَوَاءً كَانَ أمْرًا، أَوْ نَهْيًا، أَوْ ثَنَاءً، يَشْمَلُ دُعاءَ المَسْأَلَةِ، ودُعاءَ العِبادَةِ؛ فقَوْلُكَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي؛ دُعاءُ مَسْأَلَةٍ. وصَلاتُكَ لِيَغْفِرَ اللهُ لكَ؛ دُعاءُ عِبادَةٍ.

وكَمَا قَالَ الشَّيْخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أكْثَرُ النَّاسِ يَظُنُّونَ أنَّ الدُّعَاءَ إنَّمَا هُوَ دُعاءُ المَسْأَلَةِ، والأَمْرُ لَيْسَ كذلكَ، بَلْ هُوَ شَامِلٌ لدُعَاءِ المَسْأَلَةِ ودُعاءِ العِبادَةِ؛ لِأَنَّ العَابِدَ حَقِيقَةً أَمْرُهُ وحالُهُ أَنَّهُ يَدْعُو اللهَ، لكِنْ بلِسَانِ الحالِ؛ لأنَّكَ لَوْ سَأَلْتَ أيَّ إنْسانٍ يُصَلِّي، أَوْ يَصُومُ، أَوْ يُزَكِّي، أَوْ يَحُجُّ، ماذَا تُرِيدُ؟ لَقَالَ: أُرِيدُ مَغْفِرَةَ اللهِ.

إذًا: هُوَ قَدْ سَأَلَ اللهَ بحالِهِ، وهَذَا وجْهُ كَوْنِ العِبادَةِ دُعاءً.



... ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠] فسَمَّى ذَلِكَ عِبادَةً؛ وذلكَ لِأَنَّ الدَّاعِيَ دُعاءَ المَسْأَلَةِ يَطْلُبُ مَسْؤُولَهُ بِلِسَانِ المقالِ، والعابِدُ يَطْلُبُ مِنْ رَبِّهِ القبُولَ، والثَّوابَ، ومَغْفِرَةَ ذُنُوبِهِ، بِلِسَانِ الحالِ، فلَوْ سَأَلْتَهُ: مَا قَصْدُكَ بِصَلاتِكَ، وصِيَامِكَ، وحَجِّكَ، وقِيَامِكَ بحَقِّ اللهِ، وحَقِّ الخَلْقِ؟ لكانَ قَلْبُ المُؤْمِنِ نَاطِقًا: بأَنَّ قَصْدِي مِنْ ذَلِكَ رِضَى رَبِّي، ونَيْلُ ثَوَابِهِ، والسَّلامَةُ مِنَ عِقَابِهِ؛ ولهَذَا كانَتْ هَذِهِ النِّيَّةُ شَرْطًا لِصِحَّةِ الأَعْمَالِ وكَمالِهَا، وقالَ تَعَالَى: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [غافر:١٤] أَيْ: أَخْلِصُوا لَهُ إِذَا طَلَبْتُمْ حَوَائِجَكُمْ، وأَخْلِصُوا لَهُ أَعْمَالَ البِرِّ والطَّاعَةِ.

وقدْ يُقَيَّدُ أحْيانًا بدُعاءِ الطَّلَبِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ﴾ [القمر:١٠]. وأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا﴾ [يونس:١٢] فيَدْخُلُ فِيهِ دُعاءُ الطَّلَبِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَزَالُ مُلِحًّا بلسانِهِ، سائِلًا دَفْعَ ضَرُورَتِهِ، ويَدْخُلُ فِيهِ دُعاءُ العِبادَةِ؛ فإِنَّ قَلْبَهُ فِي هَذِهِ الحالِ رَاجِيًا طامِعًا، مُنْقَطِعًا عَنْ غَيْرِ اللهِ، عالِمًا أَنَّهُ لَا يَكْشِفُ السُّوءَ إِلَّا اللهُ، وهَذَا دُعاءُ عِبادَةٍ.

وقالَ تَعَالَى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾ [الأعراف:٥٥] يَدْخُلُ فِيهِ الأَمْرَانِ؛ فكَمَا أَنَّ مِنْ كَمالِ دُعاءِ الطَّلَبِ كَثْرَةَ التَّضَرُّعِ، والإِلْحاحِ، وإِظْهارِ الفقْرِ، والمَسْكَنَةِ، وإِخْفَاءَهُ ذلكَ، وإِخْلاصَهُ -فكَذَلِكَ دُعاءُ العِبادَةِ، لَا تَتِمُّ العِبادَةُ وتَكْمُلُ إِلَّا بالمُداوَمَةِ عَلَيْهَا، ومُقارَنَتِهِ الخُشُوعَ والخُضُوعَ، وإِخْفَائِهَا، وإِخْلاصِهَا للهِ تَعَالَى.

وكَذَلِكَ قَوْلُهُ عَنْ خُلاصَةِ الرُّسُلِ: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗا﴾ [الأنبياء:٩٠] فإِنَّ الرَّغْبَةَ والرَّهْبَةَ وصْفٌ لَهُمْ إِذَا طَلَبُوا وسَأَلُوا،

ووَصْفٌ لَهُمْ إِذَا تَعَبَّدُوا وتَقَرَّبُوا بأعْمالِ الخَيْرِ والقُرَبِ.

وقَوْلُهُ: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الشعراء:٢١٣] ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ [المؤمنون:١١٧] وقَوْلُهُ: ﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن:١٨] يَشْمَلُ دُعاءَ المَسْأَلَةِ ودُعاءَ العِبادَةِ. فكَما أنَّ مَنْ طَلَبَ مِنْ غَيْرِ اللهِ حَاجَةً لا يَقْدِرُ عَلَيْها إلَّا اللهُ، فهُوَ مُشْرِكٌ كافِرٌ، فكَذَلِكَ مَنْ عَبَدَ مَعَ اللهِ غَيْرَهُ، فهُوَ مُشْرِكٌ كافِرٌ...

التعليق

مَنْ طَلَبَ مِنْ غَيْرِ اللهِ حاجَةً يَقْدِرُ عَلَيْهَا المَطْلُوبُ، فإنَّ ذَلِكَ لَيْس بشِرْكٍ. فلَوْ قُلْتَ لرَجُلٍ: أَعِنِّي عَلَى حَمْلِ مَتاعِي عَلَى سَيَّارَتِي، لَمْ يَكُنْ هَذَا شِرْكًا. لكنْ لَوْ قُلْتَ لرَجُلٍ: ارْزُقْنِي وَلَدًا ذَكَرًا، صارَ ذَلِكَ شِرْكًا. ووجْهُهُ واضِحٌ؛ لِأَنَّهُ سَأَلَ غَيْرَ اللهِ مَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إلَّا اللهُ، فهُوَ مِثْلُ مَنْ عَبَدَ غَيْرَ اللهِ؛ لِأَنَّ العِبادَةَ لا تَصْلُحُ إلَّا للهِ، والدُّعاءُ بِما لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إلَّا اللهُ لَا يَصْلُحُ إلَّا للهِ عَزَّوَجَلَّ.

إِذًا: مَنْ طَلَبَ مِنْ مَخْلُوقٍ ما لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إلَّا اللهُ فهُوَ مُشْرِكٌ كافِرٌ؛ كَما أنَّ مَنْ عَبَدَ غَيْرَ اللهِ فهُوَ مُشْرِكٌ كافِرٌ، ومَنْ طَلَبَ مِنْ مَخْلُوقٍ أَمْرًا يَقْدِرُ عَلَيْهِ فهُوَ غَيْرُ مُشْرِكٍ، ولكنَّهُ مِنْ بابِ الجائِزِ، ولَيْسَ مِنْ بابِ الكَمالِ، فالكَمالُ أنْ لَا تَسْأَلَ مَخْلُوقًا شَيْئًا. وكَانَ مِنْ جُمْلَةِ مَا بَايَعَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ أصْحابَهُ أنْ لَا يَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا، فكانَ الرَّجُلُ يَسْقُطُ عَصاهُ مِنْ بَعِيرِهِ، فيَنْزِلُ هُوَ بنَفْسِهِ ويَأْخُذُ العَصَا، ويَرْكَبُ[1].

وأمَّا الجَهْلُ، فإنْ كَانَ الإنْسَانُ جاهِلًا جَهْلًا لَا تَفْرِيطَ فِيهِ، فَإِنَّهُ مَعْذُورٌ،

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب كراهة المسألة للناس، رقم (١٠٤٣)، من حديث عوف بن مالك الأشجعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والتَّفْرِيطُ أَنْ يَكُونَ قَدْ بَلَغَهُ العِلْمُ واسْتَدَلَّ بقَوْلِهِ: ﴿لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة:١٠١] لِأَنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَبْلُغُهُ عِلْمٌ عَنْ هَذَا الشَّيْءِ المُحَرَّمِ، فيَكُونُ مِنْ جِنْسِ النَّعامَةِ، تَدُسُّ رَأْسَهَا فِي الرَّمْلِ؛ لأجْلِ أَلَّا يَرَاهَا الصَّيَّادُ! يُقالُ لهُ: يَا أَخِي، اسْأَلِ العُلَمَاءَ فهَذَا حَرَامٌ. فيَقُولُ: لَا، مَا أنَا بسائِلٍ، أَخْشَى أنْ أَسْأَلَ، فيُقالَ: هَذَا حَرَامٌ! ثُمَّ يَتْلُو هَذِهِ الآيَةَ: ﴿لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾.

وقَدْ نَصَّ عَلَى ذَلِكَ شَيْخُ الإسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ[1]، وشَيْخُ الإسْلَام مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الوَهَّابِ رَحِمَهُمَاٱللَّهُ وإنْ كَانَ فِي كَلامِ الثَّانِي فِي بَعْضِ المَوَاضِعِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَا يُعْذَرُ بالجَهْلِ فِي أُصُولِ الدِّينِ[2]، ولكنْ كَلامُهُ الأَوَّلُ أَصَحُّ؛ أَنَّهُ يُعْذَرُ، ولكنْ قَدْ يَكُونُ الإنْسَانُ مُفَرِّطًا فِي بَعْضِ المسائِلِ، فلَا يُعْذَرُ مِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ.

... ومِثْلُهُ: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس:١٠٦] كُلُّ هَذَا يَدْخُلُ فِيهِ الأمْرَانِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠] يَشْمَلُ دُعاءَ المَسْأَلَةِ ودُعاءَ العِبادَةِ. أَمَّا دُعاءُ المَسْأَلَةِ: فَإِنَّهُ يَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى فِي كُلِّ مَطْلُوبٍ باسْمٍ يُناسِبُ ذَلِكَ المَطْلُوبَ ويَقْتَضِيهِ، فمَنْ سَأَلَ رَحْمَةَ اللهِ ومَغْفِرَتَهُ دَعاهُ باسْمِ الرَّحِيمِ الغَفُورِ، وحُصُولَ الرِّزْقِ باسْمِ الرَّزَّاقِ، وهكَذَا.

---

(١) قاعدة عظيمة في الفرق بين عبادات أهل الإسلام والإيمان وعبادات أهل الشرك والنفاق (ص:٧٠).

(٢) كشف الشبهات (ص:١١).

التعليق

إذَنْ: معْنَى ﴿فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ أي: اجْعَلُوهَا وَسِيلَةً لِحُصُولِ مَطْلُوبٍ، ووسِيلَةُ الشَّيْءِ تُناسِبُهُ، فعِنْدَمَا تَسْأَلُ المَغْفِرَةَ تَأْتِي باسْمِ الغَفُورِ، فتَقُولُ: يَا غَفُورُ، أَوْ تَقُولُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إنَّكَ أنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ. وعِنْدَمَا تَسْأَلُ الرِّزْقَ تَقُولُ: اللَّهُمَّ يَا رَزَّاقُ ارْزُقْنِي، أَوْ تَقُولُ: اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي، فإنَّكَ الرَّزَّاقُ ذُو القُوَّةِ المَتِينُ، وهكَذا. ولَا يَنْبَغِي أنْ تَقُولَ -مَثَلًا-: اللَّهُمَّ يَا شَدِيدَ العِقَابِ اغْفِرْ لِي؛ لِأَنَّ هَذَا غَيْرُ مُناسِبٍ. كَيْفَ تَسْأَلُ المَغْفِرَةَ باسْمٍ يَقْتَضِي العُقُوبَةَ؟! هَذَا يَتنافَى مَعَ الأدَبِ.

وأمَّا دُعاءُ العِبادَةِ: فهُوَ التَّعَبُّدُ للهِ تَعَالَى بأسْمائِهِ الحُسْنَى، فَيَفْهَمُ أَوَّلًا معْنَى ذَلِكَ الاسْمِ الكريمِ، ثُمَّ يُدِيمُ اسْتِحْضَارَهُ بقَلْبِهِ، ويَمْتَلِئُ قَلْبُهُ مِنْهُ؛ فالأسْماءُ الدَّالَّةُ عَلَى العَظَمَةِ، والجلالِ، والكِبْرِيَاءِ تَمْلأُ القَلْبَ تَعْظِيمًا وإجْلالًا للهِ تَعالَى، والأسْماءُ الدَّالَّةُ عَلَى الرَّحْمَةِ، والفَضْلِ، والإحْسَانِ تَمْلأُ القَلْبَ طَمَعًا فِي فَضْلِ اللهِ، ورَجاءً لرَوْحِهِ ورَحْمَتِهِ، والأسْماءُ الدَّالَّةُ عَلَى الوِدَادِ والحُبِّ والكَمالِ تَمْلأُ القَلْبَ محبَّةً ووِدادًا وتَأَلُّهًا وإنَابَةً للهِ تَعالَى، والأسْماءُ الدَّالَّةُ عَلَى سَعَةِ عِلْمِهِ ولَطِيفِ خَبَرِهِ تُوجِبُ للعَبْدِ مُراقَبَةَ اللهِ تَعَالَى، والحَيَاءَ مِنْهُ.

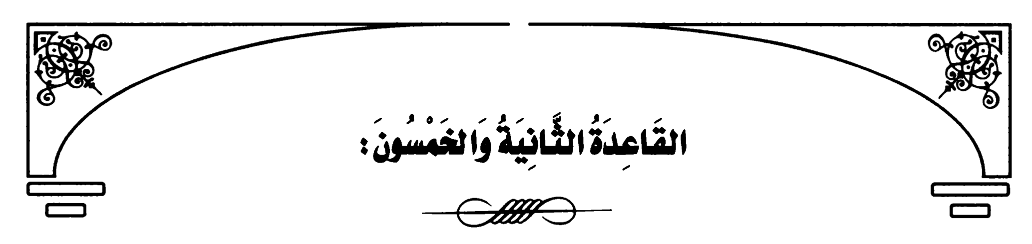
وهذِهِ الأحْوالُ الَّتِي تَتَّصِفُ بِهَا القُلُوبُ هِيَ أكْمَلُ الأحْوالِ، وأَجَلُّ وصْفٍ يَتَّصِفُ بِهِ القَلْبُ ويَنْصَبِغُ بهِ، ولَا يَزَالُ العَبْدُ يُمَرِّنُ نَفْسَهُ عَلَيْهَا حَتَّى تَنْجَذِبَ دَوَاعِيهِ مُنْقَادَةً رَاغِبَةً، وبهذِهِ الأعْمالِ القَلْبِيَّةِ تكْمُلُ الأعْمالُ البَدَنِيَّةُ. فنَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أنْ يَمْلأَ قُلُوبَنَا مِنْ مَعْرِفَتِهِ، ومحبَّتِهِ، والإنابَةِ إلَيْهِ؛ فَإِنَّهُ أكْرَمُ الأكْرَمِينَ، وأَجْوَدُ الأَجْوَدِينَ.

التعليق

خُلاصَةُ هَذِهِ القَاعِدَةِ: أنَّ الدُّعَاءَ المَوْجُودَ فِي القُرْآنِ يَشْمَلُ دُعاءَ المَسْأَلَةِ ودُعاءَ العِبَادَةِ، مَا لَمْ يُقَيَّدْ بدُعاءِ المَسْأَلَةِ فيكُونُ للمَسْأَلَةِ، مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ۝١٠ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [القمر:١٠-١١] المُرادُ بِهِ دُعاءُ المَسْأَلَةِ، وإلَّا فالأصْلُ أنَّهُ يَشْمَلُ هَذَا وهذا.

وقَدْ بَيَّنَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كَيْفِيَّةَ دُعاءِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ بأَسْمَائِهِ الحُسْنَى، وأَنَّهُ يَدْعُوهُ بِهَا فِي دُعاءِ المَسْأَلَةِ وفِي دُعاءِ العِبَادَةِ، وكِلاهُمَا لَا بُدَّ مِنْهُ، مَنْ لَمْ يَعْبُدِ اللهَ فَإِنَّهُ لَيْسَ بمُسْلِمٍ، ومَنْ عَبَدَ اللهَ ودَعَا غَيْرَهُ فلَيْس بمُسْلِمٍ.





القَاعِدَةُ الثَّانِيَةُ وَالخَمْسُونَ:

إِذَا وَضَحَ الحَقُّ وَبَانَ لَمْ يَبْقَ لِلمُعَارَضَةِ العِلْمِيَّةِ والعَمَلِيَّةِ مَحَلٌّ

وهذِهِ قَاعِدَةٌ شَرْعِيَّةٌ عَقْلِيَّةٌ فِطْرِيَّةٌ، قَدْ وَرَدَتْ فِي القُرْآنِ، وأَرْشَدَ إِلَيْهَا فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ؛ وذلكَ أَنَّهُ مِنَ المَعْلُومِ أَنَّ مَحَلَّ المُعارَضَاتِ، ومَوْضِعَ الاسْتِشْكَالاتِ، ومَوْضِعَ التَّوَقُّفَاتِ، ووقْتَ المُشاوَرَاتِ، إِذَا كَانَ الشَّيْءُ فِيهِ اشْتِبَاهٌ أَوِ احْتِمالاتٌ، فتَرِدُ عَلَيْهِ هَذِهِ الأُمُورُ؛ لِأَنَّهَا الطَّرِيقُ إِلَى البَيانِ والتَّوْضِيحِ، فأَمَّا إِذَا كَانَ الشَّيْءُ لَا يَحْتَمِلُ إِلَّا مَعْنًى واضِحًا، وقَدْ تَعَيَّنَتِ المَصْلَحَةُ، فالمُجادَلَةُ والمُعارَضَةُ مِنْ بابِ العَبَثِ، والمُعارِضُ هنا لَا يُلْتَفَتُ لاعْتِرَاضَاتِهِ؛ لِأَنَّهُ يُشْبِهُ المُكابِرَ المُنْكِرَ للمَحْسُوسَاتِ، قَالَ تَعالَى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ [البقرة:٢٥٦] يعْنِي: وإذا تبيَّنَ هَذَا مِنْ هَذَا لَمْ يَبْقَ للإِكْرَاهِ مَحَلٌّ؛ لِأَنَّ الإِكْرَاهَ إِنَّمَا يَكُونُ عَلَى أَمْرٍ فِيهِ مَصْلَحَةٌ خَفِيَّةٌ. فأَمَّا أَمْرٌ قَدِ اتَّضَحَ أَنَّ مَصالِحَ الدَّارَيْنِ مَرْبُوطَةٌ بِهِ، ومُتَعَلِّقَةٌ بِهِ، فأَيُّ دَاعٍ للإِكْرَاهِ، وأَيُّ مُوجِبٌ لهُ؟!

التَّعليق

إِذَنْ: فقَـوْلُهُ: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ خبَرٌ عَلَى بابِهِ، ولَيْسَ نَهْيًا. لَيْسَ المَعْنَـى: لَا تُكْرِهُوا عَلَى الدِّينِ، بَلِ المَعْنَى: أَنَّهُ لَا مَحَلَّ للإِكْرَاهِ فِي الدِّينِ؛ لِأَنَّهُ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ. وإِذَا تَبَيَّنَ، فإِنَّ الإِنْسَانَ لَا يُكْرَهُ؛ لِأَنَّ كُلَّ عاقِلٍ تبيَّنَ لَهُ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ فَإِنَّهُ سَيَتَّبِعُ الرُّشْدَ، فلَا يُكْرَهُ عَلَيْهِ. هَذَا هُوَ المَعْنَى الَّذِي يَتَبادَرُ مِنَ الآيَةِ الكَرِيمَةِ،

كَمَا شَرَحَهُ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ وإنْ كَانَ بَعْضُ العُلَمَاءِ يَقُولُ: إنَّ قَوْلَهُ: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ﴾ أيْ: لَا تُكْرِهُوا أَحَدًا عَلَى الدِّينِ؛ لِأَنَّهُ لَا يُكْرَهُ أَحَدٌ عَلَى دِينِ اللهِ؛ فإمَّا أنْ يَدِينَ للهِ عَزَّوَجَلَّ، وإمَّا أنْ يَدِينَ للطَّاغُوتِ ويُؤَدِّيَ الجِزْيَةَ.

لكنِ الآيَةُ كغَيْرِهَا مِنَ الآياتِ، لَا يُحْمَلُ الخَبَرُ عَلَى النَّهْيِ إلَّا بدَلِيلٍ، وإلَّا فإنَّ الأَصْلَ أنْ يَبْقَى الكَلامُ عَلَى ظاهِرِهِ؛ النَّفْيُ للنَّفْيِ، والنَّهْيُ للنَّهْيِ. فَإِذَا كَانَ الأَمْرُ واضِحًا، فَلَا يَنْبَغِي أنْ يُحَرَّفَ الكَلامُ عَنْ ظاهِرِهِ. ولَيْسَ المَعْنيَانِ مُتلازِمَيْنِ، إذَا قُلْنَا: إنَّهَا للنَّهْيِ صارَ مَعْنَاهَا: أنَّنا لا نُكْرِهُ أحَدًا عَلَى الدِّينِ، مَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ ومَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ. أَمَّا إِذَا كانَتْ خَبَرًا، فَإِنَّهُ مَسْكُوتٌ عَنِ الإكْرَاهِ عَلَى الدِّينِ، ويُعْرَفُ مِنْ أَدِلَّةٍ أُخْرَى.

ونَظِيرُ هَـذَا قَـوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ﴾ [الكهف:٢٩] أيْ: هَذَا الحَقُّ الَّذِي قامَتِ البَرَاهِينُ الوَاضِحَةُ عَلَى حَقِّيَّتِهِ، فمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ، ومَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖ﴾ [الأنفال:٤٢] وقالَ تَعالَى: ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ [آل عمران:١٥٩] أيْ: فِي الأُمُورِ الَّتِي تَحْتَاجُ إِلَى مُشاوَرَةٍ ويُطْلَبُ فِيهَا وجْهُ المَصْلَحَةِ، فأمَّا أَمْرٌ قَدْ تَعَيَّنَتْ مَصْلَحَتُهُ، وَظَهَرَ وُجُوبُهُ فقَالَ فيهِ: ﴿فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١٥٩].

وقَـدْ كَشَفَ اللهُ هَذَا المَعْنَى غايَةَ الكَشْفِ فِي قَـوْلِهِ: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ [الأنفال:٦] أيْ: فكُلُّ مَنْ جادَلَ فِي الحَقِّ بَعْدَمَا تبَيَّنَ عِلْمُهُ أَوْ طَرِيقُ عِمْلِهِ، فَإِنَّهُ غالِطٌ شَرْعًا وعَقْلًا.

وقالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام:١١٩] فلامَهُمْ عَلَى عَدَمِ الْتِزَامِ الأَكْلِ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ، وذَكَرَ السَّبَبَ لِهَذَا اللَّوْمِ، وَهُوَ أَنَّهُ تَعَالَى فَصَّلَ لِعِبَادِهِ كُلَّ مَا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ، فَمَا لَمْ يَذْكُرْ تَحْرِيمَهُ فَإِنَّهُ حَلالٌ واضِحٌ، لَيْسَ للتَّوَقُّفِ عَنْهُ مَحَلٌّ.

التعليق

وفي قَوْلِهِ: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ مَا سَكَتَ عَنْهُ لَيْسَ حَرَامًا، ودليلٌ عَلَى أَنَّ المُحَرَّماتِ مُفَصَّلاتٌ مُبَيَّنَاتٌ. فَإِذَا كَانَ مُبَيَّنًا، ولَمْ يُذْكَرْ مِنْهُ مَا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ، فإِنَّ مَا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ يَكُونُ حَلالًا، وعلى هَذَا فنَقُولُ: الأَصْلُ فِيمَا سَكَتَ عَنْهُ الحِلُّ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «وَمَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ عَفْوٌ»[1].

ولَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى الآياتِ الدَّالَّةَ عَلَى وُجُوبِ الإيمانِ وبَّخَ ولامَ المُتَوَقِّفِينَ عَنْهُ بَعْدَ البيانِ، فقالَ: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۩﴾ [الانشقاق:٢٠-٢١] ولَمَّا بَيَّنَ جلالَةَ القُرْآنِ، وأَنَّهُ أَعْلَى الكَلامِ وأَصْدَقُهُ وأَنْفَعُهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية:٦] ولَمَّا ذَكَرَ عَظِيمَ نِعَمِهِ الظَّاهِرَةِ والبَاطِنَةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ [النجم:٥٥] ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:١٣] وقالَ تَعَالَى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس:٣٢]؛ وكَذَلِكَ فِي آياتِ

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الأطعمة، باب ما لم يذكر تحريمه، رقم (٣٨٠٠)، والحاكم (٤/١٢٨)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وقال الحاكم: صحيح الإسناد.

كَثِيرَةٍ يَأْمُرُ بمُجَادَلَةِ المُكَذِّبِينَ، ويُجادِلُهُمْ بالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، حَتَّى إِذَا وَصَلَ مَعَهُمْ إِلَى حالَةِ وُضُوحِ الحَقِّ التَّامِّ، وإزَالَةِ الشُّبَهِ كُلِّهَا، انْتَقَلَ مِنْ مُجادَلَتِهِمْ إِلَى الوَعِيدِ لَهُمْ بعُقُوباتِ الدُّنْيَا والآخِرَةِ، والآياتُ فِي هَذَا المَعْنَى الجَلِيلِ كَثِيرَةٌ جِدًّا.

التعليق

هذِهِ القَاعِدَةُ تَدُورُ عَلَى أَنَّهُ مَتَى اتَّضَحَ الشَّيْءُ -سَوَاءً كَانَ حُكْمًا عَمَلِيًّا، أَوْ كَانَ خَبَرًا عِلْمِيًّا- فَإِنَّهُ لَا وَجْهَ للمُجادَلَةِ فِيهِ؛ لِأَنَّهُ واضِحٌ. وإِنَّمَا يُجادَلُ، ويُتَثَبَّتُ، ويُسْأَلُ عَنِ الأَمْرِ المُشْكِلِ الَّذِي يَحْتَاجُ إِلَى بيانٍ. فأَمَّا مَا كَانَ بَيِّنًا واضِحًا فَإِنَّهُ لَا تَجُوزُ المُجادَلَةُ فِيهِ، ويُنْكَرُ عَلَى مَنْ جادَلَ ويُذَمُّ؛ كَمَا فِي الآياتِ الَّتِي سَاقَهَا المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وعليْهِ: فكُلُّ مَنْ جَادَلَ فِي دِينِ اللهِ، فَقَدْ جَادَلَ بغَيْرِ حَقٍّ؛ لِأَنَّ الدِّينَ واضِحٌ بَيِّنٌ، قَدْ بَيَّنَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الرُّشْدَ مِنَ الغَيِّ، وفَرَّقَ بَيْنَ الحَقِّ والباطِلِ، وفَرَّقَ بَيْنَ أَوْلِيَاءِ اللهِ وأَعْدَاءِ اللهِ، فَلَا يُمْكِنُ بَعْدَ هَذَا أَنْ يَقَعَ جِدَالٌ أَوْ إِشْكَالٌ.





القَاعِدَةُ الثَّالِثَةُ والخَمْسُونَ:

مِنْ قَوَاعِدِ القُرْآنِ:
أَنَّهُ يُبَيِّنُ أَنَّ الأَجْرَ وَالثَّوَابَ عَلَى قَدْرِ المَشَقَّةِ فِي طَرِيقِ العِبَادَةِ ويُبَيِّنُ مَعَ ذَلِكَ أَنَّ تَسْهِيلَهُ لِطَرِيقِ العِبَادَةِ مِنْ مِنَنِهِ وَإِحْسَانِهِ وَأَنَّهَا لَا تَنْقُصُ الأَجْرَ شَيْئًا

وهذِهِ القَاعِدَةُ تُبَيِّنُ مِنْ لُطْفِ اللهِ، وإحْسَانِهِ بالعِبَادِ، وحِكْمَتِهِ الوَاسِعَةِ؛ مَا هُوَ أَثَرٌ عَظِيمٌ مِنْ آثارِ تَعْرِيفَاتِهِ، ونَفْحَةٌ عَظِيمَةٌ مِنْ نَفَحاتِهِ، وأَنَّهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١٦] فبَيَّنَ تَعالَى أنَّ هَذِهِ العِبادَةَ العَظِيمةَ لِعِظَمِ مَصْلَحَتِها، وكَثْرَةِ فَوَائِدِهَا العامَّةِ والخاصَّةِ، أَنَّهُ فَرَضَهَا عَلَى العِبادِ وإنْ شَقَّتْ عَلَيْهِمْ، وكَرِهَتْهَا نُفُوسُهُمْ؛ لِمَا فِيهَا مِنَ التَّعَرُّضِ للأخْطارِ، وتَلَفِ النُّفُوسِ والأَمْوالِ، ولكنْ هَذِهِ المَشَقَّاتِ بالنِّسْبَةِ إِلَى مَا تُفْضِي إِلَيْهِ مِنَ الكَرَاماتِ لَيْسَتْ بشَيْءٍ، بَلْ هِيَ خَيْرٌ مَحْضٌ، وإحْسانٌ صِرْفٌ مِنَ اللهِ عَلَى عِبادِهِ، حَيْثُ قَيَّضَ لَهُمْ هَذِهِ العِبادَاتِ الَّتِي تُوصِلُهُمْ إِلَى مَنازِلَ لَوْلَاهَا لَمْ يَكُونُوا واصِلِيهَا.

وقالَ تَعالَى: ﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء:١٠٤] وقالَ تَعالَى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ

مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٦] وقالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠] فكُلَّما عَظُمَتْ مَشَقَّةُ الصَّبْرِ فِي فِعْلِ الطَّاعاتِ، وفِي تَرْكِ المُحَرَّماتِ -لقُوَّةِ الدَّاعِي إليْهَا- وفِي الصَّبْرِ عَلَى المُصِيباتِ، كَانَ الأَجْرُ أَعْظَمَ، والثَّوَابُ أكْثَرَ.

وقَالَ تَعَالَى فِي بَيَانِ لُطْفِهِ فِي تَسْهِيلِ العِبَادَةِ الشَّاقَّةِ: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ ﴾ [الأنفال:١٢] فَذَكَرَ مِنَّتَهُ عَلَى المُؤْمِنِينَ بتَيْسِيرِهِ وتَقْدِيرِهِ لهذِهِ الأُمُورِ الَّتِي جَعلَهَا اللهُ تَعالَى مُسَهِّلَةً للعِبادَةِ، مُزِيلَةً لِمَشَقَّتِهَا، مُحَصِّلَةً لِثَمَراتِهَا.

وقالَ تَعَالَى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [يونس:٦٢-٦٤] فالبُشْرَى الَّتِي وَعَدَ اللهُ بِهَا أَوْلِيَاءَهُ فِي الحياةِ الدُّنْيَا مِنْ أَشْرَفِهَا وأَجَلِّهَا أَنَّهُ يُيَسِّرُ لَهُمُ العِبادَاتِ، ويُهَوِّنُ عَلَيْهِمْ مَشَقَّةَ القُرُباتِ، وأَنَّهُ يُيَسِّرُهُمْ للخَيْرِ، وَيَعْصِمُهُمْ مِنَ الشَّرِّ بأَيْسَرِ عَمَلٍ.

وقالَ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل:٥-٧] أيْ: لكُلِّ حالَةٍ فِيهَا تَيْسِيرُ أُمُورِهِ وتَسْهِيلُهَا. وقالَ تَعَالَى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل:٩٧] ومِنَ الحياةِ الطَّيِّبَةِ الَّتِي يُرْزَقُونَهَا: ذَوْقُ حَلاوَةِ الطَّاعاتِ، واسْتِحْلاءُ المَشَقَّاتِ فِي رِضَى اللهِ تَعالَى.

فهذِهِ الأحْوَالُ كُلُّهَا خَيْرٌ للمُؤْمِنِ، إنْ سَهَّلَ اللهُ لَهُ طَرِيقَ العِبَادَةِ وهَوَّنَهَا حَمِدَ اللهَ وشَكَرَ، وإنْ شَقَّتْ عَلَى النُّفُوسِ صَبَرَ واحْتَسَبَ الخَيْرَ فِي عَنائِهِ ومَشَقَّتِهِ، ورَجَا عَظِيمَ الثَّوَابِ، وهَذَا المَعْنَى فِي القُرْآنِ فِي آياتٍ مُتَعَدِّدَةٍ. واللهُ أَعْلَمُ.

التعليق

خُلاصَةُ هَذِهِ القَاعِدَةِ: أنَّ الأجْرَ عَلَى قَدْرِ المَشَقَّةِ، وقَدْ دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُهُ ﷺ لعَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «**إِنَّ أَجْرَكِ عَلَى قَدْرِ نَصَبِكِ**»[1] نَصَبِكِ أيْ: مَشَقَّتِكِ.

وفِيهَا أيضًا: بَيَانُ المِنَّةِ عَلَى العِبَادِ بتَسْهِيلِ الطَّاعاتِ، وأنَّ تَسْهِيلَ الطَّاعاتِ مِنْ آثارِ رَحْمَتِهِ. وعَجَبًا لبَعْضِ النَّاسِ أنْ يَسْلُكُوا بأَنْفُسِهِمْ مَسْلَكَ الصُّعُوبَةِ والتَّعْسِيرِ فِي أُمُورِ العِبَادَةِ، وهَذَا تَبَرَّأَ مِنْهُ النَّبِيُّ ﷺ، فإنَّ قَوْمًا فِي عَهْدِ الرَّسُولِ ﷺ اجْتَمَعُوا واتَّفَقُوا عَلَى أنْ يَصُومَ أَحَدُهُمْ ولَا يُفْطِرَ، والآخَرُ يَقُومُ ولَا يَنامُ، والثالِثُ لَا يَتزَوَّجُ النِّساءَ، والرَّابعُ لَا يَأْكُلُ اللَّحْمَ؛ فخَطَبَ النَّبِيُّ ﷺ، وأخْبَرَهُمْ بِأَنَّهُ يَصُومُ ويُفْطِرُ، ويَقُومُ ويَنَامُ، ويَتَزَوَّجُ النِّساءَ، وأنَّ مَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِهِ فَلَيْسَ مِنْهُ[2].

فالَّذِينَ يَسْلُكُونَ طُرُقَ التَّعْسِيرِ مَعَ وُجُودِ التَّسْهِيلِ أَخْطَؤُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ؛ لَوْ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: أنَا لَا أُرِيدُ أنْ أَرْكَبَ سَيَّارَةً فِيهَا مُكَيِّفٌ! بَلْ أَرْكَبُ سَيَّارَةً مَعِيبَةً، لَيْسَ فِيهَا مُكَيِّفٌ ولَا مَظَلَّةٌ، وأَذْهَبُ إِلَى الحَجِّ عَلَيْهَا! هَذَا خَطَأٌ، أنْ يَذْهَبَ ويُتْعِبَ نَفْسَهُ، ويَتْرُكَ نِعْمَةَ اللهِ عَلَى الإنْسَانِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب أجر العمرة على قدر النصب، رقم (١٧٨٧)، ومسلم: كتاب الحج، باب بيان وجوه الإحرام، رقم (١٢١١) من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، بنحوه.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، رقم (٥٠٦٣)، ومسلم: كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه، رقم (١٤٠١)، من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

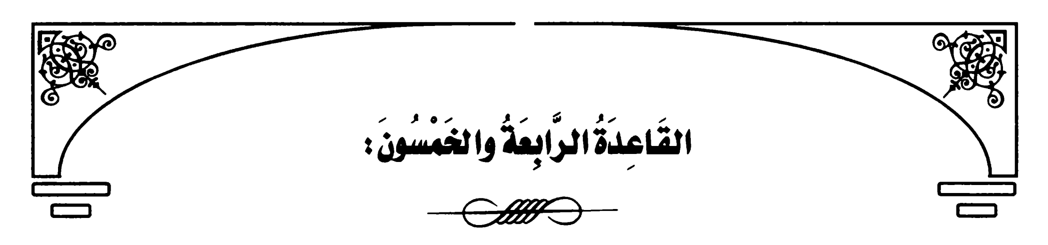
نَعَمْ، إِذَا كانَتِ العِبَادَةُ لَا يُمْكِنُ أَنْ تُؤَدَّى إِلَّا بمَشَقَّةٍ، هَذَا شَيْءٌ آخَرُ، هَذَا مِنَ اللهِ ولَيْسَ بإِرَادتِكَ. أَمَّا أَنْ يَكُونَ أَمَامَكَ طَرِيقانِ: سَهْلٌ وصَعْبٌ، فتَذْهَبُ إِلَى الصَّعْبِ، فهَذَا لَيْسَ مِنْ شَرِيعَةِ اللهِ، يَقُولُ العامَّةُ أَوَّلَ مَا ظَهَرَتِ السَّيَّاراتُ: إِنَّ الحَجَّ عَلَى الإِبِلِ أَجْرُهُ كامِلٌ، وعَلَى السَّيَّاراتِ نِصْفُ الأَجْرِ، وعَلَى الطَّيَّاراتِ رُبُعُ الأَجْرِ! ويُمْكِنُ يَجِيءُ شَيْءٌ أَسْهَلُ مِنَ الطَّيَّاراتِ يَكُونُ عَلَى الثُّمُنِ؟! هَذَا غَيْرُ صَحِيحٍ، بَلْ نَقُولُ: إِنَّ هَذَا مِنْ نِعْمَةِ اللهِ عَلَى العَبْدِ.

صَحِيحٌ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ نَهَى عَنْ كَثْرَةِ الإِرْفَاهِ، يَعْنِي: لَا يَنْبَغِي للإِنْسَانِ أَنْ يَنْغَمِسَ فِي التَّرَفُّهِ حَتَّى يَنْسَى الخُشُونَةَ، فكانَ يَنْهَى عَنْ كَثْرَةِ الإِرْفاهِ، ويَأْمُرُ بالاحْتِفَاءِ أَحْيانًا[1] ولَيْسَ دَائِمًا. يعْنِي: يَنْبَغِي لَنَا أَحْيانًا أَنْ نَمْشِيَ حُفاةً، حَتَّى لَوْ أَنَّ النَّاسَ شَهَّرُوا بِنَا وانْتَقَدُوا هَذَا الشَّيْءَ.

فنَحْنُ مَا دامَ اللهُ أَنْعَمَ عَلَيْنَا، فَإِنَّهُ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَسْلُكَ بأَنْفُسِنَا التَّيْسِيرَ. فَإِذَا كَانَ لَا بُدَّ مِنَ العُسْرِ فِي أداءِ العِبَادَةِ فإِنَّ الأَجْرَ عَلَى حَسَبِهِ. لَوْ ذَهَبْتَ مَثَلًا إِلَى صَلاةِ الجَمَاعَةِ فِي لَيْلَةٍ بارِدَةٍ، وصارَ عَلَيْكَ مَشَقَّةٌ، نَقُولُ: لَا بَأْسَ بهذَا، هَذَا لكَ فِيهِ أَجْرٌ، ومِنَ الرِّبَاطِ الَّذِي يَرْفَعُ اللهُ بِهِ الدَّرَجَاتِ، ويَمْحُو بِهِ الخَطَايَا، إِسْبَاغُ الوُضُوءِ عَلَى المَكارِهِ. ومَا حَصَلَ لكَ مِنَ المَشَقَّةِ فلكَ فِيهِ أَجْرٌ، ولوْ دَارَ الأَمْرُ بَيْنَ أَنْ تُسخِّنَ الماءَ، وأَنْ تَتَوَضَّأَ بِهِ بارِدًا، فالتَّسْخِينُ أَوْلَى؛ ولهَذَا قَالَ الفُقَهَاءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: يُكْرَهُ أَنْ يَتَوَضَّأَ الإِنْسَانُ بِمَا اشْتَدَّ حَرُّهُ أَوْ بَرْدُهُ، وعَلَّلُوا ذَلِكَ بِأَنَّهُ يَمْنَعُ كَمالَ الطَّهارَةِ.

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الترجل، رقم (٤١٦٠)، والنسائي: كتاب الزينة، باب الترجل، رقم (٥٢٣٩)، من حديث عبد الله بن بريدة عن رجل من أصحاب النبي ﷺ ورضي عنهم.



القَاعِدَةُ الرَّابِعَةُ والخَمْسُونَ:

كَثِيرًا مَا يَنْفِي اللهُ الشَّيْءَ لِانْتِفَاءِ فَائِدَتِهِ وثَمَرَتِهِ المَقْصُودَةِ مِنْهُ وإِنْ كانَتْ صُورَتُهُ مَوْجُودَةً

وذلكَ أنَّ اللهَ خَلَقَ الإنْسَانَ ورَكَّبَ فِيهِ القُوَى مِنَ السَّمْعِ، والبَصَرِ، والفُؤَادِ، وغَيْرِهَا؛ لِيَعْرِفَ رَبَّهُ، ويَقُومَ بِحَقِّهِ، فهَذَا المَقْصُودُ مِنْهَا. وبوُجُودِ مَا خُلِقَتْ لَهُ تَكْمُلُ ويَكْمُلُ صاحِبُهَا، وبفَقْدِ ذَلِكَ يَكُونُ وُجُودُهَا أَضَرَّ عَلَى الإنْسَانِ مِنْ فَقْدِهَا، فإنَّهَا حُجَّةُ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ، ونِعْمَتُهُ الَّتِي تُوجَدُ بِهَا مَصالِحُ الدِّينِ والدُّنْيَا، فإمَّا أنْ تَكُونَ نِعْمَةً تامَّةً إِذَا اقْتَرَنَ بِهَا مَقْصُودُهَا، أَوْ تَكُونُ مِحْنَةً وحُجَّةً عَلَى صاحِبِهَا إِذَا اسْتَعْمَلَهَا فِي غَيْرِ مَا خُلِقَتْ لهُ؛ ولهَذَا كَثِيرًا مَا يَنْفِي اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الأُمُورَ الثَّلاثَةَ مِنْ أَصْنَافِ الكُفَّارِ والمُنَافِقِينَ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٧١] ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة:١٠٣] ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام:٣٧] وقالَ تَعالَى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف:١٧٩] فأَخْبَرَ أَنَّ صُورَهَا مَوْجُودَةٌ، ولكنْ فَوائِدُهَا مَفْقُودَةٌ.

وقَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦] وقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ [النمل:٨٠] والآياتُ فِي هَذَا المَعْنَى كَثِيرَةٌ جِدًّا.

وقالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ

ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء:١٥٠-١٥١] فَأَثْبَتَ لَهُمُ الكُفْرَ مِنْ كُلِّ وجْهٍ، فلَمْ يَكُنْ دَعْوَاهُمُ الإيمانَ ببَعْضٍ مَا يَقُولُونَ: آمَنَّا بِهِ مِنَ الكُتُبِ والرُّسُلِ بمُوجِبٍ لَهُمُ الدُّخُولَ بالإيمانِ؛ لِأَنَّ إيمانَهُمْ بِهِمْ مَفْقُودَةٌ فَائِدَتُهُ؛ حَيْثُ كَذَّبُوهُمْ فِي رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وغَيْرِهِ مِنَ الرُّسُلِ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِمْ، وحَيْثُ إِنَّهُمْ أَنْكَرُوا مِنْ بَرَاهِينِ الإيمانِ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنَ الطَّرِيقِ الَّذِي أَثْبَتُوا بِهِ رِسالَةَ مَنِ ادَّعَوُا الإيمانَ بهِ.

وكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٨] لَمَّا كَانَ الإيمانُ النَّافِعُ هُوَ الَّذِي يَتَّفِقُ عَلَيْهِ القَلْبُ واللِّسَانُ، وَهُوَ المُثْمِرُ لكُلِّ خَيْرٍ، وكَانَ المُنافِقُونَ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ -نَفَى عَنْهُمُ الإيمانَ لانْتِفَاءِ فَائِدَتِهِ وثَمَرَتِهِ، ويُشْبِهُ هَذَا تَرْتِيبَ البارِي كَثِيرًا مِنَ الوَاجِبَاتِ والفُرُوضِ عَلَى الإيمانِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران:١٢٢] ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:٢٣] وقالَ تَعَالَى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ [الأنفال:٤١] وقَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال:٢-٤] وذلكَ أَنَّ الإيمانَ الوَاجِبَ يَقْتَضِي أَداءَ الفَرَائِضِ والوَاجِبَاتِ، ويَقْتَضِي اجْتِنَابَ المُحَرَّماتِ، فَما لَمْ يَحْصُلْ ذَلِكَ فهُوَ إِلَى الآنَ لَمْ يَتِمَّ ولَمْ يَتَحقَّقْ، فَإِذَا وُجِدَتْ هَذِهِ الأُمُورُ تَحَقَّقَ؛ ولهَذَا قَالَ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾.

وكَذَلِكَ لَمَّا كَانَ العِلْمُ الشَّرْعِيُّ يَقْتَضِي العَمَلَ بهِ، والانْقِيَادَ لِكُتُبِ اللهِ ورُسُلِهِ؛ قَالَ تَعَالَى عَنْ أَهْلِ الكِتَابِ المُنْحَرِفِينَ: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٠١].

ونَظِيرُ ذَلِكَ قَوْلُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا قَالَ لَهُ بَنُو إِسْرَائِيلَ: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [البقرة:٦٧] فكَمَا أَنَّ فَقْدَ العِلْمِ جَهْلٌ، ففَقْدُ العَمَلِ بِهِ جَهْلٌ قَبِيحٌ.

التعليق

خُلاصَةُ هَذِهِ القَاعِدَةِ: أَنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ يَنْفِي الشَّيْءَ لانْتِفَاءِ ثَمَرَتِهِ وفَائِدَتِهِ، وهَذَا واقِعٌ فِي الكِتَابِ والسُّنَّةِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال:٢١] وقالَ اللهُ تَعَالَى فِي آياتٍ كَثِيرَةٍ: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾، ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾، ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾ وغَيْرَ ذلكَ، وهُمْ عِنْدَهُمْ عِلْمٌ، وعِنْدَهُمْ عَقْلٌ، ولكنْ لَمَّا لَمْ يَنْتَفِعُوا بهِ صارَ وُجُودُهُ كَعَدَمِهِ.

وقالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا صَلَاةَ بِحَضْرَةِ طَعَامٍ»[1] مَعَ أَنَّ الصَّلاةَ تُوجَدُ، ولَوْ بِحَضْرَةِ الطَّعامِ، لكنَّهُ نَفَاهَا لانْتِفَاءِ فَائِدَتِهَا وثَمَرَتِهَا؛ لِأَنَّ مَنْ يُدافِعُ الأَخْبَثَيْنِ أَوْ يَحْضُرُهُ طَعَامٌ يَشْتَاقُ إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ سَوْفَ يُصَلِّي وقَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بهَذَا الشَّيْءِ، مُنْشَغِلٌ بمُدَافَعَتِهِ، وتَكُونُ صَلاتُهُ كأَنَّهَا لَا صَلاةَ.

---

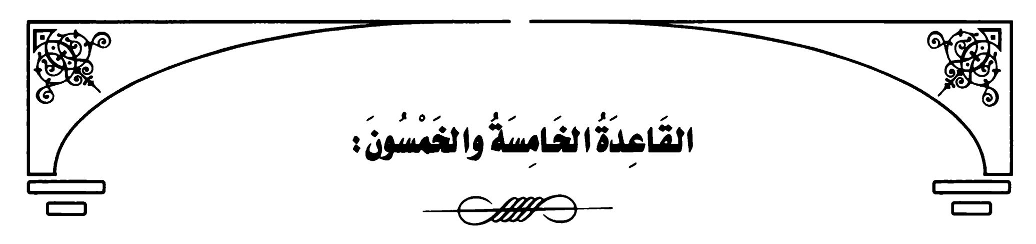
(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب كراهة الصلاة بحضرة الطعام، رقم (٥٦٠)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

إذًا: مِنْ هَذِهِ القَاعِدَةِ نَأْخُذُ مَضْمُونَهَا: إنَّ الشَّيْءَ قَدْ يُنْفَى لانْتِفَاءِ حَقِيقَتِهِ، وهَذَا هُوَ الأَصْلُ، وقَدْ يُنْفَى لانْتِفَاءِ ثَمَرَتِهِ وفَائِدَتِهِ، وهَذَا كَثِيرٌ وإنْ كَانَ خِلافَ الأَصْلِ، لكنْ مَا لَا يُنْتَفَعُ بِهِ فوُجُودُهُ كالعَدَمِ، بَلْ إنَّ وُجُودَهُ أَضَرُّ، فإنَّ مَنْ لَا يَسْمَعُ إطْلاقًا خَيْرٌ مِمَّنْ يَسْمَعُ ولَا يَنْتَفِعُ، بلَا شَكٍّ.

فَإِذَا قَالَ لكَ قائِلٌ: كَيْفَ يَقُولُ اللهُ لهَؤُلاءِ الأذْكِيَاءِ ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ؟

نَقُولُ: لأنَّهُمْ لَمْ يَنْتَفِعُوا بهَذَا العَقْلِ، فصَارَ مَوْجُودًا كأَنَّهُ مَعْدُومٌ.





القَاعِدَةُ الخَامِسَةُ والخَمْسُونَ:

يُكْتَبُ للعَبْدِ عَمَلُهُ الَّذِي بَاشَرَهُ ويُكَمَّلُ لَهُ مَا شَرَعَ فِيهِ وعَجزَ عَنْ تكْمِيلِهِ ويُكْتَبُ لَهُ مَا نَشأَ عَنْ عَمَلِهِ

التعليق

ثَلاثَةُ أُمُورٍ:

الأوَّلُ: يُكْتَبُ للعَبْدِ عَمَلُهُ الَّذِي بَاشَرَهُ، وهَذَا واضِحٌ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام:١٦٠].

والثَّانِي: يُكَمَّلُ لَهُ مَا شَرَعَ فِيهِ وَلَمْ يُكَمِّلْهُ: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء:١٠٠].

والثَّالِثُ: يُكْتَبُ لَهُ مَا نَشأَ عَنْ عَمَلِهِ: «**إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**»[1].

ويُكْتَبُ لَهُ مَا تَرَكَهُ لِعُذْرٍ وكَانَ يَعْمَلُهُ، وَهُوَ المَوْضِعُ الرَّابِعُ، مِثْلُ: «**إِذَا مَرِضَ العَبْدُ أَوْ سَافَرَ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا**»[2].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد الوفاة، رقم (١٦٣١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب يكتب للمسافر مثل ما كان يعمل في الإقامة، رقم

فهذِهِ أَرْبَعَةُ أُمُورٍ كُلُّهَا تُكْتَبُ للإِنْسَانِ. أَمَّا مُجَرَّدُ النِّيَّةِ فإِنَّهَا تُكْتَبُ للإِنْسَانِ إِذَا تَمَنَّى العَمَلَ الصالِحَ ولَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ، يُكْتَبُ لَهُ أَجْرُ النِّيَّةِ.

ومِنْ ذَلِكَ مَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حِينَ قَسَّمَ النَّاسَ إِلَى أقسامٍ؛ مِنْهُمْ: مَنْ آتَاهُ اللهُ مَالًا، فَيُنْفِقُهُ فِي طاعَةِ اللهِ، فَقالَ الآخَرُ الَّذِي لَمْ يُؤْتَ المالَ: لَوْ أَنَّ لِي مِثْلَ مَا لِفُلانٍ لَعَمِلْتُ فِيهِ مِثْلَ مَا عَمِلَ فُلانٌ. قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**فَهُوَ بِنِيَّتِهِ، فَهُمَا بِالأَجْرِ سَوَاءٌ**»[1] سَوَاءٌ بالنِّيَّةِ لَا بالعَمَلِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ، ولَيْسَ مِنْ عَادَتِهِ أَنْ يَعْمَلَهُ، فلَوْ كَانَ مِنْ عَادَتِهِ أَنْ يَعْمَلَهُ لَكُتِبَ لَهُ مَا تَرَكَهُ مِنْهُ لِعُذْرٍ.

فإِنْ قُلْتَ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ فِي المَدِينَةِ لَأَقْوَامًا، مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا أَوْ قَطَعْتُمْ وَادِيًا إِلَّا هُمْ مَعَكُمْ**»؟ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وهُمْ فِي المَدِينَةِ؟! قَالَ: «**وَهُمْ فِي المَدِينَةِ، حَبَسَهُمُ العُذْرُ**»[2]. فهَذَا يَقْتَضِي أَنَّهُمْ يُشارِكُونَ فِي أَجْرِ العَمَلِ، أَوْ ظَاهِرُهُ أَنَّهُمْ مُشارِكُونَ فِي أجْرِ العَمَلِ.

فالجَوابُ: أَنْ يُحْمَلَ هَذَا عَلَى مَنْ كَانَ مِنْ عَادَتِهِمُ الخُرُوجُ فِي سَبِيلِ اللهِ، ولكنْ حَبَسَهُمُ العُذْرُ؛ فهَؤُلاءِ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ كامِلًا. أَوْ يُقالُ: «مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا، ولَا قَطَعْتُمْ وَادِيًا إِلَّا وَهُمْ مَعَكُمْ» يعْنِي: بِنِيَّتِهِمْ، فيَكُونُ لَهُمْ أَجْرُ النِّيَّةِ، لَا أَجْرُ العَمَلِ،

= (٢٩٩٦)، من حديث أبي موسى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب الزهد، باب النية، رقم (٤٢٢٨)، من حديث أبي كبشة الأنماري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، رقم (٤٤٢٣)، من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وأخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب ثواب من حبسه عن الغزو مرض أو عذر آخر، رقم (١٩١١)، من حديث جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

فصَارَتِ الأقْسامُ خَمْسَةً:

١- مَنْ عَمِلَ عَمَلًا كُتِبَ لَهُ أجْرٌ.

٢- ومَنْ شَرَعَ فِيهِ وَلَمْ يُكَمِّلْهُ كُتِبَ لَهُ أجْرٌ.

٣- ومَا نَشَأَ مِنْ عَمَلِهِ، وإنْ لَمْ يَكُنْ عَلَى بالِهِ حِينَ الفِعْلِ، كُتِبَ لَهُ أَجْرٌ.

٤- ومَا كَانَ يَفْعَلُهُ وتَرَكَهُ لِعُذْرٍ، يُكْتَبُ لَهُ أَجْرٌ.

٥- ومَا تَمَنَّاهُ وَلَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ كُتِبَ لَهُ بِهِ أجْرٌ، ولكنْ أجْرُ النِّيَّةِ فَقَطْ لَا أجْرُ العَمَلِ.

والدَّلِيلُ عَلَى أَنَّهُ أَجْرُ النِّيَّةِ فقطْ، أنَّ الفُقَرَاءَ لَمَّا جَاؤُوا للنَّبِيِّ ﷺ يَشْكُونَ، قالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، سَبَقَ أَهْلُ الدُّثُورِ بالأُجورِ[1] والدَّرَجَاتِ العُلَى، ثُمَّ ذَكَرُوا أنَّهُمْ يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، ويَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، ويَتَصَدَّقُونَ ولَا نَتَصَدَّقُ، ويُعْتِقُونَ ولَا نُعْتِقُ، فَأَخْبَرَهُمْ أنْ يُسَبِّحُوا ويَحْمَدُوا ويُكَبِّرُوا ثَلاثًا وثَلاثِينَ، دُبُرَ كُلِّ صَلاةٍ، وأنَّهُمْ بِذَلِكَ يُدْرِكُونَ مَنْ سَبَقَهُمْ، فلَمَّا سَمِعَ الأغْنِيَاءُ بِذَلِكَ عَمِلُوا مِثْلَهُ، فجَاءَ الفُقَرَاءُ فقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، سَمِعَ إخْوَانُنَا الأغْنِيَاءُ بِمَا صَنَعْنَا، وعَمِلُوا مِثْلَهُ، فَقَالَ لَهُمْ: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [المائدة:٥٤] ولَمْ يَقُلْ لهُمْ: لكُمْ أَجْرُهُمْ بِنِيَّتِكُمْ. فهَذَا دَلِيلٌ عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ؛ لِأَنَّ مَنْ تَمَنَّى العَمَلَ، ولَيْسَ مِنْ عادَتِهِ فِعْلُهُ، ولَا يَسْتَطِيعُ فِعْلَهُ، فَإِنَّهُ يُكْتَبُ لَهُ أَجْرُهُ بالنِّيَّةِ.

---

(١) أخرج البخاري: كتاب الأذان، باب الذكر بعد الصلاة، رقم (٨٤٣). ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الذكر بعد الصلاة، رقم (٥٩٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أَمَّا حَدِيثُ: «مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ»[1] فَيَدُلُّ عَلَى نَقْصِ دِينِهَا، ولكنَّهُ نَقْصٌ لَا تُلامُ عَلَيْهِ، ويَكْفِيهَا أَجْرُ الامْتِثَالِ؛ كالإِنْسَانِ الَّذِي لَيْسَ عِنْدَهُ مالٌ، فَإِنَّهُ يَنْقُصُ دِينُهُ؛ لِعَدَمِ الزَّكَاةِ، ولَا يَحْصُلُ لَهُ الأَجْرُ؛ لِعَدَمِ وُجُودِ السَّبَبِ.

فَإِنْ قِيلَ: هِيَ كانَتْ تَفْعَلُ الصَّلاةَ والعِبادَاتِ؟ فالجَوابُ: نَعَمْ، لكنْ لَمَّا وُجِدَ المانِعُ، طَغَى عَلَى السَّبَبِ، فَزالَ أَثَرُهُ بالكُلِّيَّةِ، فَلَيْسَ لَهَا أَجْرُ النِّيَّةِ ولَا العَمَلِ، مَا لَهَا إِلَّا أَجْرُ الامْتِثَالِ بتَرْكِ الصَّلاةِ. والفَرْقُ بَيْنَهَا وبَيْنَ المَرِيضِ الَّذِي كَانَ مِنْ عَادَتِهِ العَمَلُ، أَنَّ هَذِهِ -واللهُ أَعْلَمُ- لَمَّا مَنَعَهَا الشَّرْعُ ونَهاهَا عَنْ ذلكَ، صارَتْ لَيْسَتْ مَحَلًّا للعَمَلِ الصَّالِحِ، كالصَّوْمِ يَوْمَ العِيدِ، فلَوْ صَامَهُ الإِنْسَانُ لَا يُؤْجَرُ عليْهِ، ولَوْ تَمَنَّى أَنْ يَصُومَهُ لَا يُؤْجَرُ عليْهِ، ولَوْ نَوَى أَنَّهُ يَصُومُهُ -لَوْلَا المانِعُ- لَا يُؤْجَرُ عَلَيْهِ، هَذَا هُوَ الفَرْقُ.

فهذِهِ الأُمُورُ الثَّلاثَةُ وَرَدَتْ فِي القُرْآنِ:

أَمَّا الأَعْمَالُ الَّتِي بَاشَرَهَا العَبْدُ: فأَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَى النُّصُوصُ الدَّالَّةُ عَلَيْهَا، كَقَوْلِهِ: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة:١٠٥] ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ [البقرة:٢٨٦] ﴿لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ [يونس:٤١] ونَحْوِ ذلكَ.

وأَمَّا الأَعْمَالُ الَّتِي شَرَعَ العَبْدُ فِيهَا ولَمَّا يُكَمِّلْهَا، فَقَدْ دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحيض، باب ترك الحائض الصوم، رقم (٣٠٤)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بنقص الطاعات رقم (٧٩)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

[النساء:١٠٠] فهَذا خَرجَ للهِجْرَةِ وأدْرَكَهُ الأجَلُ قَبْلَ تكْمِيلِ عَمَلِهِ، فأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ وَقَعَ أجْرُهُ عَلَى اللهِ.

فكُلُّ مَنْ شَرَعَ فِي عَمَلٍ مِنْ أعْمَالِ الخَيْرِ، ثُمَّ عَجزَ عَنْ إتْمامِهِ بمَوْتٍ، أَوْ عَجزٍ بَدَنِيٍّ، أَوْ عَجْزٍ مَالِيٍّ، أَوْ مانعٍ دَاخِلِيٍّ أَوْ خارِجِيٍّ، وكَانَ مِنْ نِيَّتِهِ لَوْلَا المانِعُ لأَتَمَّهُ فَقَدْ وَقَعَ أجْرُهُ عَلَى اللهِ، فإِنَّمَا الأعْمَالُ بالنِّيَّاتِ، وقالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:٦٩] فكُلُّ مَنِ اجْتَهَدَ فِي الخَيْرِ هَدَاهُ اللهُ الطَّرِيقَ المُوصِلَةَ إليْهِ، سَوَاءٌ أَكْمَلَ ذَلِكَ العَمَلَ أَوْ حَصَلَ لَهُ عائِقٌ عنْهُ.

وأمَّا آثارُ أعْمالِ العَبْدِ، فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ﴾ أيْ: بَاشَرُوا عَمَلَهُ ﴿وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ [يس:١٢] الَّتِي تَرَتَّبَتْ عَلَى أعْمالِهِمْ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ...

التعليق

ويَدُلُّ عَلَى هَذَا قَوْلُهُ ﷺ: **«مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً كَانَ لَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ»**[1] فالإنْسَانُ يُكْتَبُ لَهُ آثارُ عَمَلِهِ، حَتَّى وإنْ لَمْ يَقْصِدْهَا.

زَرَعَ رَجُلٌ زَرْعًا، أَوْ غَرَسَ غَرْسًا، فانْتَفَعَ بِهِ مَنْ لَمْ يَخْطِرْ بِبالِهِ أنْ يَنْتَفِعَ بِهِ فَإِنَّهُ يُؤْجَرُ عَلَى ذلك، وإنْ كَانَ لَمْ يَكُنْ بِبالِهِ حِينَ غَرَسَ الغَرْسَ أَوْ زَرَعَ الزَّرْعَ، لكنْ لِأَنَّهُ نَشَأَ عَنْ عَمَلِهِ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة، رقم (١٠١٧)، من حديث جرير بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

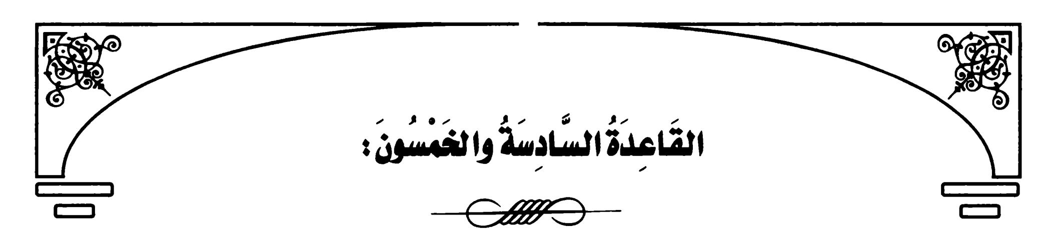
... وقَالَ فِي المُجاهِـدِينَ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة:١٢٠] فكُلُّ هَذِهِ الأُمُورِ مِنْ آثارِ عَمَلِهِمْ. ثُمَّ ذَكَرَ أَعْمَالَهُمُ الَّتِي باشَرُوهَا بقَوْلِهِ: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً﴾ إِلَى آخِرِ الآيَةِ [التوبة:١٢١].

والأَعْمَالُ الَّتِي هِيَ مِنْ آثارِ عَمَلِهِ نَوْعَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ تَقَـعَ بغَيْرِ قَصْـدٍ مِنَ الإنْسَانِ؛ كأَنْ يَعْمَلَ أعْمَالًا صَالِحَةً خَيْرِيَّةً، فَيَقْتَدِيَ بِهِ غَيْرُهُ فِي هَذَا الخَيْرِ، فإِنَّ ذَلِكَ مِنْ آثارِ عَمَلِهِ، وكَمَنْ يَتزَوَّجُ بغَيْرِ نِيَّةِ حُصُولِ الأَوْلادِ الصَّالِحِينَ، فيُعْطِيهِ اللهُ أَوْلادًا صَالِحِينَ، فَإِنَّهُ يَنْتَفِعُ بِهِمْ وبِدُعائِهِمْ.

والثَّانِي -وهُوَ أَشْرَفُ النَّوْعَيْنِ-: أَنْ يَقَعَ ذَلِكَ بقَصْدِهِ، كمَنْ عَلَّمَ عِلْمًا نافِعًا، فنَفْسُ تَعْلِيمِهِ ومُباشَرَتِهِ لَهُ مِنْ أَجَلِّ الأَعْمَالِ، ثُمَّ مَا حَصَلَ مِنَ العِلْمِ والخَيْرِ المُتَرَتِّبِ عَلَى ذَلِكَ فَإِنَّهُ مِنْ آثارِ عَمَلِهِ، وكَمَنْ يَفْعَلُ الخَيْرَ لِيَقْتَدِيَ بِهِ النَّاسُ، أَوْ يَتزَوَّجُ لأَجْلِ حُصُولِ الذُّرِّيَّةِ الصَّالِحِينَ، فيَحْصُلُ مُرادُهُ، فإِنَّ هَذَا مِنْ آثارِ عَمَلِهِ.

وكَذَلِكَ مَنْ يَزْرَعُ زَرْعًا، أَوْ يَغْرِسُ غَرْسًا، أَوْ يُباشِرُ صِناعَةً مِمَّا يَنْتَفِعُ بِهَا النَّاسُ فِي أُمُورِ دِينِهِمْ ودُنْيَاهُمْ، وقَـدْ قَصَدَ بِذَلِكَ حُصُولَ النَّفْعِ، فَما تَرَتَّبَ مِنْ نَفْعٍ دِينِيٍّ أَوْ دُنْيَوِيٍّ عَلَى هَذَا العَمَلِ، فَإِنَّهُ مِنْ آثارِ عَمَلِهِ، وإِنْ كَانَ يَأْخُذُ عَلَى عَمَلِهِ الأَخِيرِ أَجْرًا وعِوَضًا؛ فإِنَّ اللهَ يُدْخِلُ بالسَّهْمِ الوَاحِدِ الجَنَّةَ ثَلاثَةً: صَانِعَهُ، ورَامِيَهُ، والمُمِدَّ لَهُ.



القَاعِدَةُ السَّادِسَةُ والخَمْسُونَ:

يُرْشِدُ القُرْآنُ المُسْلِمِينَ إِلَى قِيامِ جَمِيعِ مَصَالِحِهِمْ وَأَنَّهُ إِذَا لَمْ يُمْكِنْ حُصُولُها مِنَ الجَمِيعِ فَلْيَشْتَغِلْ بكُلِّ مَصْلَحَةٍ مِنْ مَصَالِحِهِمْ مَنْ يَقُومُ بِهَا وَيُوَفِّرُ وَقْتَهُ عَلَيْهَا؛ لِتَقُومَ مَصَالِحُهُمْ، وَتَكُونَ وِجْهَتُهُمْ جَمِيعًا وَاحِدَةً

وهذِهِ مِنَ القَوَاعِدِ الجَلِيلَةِ، ومِنَ السِّيَاسَةِ الشَّرْعِيَّةِ؛ فإنَّ كَثِيرًا مِنَ المَصالِحِ العامَّةِ الكُلِّيَّةِ لَا يُمْكِنُ اشْتِغَالُ النَّاسِ كُلِّهِمْ بِهَا، ولَا يُمْكِنُ تَفْوِيتُهَا، فالطَّرِيقُ إِلَى حُصُولِهَا: مَا أَرْشَدَ اللهُ عِبادَهُ إليْهِ، قَالَ تَعَالَى فِي الجِهَادِ -الَّذِي هُوَ مِنْ أَعْظَمِ مَصالِحِ الدِّينِ- والعِلْمِ: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة:١٢٢] فَأَمَرَ أَنْ يَقُومَ بالجِهادِ طائِفَةٌ كافيَةٌ، وبالعِلْمِ طَائِفَةٌ أُخرَى، وأنَّ القائِمَةَ بالجِهادِ تَسْتَدْرِكُ مَا فَاتَهَا مِنَ العِلْمِ إِذَا رَجَعَتْ.

وقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عمران:١٠٤] وقَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٢] وقَالَ تَعَالَى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦] وقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى:٣٨] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الآياتِ الدَّالَّاتِ عَلَى هَذَا الأَصْلِ الجَلِيلِ، والقَاعِدَةِ النَّافِعَةِ.

وبقِيَامِ كُلِّ طائِفَةٍ مِنْهُمْ بمَصْلَحَةٍ مِنَ المَصالِحِ تَقُومُ المَصالِحُ كُلُّهَا؛ لِأَنَّ كُلَّ فَرْدٍ مَأْمُورٌ أنْ يُراعِيَ المَصالِحَ الكُلِّيَّةَ، ويَكُونَ سائِرًا فِي جَمِيعِ أعْمالِهِ إلَيْهَا، فلَوْ وُفِّقَ المُسْلِمُونَ لِسُلُوكِ هَذَا الطَّرِيقِ لاسْتَقَامَتْ أحْوالُهُمْ، وصَلَحَتْ أُمُورُهُمْ، وانْجَابَتْ عَنْهُمْ شُرُورٌ كَثِيرَةٌ. فاللهُ المُسْتَعَانُ.

التعليق

وهكَذَا الأُمَّةُ الوَاحِدَةُ كُلُّ طائِفَةٍ مِنْهَا تَقُومُ بمَصْلَحَةٍ؛ لِأَنَّ قِيامَ الجَمِيعِ بوَظِيفَةٍ ومَصْلَحَةٍ واحِدَةٍ مُتَعَذِّرٌ؛ إذْ لَوْ فَرَضْنا أنَّ النَّاسَ اتَّجَهُوا جَمِيعًا لِمَصْلَحَةٍ واحِدَةٍ مُعَيَّنَةٍ، لَتَعَطَّلَتِ المَصالِحُ الأُخْرَى. وتَرْكُهُمْ للمَصالِحَ كُلِّيَّةً، أيضًا فَسادٌ؛ ولذلكَ نَقُولُ: يُعْتَبَرُ المُؤْمِنُونَ -وإنْ كَانُوا أَفْرادًا مُتَعَدِّدِينَ- كأَنَّهُمْ جَسَدٌ واحِدٌ؛ فالرِّجْلُ للمَشْيِ، واليَدُ للبَطْشِ.

لَوْ أنَّ أَحَدًا قَالَ: سَأَجْعَلُ اليَدَيْنِ للمَشْيِ، والرِّجْلَيْنِ للبَطْشِ والأَكْلِ والشُّرْبِ! طَبْعًا لَا يُمْكِنُ، كذلكَ الأصابعُ، كُلُّ أُصْبُعٍ لَهُ وَظِيفَةٌ خاصَّةٌ يَقُومُ بِهَا، لَا يُمْكِنُ أنْ تَجْتَمِعَ الأصابعُ كُلُّهَا عَلَى وَظِيفَةٍ واحِدَةٍ، ولَا يُمْكِنُ أنْ تَتَخَلَّى عَنِ الوَظائِفِ، هكَذَا هُوَ الجَسَدُ الإسْلَامِيُّ، وهَكَذَا يَجِبُ أنْ يَكُونَ المُسْلِمُونَ، كُلُّ واحِدٍ يَسْعَى فِي مَصْلَحَةٍ مُعَيَّنَةٍ تَلِيقُ بِهِ.

فمَثَلًا: الرَّجُلُ الضَّعِيفُ الجِسْمِ، القَوِيُّ الفَهْمِ والذَّاكِرَةِ والحِفْظِ، يَكُونُ طَلَبُ العِلْمِ لَهُ أَفْضَلَ، والرَّجُلُ القَوِيُّ الجِسْمِ، لكنَّهُ بَطِيءُ الفَهْمِ والحِفْظِ، تُكَرَّرُ عَلَيْهِ المَسْأَلَةُ أَرْبَعِينَ مَرَّةً مَا يَحْفَظُهَا إلَّا فِي خَمْسِينَ مَرَّةً، إلَّا أَنَّهُ شُجاعٌ مِقْدَامٌ مُتَمَرِّسٌ فِي الجِهَادِ، فهَذَا أفْضَلُ لَهُ الجِهادُ فِي سَبِيلِ اللهِ.

والرَّجُلَ الآخَرُ عِنْدَهُ حِنْكَةٌ فِي الصِّناعَةِ، أَوْ فِي الطِّبِّ، أَوْ فِي الزِّرَاعَةِ، نَقُولُ لَهُ: اتَّجِهْ لِهَذَا؛ حَتَّى تَقُومَ الأُمَّةُ الإِسْلَامِيَّةُ بِمُقَوِّمَاتِهَا، فكُلٌّ يَقُومُ بِمَا يُدْرِكُ ويُتْقِنُ ويَخْتَصُّ بِهِ.

هَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ الشَّيْخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ صَحِيحٌ، وقاعِدَةٌ نافِعَةٌ، وقَدْ ذَكَرَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مِنَ القُرْآنِ أَدِلَّةً، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾ وقَوْلُهُ: ﴿وَمَا كَانَ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يَكُونَ مُسْتَحِيلًا شَرْعًا، أَوْ مُسْتَحِيلًا قَدَرًا وكَوْنًا، وأَقَلُّ الأَمْرَيْنِ أَنَّهُ مُسْتَحِيلٌ شَرْعًا؛ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَذْهَبُوا جَمِيعًا للجِهَادِ، بَلْ بَعْضُهُمْ يَبْقَى للعِلْمِ، وبَعْضُهُمْ يَذْهَبُ للجِهَادِ ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ وزَّعَ الجِهَادَ.

فَلَا نَقُولُ: تَخْرُجُ القَبِيلَةُ الفُلَانِيَّةُ للجِهَادِ، وبَقِيَّةُ القَبائِلِ يَبْقَوْنَ، بَلْ نَقُولُ: مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ وفِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ، نَأْخُذُ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ، مِنْ قُرَيْشٍ، مِنْ كذَا، مِنْ كذَا، طائِفَةً؛ لِيَبْقَى طائِفَةٌ يَتفَقَّهُونَ فِي الدِّينِ.

وإِذَا تَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ، وحَفِظُوا دِينَ اللهِ، جَاءَتِ الفِرْقَةُ المُجاهِدَةُ، فيُنْذِرُونَ: ﴿وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة:١٢٢] وعَلَى هذَا: فالوَاوُ فِي قَوْلِهِ: ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟﴾ فِي الدِّينِ، تَعُودُ عَلَى القَاعِدِينَ.

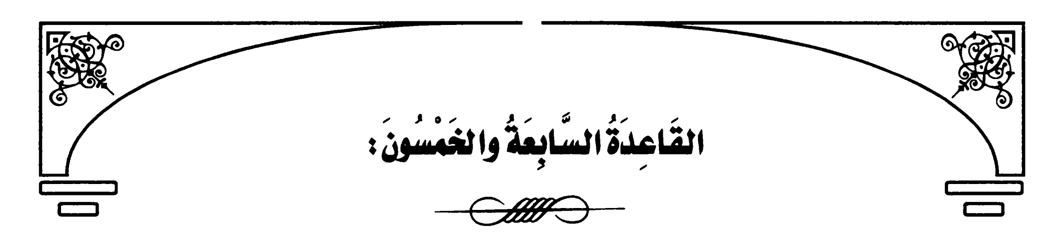
واللهُ عَزَّوَجَلَّ قَدْ جعَلَ الجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللهِ عَدِيلًا للضَّرْبِ فِي الأَرْضِ للتِّجَارَةِ، فَقَالَ: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ [المزمل:٢٠] إِلَى آخِرِهِ.

كذلكَ أيضًا الآيَـةُ الثَّانِيَةُ الَّتِي ذَكَـرَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قَـالَ: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ فقَالَ: ﴿مِّنكُمْ﴾ لَا كُلُّكُمْ، وإِنْ كَانَ بَعْضُ العُلَمَاءِ

يَقُولُونَ: (مِنْ) بيانِيَّةٌ، أيْ: وَلْتكُونُوا عَلَى هَذَا الوَصْفِ، أُمَّةً تَدْعُو إِلَى الخَيْرِ، وتَأْمُرُ بالمَعْرُوفِ، وتَنْهَى عَنِ المُنْكَرِ. لكنِ المَعْنَى الأوَّلُ هُوَ الَّذِي عَلَيْهِ مُعْظَمُ النَّاسِ، وَهُوَ أَنَّهُ يَجِبُ أنْ تَكُونَ الأُمَّةُ الإسْلَامِيَّةُ أُمَّةً مُتَفَرِّغَةً لهذَا الشَّيْءِ؛ يَدْعُونَ إِلَى الخَيْرِ، ويَأْمُرُونَ بالمَعْرُوفِ، ويَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ.

ومِنَ المَعْلُومِ أنَّ الدَّعْوَةَ إِلَى الخَيْرِ لَا بُدَّ أنْ يَسْبِقَهَا عِلْمٌ، وإلَّا كانَتْ ضَرَرًا؛ إذْ إنَّ الإنْسَانَ إِذَا دَعَا بدُونِ عِلْمٍ، صَارَ ضَرَرُهُ أَكْثَرَ مِنْ نَفْعِهِ غَالِبًا. لَا بُدَّ مِنَ العِلْمِ؛ حَتَّى يَكُونَ الإنْسَانُ دَاعِيًا إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ.





القَاعِدَةُ السَّابِعَةُ والخَمْسُونَ:

فِي كَيْفِيَّةِ الاسْتِدْلالِ بخَلْقِ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ ومَا فِيهِمَا عَلَى التَّوْحِيدِ والمَطَالِبِ العَالِيَةِ

قَدْ دَعَا اللهُ عِبادَهُ إِلَى التَّفَكُّرِ فِي هَذِهِ المَخْلُوقَاتِ فِي آياتٍ كَثِيرَةٍ، وأَثْنى عَلَى المُتَفَكِّرِينَ فِيهَا، وأَخْبَرَ أَنَّ فِيهَا آياتٍ وَعِبَرًا؛ فَيَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَسْلُكَ الطَّرِيقَ المُنْتِجَ للمَطْلُوبِ بأَيْسَرِ مَا يَكُونُ، وأَوْضَحِ مَا يَكُونُ، وحاصِلُ ذَلِكَ عَلَى وجْهِ الإِجْمالِ أَنَّنا إِذَا تَفَكَّرْنَا فِي هَذَا الكَوْنِ العَظِيمِ عَرَفْنَا أَنَّهُ لَمْ يُوجَدْ بغَيْرِ مُوجِدٍ، ولَا أَوْجَدَ نَفْسَهُ، هَذَا أَمْرٌ بَدِيهِيٌّ، فتيَقَّنَّا أَنَّ الَّذِي أَوْجَدَهُ الأَوَّلُ الَّذِي لَيْسَ قَبْلَهُ شَيْءٌ، كامِلُ القُدْرَةِ، عَظِيمُ السُّلْطَانِ، واسِعُ العِلْمِ، وأَنَّ إِيجادَ الآدَمِيِّينَ فِي النَّشْأَةِ الثَّانِيَةِ للجَزاءِ أَسْهَلُ مِنْ هَذَا بِكَثِيرٍ: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر:٥٧] وعَرَفْنَا بِذَلِكَ أَنَّهُ الحَيُّ القَيُّومُ،...

التعليق

كَيْفَ عَرَفْنَا أَنَّهُ الحَيُّ القَيُّومُ؟ لِأَنَّهُ لَوْلَا حياتُهُ لَمْ نُوجَدْ. والقَيُّومُ عَلَى وَزْنِ الفَيْعُولِ، وَهُوَ مِنْ صِيَغِ المُبالَغَةِ، وَهُوَ القَائِمُ بنَفْسِهِ، القائِمُ عَلَى غَيْرِهِ.

ووَجْهُ ذلكَ: أَنَّ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ دَائِمًا تَحْتَاجُ إِلَى مَنْ يَقُومُ عَلَيْهَا، ولازِمُ هَذِهِ الحاجَةِ أَنْ يَكُونَ اللهُ تَعَالَى قَيُّومًا عَلَيْهَا دَائِمًا ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة:٢٥٥].



... وإِذَا نَظَرْنَا مَا فِيهَا مِنَ الإِحْكامِ، والإِتْقَانِ، والحُسْنِ، والإِبْدَاعِ، عَرَفْنَا بِذَلِكَ كَمالَ حِكْمَةِ اللهِ، وحُسْنَ خَلْقِهِ، وسَعَةَ عِلْمِهِ. وإِذَا رَأَيْنَا مَا فِيهَا مِنَ المَنَافِعِ والمَصالِحِ الضَّرُورِيَّةِ والكَمالِيَّةِ، الَّتِي لَا تُعَدُّ ولَا تُحْصَى -عَرَفْنَا بِذَلِكَ أَنَّ اللهَ واسِعُ الرَّحْمَةِ، عَظِيمُ الفَضْلِ، والبِرِّ، والإِحْسَانِ، والجُودِ، والامْتِنَانِ.

وإِذَا رَأَيْنَا مَا فِيهَا مِنَ التَّخْصِيصَاتِ، فإِنَّ ذَلِكَ دَالٌّ عَلَى إِرَادَةِ اللهِ، ونُفُوذِ مَشِيئَتِهِ، ونَعْرِفُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ أَنَّ مَنْ هَذِهِ أَوْصَافُهُ، وهَذَا شَأْنُهُ، هُوَ الَّذِي لَا يَسْتَحِقُّ العِبَادَةَ إِلَّا هُوَ، وأَنَّهُ المَحْبُوبُ المَحْمُودُ، ذُو الجَلالِ والإِكْرَامِ، والأَوْصَافِ العِظَامِ، الَّذِي لَا تَنْبَغِي الرَّغْبَةُ والرَّهْبَةُ إِلَّا إِلَيْهِ، ولَا يُصْرَفُ خالِصُ الدُّعَاءِ إِلَّا لهُ لَا لِغَيْرِهِ مِنَ المَخْلُوقَاتِ المَرْبُوبَاتِ المُفْتَقِرَاتِ إِلَى اللهِ فِي جَمِيعِ شُؤُونِهَا.

ثُمَّ إِذَا نَظَرْنَا إِلَيْهَا مِنْ جِهَةِ أَنَّهَا كُلَّهَا خُلِقَتْ لِمَصَالِحِنَا، وأَنَّها مُسَخَّرَةٌ لنَا، وأَنَّ عَنَاصِرَهَا، ومَوَادَّهَا، وأَرْوَاحَهَا، قَدْ مَكَّنَ اللهُ الآدَمِيَّ مِنِ اسْتِخْرَاجِ أَصْنَافِ المَنَافِعِ مِنْهَا -عَرَفْنَا أَنَّ هَذِهِ الاخْتِرَاعاتِ الجَدِيدَةَ فِي الأَوْقَاتِ الأَخِيرَةِ مِنْ جُمْلَةِ المَنَافِعِ الَّتِي خَلَقَهَا اللهُ لِبَنِي آدَمَ فِيهَا، فَسَلَكْنَا بِذَلِكَ كُلَّ طَرِيقٍ نَقْدِرُ عَلَيْهِ فِي اسْتِخْرَاجِ مَا يُصْلِحُ أَحْوَالَنَا مِنْهَا بحَسَبِ القُدْرَةِ، ولَمْ نُخْلِدْ إِلَى الكَسَلِ والبَطالَةِ، أَوْ نُضِيفُ عِلْمَ هَذِهِ الأُمُورِ واسْتِخْرَاجَهَا إِلَى عُلُومٍ باطِلَةٍ بحُجَّةِ أَنَّ الكُفَّارَ سَبَقُوا إِلَيْهَا وفَاقُوا فِيهَا، فإِنَّهَا كُلَّهَا -كَما نَبَّهَ اللهُ عَلَيْهِ- دَاخِلَةٌ فِي تَسْخِيرِ اللهِ الكَوْنَ لنَا، وأَنَّهُ يُعَلِّمُ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ.

التعليق

أَمَّا دَلالَةُ هَذِهِ المَخْلُوقَاتِ عَلَى التَّوْحِيدِ، فمِنْ جِهَتَيْنِ:

الأُولَى: أنَّ هَذِهِ الأشْيَاءَ كُلَّهَا لَا تَتِمُّ إلَّا بازْدِوَاجِ شَيْئَيْنِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات:٤٩] وأنَّ افْتِقَارَ كُلِّ واحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ المَخْلُوقَاتِ إِلَى شَيْءٍ آخَرَ لِتَقُومَ العَناصِرُ دَلِيلٌ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ مَنْ جعَلَ هَذِهِ الأشْيَاءَ مُفْتَقِرٌ بَعْضُها إِلَى بَعْضٍ.

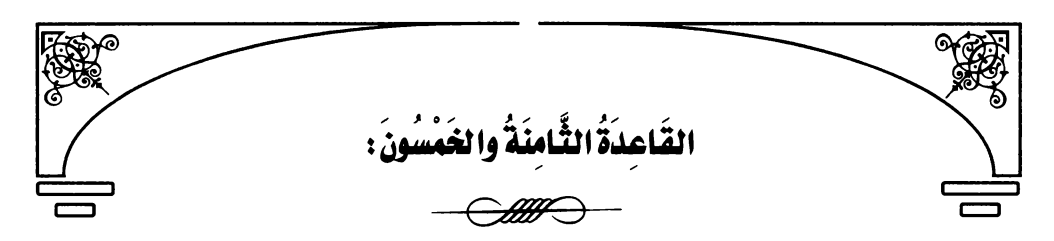
الثَّانِيَةُ: أنَّ هَذِهِ المَخْلُوقَاتِ نِظامُهَا واحِدٌ، لَا تَضْطَرِبُ ولَا تَتَنَاقَضُ، ولوْ كَانَ لَهَا خالِقَانِ لكانَ هَذَا يَخْلُقُ، أَوْ يَتَصَرَّفُ بمَخْلُوقاتِهِ بشَيْءٍ يُضَادُّ تَصَرُّفَ الآخَرِ، وإذَا نَظَرْنَا إِلَى انْتِظَامِ الكَوْنِ عَلِمْنَا أنَّ مُدَبِّرَهُ وخَالِقَهُ واحِدٌ، وَهُوَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثُمَّ إنَّ المُؤَلِّفَ اسْتَطْرَدَ فِي هَذِهِ القَاعِدَةِ إِلَى أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا أنْ لَا نُخْلِدَ إِلَى الكَسَلِ والخُمُولِ، وعَدَمِ التَّأَمُّلِ، وعَدَمِ اسْتِخْرَاجِ مَنافِعِ الأرْضِ الَّتِي قَالَ اللهُ تَعَالَى فِيهَا: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ [الملك:١٥].

ولكِنْ -مَعَ الأسَفِ- إنَّ المُسْلِمِينَ أَخْلَدُوا إِلَى الكَسَلِ، ونَامُوا، وأَضَاعُوا أَوْقَاتَهُمْ فِي حَرْبِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا، وقِتَالِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا، حَتَّى سَبَقَتْهُمُ الأُمَمُ الكافِرَةُ، مَعَ أَنَّهَا تَعْمَلُ هَذَا الشَّيْءَ للدُّنْيَا فقطْ! ولوْ وُفِّقَ المُسْلِمُونَ للعَمَلِ بهذِهِ الأشْيَاءِ لكَانُوا يَعْمَلُونَهَا للدُّنْيَا والآخِرَةِ.

فهذِهِ القَاعِدَةُ مُهِمَّةٌ عَظِيمَةٌ، وَهِيَ النَّظَرُ فِي هَذِهِ المَخْلُوقَاتِ العَظِيمةِ، مِنْ حَيْثُ الدَّلالَةُ عَلَى خَالِقِهَا، وَوَحْدَانِيَّتِهِ، ومَا تَتَضَمَّنُهُ مِنْ أَنْوَاعِ صِفاتِهِ؛ كالرَّحْمَةِ، والعِلْمِ، والحِكْمَةِ، والقُدْرَةِ، ومَا إِلَى ذلكَ.

والثَّانِي: مِنْ جِهَةِ أَنَّهُ يَنْبَغِي لَنَا أنْ نَسْتَعْمِلَ عُقُولَنَا وأفْكَارَنَا فِي اسْتِخْرَاجِ مَنافِعِنَا مِنْ هَذِهِ المَخْلُوقَاتِ.



القَاعِدَةُ الثَّامِنَةُ والخمْسُونَ:

إِذَا أَرَادَ اللهُ إِظْهَارَ شَرَفِ أَنْبِيَائِهِ وَأَصْفِيَائِهِ بالصِّفَاتِ الكَامِلَةِ أَرَاهُمْ نَقْصَهَا فِي غَيْرِهِمْ مِنَ المُسْتَعِدِّينَ لِلكَمَالِ

وذلكَ فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ وَرَدَتْ فِي القُرْآنِ، مِنْهَا: لَمَّا أرادَ إظْهارَ شَرَفِ آدمَ عَلَى المَلائِكَةِ بالعِلْمِ، وعَلَّمَهُ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ. ثُمَّ امْتَحَنَ المَلائِكَةَ، فعَجَزُوا عَنْ مَعْرِفَتِهَا، فحينئذٍ نَبَّأَهُمْ آدمُ عَنْهَا، فخَضَعُوا لِعِلْمِهِ، وعَرَفُوا فَضْلَهُ وشَرَفَهُ.

ولَمَّا أَرَادَ اللهُ تَعَالَى إِظْهَارَ شَرَفِ يُوسُفَ فِي سَعَةِ العِلْمِ والتَّعْبيرِ، رَأَى المَلِكُ تِلْكَ الرُّؤْيَا، وعَرَضَهَا عَلَى كُلِّ مَنْ لَدَيْهِ عِلْمٌ ومَعْرِفَةٌ، فَعَجَزُوا عَنْ مَعْرِفَتِهَا، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ عَبَّرَهَا يُوسُفُ ذَلِكَ التَّعْبِيرَ العَجِيبَ، الَّذِي ظَهَرَ بِهِ مِنْ فَضْلِهِ وشَرَفِهِ وتَعْظِيمِ الخَلْقِ لَهُ شَيْءٌ لا يُمْكِنُ التَّعْبِيرُ عَنْهُ.

التعليق

رَأَى المَلِكُ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ، وسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وأُخَرَ يَابِسَاتٍ، ولَمْ يَذْكُرْ فِي السُّنْبُلَاتِ الأَكْلَ؛ لِأَنَّ السُّنْبُلَ لَا يَأْكُلُ بَعْضُهُ بَعْضًا، بخِلافِ البَقَرِ. فالَّذِينَ يَعْبُرُونَ الرُّؤْيَا قَالُوا: لَا نَعْرِفُ، وقَالُوا: هَذِهِ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ. وأَمَّا يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَعَبَّرَهَا تَعْبِيرًا عَجِيبًا، فقالَ لَهُمْ: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ كُلُّهَا رِيفٌ وخِصْبٌ وزَرْعٌ كامِلٌ ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ [يوسف:٤٧] وإِنَّمَا أَرْشَدَهُمْ إِلَى إِبْقَائِهِ فِي سُنْبُلِهِ؛ لِأَنَّ الحَبَّ إِذَا بَقِيَ فِي سُنْبُلِهِ لَا يُسَوِّسُ.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ [يوسف:٤٨] يعْنِي: تحفظُونهُ، وتُحرِزُونَهُ، وهذا يَدُلُّ عَلَى أنَّ الشَّيْءَ عِنْدَهُمْ شَحِيحٌ، يَتَواصَوْنَ بحِفْظِهِ وتَحْصِينِهِ. ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف:٤٩] فهذِهِ أَرْبعَةَ عشَرَ عامًا.

وإنَّما قَالَ: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾ لِأَنَّهُ فَهِمَ ذَلِكَ مِنَ الحَصْرِ، سَبْعٌ، وسَبْعٌ، والعَدَدُ المَحْصُورُ لَهُ مُنْتَهى، فصَارَ الأمْرُ كَما ذَكَرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

ولَمَّا عَارَضَ فِرْعَوْنُ الآياتِ الَّتِي أُرْسِلَ بِهَا مُوسَى، وزَعَمَ أَنَّهُ سَيأْتِي بسِحْرٍ يَغْلِبُهُ، فجَمَعَ كُلَّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ مِنْ جَمِيعِ أنْحاءِ المَمْلَكَةِ، واجْتَمَعَ النَّاسُ فِي يَوْمِ عِيدِهِمْ، وألْقَى السَّحَرَةُ عِصِيَّهُمْ وحِبالَهُمْ، فِي ذَلِكَ المَجْمَعِ العَظِيمِ، وأظْهَرُوا للنَّاسِ مِنْ عَجائِبِ السِّحْرِ فـ﴿سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف:١١٦] فحينئذٍ أَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ، فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ وتَبْتَلِعُ بمَرْأَى النَّاسِ جَمِيعَ حِبالِهِمْ وعِصِيِّهِمْ، فَظَهَرَتْ هَذِهِ الآيَةُ الكُبْرَى، وصارَ أَهْلُ الصَّنْعَةِ أوَّلَ مَنْ خَضَعَ لَهَا ظاهِرًا وباطِنًا.

ولَمَّا نَكَصَ أَهْلُ الأرْضِ عَنْ نُصْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ وتَمالأَ عَلَيْهِ جَمِيعُ أعْدائِهِ، ومَكَرُوا مَكْرَتَهُمُ الكُبْرَى للإيقاعِ بِهِ، نَصَرَهُ اللهُ ذَلِكَ النَّصْرَ العَجِيبَ، فإنَّ نَصْرَ المُنْفَرِدِ الَّذِي أَحاطَ بِهِ عَدُوُّهُ الشَّدِيدُ حَرْدُهُ، القَوِيُّ مَكْرُهُ، الَّذِي جَمَعَ كُلَّ كَيْدِهِ لِيُوقِعَ بِهِ أَشَدَّ الأَخَذاتِ، وأعْظَمَ النِّكاياتِ، وتَخَلُّصَهُ وانْفِراجَ الأمْرِ لَهُ -مِنْ أعْظَمِ أنْواعِ النَّصْرِ، كَما ذَكَرَ اللهُ هَذِهِ الحالَ الَّتِي عاتَبَ بِهَا أَهْلَ الأرْضِ، فَقَالَ: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ

فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ الآيَةَ [التوبة:٤٠].

وقَرِيبٌ مِنْ هَذَا نَصْرُهُ إِيَّاهُ يَوْمَ حُنَيْنٍ؛ حَيْثُ أَعْجَبَتِ النَّاسَ كَثْرَتُهُمْ، فَلَمْ تُغْنِ عَنْهُمْ شَيْئًا، وضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، ثُمَّ وَلَّوْا مُدْبِرِينَ، وثَبَتَ ﷺ فأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِ سَكِينَتَهُ ونَصَرَهُ فِي هَذِهِ الحالَةِ الحَرِجَةِ، فكانَ لهذَا النَّصْرِ مِنَ المَوْقِعِ الكَبِيرِ مَا لَا يُعَبَّرُ عنْهُ.

وكَذَلِكَ مَا ذَكَرَهُ اللهُ مِنَ الشَّدَائِدِ الَّتِي جَرَتْ عَلَى أَنْبِيَائِهِ وأَصْفِيَائِهِ، وأَنَّهُ إِذَا اشْتَدَّ البَأْسُ، وكادَ أَنْ يَسْتَوْلِيَ عَلَى النُّفُوسِ اليَأْسُ -أَنْزَلَ اللهُ فَرَجَهُ ونَصْرَهُ؛ لِيَصِيرَ لذلكَ مَوْقِعٌ فِي القُلُوبِ، ولِيَعْرِفَ العِبادُ أَلْطَافَ عَلَّامِ الغُيُوبِ.

ويُقارِبُ هَذَا المَعْنَى: إِنْزَالُهُ الغَيْثَ عَلَى العِبادِ، بَعْدَ أَنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يَنزِلَ عَلَيْهِ مِنْ قَبْلِهِ مُبْلِسِينَ، فيَحْصُلُ مِنْ آثَارِ رَحْمَةِ اللهِ، والاسْتِبْشَارِ بِفَضْلِهِ مَا يَمْلَأُ القُلُوبَ حَمْدًا وشُكْرًا وثَنَاءً عَلَى البارِي تَعالَى.

وكَذَلِكَ يُذَكِّرُهُمْ نِعَمَهُ بلَفْتِ أَنْظارِهِمْ إِلَى تَأَمُّلِ ضِدِّهَا؛ كَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ [الأنعام:٤٦] ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ الآياتِ [القصص:٧١].

وتَلْمَحُ عَلَى هَذَا المَعْنَى قِصَّةَ يَعْقُوبَ وبَنِيهِ حِينَ اشْتَدَّتْ بِهِمُ الأَزْمَةُ، ودَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ وقَالُوا: قَدْ ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ الآيَةَ [يوسف:٨٨] ثُمَّ بَعْدَ قَلِيلٍ قَالَ: ﴿ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [يوسف:٩٩] فِي تِلْكَ النِّعْمَةِ الوَاسِعَةِ، والعَيْشِ

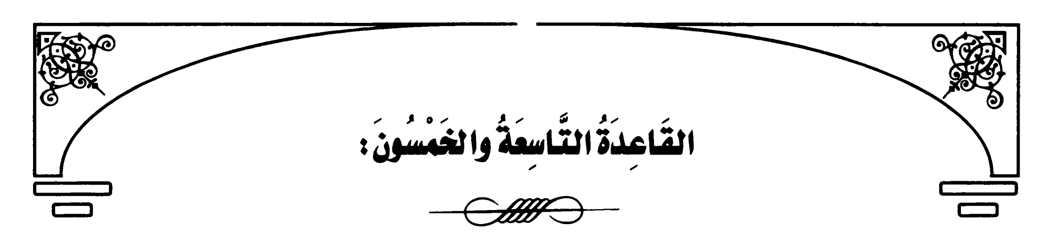
الرَّغِيدِ، والعِزِّ المَتِينِ، والجاهِ العَرِيضِ. فتبَارَكَ مَنْ لَا يُدْرِكُ العِبَادَ مِنْ أَلْطَافِهِ ودَقِيقِ بِرِّهِ أَقَلَّ القَلِيلِ!

ويُنَاسِبُ هَذَا مِنْ أَلْطَافِ البارِي: أَنَّ اللهَ يُذَكِّرُ عِبادَهُ فِي أَثْنَاءِ المَصائِبِ مَا يُقابِلُهَا مِنَ النِّعَمِ؛ لِئَلَّا تَسْتَرْسِلَ النُّفُوسُ للجَزَعِ، فإِنَّهَا إِذَا قَابَلَتْ بَيْنَ المَصائِبِ والنِّعَمِ خَفَّتْ عَلَيْهَا المَصائِبُ، وهانَ عَلَيْهَا حَمْلُهَا، كَمَا ذَكَّرَ اللهُ المُؤْمِنِينَ حِينَ أُصِيبُوا بأُحُدٍ مَا أَصَابُوا مِنَ المُشْرِكِينَ ببَدْرٍ، فقالَ: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا﴾ [آل عمران:١٦٥] وأَدْخَلَ هَذِهِ الآيَةَ فِي أَثْنَاءِ قِصَّةِ أُحُدٍ ﴿وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [آل عمران:١٢٣] ويُبَشِّرُ عَبْدَهُ بالمَخْرَجِ مِنْهَا حِينَ تُباشِرُهُ المَصائِبُ؛ لِيَكُونَ هَذَا الرَّجاءُ مُخَفِّفًا لِمَا نَزَلَ مِنَ البَلَاءِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [يوسف:١٥].

وكَذَلِكَ رُؤْيَا يُوسُفَ إِذَا ذَكَرَهَا يَعْقُوبُ رَجا الفَرَجَ، وَهَبَّ عَلَى قَلْبِهِ نَسِيمُ الرَّجَاءِ؛ ولِهَذَا قَالَ: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ﴾ [يوسف:٨٧].

وكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى لأُمِّ مُوسَى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [القصص:٧].

وأَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ أَنَّ وَعْدَ اللهِ لِرُسُلِهِ بالنَّصْرِ، وتَمَامِ الأَمْرِ؛ هَوَّنَ عَلَيْهِمُ المَشَقَّاتِ، وسَهَّلَ عَلَيْهِمُ الكَرِيهاتِ، فتَلَقَّوْهَا بقُلُوبٍ مُطْمَئِنَّةٍ، وصُدُورٍ مُنْشَرِحَةٍ، وأَلْطَافُ البارِي فَوْقَ مَا يَخْطِرُ بالبالِ، أَوْ يَدُورُ فِي الخَيالِ.



القَاعِدَةُ التَّاسِعَةُ والخمْسُونَ:

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء:٩]

مَا أَعْظَمَ هَذِهِ القَاعِدَةَ والأصْلَ العَظِيمَ الَّذِي نَصَّ اللهُ عَلَيْهِ نَصًّا صَرِيحًا، وعَمَّمَ ذَلِكَ وَلَمْ يُقَيِّدْهُ بحالَةٍ مِنَ الأحْوَالِ! فكُلُّ حالٍ هِيَ أَقْوَمُ فِي العَقائِدِ، والأخْلَاقِ، والأعْمالِ، والسِّياسَاتِ الكِبَارِ، والصِّغَارِ، والصِّناعاتِ والأعْمالِ الدِّينِيَّةِ والدُّنْيَوِيَّةِ -فإِنَّ القُرْآنَ يَهْدِي إليْهَا، ويُرْشِدُ إليْهَا، ويَأْمُرُ بِهَا، ويَحُثُّ عَلَيْهَا. ومعْنَى: ﴿أَقْوَمُ﴾ أيْ: أَكْمَلُ، وأصْلَحُ، وأعْظَمُ قِيامًا وَصَلَاحًا.

فأَمَّا العَقائِدُ: فإِنَّ عَقائِدَ القُرْآنِ هِيَ العَقائِدُ النَّافِعَةُ الَّتِي فِيهَا صَلاحُ القُلُوبِ وغِذَاؤُهَا وكَمالُهَا؛ فإنَّهَا تَمْلَأُ القُلُوبَ مَحَبَّةً للهِ، وتَعْظِيمًا لهُ، وأُلُوهِيَّةً وإِنَابَةً. وهَذَا المَعْنَى هُوَ الَّذِي أوْجَدَ اللهُ الخَلْقَ لِأَجْلِهِ.

وأَمَّا أخْلاقُهُ الَّتِي يَدْعُو إليْهَا: فَإِنَّهُ يَدْعُو إِلَى التَّحَلِّي بكُلِّ خُلُقٍ جَمِيلٍ؛ مِنَ الصَّبْرِ، والحِلْمِ، والعَفْوِ، وحُسْنِ الخُلُقِ، والأَدَبِ، وجَمِيعِ مَكارِمِ الأخْلَاقِ، ويَحُثُّ عَلَيْهَا بكُلِّ طَرِيقٍ، ويُرْشِدُ إِلَيْهَا بكُلِّ وَسِيلَةٍ.

وأَمَّا الأعْمالُ الدِّينِيَّةُ الَّتِي يَهْدِي إليْهَا: فَهِيَ أحْسَنُ الأعْمالِ الَّتِي فِيهَا القِيامُ بحُقُوقِ اللهِ، وحُقُوقِ العِبَادِ عَلَى أكْمَلِ الحالاتِ، وأَجَلِّهَا، وأَسْهَلِهَا، وأَوْصَلِهَا إِلَى المَقاصِدِ.

وأمَّا السِّياساتُ الدِّينيَّةُ والدُّنْيَويَّةُ: فهُوَ يُرْشِدُ إِلَى سُلُوكِ الطُّرُقِ النَّافِعَةِ فِي تَحْصِيلِ المَصالِحِ الكُلِّيَّةِ، وفِي دَفْعِ المَفاسِدِ، ويَأْمُرُ بالتَّشاوُرِ عَلَى مَا لَمْ تَتَّضِحْ مَصْلَحَتُهُ، والعَمَلِ بِمَا تَقْتَضِيهِ المَصْلَحَةِ فِي كُلِّ وقْتٍ بِمَا يُناسِبُ ذَلِكَ الوَقْتَ والحالَ، حَتَّى فِي سِياسَةِ العَبْدِ مَعَ أَوْلادِهِ، وأَهْلِهِ، وَخَادِمِهِ، وأَصْحَابِهِ، ومُعامِلِيهِ؛ فَلَا يُمْكِنُ أَنَّهُ وُجِدَ ويُوجَدُ حَالَةٌ يَتَّفِقُ العُقَلَاءُ أَنَّهَا أَقْوَمُ مِنْ غَيْرِهَا وأَصْلَحُ إِلَّا والقُرْآنُ يُرْشِدُ إِلَيْهَا نَصًّا، أَوْ ظاهِرًا، أَوْ دُخُولًا تَحْتَ قَاعِدَةٍ مِنْ قَوَاعِدِهِ الكُلِّيَّةِ، وتَفْصِيلُ هَذِهِ القَاعِدَةِ لَا يُمْكِنُ اسْتِيفَاؤُهُ.

وبالجُمْلَةِ: فالتَّفَاصِيلُ الوَارِدَةُ فِي القُرْآنِ وفِي السُّنَّةِ مِنَ الأَوَامِرِ النَّوَاهِي والإِخْباراتِ كُلُّهَا تَفْصِيلٌ لهذَا الأَصْلِ المُحِيطِ، وبِهَذَا وغَيْرِهِ يَتبيَّنُ لكَ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَرِدَ عِلْمٌ صَحِيحٌ، أَوْ معْنًى نافِعٌ، أَوْ طَرِيقُ صَلاحٍ يُنافِي القُرْآنَ، واللهُ تَعالَى وَلِيُّ الإِحْسَانِ.

التعليق

بهذِهِ القَاعِدَةِ ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ يَتبيَّنُ لَنا أَنَّ جَمِيعَ القَوَانِينِ المُعارِضَةِ للقُرْآنِ كُلَّهَا لَا خَيْرَ فِيهَا، وأَنَّهُ إِنْ قُدِّرَ فِيهَا خَيْرٌ فَمَا فِي القُرْآنِ خَيْرٌ، وأَشَدُّ، وأَثْبَتُ ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان:٣٣] ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء:٦٦-٦٨].

والحاصِلُ: أنَّ كُلَّ مَا كَانَ أَقْوَمَ فِي العقائِدِ، والأَعْمالِ، والأَقْوالِ، والأَخْلَاقِ،

والسِّياساتِ، والمُعاملاتِ، والمَتْرُوكاتِ، والمَنْهِيَّاتِ -فإنَّ القُرْآنَ يَهْدِي إِلَيْهِ.

ونَأْخُذُ مِنْ هَذَا قَوَاعِدَ عَظِيمَةً:

مِنْهَا: إِذَا تَعارَضَتْ مَصْلَحَتَانِ إِحْدَاهُمَا أَنْفَعُ، أَخَذْنَا بالأَنْفَعِ.

ومِنْهَا: إِذَا تَعارَضَتْ مَفْسَدَتَانِ إِحْدَاهُمَا أَشَدُّ، أَخَذْنَا بالأَخَفِّ. وعَلَى هَذَا فَقِسْ.

فكُلُّ ما كَانَ أَقْوَمَ كَانَ القُرْآنُ يَهْدِي إِلَيْهِ، والعَكْسُ بالعَكْسِ، فكُلُّ ما كَانَ أَعْوَجَ وأَرْدَأَ وأَسْوَأَ فإِنَّ القُرْآنَ لَا يَهْدِي إِلَيْهِ، بَلْ يَهْدِي إِلَى ضِدِّهِ وعَكْسِهِ.





القَاعِدَةُ السِّتُّونَ:

مِنْ قَوَاعِدِ التَّعْلِيمِ الَّذِي أَرْشَدَ اللهُ إِلَيْهِ فِي كِتَابِهِ أَنَّ القَصَصَ المَبْسُوطَةَ يُجْمِلُهَا فِي كَلِمَاتٍ يَسِيرَةٍ ثُمَّ يَبْسُطُهَا والأُمُورَ المُهِمَّةَ يَتَنَقَّلُ فِي تَقْرِيرِهَا نَفْيًا وإِثْبَاتًا مِنْ دَرَجَةٍ إِلَى أَعْلَى أَوْ أَنْزَلَ مِنْهَا

وهذِهِ قَاعِدَةٌ نافِعَةٌ، فإِنَّ هَذَا الأُسْلُوبَ العَجِيبَ يَصِيرُ لَهُ مَوْقِعٌ كَبِيرٌ، وتُقَرَّرُ فِيهِ المَطالِبُ المُهِمَّةُ؛ وذلكَ أَنَّهُ إِذَا أُجْمِلَتِ القِصَّةُ بكلامٍ كالأَصْلِ والقَاعِدَةِ لهَا، ثُمَّ وَقَعَ التَّفْصِيلُ بَعْدَ ذَلِكَ الإِجْمالِ، وقَعَ إيضاحٌ وَبيانٌ تَامٌّ كَامِلٌ، لَا يَقَعُ مَا يُقارِبُهُ لَوْ فُصِّلَتِ القِصَّةُ الطَّوِيلَةُ مِنْ دُونِ تَقَدُّمِ إِجْمَالٍ، وقَدْ وَقَعَ هَذَا النَّوْعُ فِي القُرْآنِ فِي مَوَاضِعَ:

مِنْهَا: فِي قِصَّةِ يُوسُفَ فِي قَوْلِهِ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف:٣] ثُمَّ قَالَ: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [يوسف:٧] ثُمَّ ساقَ القِصَّةَ بَعْدَهَا.

وكَذَلِكَ فِي قِصَّةِ أَهْلِ الكَهْفِ لَمَّا قَالَ: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝١١ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا﴾ [الكهف:٩-١٢] فَهَذَا إِجْمَالُهَا قَدْ حَوَى مَقْصُودَهَا وزُبْدَتَها، ثُمَّ وَقَعَ بَعْدَهُ التَّفْصِيلُ بقَوْلِهِ: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الكهف:١٣] إِلَى آخِرِ القِصَّةِ.

وكَذَلِكَ فِي قِصَّةِ مُوسَى، لَمَّا قَالَ تَعَالَى: ﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿يَحْذَرُونَ﴾ [القصص:٣-٦] هَذَا مُجْمَلُهَا، ثُمَّ وَقَعَ التَّفْصِيلُ.

وقالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه:١١٥] فأَجْمَلَهَا، ثُمَّ وَقَعَ بَعْدَهُ التَّفْصِيلُ.

وأمَّا التَّنَقُّلُ فِي تَقْرِيرِ الأَشْيَاءِ مِنْ أَمْرٍ إِلَى مَا هُوَ أَوْلَى مِنْهُ، فكَثِيرٌ:

مِنْهَا: لَمَّا أَنْكَرَ عَلَى مَنِ اتَّخَذَ مَعَ اللهِ إِلهًا آخَرَ، وزَعَمَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى اتَّخَذَ وَلَدًا، قَالَ فِي إِبْطَالِ هذَا: ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْ﴾ [الكهف:٥] فأبانَ أَنَّ قَوْلَهُمْ هَذَا قَوْلٌ بِلَا عِلْمٍ. ومِنَ المَعْلُومِ أَنَّ القَوْلَ بِلَا عِلْمٍ مِنَ الطُّرُقِ الباطِلَةِ، ثُمَّ ذَكَرَ قُبْحَهُ، فقالَ: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ [الكهف:٥] ثُمَّ ذَكَرَ مَرْتَبَةَ هَذَا القَوْلِ مِنَ البُطْلَانِ، فقالَ: ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف:٥].

وقالَ فِي حَقِّ المُنْكِرِينَ للبَعْثِ: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ﴾ [النمل:٦٦] أيْ: عِلْمُهُمْ فِيهَا عِلْمٌ ضَعِيفٌ لَا يُعْتَمَدُ عليْهِ، ثُمَّ ذَكَرَ مَا هُوَ أَبْلَغُ منْهُ، فقالَ: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ﴾ ومِنَ المَعْلُومِ أَنَّ الشَّكَّ لَيْسَ مَعَهُ مِنَ العِلْمِ شيءٌ، ثُمَّ انْتَقَلَ مِنْهُ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل:٦٦] والعَمَى آخِرُ مَرَاتِبِ الحَيْرَةِ والضَّلالِ.

وقالَ نُوحٌ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فِي تَقْرِيرِ رِسالَتِهِ عِنْدَ مَنْ كَذَّبَهُ وزَعَمَ أَنَّهُ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ﴾ [الأعراف:٦١] فلَمَّا نَفَى الضَّلالَةَ مِنْ كُلِّ وجْهٍ أَثْبَتَ بَعْدَهُ الهُدَى الكامِلَ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، فقالَ: ﴿وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:٦١].

ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَى مَا هُوَ أعلَى مِنْ ذلكَ، وأَنَّ مَادَّةَ هَذَا الهُدَى الَّذِي جِئْتُ بِهِ مِنَ الوَحْيِ الَّذِي هُوَ أَصْلُ الهُدَى، ومَنبعُهُ، ومَادَّتُهُ، فقالَ: ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف:٦٢] وكَذَلِكَ هُودٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وقالَ فِي تَقْرِيرِ رِسالَةِ أَكْمَلِ الرُّسُلِ: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾ [النجم:١-٢] فنَفَى عَنْهُ مَا يُنافِي الهُدَى مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، ثُمَّ قَالَ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ إِلَى آخِرِ الآياتِ [النجم:٤].

وَهُوَ فِي القُرْآنِ كَثِيرٌ جِدًّا، كانْتِقَالِهِ مِنْ ذِكْرِ هِبَتِهِ الوَلَدِ لزَكَرِيَّا إِلَى مَرْيَمَ، وأَمْرِ القِبْلَةِ بَعْدَ تَعْظِيمِهِ للبيْتِ، وغَيْرِهَا.

التعليق

هذِهِ القَاعِدَةُ تَضَمَّنَتْ أَمْرَيْنِ:

الإِجْمالَ، ثُمَّ التَّفْصِيلَ. وهَذَا مِنْ طُرُقِ البَلاغَةِ؛ لِأَنَّ الإِجْمَالَ أَقْرَبُ إِلَى الحِفْظِ وأَوْعَى للذِّهْنِ. ثُمَّ إِنَّ الإِجْمالَ إِذَا وَقعَ بَقِيَتِ النَّفْسُ مُتَشَوِّفَةً إِلَى التَّفْصِيلِ، فيَرِدُ عَلَيْهَا التَّفْصِيلُ وَهِيَ أَحْوَجُ مَا تَكُونُ إِلَى مَعْرِفَتِهِ.

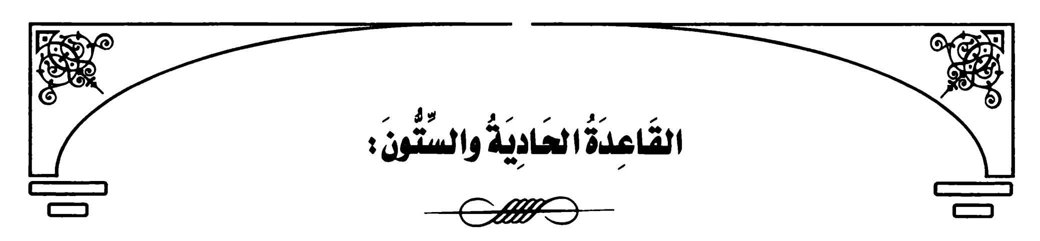
وإِذَا وَرَدَ العِلْمُ عَلَى القَلْبِ، وَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى مَعْرِفَتِهِ، مُشْتَاقٌ إِلَيْهِ -رَسَخَ فِيهِ أَكْثَرَ، وثَبَتَ فِيهِ وَتَمَكَّنَ. هَذَا مِنْ فَوَائِدِ التَّفْصِيلِ بَعْدَ الإِجْمالِ، وإِلَّا فَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: لِمَاذَا لا يُذْكَرُ الشَّيْءُ مُفَصَّلًا مِنْ أَوَّلِ الأَمْرِ؟ نقولُ: لَوْ فَعَلْنَا ذَلِكَ لَفَاتَنَا هذانِ الأَمْرَانِ، وهُمَا: أَنَّ التَّفْصِيلَ بَعْدَ الإِجْمالِ أَثْبَتُ فِي القَلْبِ؛ لِأَنَّهُ يَرِدُ عَلَى القَلْبِ وَهُوَ مُتَشَوِّفٌ لهُ، ولأَنَّ الاخْتِصَارَ والإِجْمَالَ أَوْعَى للذِّهْنِ، وأَقْرَبُ للحِفْظِ.

وأمَّا الانْتِقَالُ مِنْ حَالٍ إِلَى أُخْرَى، فهَذَا أيضًا ظاهِرٌ؛ لِئَلَّا تَرِدَ المَعَانِي عَلَى القُلُوبِ دَفْعَةً واحِدَةً، وإِنَّمَا تَرِدُ عَلَيْهَا مُتَنَقِّلَةً مَرْحَلَةً مَرْحَلَةً. ومِنْ هَذَا أيضًا الأحْكَامُ؛ لِأَنَّ الأشْيَاءَ الَّتِي لَا يَسْتَطِيعُ النَّاسُ أنْ يَأْتُوهَا دَفْعَةً وَاحِدَةً، يَجْعَلُهَا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُرَتَّبَةً شَيْئًا فَشَيْئًا.

فمِنَ المَأْمُورَاتِ: الصَّلاةُ، والصِّيَامُ، والزَّكَاةُ، كُلُّهَا لَهَا مَراتِبُ؛ ففِي الصَّلاةِ: كَانَ فِي الأوَّلِ يُصَلُّونَهَا بُكْرَةً وعَشِيًّا، ثُمَّ صَارَتْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ. وفِي الزَّكَاةِ: كَانُوا يُؤْمَرُونَ بأنْ يُؤْتُوا المالَ حَقَّهُ ﴿وَءَاتُوا حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٤١] بدُونِ تَقْدِيرٍ، ثُمَّ قُدِّرَتْ. وفِي الصِّيَامِ: كَانَ بالأوَّلِ مَنْ شَاءَ صَامَ ومَنْ شَاءَ افْتَدَى، ثُمَّ تَعَيَّنَ الصِّيَامُ.

وفِي المَنْهِيَّاتِ نَجِدُ أنَّ اللهَ جَلَّ وَعَلَا فِي الأُمُورِ الَّتِي يَصْعُبُ الامْتِنَاعُ عَنْهَا مَرَّةً واحِدَةً يَجْعَلُهَا مُرَتَّبَةً، مِثْلُ الخَمْرِ والمَيْسِرِ، فإِنَّ النَّاسَ كَانُوا قَدْ عَاشُوا عَلَيْهِمَا، فيَصْعُبُ أَوْ يَشُقُّ عَلَيْهِمْ أنْ يَدَعُوهَا مَرَّةً واحِدَةً، فجَعَلَ الأمْرَ مُرَتَّبًا، يَنْتَقِلُونَ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ؛ لِيَسْهُلَ عَلَيْهِمُ التَّنْفِيذُ والفِعْلُ، أَوِ التَّرْكُ.





القَاعِدَةُ الحَادِيَةُ والسِّتُّون:

مَعْرِفَةُ الأَوْقَاتِ وَضَبْطُهَا حَثَّ اللهُ عَلَيْهِ حَيْثُ يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ حُكْمٌ عَامٌّ أَوْ حُكْمٌ خَاصٌّ

وذلكَ أنَّ اللهَ رَتَّبَ كَثِيرًا مِنَ الأَحْكَامِ العامَّةِ والخاصَّةِ عَلَى مُدَدٍ وأَزْمِنَةٍ تَتَوَقَّفُ الأَحْكَامُ عَمَلًا وتَنْفِيذًا عَلَى ضَبْطِ تِلْكَ المُدَّةِ وإِحْصائِهَا، قَالَ تَعالَى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة:١٨٩] وقَوْلُهُ: ﴿مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ يَدْخُلُ فِيهِ مَوَاقِيتُ الصَّلَوَاتِ، والصِّيامِ، والزَّكَاةِ، وخَصَّ الحَجَّ بالذِّكْرِ؛ لِكَثْرَةِ مَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنَ الأَوْقَاتِ الخَاصَّةِ والعامَّةِ، وكَذَلِكَ مَوَاقِيتُ للعِدَدِ، والدُّيُونِ، والإِجاراتِ وغَيْرِهَا.

وقَالَ تَعالَى لَمَّا ذَكَرَ العِدَّةَ: ﴿وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ [الطلاق:١] وقَوْلُهُ فِي الصِّيَامِ: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة:١٨٥] وقالَ تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء:١٠٣] وقالَ تَعالَى: ﴿بَعَثْنَـٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا﴾ [الكهف:١٢] وذلكَ لِمَعْرِفَةِ قُدْرَةِ اللهِ فِي إِفاقَتِهِمْ، فلَوِ اسْتَمَرُّوا عَلَى نَوْمِهِمْ لَمْ يَحْصُلِ الاطِّلاعُ عَلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ مِنْ قِصَّتِهِمْ. فَمَتَى تَرَتَّبَ عَلَى ضَبْطِ الحِسَابِ، وإِحْصاءِ المُدَّةِ، مَصْلَحَةٌ فِي الدِّينِ أَوْ فِي الدُّنْيَا -كَانَ مِمَّا حَثَّ وأَرْشَدَ إِلَيْهِ القُرْآنُ.

ويُقارِبُ هَذَا قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾

إِلَى آخِرِ الآياتِ [البقرة:٢٥٩] وقَوْلُهُ: ﴿وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَ﴾ [يونس:٥] ونَحْوُهَا مِنَ الآياتِ.

التعليق

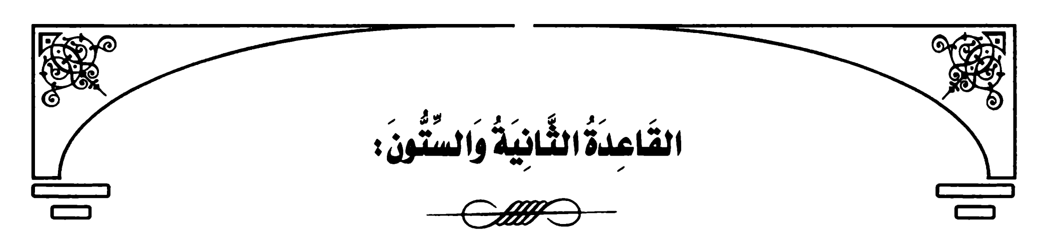
في ضَبْطِ الأُمُورِ والأوْقَاتِ مَصْلَحَةٌ عَظِيمَةٌ أيضًا، سِوَى مَا ذَكَرَهُ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وَهِيَ أنَّ الإنْسَانَ لَا يَنْفَرِطُ عَلَيْهِ وَقْتُهُ؛ لِأَنَّ الإنْسَانَ إِذَا أَطْلَقَ نَفْسَهُ وأهْمَلَهَا انْفَرَطَ عَلَيْهِ الوَقْتُ. لكنْ إِذَا رَتَّبَ وَقْتَهُ، حَفِظَ وَقْتَهُ وَضَبطَهُ، ولَمْ يَضِعْ عَلَيْهِ مِنْهُ شَيْءٌ.

فمثلًا: لَوْ قَالَ: إِذَا صَلَّيْتُ الفَجْرَ رَتَّبْتُ نَفْسِي، فَفَعَلْتُ كذَا وكذَا، وبَعْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ أَفْعَلُ كذَا وكذَا، وفِي اليَوْمِ الفُلانِيِّ: أَفْعَلُ كذَا وكذَا؛ ولهَذَا قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أَحَبُّ العَمَلِ إِلَى اللهِ أَدْوَمُهُ وَإِنْ قَلَّ**»[1] حَتَّى لَا يَصِيرَ الإنْسَانُ مُنْفَرِطًا فِي شُغْلِهِ، فَيَضِيعَ عَلَيْهِ الوَقْتُ.

وقَدْ بَيَّنَ اللهُ تَعَالَى فِي القُرْآنِ إِضاعَةَ الوَقْتِ مِنْ حَالِ مَنْ أَغْفَلَ اللهُ ذِكْرَهُ عَنْ قَلْبِهِ: ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ [الكهف:٢٨] فالَّذِي يَنْبَغِي لكَ أَيُّهَا الإنْسَانُ أنْ تَضْبِطَ وَقْتَكَ. وَكُلُّ وَقْتٍ لَهُ عَمَلٌ مُعَيَّنٌ، حَتَّى لَا تَتَدَاخَلَ الأعْمَالُ، ولَا يَضِيعَ عَلَيْكَ الوَقْتُ بِلَا فائِدَةٍ. وذَكَرَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَمْثِلَةً مِنْ هَذَا تَدُلُّ عَلَى ضَبطِ الوَقْتِ، وعَلَى حِفْظِهِ وحِمَايَتِهِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل، رقم (٦٤٦٤)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره، (٧٨٢)، من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.



القَاعِدَةُ الثَّانِيَةُ وَالسِّتُّونَ:

الصَّبْرُ أَكْبَرُ عَوْنٍ عَلَى كُلِّ الأُمُورِ والإِحَاطَةُ بالشَّيْءِ عِلْمًا وَخَبَرًا هُوَ الَّذِي يُعِينُ عَلَى الصَّبْرِ

وهذِهِ القَاعِدَةُ عَظِيمَةُ النَّفْعِ، قَدْ دلَّ القُرْآنُ عَلَيْهَا صَرِيحًا وظاهِرًا فِي أَمَاكِنَ كَثِيرَةٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة:٤٥] أي: اسْتَعِينُوا عَلَى جَمِيعِ المَطالِبِ، وفِي جَمِيعِ شُؤُونِكُمْ بالصَّبْرِ؛ فإِنَّ الصَّبْرَ يُسَهِّلُ عَلَى العَبْدِ القِيَامَ بوَظِيفَةِ الطَّاعاتِ، وأداءِ حُقُوقِ اللهِ، وحُقُوقِ عِبادِهِ، وبالصَّبْرِ يَسْهُلُ عَلَيْهِ تَرْكُ مَا تَهْوَاهُ نَفْسُهُ مِنَ المُحَرَّماتِ، فيَنْهَاهَا عَنْ هَوَاهَا حَذَرَ شَقَاهَا، وطَلَبًا لِرِضَى مَوْلَاهَا، وبالصَّبْرِ تَخِفُّ عَلَيْهِ الكَرِيهاتِ، ولكنْ هَذَا الصَّبْرُ وَسِيلَتُهُ وَآلَتُهُ الَّتِي يَنْبَنِي عَلَيْهَا ولَا يُمْكِنُ وُجُودُهُ بدُونِهَا هُوَ مَعْرِفَةُ الشَّيْءِ المَصْبُورِ عَلَيْهِ، ومَا فِيهِ مِنَ الفَضَائِلِ، ومَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنَ الثَّمَراتِ.

فمَتَى عَرَفَ العَبْدُ مَا فِي الطَّاعَاتِ مِنْ صَلاحِ القُلُوبِ، وزِيَادَةِ الإِيمانِ، واسْتِكْمالِ الفَضَائِلِ، ومَا تُثْمِرُهُ مِنَ الخَيْرَاتِ والكَرَاماتِ، ومَا فِي المُحَرَّماتِ مِنَ الضَّرَرِ والرَّذَائِلِ، ومَا تُوجِبُهُ مِنَ العُقُوباتِ المُتَنَوِّعَةِ، وعَلِمَ مَا فِي أَقْدَارِ اللهِ مِنَ البَرَكَةِ، ومَا لِمَنْ قَامَ بوَظِيفَتِهِ فِيهَا مِنَ الأُجُورِ -هانَ عَلَيْهِ الصَّبْرُ عَلَى جَمِيعِ ذلكَ.

وبهذَا يُعْلَمُ فَضْلُ العِلْمِ، وأَنَّهُ أَصْلُ العَمَلِ والفَضَائِلِ كُلِّهَا؛ ولهَذَا كَثِيرًا يَذْكُرُ فِي كِتَابِهِ أنَّ المُنْحَرِفِينَ فِي الأَبْوَابِ الثَّلاثَةِ إِنَّمَا ذَلِكَ لِقُصُورِ عِلْمِهِمْ وعَدَمِ إِحاطَتِهِمْ

التَّامَّةِ بِهَا، وقالَ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨] وقالَ: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ [النساء:١٧] لَيْسَ مَعْنَاهُ أَنَّهُمْ لا يَعْتَرِفُونَ أَنَّهَا ذُنُوبٌ وسُوءٌ، إِنَّمَا قَصرَ عِلْمَهُمْ وخِبْرَتَهُمْ بِمَا تُوجِبُهُ الذُّنُوبُ مِنَ العُقُوباتِ، وأَنْواعِ المَضَرَّاتِ، وَزَوَالِ المَنَافِعِ.

وقالَ تَعَالَى مُبَيِّنًا أَنَّهُ مُتَقَرِّرٌ أَنَّ الَّذِي لا يَعْرِفُ مَا يَحْتَوِي عَلَيْهِ الشَّيْءُ يَتَعَذَّرُ عَلَيْهِ الصَّبْرُ، فَقَالَ عَنِ الخَضِرِ لَمَّا قَالَ لَهُ مُوسَى، وَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَتَّبِعَهُ لِيَتَعَلَّمَ مِمَّا عَلَّمَهُ اللهُ: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ [الكهف:٦٧-٦٨] فعَدَمُ إِحاطَتِهِ بِهِ خُبْرًا يَمْتَنِعُ مَعَهُ الصَّبْرُ، ولَوْ تَجَلَّدَ مَا تَجَلَّدَ، فَلا بُدَّ وأَنْ يُعالَ صَبْرُهُ.

وقالَ تَعَالَى مُبَيِّنًا عَظَمَةَ القُرْآنِ، ومَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الجَلالَةِ والصِّدْقِ الكامِلِ: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ [يونس:٣٩] فأبانَ أَنَّ الأَعْداءَ المُكَذِّبِينَ بِهِ إِنَّمَا تَكْذِيبُهُمْ بِهِ؛ لِعَدَمِ إِحاطَتِهِمْ بِمَا هُوَ عَلَيْهِ، وأَنَّهُمْ لَوْ أَدْرَكُوهُ كَمَا هُوَ لأَلْجَأَهُمْ واضْطَرَّهُمْ إِلَى التَّصْدِيقِ والإِذْعَانِ، فَهُمْ وإِنْ كانَتِ الحُجَّةُ قَدْ قَامَتْ عَلَيْهِمْ ولَكِنَّهُمْ لَمْ يَفْقَهُوهُ الفِقْهَ الَّذِي يُطابِقُ مَعْنَاهُ، ولَمْ يَعْرِفُوهُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ.

وقالَ فِي حَقِّ المُعانِدِينَ الَّذِينَ بانَ لَهُمْ عِلْمُهُ، وخَبَرُوا صِدْقَهُ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:١٤] وقالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام:٣٣].

والمَقْصُودُ أَنَّ اللهَ أَرْشَدَ العِبادَ إِلَى الاسْتِعَانَةِ عَلَى أُمُورِهِمْ بِمُلازَمَةِ الصَّبْرِ، وأَرْشَدَهُمْ إِلَى تَحْصِيلِ الصَّبْرِ بالنَّظَرِ إِلَى الأُمُورِ، ومَعْرِفَةِ حَقائِقِهَا، ومَا فِيهَا مِنَ الفَضَائِلِ أَوِ الرَّذَائِلِ. واللهُ أَعْلَمُ.

التعليق

هذِهِ القَاعِدَةُ تَشْتَمِلُ عَلَى أُمُور:

الأَمْرُ الأَوَّلُ: أنَّ الصَّبْرَ أَكْبَرُ عَوْنٍ عَلَى الأُمورِ، فإنَّ الإِنْسَانَ إِذَا صَبَرَ عَلَى الشَّيْءِ كَانَ ذَلِكَ عَوْنًا لَهُ عَلَى إِدْرَاكِهِ. ويُذْكَرُ أنَّ الكِسَائِيَّ، وَهُوَ إِمامُ الكُوفِيِّينَ فِي النَّحْوِ، صارَ يَتَعَلَّمُ النَّحْوَ، فَعَجَزَ عنهُ. وفِي يَوْمٍ مِنَ الأَيَّامِ رَأَى نَمْلَةً تَحْمِلُ قِطْعَةً مِنْ تَمْرَةٍ لِتَصْعَدَ بِهَا الجِدَارَ، فكُلَّمَا صَعِدَتْ بهذِهِ التَّمْرَةِ ثَقُلَتْ عَلَيْهَا، ثُمَّ سَقَطَتْ وإيَّاهَا إِلَى الأَرْضِ! وهكَذَا عِدَّةَ مَرَّاتٍ، حَتَّى صَعِدَتْ بِهَا، فَقَالَ: هَذِهِ النَّمْلَةُ صَابَرَتْ هَذَا الصَّبْرَ، حَتَّى حَصَلَ لَهَا مَقْصُودُهَا، فِي غِذَاءٍ جِسْمِيٍّ، فلماذَا لَا أَصْبِرُ حَتَّى أَنَالَ مَقْصُودِي فِي تَعَلُّمِ النَّحْوِ؟! فَصارَ يَتَعَلَّمُ، حَتَّى صَارَ إِمَامًا فِي النَّحْوِ.

وهكَذَا يَنْبَغِي لطالِبِ العِلْمِ أنْ يَصْبِرَ عَلَى طَلَبِ العِلْمِ، وأنْ لَا يَيْأَسَ ويَقُولَ: هَذَا صَعْبٌ عَلَيَّ! قَدْ يَصْعُبُ عَلَيْكَ لأَوَّلِ مَرَّةٍ، ثُمَّ يَسْهُلُ عَلَيْكَ، وتَصِيرُ تَقْرَأُ الشَّيْءَ وكأَنَّهُ مَشْرُوحٌ لكَ مِنْ قَبْلُ.

والصَّبْرُ يَحْتَاجُ إِلَى مَا يُعِينُكَ عليهِ، وَهُوَ مَعْرِفَةُ مَا للمَصْبُورِ عَلَيْهِ، أَوْ للمَصْبُورِ عَنْهُ مِنَ النَّتَائِجِ، فإنْ كَانَ شَيْئًا مَطْلُوبًا حُصُولُهُ، فَاعْلَمْ مَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ والمَنَافِعِ، والمَصالِحِ، وإنْ كَانَ مَطْلُوبًا تَرْكُهُ فاعْلَمْ مَا يَتَرَتَّبُ عَلَى فِعْلِهِ مِنَ الشُّرُورِ والسَّيِّئَاتِ، فهَذَا يُعِينُكَ عَلَى الصَّبْرِ.

والأَمْرُ الثَّانِي: مِمَّا يُعِينُكَ عَلَى الصَّبْرِ فِي إِدْرَاكِ المَطْلُوباتِ أنْ تَقُولَ لِنَفْسِكَ: أَنْتِ الآنَ قَطَعْتِ شَوْطًا بَعِيدًا للوُصُولِ إِلَى الغايَةِ، ورُجُوعُكِ مِنْ أَثْنَاءِ الطَّرِيقِ مَعْنَاهُ إِضاعَةُ الوَقْتِ، وخَسارَةُ مَا اكْتَسَبْتِ. بَعْضُ النَّاسِ -مَثَلًا- يَحْفَظُ أَلْفِيَّةَ ابْنِ مَالِكٍ،

فَإِذَا انْتَصَفَ بِهَا، قَالَ: هَذِهِ صَعْبَةٌ! وبَقِيَ عَلَيَّ نِصْفُهَا، ثُمَّ تَرَكَهَا. فماذَا حَصَلَ؟ ضَيَّعَ عَلَى نَفْسِهِ الفُرْصَةَ، وهَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ سَفَهٌ.

فمِمَّا يُعِينُ عَلَى الصَّبْرِ مَعْرِفَةُ المَصْبُورِ عَلَيْهِ، ومَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنَ النَّتَائِجِ والعَوَاقِبِ. والثَّانِي: أَنَّهُ إِذَا تَخَلَّى عَنِ الصَّبْرِ أَضَاعَ عَلَى نَفْسِهِ شَيْئًا كَثِيرًا اكْتَسَبَهُ.

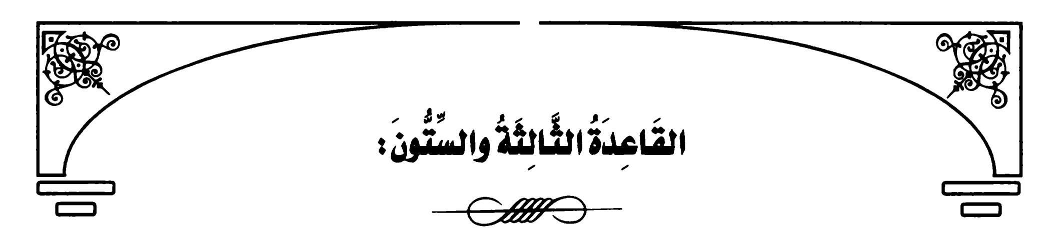
أَمَّا الأَمْرُ الثالِثُ: مِمَّا يُعِينُ عَلَى الصَّبْرِ أَنْ يَرْجُوَ الإِنْسَانُ بصَبْرِهِ ثَوَابَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فإِنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال:٤٦] ويَقُولُ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠] فَإِذَا عَرَفَ مَا فِي الصَّبْرِ -بِغَضِّ النَّظَرِ عَنِ المَصْبُورِ عَلَيْهِ- مِنَ الثَّوَابِ والكَرَامَةِ، فَإِنَّهُ يَسْتَمِرُّ عَلَى صَبْرِهِ ويَتَحَمَّلُ.

والأَمْرُ الرَّابِعُ: مِمَّا يُعِينُ عَلَى الصَّبْرِ أَنَّ الإِنْسَانَ إِذَا صَبَرَ عَلَى الشَّيْءِ، صَارَ هَذَا الشَّيْءُ كأَنَّهُ غَرِيزَةٌ فِي نَفْسِهِ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَتَخَلَّى إِذَا فَقَدَهُ. وانْظُرْ نَفْسَكَ أَيُّهَا الطالِبُ، فِي أَوَّلِ السَّنَةِ الدِّرَاسِيَّةِ، أَوَّلَ يَوْمٍ، يَوْمَيْنِ، ثَلاثَةٍ، تَجِدُ نَفْسَكَ مُتْعَبًا، مالًّا مِنْ طُولِ الدُّرُوسِ، فَإِذَا تَمَرَّنْتَ عَلَيْهَا، سَهُلَ عَلَيْكَ وهَانَ، حَتَّى إِنَّكَ تَفْقِدُ الدُّرُوسَ عِنْدَ حُلُولِ الإجازَةِ، وهَذَا شَيْءٌ مُشاهَدٌ، ومِثْلُ هَذِهِ الأُمُورِ تُعِينُ الإِنْسَانَ عَلَى الصَّبْرِ والتَّحَمُّلِ، وعَدَمِ النُّكُوصِ عَلَى العَقِبَيْنِ، وأَنْ يَسْتَمِرَّ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ.

وقَدْ رُوِيَ عَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ بُورِكَ لَهُ فِي شَيْءٍ فَلْيَلْزَمْهُ»[1] هَذِهِ كَلِمَةٌ عَظِيمَةٌ! فَلَا تَكُنْ فِي كُلِّ يَوْمٍ لكَ رَأْيٌ وَنَظَرٌ؛ فإِنَّ هَذَا يُذْهِبُ عَلَيْكَ الوَقْتَ.



(١) انظر: البيان والتحصيل لابن رشد (١٧/ ٥٤٢)، الآداب الشرعية لابن مفلح (٣/ ٢٩٢).



القَاعِدَةُ الثَّالِثَةُ والسِّتُّونَ:

يُرْشِدُ القُرْآنُ إِلَى أَنَّ العِبْرَةَ بِحُسْنِ حَالِ الإِنْسَانِ: إِيمانِهِ وعَمَلِهِ الصَّالِحِ وأَنَّ الاسْتِدْلَالَ عَلَى ذَلِكَ بالدَّعَاوَى المُجَرَّدَةِ أَوْ بِإِعْطَاءِ اللهِ للعَبْدِ مِنَ الدُّنْيَا أَوْ بِالرِّيَاسَاتِ كُلُّ ذَلِكَ مِنْ طُرُقِ المُنْحَرِفِينَ

والقُرْآنُ يَكَادُ أنْ يَكُونَ أَكْثَرُهُ تَفْصِيلًا لهذِهِ القَاعِدَةِ، وقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟﴾ [سبأ:٣٧] وقالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٨٨-٨٩] وقَدْ أَكْثَرَ اللهُ مِنْ هَذَا المَعْنَى فِي عِدَّةِ آياتٍ.

وأَمَّا حِكَايَةُ المَعْنَى الآخرِ عَنِ المُنْحَرِفِينَ: فَقالَ عَنِ اليَهُودِ والنَّصارَى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة:١١١] ثُمَّ ذَكَرَ البُرْهَانَ الَّذِي مَنْ أَتَى بِهِ فهُوَ المُسْتَحِقُّ للجَنَّةِ، فَقالَ: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:١١٢].

وقالَ تَعَالَى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ الآياتِ [النساء:١٢٣] وقالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم:٧٣] ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف:٣١] ونَحْوُهَا مِنَ الآياتِ الَّتِي يَسْتَدِلُّ بِهَا الكُفَّارُ

عَلَى حُسْنِ حَالِهِمْ بِتَفَوُّقِهِمْ فِي الأُمُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ والرِّياساتِ، ويَذُمُّونَ المُؤْمِنِينَ، ويَسْتَدِلُّونَ عَلَى بُطْلَانِ دِينِهِمْ بِنَقْصِهِمْ فِي هَذِهِ الأُمُورِ!! وهَذَا مِنْ أَكْبَرِ مَوَاضِعِ الفِتَنِ.

التعليق

هُنَا ثَلاثَةُ أُمُورٍ:

الأَوَّلُ: إِيمَانُ الإِنْسَانِ وعَمَلُهُ الصَّالِحُ، وهَذَا هُوَ المِقْيَاسُ للرَّجُلِ، وقَدْ قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: **«إِذَا أَتَاكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوهُ»**[1] هَذَا هُوَ المِقْيَاسُ الأَوَّلُ إِذَا كَانَ مُؤْمِنًا عامِلًا بالصَّالِحَاتِ. هَذَا هُوَ الدَّلِيلُ عَلَى كَمالِ حَالِهِ، وحُسْنِ حَالِهِ.

الثَّانِي: دَعَاوَى مُجَرَّدَةٌ يَدَّعِيهَا الإِنْسَانُ لِنَفْسِهِ، وَهِيَ بَعِيدَةٌ عَنِ الإِيمانِ بِاللهِ واليَوْمِ الآخِرِ، وهذِهِ لَا تَدُلُّ عَلَى كَمالِ حالِهِ، وحُسْنِ حالِهِ؛ لِأَنَّ كُلَّ إِنْسانٍ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَدَّعِيَ الكَمالَ. ولكنْ إِذَا نَظَرْنَا إِلَى حالِهِ إِذَا هُوَ مُفارِقٌ للكَمالِ! لَا نَقْبَلُ مِنْهُ.

ومِنْ هَذَا دَعاوَى أَوْلِيَاءِ الشَّياطِينِ أَنَّهُمْ أَوْلِيَاءُ اللهِ، وأَحِبَّاءُ اللهِ، مِثْلُ مَا يَدَّعِي أُولَئِكَ المُخَرِّفُونَ، الَّذِينَ يَدَّعُونَ الوِلايَةَ لِأَنْفُسِهِمْ، أَنَّهُمْ أَوْلِيَاءُ للهِ؛ لِيَجْذِبُوا النَّاسَ إِلَيْهِمْ.

الثالِثُ: إِعْطَاءُ اللهِ الإِنْسَانَ المالَ والرِّئاسَةَ والجاهَ والسُّمْعَةَ، هَلْ تَدُلُّ هَذِهِ عَلَى كَمالِهِ؟ لَا يَلْزَمُ؛ قَدْ يَكُونُ الأَمْرُ بالعَكْسِ! قَدْ يُعْطَى الإِنْسَانُ هَذِهِ الأُمُورَ؛ ابْتِلَاءً

---

(١) أخرجه الترمذي: أبواب النكاح، باب ما جاء إذا جاءكم من ترضون دينه فزوجوه، رقم (١٠٨٤)، وابن ماجه: كتاب النكاح، باب الأكفاء، رقم (١٩٦٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

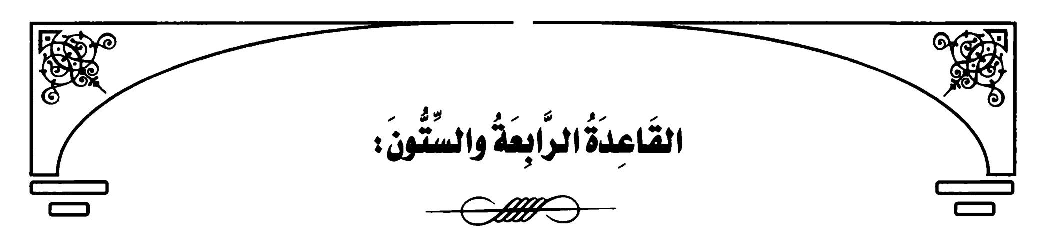
مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وامْتِحَانًا لهُ، فيَتَوَلَّى عَلَى النَّاسِ، وَيَكُـونُ لَهُ جاهٌ عِنْدَهُمْ ورِئاسَـةٌ، ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وهَذَا لا يَدُلُّ عَلَى حُسْنِ حالِهِ حَقِيقَةً.

فهذِهِ أُمُورٌ ثَلاثَـةٌ. ومِيزَانُ هَذِهِ الأُمُورِ هُوَ: الإيمانُ والعَمَلُ الصالِحُ؛ فكَمالُ الإنْسَانِ هُوَ بالإيمانِ والعَمَلِ الصَّالِحِ فقطْ. أَمَّا الرِّئاساتُ ومَا يَتَعَلَّقُ بِهَا مِنَ الدَّعَاوَى الباطِلَةِ، فهذِهِ لَا تَدُلُّ عَلَى حُسْنِ حالِهِ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة:١١] لَا نَقْبَلُ مِنْهُمْ هَذِهِ الدَّعْوَى؛ ولهَذَا رَدَّهَا اللهُ عَلَيْهِمْ فقالَ: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة:١٢].

أيضًا: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾ [البقرة:١٣] لَا يَقُولُونَ: لَا نُؤْمِنُ، ولكنْ يَقُولُونَ: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ فيَقْدَحُونَ فِي الْمُؤْمِنِينَ، فَقالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٣].

وعَلَى هَذَا فيَجِبُ أَنْ نَنْظُـرَ إِلَى حالِ الإنْسَانِ، لَا إِلَى دَعْوَاهُ الباطِلَـةِ، ولَا إِلَى مَا أُوتِيَ مِنْ مَالٍ ووَلَدٍ ورِئَاسَةٍ وجَاهٍ، ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.





القَاعِدَةُ الرَّابِعَةُ والسِّتُّونَ:

الأُمُورُ العَارِضَةُ الَّتِي لَا قَرَارَ لَهَا بِسَبَبِ المُزْعِجَاتِ أَوِ الشُّبُهَاتِ قَدْ تَرِدُ عَلَى الحَقِّ والأُمُورِ اليَقِينِيَّةِ ولكنْ سُرْعَانَ مَا تَضْمَحِلُّ وتَزُولُ

وهذِهِ قَاعِدَةٌ شَرِيفَةٌ جَلِيلَةٌ، وقَدْ وَرَدَتْ فِي عِدَّةِ مَوَاضِعَ مِنَ القُرْآنِ؛ فمَنْ لَمْ يُحْكِمْهَا حَصَلَ لَهُ مِنَ الغَلَطِ فِي فَهْمِ بَعْضِ الآياتِ مَا أَوْجَبَ الخُرُوجَ عَنْ ظاهِرِ النَّصِّ، ومَنْ عَرَفَ حِكْمَةَ اللهِ تَعَالَى فِي وُرُودِهَا عَلَى الحَقِّ الصَّرِيحِ لأَسْبابٍ مُزْعِجَةٍ تَدْفَعُهَا، أَوْ لِشُبَهٍ قَوِيَّةٍ تُحْدِثُهَا، ثُمَّ بَعْدَ هَذَا إِذَا رَجَعَ إِلَى اليَقِينِ، والحَقِّ الصَّرِيحِ، وتَقَابَلَ الحَقُّ والباطِلُ، فزَهَقَ الباطِلُ، وثَبَتَ الحَقُّ -حَصَلَتِ العاقِبَةُ الحَسَنَةُ، وزِيادَةُ الإِيمانِ واليَقِينِ، فكانَ فِي ذَلِكَ التَّقْدِيرِ حِكَمٌ بالِغَةٌ، وأَيادٍ سَابِغَةٌ، ولْنُمَثِّلْ لِهَذَا أَمْثِلَةً:

فمِنْهَا: أَنَّ الرُّسُلَ صَلَوَاتُ اللهِ وسَلامُهُ عَلَيْهِمْ أَكْمَلُ الخَلْقِ إِيمانًا وَيَقِينًا، وتَصْدِيقًا بوَعْدِ اللهِ ووَعِيدِهِ، وهَذَا أَمْرٌ يَجِبُ عَلَى الأُمَمِ أَنْ يَعْتَقِدُوا فِي الرُّسُلِ أَنَّهُمْ قَدْ بَلَغُوا ذِرْوَتَهُ العُلْيَا، وأَنَّهُمْ مَعْصُومُونَ مِنْ ضِدِّهِ، ولكنْ ذَكَرَ اللهُ فِي بَعْضِ الآياتِ أَنَّهُ قَدْ يَعْرِضُ مِنَ الأُمُورِ المُزْعِجَةِ المُنافِيَةِ حِسًّا لِمَا عُلِمَ يَقِينًا مَا يُوجِبُ لِهَؤُلاءِ الكُمَّلِ أَنْ يَسْتَبْطِئُوا مَعَهُ النَّصْرَ، ويَقُولُونَ: ﴿مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢١٤] وقَدْ يَقَعُ فِي هَذِهِ الحالَةِ عَلَى القُلُوبِ شَيْءٌ مِنْ عَوَارِضِ اليَأْسِ بحَسَبِ قُوَّةِ الوَارِدَاتِ، وتَأْثِيرِهَا فِي القُلُوبِ،

ثُمَّ فِي أَسْرَعِ وَقْتٍ تَنْجَلِي هَذِهِ الحالُ، ويَصِيرُ لِنَصْرِ اللهِ وصِدْقِ مَوْعُودِهِ مِنَ الوَقْعِ والبِشَارَةِ والآثارِ العَجِيبَةِ أَمْرٌ كَبِيرٌ لَا يَحْصُلُ بدُونِ هَذِهِ الحالَةِ؛ ولهَذَا قَالَ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا﴾ [يوسف:١١٠] فهَذَا الوَارِدُ الَّذِي لَا قَرَارَ لَهُ -ولَمَّا حقَّتِ الحقَائِقُ اضْمَحَلَّ وتَلَاشَى- لَا يُنْكَرُ ويُطْلَبُ للآياتِ تَأْوِيلاتٌ مُخالِفَةٌ لِظَاهِرِهَا.

التعليق

هذِهِ الآيَةُ أُشْكِلَتْ عَلَى العُلَمَاءِ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا﴾ وفِيهَا قِرَاءَةٌ سَبْعِيَّةٌ: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾ فعَلَى قِرَاءَةِ التَّشْدِيدِ؛ الأمْرُ فِيهَا واضِحٌ، يعْنِي: تَيقَّنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا، فَأَيِسُوا مِنَ التَّصْدِيقِ ﴿جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ﴾ [يوسف:١١٠].

لكنِ الإِشْكالُ فِي قِراءَةِ: ﴿كُذِبُواْ﴾ ظاهِرُ كَلامِ الشَّيْخِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَنَّهُ وَرَدَ عَلَى قُلُوبِهِمْ أَنَّ وَعْدَهُمْ بالنَّصْرِ لَيْسَ صَحِيحًا! ولكنْ يَقُولُ الشَّيْخُ: إِنَّ هَذَا وارِدٌ يَضْمَحِلُّ ويَتَلاشَى، وإِنَّمَا لِقُوَّةِ الوَارِدَاتِ عَلَى القُلُوبِ، يَنْسَوْنَ صِدْقَ الوَعْدِ، فَيَظُنُّونَ هَذَا الظَّنَّ، هَذَا مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ شَيْخُنَا رَحِمَهُ ٱللَّهُ إِذْ قَالَ: كُذِبُوا، أي: قَدْ كُذِبُوا بوَعْدِ النَّصْرِ، ومَعْنَى ﴿كُذِبُواْ﴾: أُخبِرُوا بالكَذِبِ، كَمَا جاءَ فِي الحَدِيثِ: «صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ»[1] وهذِهِ لَوْ بَقِيَتْ لكانَتْ مَطْعَنًا فِي الرُّسُلِ أَنْ يَظُنُّوا أَنَّ اللهَ وَعَدَهُمْ فَكَذَبَهُمْ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوكالة، باب إذا وكل رجلًا فترك الوكيل شيئًا فأجازه الموكل، رقم (٢١٨٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

ولكنْ شَيْخُنَا يَقُولُ: إنَّ هَذَا وَارِدٌ يَرِدُ عَلَى القُلُوبِ، ويَتَلَاشَى بِسُرْعَةٍ، وسَبَبُ وُرُودِهِ عَلَى القَلْبِ قُوَّةُ الوَارِدَاتِ الَّتِي تُوجِبُ مِثْلَ هَذَا الظَّنِّ، ويَقُولُ شَيْخُنَا رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّ هَذَا أَحْسَنُ مِنْ تَأْوِيلِ الآياتِ بوُجُوهٍ بَعِيدَةٍ.

وعِنْدِي أنَّ الأمْرَ لَيْسَ كَمَا قَالَ شَيْخُنَا -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- فِي هذَا، وأنَّ مَعْنَى ﴿قَدْ كُذِبُوا﴾ أي: كَذَبَهُمْ أَقْوَامُهُمْ فِي قَوْلِهِمْ: إنَّنَا مُؤْمِنُونَ؛ لأنَّهُمْ لَوْ صَدَقُوا فِي قَوْلِهِمْ: إنَّهُمْ مُؤْمِنونَ لَجَاءَهُمُ النَّصْرُ؛ فيَظُنُّ هَؤُلاءِ الرُّسُلُ أنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا، لَيْسَ بخَبَرِ اللهِ، يعْنِي: أنَّ اللهَ كَذَبَهُمْ حِينَ أَخْبَرَهُمْ بالنَّصْرِ، ولكنْ قَدْ كُذِبُوا، أي: كَذَبَهُمْ أَقْوَامُهُمْ بِقَوْلِهِمْ: إنَّنَا مُؤْمِنُونَ، وأَنَّهُ تَخَلَّفَ النَّصْرُ لِعَدَمِ إِيمانِ قَوْمِهِمْ.

وحينئذٍ لَيْسَ فِي الآيَةِ مُشْكِلٌ، تَبْقَى الآيَةُ عَلَى ظَاهِرِهَا بدُونِ إشْكَالٍ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ يعْنِي: اسْتَبْعَدُوا نَصْرَ اللهِ، وظَنُّوا أنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا مِنْ أَقْوَامِهِمُ الَّذِينَ قَالُوا: إنَّا مُؤْمِنُونَ، وإنَّا مَعَكُمْ -جَاءَهُمْ نَصْرُنَا.

وهَذَا المَعْنَى الَّذِي قُلْتُ: لَا شَكَّ أَنَّهُ أَحْسَنُ مِمَّا ذَهَبَ إِلَيْهِ شَيْخُنَا -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- والوَارِدَاتُ بِلَا شَكٍّ تَرِدُ عَلَى الإنْسَانِ، ويَغْفُلُ ويَنْسَى الحَقِيقَةَ الَّتِي هِيَ الواقِعُ؛ ولهَذَا لَمَّا كَسَفَتِ الشَّمْسُ خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ فَزِعًا يَظُنُّ أَنَّهَا السَّاعَةُ، كَمَا جَاءَ فِي الحديثِ[1]، وكَيْفَ يَظُنُّ أَنَّهَا السَّاعَةُ، والساعَةُ لَهَا أَشْرَاطٌ، ولَهَا عَلاماتٌ لَمْ تَأْتِ؟ لكنْ لِقُوَّةِ الوَارِدِ الَّذِي وَرَدَ عَلَى قَلْبِهِ نَسِيَ أنْ يَكُونَ للسَّاعَةِ أَشْرَاطٌ تَتَقَدَّمُهَا.



---

(١) أخرجه البخاري: أبواب الكسوف، باب الذكر في الكسوف، رقم (١٠٥٩)، ومسلم: كتاب الكسوف، باب ذكر النداء بصلاة الكسوف، رقم (٩١٢)، من حديث أبي موسى رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

ومِنْ هَذَا الباب، بَلْ مِنْ صَرِيحِهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج:٥٢] أيْ: يُلْقِي مِنَ الشُّبَهِ مَا يُعارِضُ اليَقِينَ. ثُمَّ ذَكَرَ الحِكَمَ العَظِيمَةَ المُتَرَتِّبَةَ عَلَى هَذَا الإلْقَاءِ، وأنَّ نِهايَةَ الأمْرِ وعَاقِبَتَهُ أنَّ اللهَ يُبْطِلُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ، ويُحْكِمُ آياتِهِ، واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ.

فقَدْ أخْبَرَ بوُقُوعِ هَذَا الأمْرِ لِجَمِيعِ الرُّسُلِ والأنْبِيَاءِ لهذِهِ الحِكَمِ الَّتِي ذَكَرَهَا، فمَنْ أَنْكَرَ وُقُوعَ ذَلِكَ بِنَاءً عَلَى أنَّ الرُّسُلَ لَا رَيْبَ ولَا شَكَّ مَعْصُومُونَ، وظَنَّ أنَّ هَذَا يُنافِي العِصْمَةَ فَقَدْ غَلَطَ أَكْبَرَ غَلَطٍ، ولوْ فَهِمَ أنَّ الأُمُورَ العارِضَةَ لَا تُؤَثِّرُ فِي الأُمُورِ الثَّابِتَةِ لَمْ يَقُلْ قَوْلًا خَالَفَ فِيهِ الوَاقِعَ، وخَالَفَ نَصَّ الآياتِ الكَرِيماتِ.

التعليق

ومِنْ هَذَا عَلَى أَحَدِ قَوْلَيِ المُفَسِّرِينَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج:٥٢-٥٤] هَذِهِ الآيَةُ تَنَازَعَ النَّاسُ فِيهَا قَدِيمًا وحَدِيثًا تَنَازُعًا كَبِيرًا؛ فمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إنَّ الرَّسُولَ ﷺ لَمَّا قَرَأَ قَوْلَ اللهِ تَعَالَى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [النجم:١٩-٢٠] قَالَ حِينَ قَوْلِهِ: ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾: تِلْكَ الغَرَانِيقُ العُلَى وإِنَّ شَفَاعَتَهُنَّ لَتُرْتَجَى! فسَمِعَ المُشْرِكُونَ هَذَا الكَلامَ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ وسَجَدُوا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي آخِرِ السُّورَةِ. فقَدْ سَجَدَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ

المُؤْمِنُونَ والمُشْرِكُونَ والجِنُّ والإنْسُ[١].

ومِنْهُمْ مَنْ أَنْكَرَ هذَا، وقالَ: لَا يُمْكِنُ للرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنْ يُثْنِيَ عَلَى هَذِهِ الأصْنَامِ، ويَقُولَ: تِلْكَ الغَرَانِيقُ العُلَى! وأنْكَرُوا إنْكَارًا عَظِيمًا للآثَارِ الوَارِدَةِ فِي هَذَا المَعْنَى[٢].

ولكنْ عِنْدَ التَّأَمُّلِ يُمْكِنُ أنْ نَقُولَ: إنَّ هَذَا الَّذِي سُمِعَ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ، لَيْسَ هُوَ قَوْلَ الرَّسُولِ، وإنَّمَا هُوَ قَوْلُ الشَّيْطَانِ، أَلْقَاهُ، فَسَمِعَهُ النَّاسُ، فظَنُّوا أنَّهُ قَوْلُ الرَّسُولِ، فقَالُوا: هكَذَا أثْنَى عَلَى أَصْنَامِنَا، وعَلَى آلِهَتِنَا! وَهُوَ -في الوَاقِعِ- لَيْسَ كَلامَ الرَّسُولِ؛ ولهَذَا قَالَ: ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ فلَعَلَّ هَذَا مِنْ فِعْلِ الشَّيْطَانِ. وحينئذٍ فَلَا حَاجَةَ إِلَى أنْ نُبْطِلَ هَذِهِ الآثَارَ الوَارِدَةَ.

ومِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إنَّ التَّمَنِّي فِي قَوْلِهِ: ﴿إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ هُوَ أُمْنِيَةُ القَلْبِ، ولَيْسَ القِرَاءَةِ، يعْنِي: أنَّ الرَّسُولَ أَوِ النَّبِيَّ يَتمَنَّى، ولكنِ الشَّيْطَانُ يُفْسِدُ عَلَيْهِ أُمْنِيَّتَهُ، ويَحُولُ بَيْنَهُ وبَيْنَهَا، وهَذَا ضَعِيفٌ.

ومِنْهُمْ مَنْ قَالَ: ﴿إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ أيْ: قَرَأَ، أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ، باعْتِبَارِ مَنْ سَمِعُوا هَذِهِ القِرَاءَةَ، فيُلْقِي فِي قُلُوبِ أُناسٍ شَكًّا وشُبْهَةً، ويُلْقِي فِي قُلُوبِ الآخَرِينَ يَقِينًا وثَبَاتًا ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ

---

(١) أخرجه البخاري: أبواب سجود القرآن، باب سجود المسلمين مع المشركين والمشرك نجس ليس له وضوء، رقم (١٠٧١)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرج قصة الغرانيق البزار (٥٠٩٦)، والطبري (١٦/ ٦٠٧)، والطبراني في المعجم الكبير (١٢/ ٥٣ رقم ١٢٤٥٠)، والضياء في المختارة (١٠/ ٨٩ رقم ٨٤)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

حَكِيمٌ﴾ فيَكُونُ هَذَا الإِلْقَاءُ مَا يُلْقِيهِ الشَّيْطَانُ فِي قَلْبِ السَّامِعِ مِنْ شُبُهاتٍ حَوْلَ القُرْآنِ، فيَنْسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ، ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آياتِهِ.

لكنْ سِيَاقُ الآياتِ يَدُلُّ عَلَى أنَّ الَّذِي يُلْقِيهِ الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ قَوْلٌ يُسْمَعُ، فَيُظَنُّ أَنَّهُ القُرْآنُ. ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يَنْسَخُ اللهُ هَذَا القَوْلَ، ويُبَيِّنُ بُطْلانَهُ، ويُحْكِمُ اللهُ آياتِهِ. والنَّسْخُ مَعْنَاهُ هُنَا: أنْ يُنْسِيَهُمْ إِيَّاهُ؛ حَتَّى لَا يَكُونَ لَهُ أَثَرٌ، ويَكُونَ هَذَا القَوْلُ فِتْنَةً للَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ، وأمَّا الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ فإِنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَيْسَ بِشَيْءٍ، ولَيْسَ صَوَابًا.

وقَدْ رُوِيَتْ قِصَّةُ الغَرَانِيقِ بطُرُقٍ ضَعِيفَةٍ، وبَعْضُهُمْ يُنْكِرُهَا إِنْكَارًا عَظِيمًا، حَتَّى عَنْوَنَ بَعْضُهُمْ فِي الكُتُبِ الَّتِي أَلَّفَهَا (نَصبُ المَجَانِيقِ فِي نَسْفِ قِصَّةِ الغَرَانِيقِ). ونحنُ نَقُولُ: ولْيَكُنْ هَذَا ضَعِيفًا، لكنِ الشَّيْطَانُ يُلْقِي فِي القِرَاءَةِ، سَواءً الغَرَانِيقَ أَوْ غَيْرَهَا. والَّذِينَ ضَعَّفُوهُ ظَنُّوا أنَّ هَذَا مِنْ قَوْلِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَهُوَ لَيْسَ مِنْ قَوْلِ الرَّسُولِ، بَلْ يُلْقِيهِ الشَّيْطَانُ بصَوْتِ الشَّيْطَانِ، مُقَلِّدًا لِصَوْتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وعَلَى كُلِّ حَالٍ: هِيَ لَا تَضُرُّ، سَوَاءً صَحَّتْ أَوْ لَمْ تَصِحَّ، مَا دامَ أَنَّ اللهَ يَنْسَخُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ، ويُحْكِمُ آياتِهِ، فَلَيْسَ فِيهِ إِشْكالٌ. ثُمَّ إِنَّ الآيَةَ صَرِيحَةٌ أَنَّ الشَّيْطَانَ هُوَ الَّذِي يُلْقِيهَا، ولَيْسَ الرَّسُولُ يَتْلُوهَا، مَا قَالَ: ومَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ ولَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى قَالَ فِي أُمْنِيَّتِهِ كذَا وكذَا، بَلْ قَالَ: ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾.

ومِنْ هَذَا -عَلَى أَحَدِ قَـوْلَيِ المُفَسِّرِينَ- قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء:٨٧] وأَنَّهُ ظَنٌّ عَرَضَ فِي الحالِ ثُمَّ زَالَ، نَظِيرُ الوَساوِسِ العَارِضَةِ فِي أَصْلِ الإِيمانِ الَّتِي يَكْرَهُهَا العَبْدُ حِينَ تَرِدُ قَلْبَهُ، ولكنْ إيمانُهُ ويَقِينُهُ يُزِيلُهَا ويُذْهِبُهَا؛ ولهَذَا قَـالَ ﷺ عِنْدَمَا شَكَـى إِلَيْهِ أَصْحَابُـهُ هَذِهِ الحالَ الَّتِي أَقْلَقَتْهُمْ مُبَشِّرًا لَهُمْ: «الحَمْدُ للهِ الَّذِي رَدَّ كَيْدَهُ إِلَى الوَسْوَسَةِ»(١).

ويُشْبِهُ هذَا: العَوَارِضُ الَّتِي تَعْرِضُ فِي إِرَاداتِ الإيمانِ لِقُوَّةِ وارِدٍ مِنْ شَهْوَةٍ، أَوْ غَضَبٍ، وأَنَّ المُؤْمِنَ كامِلَ الإيمانِ قَدْ يَرِدُ فِي قَلْبِهِ هَمٌّ وإِرَادَةٌ لِفِعْلِ بَعْضِ المَعَاصِي الَّتِي تُنافِي الإيمانَ الواجِبَ، ثُمَّ يَأْتِي بُرْهَانُ الإيمانِ، وقُوَّةُ ما مَعَ العَبْدِ مِنَ الإِنابَةِ التَّامَّةِ، فيَدْفَعُ هَذَا العارِضَ. ومِنْ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى عَنْ يُوسُفَ: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف:٢٤] وَهُوَ أَنَّهُ لَمَّا رَجَعَ إِلَى مَا مَعَهُ مِنَ الإيمانِ ومُرَاقَبَةِ اللهِ، وخَوْفِهِ، ورَجَائِهِ -دَفَعَ عَنْهُ هَذَا الهَمَّ، واضْمَحَلَّ، وصارتْ إِرَادَتُهُ التَّامَّةُ فِيمَا يُرْضِي رَبَّهُ؛ ولهَذَا بَعْدَ المُعالجَةِ الشَّدِيدَةِ الَّتِي لَا يَصْبِرُ عَلَيْهَا إِلَّا الخَوَاصُّ مِنَ الخَلْقِ، قَالَ ﷺ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ الآيَةَ [يوسف:٣٣].

وكَانَ أَحَدَ السَّبْعَةِ الَّذِينَ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: رَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ(٢)...

---

(١) أخرجه أبو داود: أبواب النوم، باب في رد الوسوسة، حديث رقم (٥١١٢)، وأحمد (١/ ٢٣٥)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد، رقم (٦٦٠)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، رقم (١٠٣١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

التعليق

هذا الَّذِي ذَهَبَ إِلَيْهِ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ هُوَ الصَّوَابُ فِي هَذِهِ الآيَةِ: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾ [يوسف:٢٤] لِأَنَّهَا امْرَأَةٌ مُدَلَّلَةٌ، امْرَأَةُ المَلِكِ، عَلَيْهَا مِنَ الحُلِيِّ والثِّيَابِ والجَمَالِ والبَهَاءِ، مَا يُوجِبُ تَعَلُّقَ النَّفْسِ بِهَا، فدَعَتْهُ فِي مَوْضِعٍ لَا يَطَّلِعُ عليهِمَا إِلَّا اللهُ؛ لِأَنَّهَا أَغْلَقَتِ الأَبْوَابَ، ولَمْ يَبْقَ مَعَهُ إِلَّا هَذِهِ المَرْأَةُ، دَعَتْهُ إِلَى نَفْسِهَا وَهُوَ شابٌّ فِيهِ مَا فِي الرِّجالِ، فـ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾ أيضًا، لكنْ مَنَعَهُ أَنَّهُ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ، رَجَعَ إِلَى نَفْسِهِ، ورَأَى مَا مَعَهُ مِنَ اليَقِينِ، ونُورِ الإِيمانِ، فَامْتَنَعَ.

وهَذَا لَا يَضُرُّ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، بَلْ لَا يَزِيدُهُ إِلَّا رُتْبَةً وفَضْلًا؛ لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ فِي هَذِهِ الحالِ الَّتِي وُجِدَ السَّبَبُ فِيهَا وانْتَفَى المانِعُ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ تَرَكَهُ للهِ -صَارَ أَعْظَمَ مَنْزِلَةً وأَعْلَى دَرَجَةً مِمَّنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ هَمٌّ بِهَا، فهُوَ إِذَا لَمْ يَهِمَّ بِهَا لَمْ يَكْتَرِثْ، لكنْ إِذَا هَمَّ بِهَا، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ رَجَعَ وتَرَكَهَا للهِ عَزَّ وَجَلَّ، صارَ هَذَا أَعْظَمَ، فهَذَا مَدْحٌ وثَنَاءٌ لِيُوسُفَ.

وأَمَّا مَنْ قَالَ: لِأَنَّ مَعْنَى ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ أيْ: بضَرْبِهَا، فهَذَا مِنْ أَفْسَدِ الأَقْوَالِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ ضَرْبُهَا حَقًّا، فإِنَّ بُرْهَانَ رَبِّهِ لَا يَصْرِفُهُ عنْهُ، وإِنْ كَانَ باطِلًا فمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهَا فَعَلَتْ مَا لَا تَسْتَحِقُّ الضَّرْبَ عَلَيْهِ، فهَذَا التَّفْسِيرُ، لَا شَكَّ أَنَّهُ باطِلٌ، وأَنَّ المَعْنَى مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ شَيْخُنَا، وكَذَا شَيْخُ الإِسْلَامِ رَحِمَهُمَا اللَّهُ أَنَّ الهَمَّ حَقِيقِيٌّ.

وهَذَا البُرْهَانُ الَّذِي رَآهُ، قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ رَأَى أباهُ يَعْقُوبَ يَعَضُّ يَدَيْهِ وأَنَامِلَهُ، يَقُولُ لهُ: لَا تَفْعَلْ![1] وهَذَا أيضًا باطِلٌ؛ لِأَنَّ الأَبَ لَا يُسَمَّى بُرْهَانًا،

---

(١) أخرجه الطبري في التفسير (١٣/ ٩٠)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ولكـنِ البُرْهَانُ مَا مَعَهُ مِنَ الإيمانِ والعِلْمِ بِاللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى والخَوْفِ مِنْهُ، وهَذَا هُوَ الَّذِي مَنَعَهُ.

والحاصِلُ: أنَّ مِثْلَ هَذِهِ العَوَارِضِ -كَمَا قَالَ شَيْخُنَا رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- لَا تُؤَثِّرُ عَلَى الأُمُورِ الثَّوَابِتِ الرَّاسِخَةِ؛ لِأَنَّهَا عوارِضُ تَأْتِي وتَزُولُ. قَدْ يَعْرِضُ عَلَى القَلْبِ، ولَا سِيَّمَا قُلُوبَ المُؤْمِنِينَ، شَيْءٌ مِنَ الشَّكِّ والجُحُودِ والكُفْرِ، ولكنْ كُلُّ هَذَا يَزُولُ مَعَ الإيمانِ. حَتَّى إِنَّهُ يُصَوَّرُ للرَّجُلِ إِذَا قَامَ يُصَلِّي كأَنَّما يُصَلِّي لأَبِيهِ، أَوْ لِأَخِيهِ، أَوْ لِمُعَلِّمِهِ، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، ولكنْ هَذَا كُلُّهُ يَزُولُ بالتَّعَوُّذِ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، والانْتِهَاءِ عَنْهُ.

... وقالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:٢٠١] يَشْمَلُ الطائِفَ الَّذِي يَعْرِضُ فِي أَصْلِ الإيمانِ، والَّذِي يَعْرِضُ فِي إِرَادَتِهِ، فَإِذَا مَسَّهُمْ تَذَكَّرُوا مَا يَجِبُ مِنْ يَقِينِ الإيمانِ، ومِنْ وَاجِبَاتِهِ، فأَبْصَرُوا، فرَجَعَ الشَّيْطَانُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ. ولَعَلَّ مِنْ هَذَا قَوْلُ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود:٨٠] وقَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «رَحِمَ اللهُ لُوطًا لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ»[1] يَعْنِي: وَهُوَ اللهُ القَوِيُّ العَزِيزُ، لكنْ غَلَبَ عَلَى لُوطٍ ﷺ تِلْكَ الحالُ الحَرِجَةُ، والنَّظَرُ للأَسْبَابِ العادِيَّةِ، فَقَالَ مَا قالَ، مَعَ عِلْمِهِ التَّامِّ بقُوَّةِ ذِي العَظَمَةِ والجَلالِ.

---

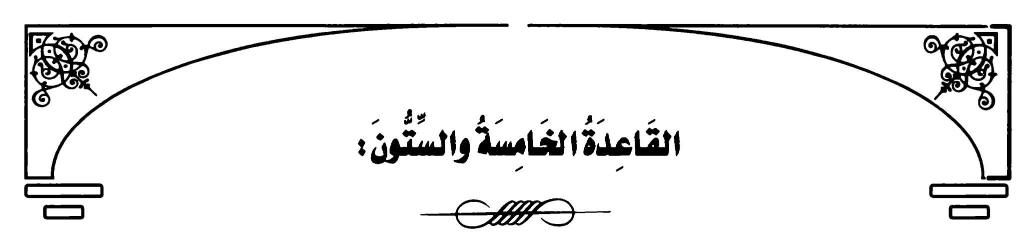
(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾، رقم (٣٣٧٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب زيادة طمأنينة القلب، رقم (١٥١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

التعليق

لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود:٨٠] يعْنِي: إِلَى قَوْمٍ يَمْنَعُونَنِي ويَعْصِمُونَنِي ويُعِينُونَنِي. وقَدْ قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «رَحِمَ اللهُ لُوطًا لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ»[1] وَهُوَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، لكنَّهُ فِي تِلْكَ الحالِ الحَرِجَةِ -كما قَالَ شَيْخُنَا رَحِمَهُ اللَّهُ- غَابَ عَنْهُ مَا سِوَى الأَسْبَابِ الحِسِّيَّةِ، وَهُمُ القَرَابَةُ والقَوْمُ الَّذِينَ يَحْمُونَهُ ويَمْنَعُونَهُ.



(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾، رقم (٣٣٧٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب زيادة طمأنينة القلب، رقم (١٥١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



القَاعِدَةُ الخَامِسَةُ والسِّتُّونَ:

قَدْ أَرْشَدَ القُرْآنُ إِلَى مَنْعِ الأَمْرِ المُبَاحِ إِذَا كَانَ يُفْضِي إِلَى مُحَرَّمٍ أَوْ تَرْكِ وَاجِبٍ

وهذِهِ القَاعِدَةُ وَرَدَتْ فِي القُرْآنِ فِي مَوَاضِعَ مُتعَدِّدَةٍ، وَهِيَ مِنْ قَاعِدَةِ: «الوَسَائِلُ لَهَا أَحْكَامُ المَقَاصِدِ».

التعليق

إذَا كَانَ المُبَاحُ يُفْضِي إِلَى المُحَرَّمِ كَانَ حَرَامًا، وإذَا كَانَ يُفْضِي إِلَى واجِبٍ كَانَ واجِبًا، فتَجْرِي فِيهِ الأَحْكَامُ الخَمْسَةُ. ويَقُولُ الشَّيْخُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: وهذِهِ القَاعِدَةُ مِنْ قَاعِدَةِ: «الوَسَائِلُ لَهَا أَحْكَامُ المَقَاصِدِ» يعْنِي: مَا كَانَ وَسِيلَةً للشَّيْءِ فلَهُ حُكْمُ ذَلِكَ الشَّيْءِ، فالوَسِيلَةُ للوَاجِبِ وَاجِبَةٌ، ومِثالُهُ: الوُضُوءُ للصَّلاةِ واجِبٌ، فَإِذَا لَمْ يُمْكِنِ الوُضُوءُ إِلَّا بشِرَاءِ الماءِ، كَانَ شِرَاءُ الماءِ واجِبًا. ومَا كَانَ وَسِيلَةً للمُحَرَّمِ كَانَ حَرَامًا؛ مِثَالُهُ: لَوْ أَنَّ شَخْصًا جاءَ يَشْتَرِي وِعَاءً للخَمْرِ، قُلْنَا: البَيْعُ عَلَيْهِ حَرَامٌ.

والقَاعِدَةُ الثَّانِيَةُ: «مَا لَا يَتِمَّ الوَاجِبُ إِلَّا بِهِ فهُوَ وَاجِبٌ» لكنْ قاعِدَةُ: «الوَسَائِلُ لَهَا أَحْكَامُ المَقَاصِدِ» أَعَمُّ. وعلى هَذَا تكُونُ هِيَ القَاعِدَةَ المُعْتبَرَةَ.



فمِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام:١٠٨] وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور:٣١] ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب:٣٢] وقَوْلُهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ [الجمعة:٩].

وقَدْ وَرَدَ بَعْضُ آياتٍ تَدُلُّ عَلَى هَذَا الأصْلِ الكَبِيرِ؛ فالأُمُورُ المُباحَةُ هِيَ بحَسَبِ مَا يُتَوَسَّلُ بِهَا إِلَيْهِ، إنْ تُوُسِّلَ بِهَا إِلَى فِعْلِ واجِبٍ أَوْ مَسْنُونٍ كانَتْ مَأْمُورًا بِهَا، وإنْ تُوُسِّلَ بِهَا إِلَى فِعْلِ مُحَرَّمٍ أَوْ تَرْكِ واجِبٍ كانَتْ مُحَرَّمَةً مَنهِيًّا عنْهَا، وإِنَّمَا الأَعْمَالُ بالنِّيَّاتِ الابْتِدائِيَّةِ والغائِيَّةِ، واللهُ المُوَفِّقُ.

التعليق

الأَمْثِلَةُ واضِحَةٌ: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ الأَصْلُ فِي سَبِّ آلِهَةِ المُشْرِكِينَ الإباحَةُ، بَلْ قَدْ يَجِبُ، فَإِذَا كَانَ يُؤَدِّي إِلَى سَبِّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَهُوَ مُنَزَّهٌ عَنْ ذَلِكَ جَلَّوَعَلَا -بخِلافِ آلِهَتِهِمْ- كَانَ مُحَرَّمًا.

والضَّرْبُ بالرِّجْلِ، الأَصْلُ فِيهِ الإباحَةُ، فَإِذَا كانَتِ المَرْأَةُ تَضْرِبُ برِجْلِهَا لِيُعْلَمَ مَا تُخْفِي مِنْ زِينَتِهَا صَارَ حَرَامًا، فَلَا يَجُوزُ للمَرْأَةِ أَنْ تُبْدِيَ شَيْئًا مِنْ حُلِيِّهَا؛ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ مَعَ أَنَّهَا تُعْلَمُ ولَا تُرى. فكَيْفَ إِذَا لَبِسَتِ المَرْأَةُ حُلِيًّا جذَّابًا، فِي ذِرَاعَيْهَا، أَوْ فِي سَاقَيْهَا، وأَخْرَجَتْ ذَلِكَ للنَّاسِ؟! فَإِنَّهُ يَكُونُ أَشَدَّ تَحْرِيمًا.

ثَالِثًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ﴾ والأَصْلُ فِي البيْعِ والشِّرَاءِ أَنَّهُ حَلالٌ مُباحٌ، فَإِذَا كَانَ يُؤَدِّي إِلَى تَرْكِ واجِبٍ -وَهُوَ صَلاةُ الجُمُعَةِ- كَانَ حَرَامًا، فعَقْدُ البيْعِ باطِلٌ؛ لِأَنَّهُ مَنْهِيٌّ عَنْهُ بخُصُوصِهِ بَعْدَ الأذانِ الثَّانِي، الَّذِي عِنْدَ مَجِيءِ الإمامِ لصَلاةِ الجُمُعَةِ؛ لِأَنَّهُ هُوَ المَعْرُوفُ المَعْهُودُ عِنْدَ نُزُولِ الآيَةِ، فتُحْمَلُ الآيَةُ عليْهِ، وهلْ يَبْطُلُ سائِرُ العُقُودِ كالنِّكاحِ؟

يَقُولُ بَعْضُ العُلَمَاءِ: إِنَّهُ لَا يَبْطُلُ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ بَيْعًا، واللهُ جَلَّ وَعَلَا إِنَّمَا نَهَى عَنِ البَيْعِ. ولكنْ قَالَ بَعْضُ العُلَمَاءِ: إِنَّمَا نَهَى عَنِ البَيْعِ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الأَكْثَرُ والمُعْتَادُ، ولأَنَّهُ هُوَ السَّبَبُ الَّذِي جَعَلَ الصَّحَابَةَ يَخْرُجُونَ مِنْ عِنْدِ الرَّسُولِ ﷺ لِيَتَلَقَّوْا هَذِهِ التِّجارَةَ، فيَكُونُ ذِكْرُ البيْعِ لَيْسَ مِنْ بابِ التَّخْصِيصِ، ولكنْ مِنْ بابِ ذِكْرِ الغالِبِ، وأَنَّ كُلَّ مَا أَلْهَى عَنْ ذِكْرِ اللهِ، وعَنْ حُضُورِ الصَّلاةِ، فَإِنَّهُ يَقَعُ باطلًا.

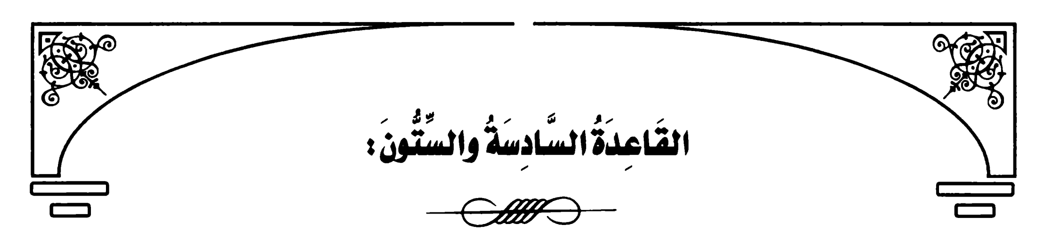
وقدْ يَتَرَجَّحُ القَوْلُ الأَوَّلُ، وَهُوَ التَّخْصِيصُ بالبَيْعِ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي قَدْ يَرِدُ غالِبًا، لَوْ أَنَّكَ فَكَّرْتَ فِي مُعاملاتِ النَّاسِ لَوَجَدْتَ البيْعَ يَقَعُ كَثِيرًا فِي هَذَا الوَقْتِ، وعقْدُ النِّكاحِ قَلِيلٌ نادِرٌ، وإِلَّا فرُبَّما يَكُونُ الانْشِغَالُ بعقْدِ النِّكاحِ أَشَدَّ مِنَ الانْشِغَالِ بالبَيْعِ.

وعَلَى كُلِّ حَالٍ: الأَمْرُ فِيهِ سَعَةٌ. نَقُولُ: بَدَلَ أَنْ يَعْقِدَ فِي هَذَا الوَقْتِ فَلْيُؤَخِّرْ، والمَشْهُورُ مِنَ المَذْهَبِ عِنْدَ الحَنابِلَةِ: يَصِحُّ النِّكَاحُ وسائِرُ العُقُودِ مَا عَدَا البَيْعَ ومَا فِي مَعْنَاهُ كالإِجَارَةِ. أَمَّا النِّكَاحُ وبَقِيَّةُ العُقُودِ فتَصِحُّ. وعَلَّلُوا ذَلِكَ بأَنَّها نادِرَةٌ، والنَّادِرُ لَا حُكْمَ لهُ.

وفِيهِ وجْهٌ آخَرُ فِي المَذْهَبِ: أَنَّ النِّكاحَ وسائِرَ العُقُودِ لَا تَصِحُّ؛ لِأَنَّ العِلَّةَ المَوْجُودَةَ فِي النَّهْيِ عَنِ البَيْعِ مَوْجُودَةٌ فِي هَذِهِ العُقُودِ[1].

---

(١) المغني (٣/ ١٦٤).



القَاعِدَةُ السَّادِسَةُ والسِّتُّونَ:

مِنْ قَوَاعِدِ القُرْآنِ أَنَّهُ يَسْتَدِلُّ بالأَقْوالِ والأَفْعَالِ عَلَى مَا صَدَرَتْ عَنْهُ مِنَ الأَخْلَاقِ وَالصِّفَاتِ

وهذِهِ قَاعِدَةٌ جَلِيلَةٌ، فإِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ يَقْصُرُ نَظَرُهُ عَلَى نَفْسِ اللَّفْظِ الدَّالِّ عَلَى ذَلِكَ القَوْلِ أَوِ الفِعْلِ مِنْ دُونِ أَنْ يُفَكِّرَ فِي أَصْلِهِ وقَاعِدَتِهِ الَّتِي أَوْجَبَتْ صُدُورَ ذَلِكَ الفِعْلِ والقَوْلِ، والفَطِنُ اللَّبِيبُ يَنْظُرُ إِلَى الأَمْرَيْنِ، ويَعْرِفُ أَنَّ هَذَا لهَذَا، وهَذَا مُلازِمٌ لهَذَا، وقَدْ تَقَدَّمَ مَا يُقارِبُ هَذَا المَعْنَى الجَلِيلَ، ولكنْ لِشِدَّةِ الحاجَةِ إِلَيْهِ أَوْرَدْنَاهُ عَلَى أُسْلُوبٍ آخَرَ، فمِنْ ذَلِكَ أَنَّ قَوْلَهُ عَنْ عِبادِ الرَّحْمَنِ أَنَّهُمْ ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان:٦٣] وذلكَ صادِرٌ عَنْ وَقارِهِمْ، وَسَكِينَتِهِمْ، وخُشُوعِهِمْ، وعَنْ حِلْمِهِمُ الوَاسِعِ، وخُلُقِهِمُ الكامِلِ، وتَنْزِيهِهِمْ لأَنْفُسِهِمْ عَنْ مُقابَلَةِ الجَاهِلِينَ.

ومِثْلُ قَوْلِهِ: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل:١٧] يَدُلُّ مَعَ ذَلِكَ عَلَى حُسْنِ إِدَارَةِ المُلْكِ، وكَمالِ السِّيَاسَةِ، وحُسْنِ النِّظامِ...

التعليق

يَعْنِي: كُلٌّ فِي عَمَلِهِ الخاصِّ، وهَذَا لا شَكَّ دَلِيلٌ عَلَى حُسْنِ إِدَارَةِ المُلْكِ؛ لأَنَّنا لَوْ جَعَلْنَا الأَعْمَالَ كُلَّهَا عِنْدَ طَائِفَةٍ واحِدَةٍ، أَوْ عِنْدَ شَخْصٍ واحِدٍ، لانْهَارَتْ أَعْصَابُهُ،

وعَجَزَ عَنْ تَدْبِيرِ المُلْكِ، فَإِذَا وُزِّعَتْ، وقَالَ: هَذَا عَلَى المالِ، وهَذَا عَلَى السِّيَاسَةِ، وهَذَا عَلَى كذَا، فهُوَ خيْرٌ.

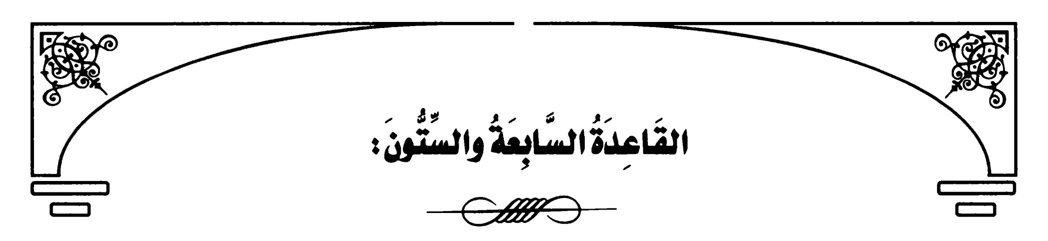
... وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص:٥٥] يَدُلُّ عَلَى حُسْنِ الخُلُقِ، ونَزَاهَةِ النَّفْسِ عَنِ الأخْلَاقِ الرَّذِيلَةِ، وعَلَى سَعَةِ عُقُولِهِمْ، وقُوَّةِ حِلْمِهِمْ واحْتِمالِهِمْ.

ومِثْلُ الإخْبَارِ عَنْ أهْلِ الجاهِلِيَّةِ بِتَقْتِيلِ أوْلادِهِمْ خَشْيَةَ الفَقْرِ، أَوْ مِنَ الإمْلاقِ، يَدُلُّ عَلَى شِدَّةِ هَلَعِهِمْ، وسُوءِ ظَنِّهِمْ بِرَبِّهِمْ، وعَدَمِ ثِقَتِهِمْ بكِفَايَتِهِ.

وكَذَلِكَ قَـوْلُهُ عَنْ أَعْدَاءِ رَسُولِهِ: ﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ [القصص:٥٧] يَدُلُّ عَلَى سُوءِ ظَنِّهِمْ باللهِ، وأَنَّ اللهَ لَا يَنْصُرُ دِينَهُ، ولَا يُتِمُّ كَلِمَتَهُ. وأَمْثِلَةُ هَذَا الأَصْلِ كَثِيرَةٌ واضِحَةٌ لِكُلِّ صاحِبِ فِكْرَةٍ حَسَنَةٍ.

التعليق

مَعْنَى هَذِهِ القَاعِدَةِ: أنَّ الأفْعَالَ والأقْوَالَ إِذَا صَدَرَتْ مِنْ شَخْصٍ اسْتُدِلَّ بِهَا عَلَى حالِهِ، كَمالًا كَانَ أَوْ نَقْصًا. فَإِذَا وَجَدْنَا هَذَا الرَّجُلَ -مَثَلًا- مُتَأَنِّيًا فِي أُمُورِهِ، مُتَدَبِّرًا لِمَا يَقُولُ ومَا يَفْعَلُ، اسْتَدْلَلْنَا بِذَلِكَ عَلَى كَمالِ عَقْلِهِ، ووُفُورِ ذِهْنِهِ. وإِذَا رَأَيْنَا الأَمْرَ بالعَكْسِ، اسْتَدْلَلْنَا عَلَى سُوءِ عَقْلِهِ وتَدْبِيرِهِ، فَيُسْتَدَلُّ بالآثَارِ عَلَى المُؤَثِّرِ. هَذَا هُوَ الخُلاصَةُ: آثارُ الشَّيْءِ يُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَى مُؤَثِّرِهَا.



القَاعِدَةُ السَّابِعَةُ والسِّتُّون:

يُرْشِدُ القرْآنُ إِلَى الرُّجُوعِ إِلَى الأمْرِ المَعْلُومِ المُحقَّقِ عِنْدَ وُرُودِ الشُّبُهَاتِ والتَّوهُّمَاتِ

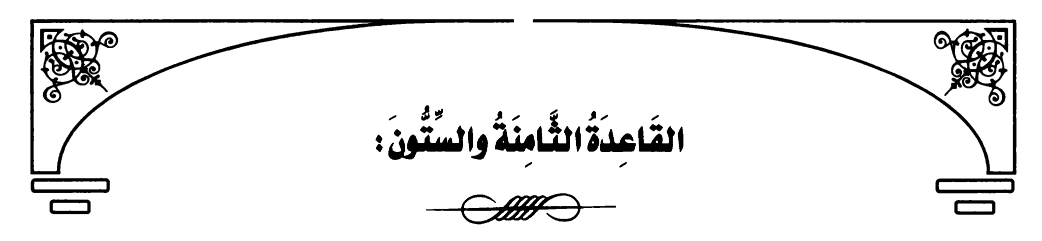
وهذِهِ قَاعِدَةٌ جَلِيلَةٌ يُعبَّرُ عَنْهَا: «أَنَّ المَوْهُومَ لَا يَدْفَعُ المَعْلُومَ، وأَنَّ المَجْهُولَ لَا يُعارِضُ المُتيقَّنَ» ونَحْوِهَا مِنَ العِبارَاتِ. وقَدْ أَرْشَدَ اللهُ إِلَيْهَا فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ لَمَّا أَخْبرَ تَعَالَى عَنِ الرَّاسِخِينَ فِي العِلْمِ، وأَنَّ طَرِيقَتَهُمْ فِي المُشْتبِهاتِ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران:٧]. فالأُمُورُ المُحْكَمَةُ المَعْلُومَةُ يَتعَيَّنُ أنْ يُرْجعَ إِلَيْهَا الأُمُورُ المُشْتبِهَةُ المَظْنُونَةُ.

وقالَ تَعَالَى فِي زَجْرِ المُؤْمِنِينَ عَنِ القَدْحِ فِي إِخْوانِهِمُ المُؤْمِنِينَ: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور:١٢] فأَمَرَهُمْ بالرُّجُوعِ إِلَى مَا عُلِمَ مِنْ إِيمانِ المُؤْمِنِينَ الَّذِي يَدْفَعُ السَّيِّئَاتِ، وأنْ يَعْتَبِرُوا هَذَا الأَصْلَ المَعْلُومَ، ولَا يَعْتَبِرُوا كَلامَ مَنْ تكَلَّمَ مِمَّا يُناقِضُهُ ويَقْدَحُ فِيهِ.

وقالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب:٦٩] فوَجَاهَتُهُ عِنْدَ اللهِ تَدْفَعُ عَنْهُ وتُبَرِّئُهُ مِنْ كُلِّ عَيْبٍ ونَقْصٍ قالَهُ فِيهِ مَنْ آذاهُ؛ لِأَنَّهُ لَا يَكُونُ وَجِيهًا عِنْدَ رَبِّهِ حَتَّى يَسْلَمَ مِنْ جَمِيعِ المُنقِصَاتِ، ويَتَحَلَّى بجَمِيعِ الكَمالاتِ اللَّائِقَةِ بأَمْثَالِهِ مِنْ أُولِي العَزْمِ، فيُحَذِّرُ اللهُ هَذِهِ الأُمَّةَ أنْ

يَسْلُكُوا مَسْلَكَ مَنْ آذَى مُوسَى مَعَ وَجاهَتِهِ، فَيُؤْذُوا أَعْظَمَ الرُّسُلِ جاهًا عِنْدَ اللهِ، وأرْفَعَهُمْ مَقَامًا ودَرَجَةً. وقَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس:٣٢] ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ [سبأ:٦].





القَاعِدَةُ الثَّامِنَةُ والسِّتُّونَ:

ذِكْرُ الأَوْصَافِ المُتقَابِلَاتِ يُغْنِي عَنِ التَّصْرِيحِ بِالمُفَاضَلَةِ إِذَا كَانَ الفَرْقُ مَعْلُومًا

وهذِهِ القَاعِدَةُ فِي القُرْآنِ كَثِيرٌ، يَذْكُرُهَا فِي المَقاماتِ المُهِمَّةِ، كالمُقَابَلَةِ بَيْنَ الإِيمانِ والكُفْرِ، والتَّوْحِيدِ والشِّرْكِ، وبَيْنَ إِلَهِيَّتِهِ الحقِّ وإِلَهِيَّةِ مَا سِوَاهُ، فيَذْكُرُ تبَايُنَ الأَوْصَافِ الَّتِي يَعْرِفُ العُقَلاءُ بالبَدَاهَةِ التَّفَاوُتَ بَيْنَهَا، ويَدَعُ التَّصْرِيحَ بالمُفَاضَلَةِ إِلَى العُقَلاءِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف:٣٩] ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ والآياتِ الَّتِي بَعْدَهَا [النمل:٥٩-٦٠] ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [الزمر:٢٩] ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [هود:٢٤] وقالَ تَعالَى: ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:١٤٠] ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس:٥٩] ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩] وقالَ مِثْلَهَا: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر:٩] فهذَا المَوْضِعَ تَرَكَ القِسْمَ الآخَرَ كَمَا تَرَكَ التَّصْرِيحَ بالمُفَاضَلَةِ لِعِلْمِهِ مِنَ المَقَامِ؛ فَقَوْلُهُ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ [الزمر:٩] إِلَى آخِرِهَا، يَعْنِي: كَمَنْ لَيْسَ كَذَلِكَ.

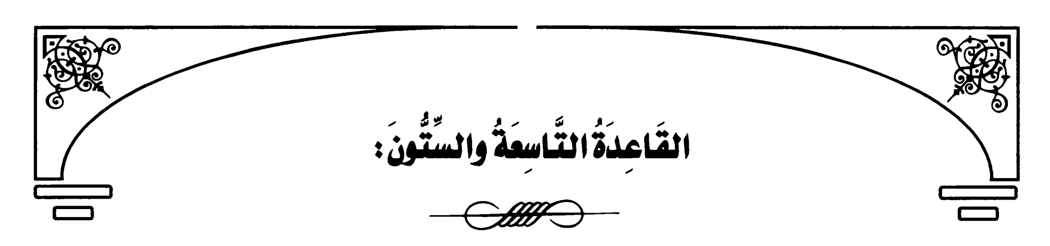
والآياتُ فِي هَذَا المَعْنَى كَثِيرَةٌ، وَهُوَ مِنْ بَلاغَةِ القُرْآنِ وأُسْلُوبِهِ العَجِيبِ، كَقَوْلِهِ: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك:٢٢].

ولَمَّا ذَكَرَ أَوْصَافَ الرَّسُولِ الدَّاعِي، ومَا يَدْعُو إِلَيْهِ، وأَعْظَمَ النَّاسِ مُعَارَضَةً لهُ قَالَ: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ:٢٤] ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ [القلم:٥-٦] ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾ [البقرة:٢٥٦] ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف:٢٩] وذلكَ أَنَّهُ إِذَا مُيِّزَتِ الأَشْيَاءُ تَمْيِيزًا تَمامًا، وعُرِفَتْ مَرَاتِبُهَا فِي الخَيْرِ والشَّرِّ، والكَمالِ والنَّقْصِ -صَارَ التَّصْرِيحُ بَعْدَ ذَلِكَ بالتَّفْضِيلِ لَا مَعْنَى لهُ. واللهُ أَعْلَمُ.

التعليق

السُّؤَالُ عَنِ الشَّيْءِ المَعْلُومِ لَا حَاجَةَ إِلَى أَنْ يُجابَ عَنْهُ: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ مَعْلُومٌ أَنَّ اللهَ خَيْرٌ! ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ [النمل:٦٠] إِلَى آخِرِهِ. وهكَذَا، فالشَّيْءُ المَعْلُومُ لَوْ ذُكِرَ لكانَ الكَلامُ فِيهِ لَغْوًا لَا فَائِدَةَ مِنْهُ ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأٓخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ يَعْنِي: كمَنْ هُوَ غافِلٌ، لا يَقْنَتُ فِي اللَّيْلِ ولَا فِي النَّهارِ، عَلَى الوَصْفِ الَّذِي ذَكَرَهُ اللهُ تَعَالَى. وهكَذَا، فإِنَّ الشَّيْءَ المَعْلُومَ يُغْنِي عَنْهُ ذِكْرُ مَا يُقابِلُهُ مِمَّا هُوَ مَعْلُومٌ أَنَّهُ خَيْرٌ أَوْ شَرٌّ.





القَاعِدَةُ التَّاسِعَةُ والسِّتُّونَ:

مَنْ تَرَكَ شَيْئًا للهِ عَوَّضَهُ اللهُ خَيْرًا مِنْهُ

وهذِهِ القَاعِدَةُ وَرَدَتْ فِي القُرْآنِ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ:

فمِنْهَا: مَا ذَكَرَهُ اللهُ عَنِ المُهاجِرينَ الأَوَّلِينَ الَّذِينَ هَجَرُوا أَوْطَانَهُمْ وأَمْوَالَهُمْ وأَحْبَابَهُمْ للهِ، فَعَوَّضَهُمُ اللهُ الرِّزْقَ الوَاسِعَ فِي الدُّنْيَا، والعِزَّ والتَّمْكِينَ. وإبْرَاهِيمُ ﷺ لَمَّا اعْتَزَلَ قَوْمَهُ وأباهُ، ومَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ، وَهَبَ لَهُ إِسْحَاقَ ويَعْقُوبَ، والذُّرِّيَّةَ الصَّالِحِينَ. وسُلَيْمَانُ ﷺ لَمَّا أَلْهَتْهُ الخَيْلُ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ فَأَتْلَفَهَا عَوَّضَهُ اللهُ: ﴿ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ﴾ [ص:٣٦] ﴿وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ [ص:٣٧].

وأَهْلُ الكَهْفِ لَمَّا اعْتَزَلُوا قَوْمَهُمْ ومَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَهَبَ لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَهَيَّأَ لَهُمْ أَسْبَابَ التَّوْفِيقِ والرَّاحَةِ، وجَعَلَهُمْ هِدَايَةً للضَّالِّينَ.

﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَـٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:٩١] ومَنْ تَرَكَ مَا تَهْوَاهُ نَفْسُهُ مِنَ الشَّهَوَاتِ للهِ تَعَالَى، عَوَّضَهُ مِنْ مَحَبَّتِهِ وعِبَادَتِهِ والإنابَةِ إِلَيْهِ مَا يَفُوقُ جَمِيعَ لَذَّاتِ الدُّنْيَا.

التعليق

هذَا شَيْءٌ مُشاهَدٌ؛ أَنَّ الإنْسَانَ إِذَا تَرَكَ مَحَارِمَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ خَوْفًا مِنْهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ورَغْبَةً فِيمَا عِنْدَهُ مِنَ الثَّوَابِ، فَإِنَّهُ يَجِدُ فِي قَلْبِهِ لَذَّةً وحَلَاوَةً، وحُبًّا للخَيْرِ، لَا يُمْكِنُ

أنْ يُوصَفَ. وإذَا انْغَمَسَ الإنْسَانُ فِي شَهَوَاتِهِ، وفِي لَهْوِهِ وغَفْلَتِهِ، صَارَتْ هَذِهِ الشَّهَوَاتُ والغَفْلَةُ -واللهِ- حَسْرَةً عَلَيْهِ، وتَجِدُهُ يَكُونُ مُنْقَبِضًا، إِذَا فَارَقَ هَذِهِ الشَّهَوَاتِ طَرْفَةَ عَيْنٍ.

إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا اسْتَسْلَمَ لِذَبْحِ ابْنِهِ، وَهُوَ أَحَبُّ شَيْءٍ إِلَيْهِ فِي الدُّنْيَا، وَرَّثَهُ اللهُ جَلَّ وَعَلَا الخُلَّةَ، فَاتَّخَذَهُ خَلِيلًا.

وقَالَ تَعَالَى عَنْ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾ [ص:٣٣] قَالَ العُلَمَاءُ والمُفَسِّرُونَ مِنَ السَّلَفِ: مَعْنَاهُ: أَنَّهُ صَارَ يَضْرِبُ رِقَابَهَا وأَرْجُلَهَا. السُّوقُ: جَمْعُ سَاقٍ، والأَعْنَاقُ واضِحَةٌ؛ وذلكَ أَنَّهُ غَضِبَ للهِ عَزَّ وَجَلَّ، عَلَى نَفْسِهِ، وحَرَمَ نَفْسَهُ هَذَا الأَمْرَ الَّذِي أَلْهَتْهُ بِهِ عَنْ طاعَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وإتْلافُ المالِ للمَصْلَحَةِ جائِزٌ، مِثالُهُ: إتْلافُ المالِ للنِّكايَةِ، فَالغَالُّ مِنَ الغَنِيمَةِ يُحْرَقُ رَحْلُهُ! ولَا يُجْعَلُ مَعَ الغَنِيمَةِ؛ لِأَنَّهُ أَنْكَى. وإلَّا لَقُلْنَا: كُلُّ العُقُوبَةِ بالمالِ تُنْسَخُ! ولكنْ نَقُولُ: مَا يَتَرَتَّبُ عَلَى إتْلافِهِ مِنَ المَصالِحِ أَكْثَرُ مِنْ كَوْنِهِ مَالًا.

ولكنْ هَلْ مِنَ المَشْرُوعِ لَنا إِذَا أَلْهَانَا شَيْءٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ أَنْ نُتْلِفَهُ؟ نَعَمْ، لَا مانِعَ أَنْ نُتْلِفَهُ لأَجْلِ تَعْزِيرِ النَّفْسِ ورَدْعِهَا، حَتَّى لَوْ كَانَ هَذَا الشَّيْءُ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ؛ لِأَنَّ ضَرَرَهَا عَلَيْكَ.

والزَّوْجَةُ إِذَا أَلْهَتْهُ عَنِ الصَّلاةِ هَلْ يُشْرَعُ أَنْ يُطَلِّقَهَا؟

يُنْظَرُ فِي هذَا، وإِلَّا لَا شَكَّ أَنَّهَا إِذَا أَلْهَتْهُ عَنْ طاعَةِ اللهِ أَنَّ هَذَا مِنْ شُؤْمِ المَرْأَةِ، أَنْ تَكُونَ سَبَبًا لِإِلْهَاءِ الإنْسَانِ عَنْ طاعَةِ اللهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟

إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ﴾ [التغابن:١٤] فَبَيَّنَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنَّ مِنْ أَزْوَاجِنا مَنْ يَكُونُ عَدُوًّا لَنَا، ويُحَذِّرُنا مِنْ ذلكَ.

وهَذَا هُوَ الوَاقِعُ، تَجِدُ بَعْضَ النِّسَاءِ تَطْلُبُ مِنْ زَوْجِهَا أَنْ يَذْهَبَ بِهَا إِلَى السِّينَمَا، وأنْ يُسافِرَ بِهَا إِلَى الخارِجِ، وأنْ يُمَكِّنَهَا مِنْ رُؤْيَةِ النِّسَاءِ الكاسِيَاتِ العارياتِ، ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ. وبَعْضُ النَّاسِ -والعياذُ باللهِ- لَيْسَ لَهُ إِلَّا الشَّهْوَةُ فقطْ، فهذِهِ المَرْأَةُ مَحَلُّ شَهْوَتِهِ، لَا يُهِمُّهُ أنْ يَأْتِيَ بكُلِّ مَا تُرِيدُ، فَيُبْطِلُ رُجُولَتَهُ عِنْدَ وُجُودِ شَهْوَتِهِ.





القَاعِدَةُ السَّبْعُونَ:

القُرْآنُ كَفِيلٌ بِمُقَاوَمَةِ جَمِيعِ المُفْسِدِينَ ولَا يَعْصِمُ مِنْ جَمِيعِ الشُّرُورِ إِلَّا التَّمَسُّكُ بِأُصُولِهِ وَفُرُوعِهِ

قَدْ تَقَدَّمَ مِنَ الأدِلَّةِ عَلَى هَذَا الأَصْلِ الكَبِيرِ فِي دَعْوَةِ القُرْآنِ إِلَى الإِصْلَاحِ والصَّلاحِ، وفِي طَرِيقَتِهِ فِي مُحَاجَّةِ أَهْلِ الباطِلِ، وفِي سِياسَتِهِ الدَّاخِلِيَّةِ والخارِجِيَّةِ - مَا يَدُلُّ عَلَى هَذَا الأَصْلِ، ويُعَرِّفُ الخَلْقَ أنَّ العِصْمَةَ مِنَ الشُّرُورِ كُلِّهَا التَّمَسُّكُ بهَذا القُرْآنِ، وأُصُولِهِ، وعَقَائِدِهِ، وأَخْلَاقِهِ، وآدابِهِ، وأَعْمالِهِ.

ولكنْ نَزِيدُ هُنَا بَعْضَ التَّفْصِيلاتِ، فنَقُولُ: أَهْلُ الشَّرِّ والفَسادِ نَوْعَانِ:

أَحَدُهُمَا: المُبْطِلُونَ فِي عَقائِدِهِمْ، وأَدْيَانِهِمْ، ومَذَاهِبِهِمُ، الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَيْهَا، فَفِي القُرْآنِ مِنَ الاحْتِجَاجِ عَلَى هَؤُلاءِ، وإقامَةِ الحُجَجِ والبَرَاهِينِ عَلَى فَسادِ أَقْوَالِهِمْ شَيْءٌ كَثِيرٌ، لَا يَأْتِي مُبْطِلٌ بقَوْلٍ إِلَّا فِي القُرْآنِ بَيانُهُ بالحَقِّ الواضِحِ، والبُرْهَانِ الجَلِيِّ؛ فَفِيهِ الرَّدُّ عَلَى جَمِيعِ المُبْطِلِينَ مِنَ الدَّهْرِيِّينَ، والمَادِّيِّينَ، والمُعَطِّلِينَ، والمُشْرِكِينَ، والمُتَمَسِّكِينَ بالأَدْيَانِ المُبَدَّلَةِ والمَنْسُوخَةِ مِنَ اليَهُودِ والنَّصَارَى والأُمِّيِّينَ ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان:٣٣] يَذْكُرُ اللهُ حُجَجَ هَؤُلاءِ ويَنْقُضُهَا، ويُبْدِي مِنَ الأساليبِ المُتَنَوِّعَةِ فِي إِفْسَادِهَا مَا هُوَ مَعْرُوفٌ. وتَفْصِيلُ هَذِهِ الجُمْلَةِ لَا يَحْتَمِلُهُ هَذَا المَوْضِعُ.

النَّوْعُ الثَّانِي مِنَ المُقاوِمِينَ للأَدْيَانِ، والدُّنْيَا، والسِّياسِيَّاتِ، والحُقُوقِ: الشُّيُوعِيُّونَ

الَّذِينَ انْتَشَرَ شَرُّهُمْ، وتَفاقَمَ أَمْرُهُمْ، وسَرَتْ دَعايَتُهُمْ فِي طَبَقاتِ الخَلْقِ سَرَيَانَ النَّارِ فِي العُشْبِ الهَشِيمِ، ولَمْ يَكُنْ عِنْدَ الأَكْثَرِينَ مَا يَرُدُّ صَوْلَتَهُمْ، ويَقْمَعُ شَرَّهُمْ، وإِنَّمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الأُصُولِ، والعَقائِدِ، والأَخْلَاقِ والسِّياساتِ مَا يُمَكِّنُ أَمْثَالَ هَؤُلاءِ الَّذِينَ هُمْ فَسَادُ العِبادِ والبِلادِ.

ولكِنْ -ولله الحَمْدُ- القُرْآنُ العَظِيمُ، والدِّينُ القَوِيمُ، قَدْ تَكَفَّلَ بِمُقَاوَمَةِ هَؤُلاءِ، كَمَا تَكَفَّلَ بِمُقَاوَمَةِ غَيْرِهِمْ، وفِيهِ مِنَ الأُصُولِ والأَخْلَاقِ والآدابِ الرَّاقِيَةِ مَا يَرُدُّهُمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ مُنْهَزِمِينَ، فَمَا فِيهِ مِنَ العَدْلِ، ووُجُوبِ الحُقُوقِ العادِلَةِ بَيْنَ طَبقاتِ النَّاسِ بحَسَبِ أَحْوَالِهِمْ، ومَا فِيهِ مِنْ إِيجابِ الزَّكَاةِ، والإِلْزَامِ بِهَا، ودَفْعِ حَاجاتِ الفُقَرَاءِ والمُضطَرِّينَ، ووُجُوبِ القِيَامِ بالمَصالِحِ الكُلِّيَّةِ والجُزْئِيَّةِ، ووُجُوبِ حِفْظِ الأَمْلَاكِ والحُقُوقِ -كُلُّ هَذَا أَعْظَمُ سَدٍّ، وأَحْكَمُ حِصْنٍ، لِلوِقَايَةِ مِنْ شُرُورِ هَؤُلاءِ المُفْسِدِينَ.

وكَذَلِكَ مَا حَضَّ عَلَيْهِ القُرْآنُ مِنْ لُزُومِ الآدابِ العالِيَةِ، والأَخْلَاقِ السَّامِيَةِ، والأُخُوَّةِ الدِّينِيَّةِ، والرَّابِطَةِ الإِسْلامِيَّةِ -يَمْنَعُ مِنْ تَغَلْغُلِ شُرُورِهِمُ الَّتِي طَرِيقُهَا الأَقْوَمُ تَحْلِيلُ الأَخْلَاقِ، وانْحِلالُ الآدابِ، وتَحَلُّلُ الرَّوَابِطِ النَّافِعَةِ، والثَّوْرَةُ العامَّةُ عَلَى الرَّأْسِمالِيِّينَ الَّذِينَ يَجْمَعُونَ ويَمْنَعُونَ.

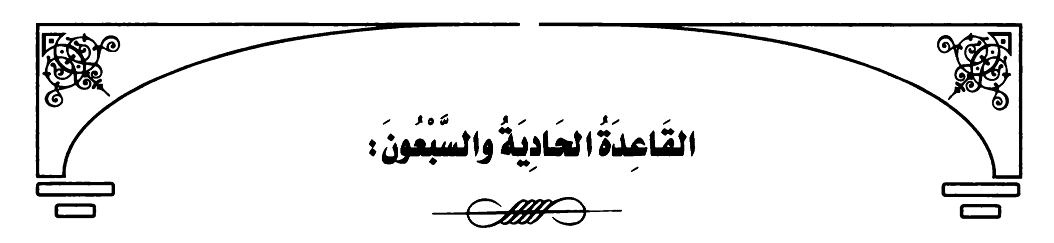
فهَؤُلاءِ وإِنْ أَبْدُوا مِنَ القُوَّةِ المَادِّيَّةِ، والتَّسَلُّطِ عَلَى العِبادِ بالقَهْرِ، والاسْتِعْبادِ، والطَّمَعِ، والجَشَعِ -فإِنَّهُمْ لا ثُبُوتَ لَهُمْ عَلَى مُقاوَمَةِ هَذَا التَّيَّارِ المُزْعِجِ، المُخَرِّبِ، المُدَمِّرِ مَا مَرَّ عَلَيْهِ؛ فَمَا مَعَهُمْ سِلاحٌ يُقاوِمُ سِلاحَهُمْ، ولَا قُوَّةٌ تُجابِهُ قُوَّتَهُمْ؛ لِكَوْنِهِمْ لَمْ يَتَمَسَّكُوا بالقُرْآنِ الَّذِي فِيهِ العِصْمَةُ والقُوَّةُ المَعْنَوِيَّةُ، والصَّلاحُ والإِصْلاحُ،

والعَـدْلُ، ودَفْـعُ الظُّلْمِ، والآدابُ والأخْلَاقُ العَالِيَةُ الَّتِي لَا تُزَعْزِعُهَا عواصِفُ الخَرَابِ؛ بَلْ تَقْذِفُ بالحَقِّ عَلَى الباطِلِ، فَتَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ، فَإِذَا جاءَ هَؤُلاءِ المُفْسِدُونَ بالتَّعْطِيلِ المَحْضِ، والإنْكارِ الصِّرْفِ أَبْدَى القُرْآنُ مِنَ الحُجَجِ والبَرَاهِينِ عَلَى وُجُودِ اللهِ، وعَظَمَتِهِ، وتَوْحِيدِهِ، وصِدْقِهِ وصِدْقِ مَنْ جَاءَ بِهِ مَا تَصَدَّعُ لَهُ الجِبالُ، وتَخْضَعُ لَهُ فُحُولُ الرِّجالِ.

وإذَا تَسَرَّبَ هَؤُلاءِ الأَشْرَارُ بتَوَسُّطِ الأخْلَاقِ الرَّذِيلَةِ، وانْحِلَالِ الآدابِ الجَمِيلَةِ، وَوَجَدُوا مَسْلَكًا فِي هَذَا الطَّرِيقِ يُعِينُهُمْ عَلَى تَنْفِيذِ بَاطِلِهِمْ -جاءَهُمْ هَذَا القُـرْآنُ بالحَثِّ عَلَى الأخْلَاقِ العالِيَةِ، والأعْمالِ الصَّالِحَةِ، والآدابِ الجَمِيلَةِ، الَّتِي لَا تَدَعُ للشَّرِّ عَلَى صَاحِبِهَا سَبِيلًا.

وإذَا صَالُوا بالفَقْرِ والفُقَرَاءِ، ووُجُوبِ المُساوَاةِ، واحْتَجُّوا عَلَى أَرْبَابِ الأمْوَالِ بالاحْتِكَارِ والسَّيْطَرَةِ، واسْتِعْبَادِهِمْ للعِبَادِ، واسْتِبْدَادِهِمْ بالأَمْلَاكِ والأمْوَالِ، ولَمْ يَجِدْ هَؤُلاءِ قُوَّةً عَلَيْهِمْ، ولَيْسَ بِهِمْ طَاقَةٌ بِوَجْهٍ مِنَ الوُجُوهِ -تَصَدَّى هَذَا القُرْآنُ العَظِيمُ بعَدْلِهِ وقِسْطِهِ، وإيجابِهِ الحُقُوقَ المُتَنَوِّعَةَ -الدَّافِعَةِ للحَاجَاتِ كُلِّهَا بَعْدَ قِيَامِهَا بالضَّرُورَاتِ- لِصَدِّهِمْ، ومُقَاوَمَتِهِمْ، وإِبْطَالِ كُلِّ مَا بِهِ يَصُولُونَ ويَجُولُونَ.

ثُمَّ إِذَا بَرَزَ بصَلاحِهِ وإصْلاحِهِ العَظِيمِ، ونِظَامِهِ الحَكِيمِ، وهَدْيِهِ القَوِيمِ، وحَثِّهِ عَلَى سُلُوكِ الصِّرَاطِ المُسْتَقِيمِ، ونُورِهِ السَّاطِعِ، وحُجَجِهِ القَوَاطِعِ -لَمْ يَبْقَ فِي وَجْهِهِ باطِلٌ إِلَّا مَحَقَهُ، ولَا شَرٌّ إِلَّا سَحَقَهُ، ولَا بَقِيَ مَنْ قَصْدُهُ الحَقُّ والصَّوَابُ إِلَّا اخْتَارَهُ واعْتَنَقَهُ، ولَا تَأَمَّلَهُ صاحِبُ عَقْلٍ ورَأْيٍ إِلَّا خَضَعَ لهُ، فهُوَ الحِصْنُ الحَصِينُ مِنْ جَمِيعِ الشُّرُورِ، وَهُوَ القاهِرُ لكُلِّ مَنْ قَاوَمَهُ فِي كُلِّ الأُمُورِ.



القَاعِدَةُ الحَادِيَةُ والسَّبْعُونَ:

فِي اشْتِمَالِ كَثِيرٍ مِنْ أَلْفَاظِ القُرْآنِ عَلَى جَوَامِعِ المَعَانِي

اعْلَمْ أَنَّ مَا مَضَى مِنَ القَوَاعِدِ السَّابِقَةِ هِيَ المَقْصُودُ فِي وَضْعِ هَذَا الكِتَابِ، وَهُوَ بَيَانُ الطُّرُقِ والمَسالِكِ الَّتِي تَرْجِعُ إِلَيْهَا كَثِيرٌ مِنَ الآياتِ، وأَنَّهَا وإِنْ تَنَوَّعَتْ أَلْفَاظُهَا، واخْتَلَفَتْ أَسَالِيبُهَا، فإِنَّهَا تَرْجِعُ إِلَى أَصْلٍ واحِدٍ، وقاعِدَةٍ كُلِّيَّةٍ.

وأَمَّا نَفْسُ أَلْفَاظِ القُرْآنِ الكريمِ، فإِنَّ كَثِيرًا مِنْهَا مِنَ الأَلْفَاظِ الجَوَامِعِ، وَهِيَ مِنْ أَعْظَمِ الأدِلَّةِ عَلَى أَنَّهَا تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ، وعَلَى صِدْقِ مَنْ أُعْطِيَ جوامِعَ الكَلِمِ، واخْتُصِرَ لَهُ الكَلامُ اخْتِصارًا.

ولْنُمَثِّلْ لهذَا النَّوْعِ أَمْثِلَةً، ونَذْكُرْ أُنْمُوذجًا مِنْهُ:

فَمِنْهَا قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت:٤٦] ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦] ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن:٦٠] ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ [الواقعة:١٠] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ الآيَةَ [النحل:٩٠] ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة:٢] ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧] ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧-٨] ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ [المزمل:٢٠] ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات:٦] ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى:٣٨] ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران:١٥٩] ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾ [يونس:٤٤] ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ﴾ الآيَةَ [آل عمران:٣٠] ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء:١٢٨] ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس:٨١] ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [البقرة:٢٠٥] ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا﴾ [الانفطار:١٩] ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن:١٨] ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة:٢٢] ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر:٣] ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦] ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ [هود:٨٨] ﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة:٢٣٧] ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [الأعراف:٨٥] ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [هود:١١٢] ﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [هود:١١٥] ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود:١١٤] ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ۚ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤] ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات:٨٠] ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾ الآياتِ [الرعد:٢١] ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى:٤٠] ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ [النحل:١٢٦] ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة:١٩٤] ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩] ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥] ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ [التوبة:٩١] ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف:١٥٧] ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى:٤٠] ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف:٤٦] ﴿وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ [مريم:٧٦] ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥] ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٨] ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾

[الأحزاب:٤] ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان:٣٣] ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب:٢١] ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر:٧] ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب:٥٣] ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب:٥٨] ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال:٦٠].

فهذِهِ الآياتُ الكَرِيمَةُ ومَا أَشْبَهَهَا، كُلُّ كَلِمَةٍ مِنْهَا قاعِدَةٌ، وأَصْلٌ كَبِيرٌ، تَحْتَوِي عَلَى مَعانٍ كَثِيرَةٍ، وقَدْ تَقَدَّمَ فِي أثناءِ القَوَاعِدِ مِنْهَا شَيْءٌ كَثِيرٌ، وَهِيَ مُتَيَسِّرَةٌ عَلَى حافِظِ القُرْآنِ، المُعْتَنِي بمَعْرِفَةِ مَعانِيهِ، وللهِ الحَمْدُ.

والحَمْدُ للهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ. وقَدْ يَسَّرَ اللهُ مَا مَنَّ عَلَيْنَا بجَمْعِهِ، فجَاءَ -وللهِ الحَمْدُ- عَلَى اخْتِصَارِهِ ووجَازَتِهِ ووُضُوحِهِ كِتَابًا يَسُرُّ النَّاظِرِينَ، ويُعِينُ عَلَى فَهْمِ كَلامِ رَبِّ العَالَمِينَ، ويُبْدِي لأَهْلِ البَصَائِرِ والعِلْمِ مِنَ المَآخِذِ والمَسالِكِ والطُّرُقِ والأُصُولِ النَّافِعَةِ مَا لَا يَجِدُهُ مَجْمُوعًا فِي مَحَلٍّ واحِدٍ، ومَخْبَرُ الكِتَابِ يُغْنِي عَنْ وَصْفِهِ، وأَسْأَلُهُ تَعَالَى أنْ يَجْعَلَهُ خالِصًا لِوَجْهِهِ الكَرِيمِ، مُقَرِّبًا لَدَيْهِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ، وأنْ يَنْفَعَ بِهِ مُؤَلِّفَهُ، وقَارِئَهُ، والنَّاظِرَ فِيهِ، وجَمِيعَ المُسْلِمِينَ بِمَنِّهِ وكَرَمِهِ وجُودِهِ وإِحْسَانِهِ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ، وصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ، وعَلَى آلِهِ وأَصْحَابِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ، وعَلَى التَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

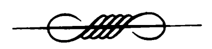
قَالَ ذَلِكَ وَكَتَبَهُ جَامِعُهُ العَبْدُ الفَقِيرُ إِلَى اللهِ فِي كُلِّ أَحْوَالِهِ: عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ نَاصِرِ العَبْدُ اللهِ السَّعْدِيُّ، وقَدْ تَمَّ ذَلِكَ فِي ٦ شَوَّالٍ سَنَةَ ١٣٦٥هـ، والحَمْدُ للهِ أَوَّلًا وآخِرًا، وظاهِرًا وباطِنًا.

التعليق

انْتَهَيْنَا مِنْ دُرُوسِ القِرَاءَةِ فِي كِتَابِ شَيْخِنَا العَلَّامَةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ نَاصِرٍ السَّعْدِيِّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- ونَرْجُو أنْ نَكُونَ قَدِ اسْتَفَدْنَا، والكِتَابُ جَدِيرٌ بالعِنَايَةِ والشَّرْحِ الوَافِي؛ لِمَا فِيهِ مِنْ فَائِدَةٍ كَبِيرَةٍ لِطُلَّابِ العِلْمِ.

والحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ، وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَى عَبْدِهِ ورَسُولِهِ، نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وعَلَى آلِهِ وأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

مُحَمَّدُ بْنُ صَالِحٍ العُثَيْمِينُ



فهرس الأحاديث

الحديث **الصفحة**



فِهْرِس الموضوعات

